

وكشفت وجهها

حياة هدى شعراوى
أول ناشطة نسائية مصرية

ترجمة: نشوى الأزهري

مراجعة وتقديم: طارق النعمان

3262

وكشفت وجهها

حياة هدى شعراوى

أول ناشطة نسائية مصرية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 3262
- وكشفت وجهها: حياة هدى شعراوى- أول ناشطة نسائية مصرية
- سنية شعراوى
- نشوى الأزهرى
- طارق النعمان
- الطبعة الأولى 2019

هذه ترجمة كتاب:
Casting off the veil: The life of Huda Shaarawi,
Egypt's first feminist
By: Sania Sharawi Lanfranchi

Published by arrangement with I.B Tauris & C0 Ltd, London
صدرت هذه الترجمة بالتنسيق مع الناشر "أى بى توريس (لندن). وقد صدر العمل الأصلى باللغة الإنجليزية عنه تحت العنوان المذكور أعلاه

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

وكشفت وجهها

حياة هدى شعراوى

أول ناشطة نسائية مصرية

تأليف : سنية شعراوى

ترجمة : نشوة إيهاب الأزهرى

مراجعة وتقديم : طارق النعمان



2019

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شعراوى ، سنية .
وكشفت وجهها: حياة هدى شعراوى أول ناشطة نسائية مصرية / تأليف: سنية شعراوى؛ ترجمة: نشوة إيهاب الأزهرى ؛ مراجعة وتقديم: طارق النعمان .
القاهرة - المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٩
٤٣٢ ص ؛ ٢٤ سم
١ - المرأة - تراجم .
٢ - شعراوى ، نور الهدى محمد سلطان ، ١٨٧٩ - ١٩٤٧
(أ) الأزهرى ، نشوة إيهاب (مترجم) .
(ب) النعمان، طارق (مراجع ومقدم) .
(ج) العنوان ٩٢٠,٧٢

رقم الإيداع ٢٢٣٣٢ / ٢٠١٨
الترقيم الدولى: 978-977-92-1529-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات



مقدمة المراجع

هدى شعراوى وألعاب التنميط والتأطير
قراءة فى بعض النصوص الحافة

مدخل :

إن النص الحاف **paratext**، كما يشرحه جينيت، يشير إلى تلك العناصر التى تقع على عتبة النص والتى تساعد فى توجيه كيفية استقبال القراء للنص والسيطرة عليه. وتتألف هذه العتبة من نصوص داخلية **a peritext**، تتألف بدورها من عناصر مثل العناوين، وعناوين الفصول، والتمهيدات والملاحظات والتعليقات والحواشي، كما تشمل أيضًا نصوصًا خارجية **an epitext** تتألف من عناصر مثل المقابلات، إعلانات الدعاية، مراجعات وخطابات النقاد للنقاد، الخطابات الخاصة والمناقشات الأخرى للمؤلفين والمحررين ـ أى ما يمثل نصوصًا "خارجية" بالنسبة للنص المتناول، وإن كانت مرتبطة به. وعمومًا فإن النصوص الحافة تشمل النصوص الداخلية والخارجية معًا. كما أن النص الحاف لا يشير فقط إلى عتبة النص بل إنه يشغلها كذلك ـ إنه الفضاء الداخلى والخارجى معًا (أو "الحاف" "**para**") على نحو ما تشير هذه الصفة التى يمكن القول إن لها وضعية بينية أو عتبية تمكنها من الإطلال على الداخل والخارج فى

آن واحد. وهكذا فإن النص الحاف بشكل مفارق يؤطر وفى الوقت ذاته يشكل النص بالنسبة لقرائه (see Graham, 2000: 103).

ووفق هذا الطرح، وبهذا المعنى، فإن نص سنية شعراوى الماثل بين يدى القارئ الآن يمثل نصًا حافًا بالنسبة لمذكرات جدتها هدى شعراوي، مثلما تمثل مذكرات الجدة أيضًا نصًا حافًا لنص الحفيدة. بل إننا نستطيع القول إننا مع هذا النص لسنية شعراوي، إزاء حالة من حالات التناص المبدع والخلاق، حالة خاصة وشبه نادرة، حالة تستكمل فيها حفيدة سردية جدتها التى أملتها منذ ما يقارب ثلاثة أرباع قرن، وتتناص معها بأكثر من كيفية وبأكثر من معنى وبأكثر من طريقة، أو بالأحرى تعيد قراءة سردية الجدة عبر إعادة كتابتها. وإن كان هدفى هنا، بالطبع، لا ينصرف إلى رصد مواضع التناص بالاتفاق والاختلاف ما بين النصين، إذ لا يتسع الحيز المكانى هنا لمثل هذا الرصد، ولعل موضعه مكان آخر أكثر اتساعًا من هذا، نوفيه فيه حقه. وإنما سأكتفى فقط هنا بالتوقف عند بعض النصوص الأخرى الحافة بكلا النصين، مقتصرًا فى هذا السياق على تحفيز القارئ إلى أن يتوجه إلى مذكرات هدى شعراوى مباشرة بعد أن يفرغ من هذا النص، وأن يمد قنواته وجسوره الخاصة ما بين النصين، ليسأل نفسه أو تسأل نفسها، لماذا كتبت الحفيدة هذه الترجمة الذاتية للجدة وقد كتبت أو أملت الجدة بنفسها مذكراتها، وقد نُشرت وظهرت للعلن منذ فترة طويلة سابقة على كتاب الحفيدة لترجمتها تلك؟ وهنا أتصور أنه سيكون لدى القارئ الكثير الذى يمكن أن يكتشفه ويحاوره. وربما اتسع المقام بنا لاحقًا، كما أشرت من قبل، لعقد مثل هذه المقارنة بين النصين. وهى مقارنة شيقة وواعدة وتنطوى بالتأكيد على الكثير سواء على مستوى النوع الأدبى الخاص بكل نص منهما، أو على مستوى اختلاف المواقع ما بين كلتا الكاتبتين، وعلاقة كل واحدة منهما بالزمن، وعلاقات الحضور والغياب ما بين النصين.

ترجمة العنوان وما تنطوى عليه من تأطير:

وفق ما تخبرنا به مارجو بدران نقلاً عن حواء إدريس ابنة خال هدى، فإن هدى شعراوى قد أملت مذكراتها على سكرتيرها الخاص السيد عبد الحميد فهمى قرب نهاية حياتها،(Sharawi 1998:1) . وحيث إنها قد توفيت بتاريخ ١٢ ديسمبر عام ١٩٤٧ ، فقد ظلت هذه المذكرات حبيسة الأدراج، لا ترى النور ولا يراها النور، لما يقارب أربعة عقود، إلى أن نشرتها دار الهلال بتقديم حوارية من حواريات هدى شعراوى العديدات، وهى الكاتبة الصحفية الشهيرة المرحومة أمينة السعيد، فى سبتمبر عام ١٩٨١. وإن كان من الغريب أن أمينة السعيد وتتبعها فى ذلك مارجو بدران تحدد تاريخ وفاة هدى بأنه فى ١٢ أغسطس ١٩٤٧ وليس ١٢ ديسمبر ١٩٤٧، فى حين أن تسلسل الأحداث فى سردية الحفيدة التى بين أيدينا هنا توحى بأن الوفاة كانت يوم ٨ ديسمبر ١٩٤٧ (انظر مقدمة أمينة السعيد لمذكرات هدى شعراوي، صص ٨–٩، وانظر المرجع الانجليزى السابق، وانظر نهاية كتاب سنية شعراوى وكشفت وجهها).

ثم بعد كل هذه السنين وبعد أن ترجمت مارجو بدران أجزاء من هذه المذكرات ونشرتها بعنوان "سنوات الحريم" عام ١٩٨٦ فى نيويورك، ثم نشرتها الجامعة الأمريكية فى القاهرة نشرة أخرى عام ١٩٩٨، إذ بنا نجد حفيدتها سنية شعراوى تقرِّر أن تستأنف وتستكمل سردية الجدة وتنشر علينا هذا النص السردى الرفيع عام ٢٠١٢، باللغة الإنجليزية بعنوان "إسقاط النقاب: حياة هدى شعراوي، نسوية مصر الأولى". وهو العنوان الذى أصرَّت المترجمة، الأستاذة نشوة الأزهري، على تحويره قليلاً وتحويله إلى "وكشفت وجهها". وهو ما كان مثار حوار بينى وبينها كمراجع للترجمة. ولا شك أن لكل منا مبرراته فى الاختيار، وقد ذكرت المترجمة أن المؤلفة (سنية شعراوي) قد

أخبرتها أن الكتاب قد تُرجم إلى الإيطالية بهذا العنوان، وأن المترجمة ذاتها قد قامت بهذاالتحوير من تلقاء نفسها، ودون أن تكون على علم أو دراية بأن هذا العنوان هو ما تُرجم إليه الكتاب فى الإيطالية.

وبعيدًا عن هذا المبرر، فإن اختيار المترجمة ترجمة العنوان بـ "وكشفت وجهها" يبدو، دون شك، أكثر جاذبية وشعرية وانسيابية، من العنوان الأصلى للكتاب "إسقاط النقاب"، وبالطبع فإن لكل عنوان من العناوين تداعياته ودلالاته الحافة المغايرة؛ إذ يبدو اختيار المترجمة لعنوان "وكشفت وجهها" كعتبة نصية، أكثر نعومة بما ينطوى عليه من تحول من الخفاء إلى التجلى خصوصًا فى اقترانه بما أدعوه واو المفاجأة السابقة على الفعل "كشفت" وبتاء التأنيث التى تجعل القارئ يتطلع لرؤية هذا الوجه الأنثوى المنكشف على غير ما توقع، وبالطبع فإن المسافة ما بين هذه النعومة المُضمَّنة فى هذا العنوان "وكشفت وجهها"، والعنف الضمنى الملازم للعنوان الإنجليزى "إسقاط النقاب" ـ بما يحيل عليه الإسقاط من قوة وعنف وإزالة لشيء ظل قائمًا لزمن طويل وظل يخفى حقيقة ما خلفه، على نحو ما تحيلنا عبارات مثل إسقاط حائط برلين، أو إسقاط الأقنعة، إلخ ما تنطوى عليه هذه العبارات الفاضحة لأوضاع مفتعلة وزائفة وغير حقيقية ـ هى جد كبيرة. وبالطبع فإن عنوان "وكشفت وجهها" لا ينطوى على مثل هذه التداعيات والاقترانات التى يحيل عليها الإسقاط، من أن وضعية النقاب هى وضعية زائفة ومفتعلة؛ ومن ثم تستأهل الإسقاط والإزالة، ذلك أن الكشف الذى هو مضاد التغطية لا يحيل ضرورة وحتمًا على ما يحيل عليه الإسقاط من أن هذه التغطية تنطوى على مثل هذا التزييف أو الافتعال؛ أو أنها كانت قسرية، بل إنه قد يوحى أن التغطية ربما كانت إرادية بقدر ما أن الكشف، فى هذه الحالة ولا شك، كان إراديًا. ولذا، فإن "وكشفت وجهها" كعنوان، وكعتبة نصية، رغم كل ما

ينطوى عليه من جاذبية وانسيابية وشعرية ونعومة، لا يجسد فى تقديرى مدى قوة ما ينطوى عليه الفعل الذى اجترحته هدى شعراوى من مباغتة ومفاجأة وصدمة؛ ومن ثم فإن كل خيار من الخيارين يتضمن تأطيرًا مغايرًا للحدث على مستوى التداعيات والإيحاءات.

وفضلاً عن هذا، فإن "إسقاط النقاب" هو العنوان الانجليزى الفعلى للنص الإنجليزي. إلا أنني، مع ذلك، لم أرد أن أصر على وجهة نظرى لئلا يُفهم ذلك على أنه نوع من أنواع الهيمنة الذكورية المقيتة أو التصلب الذكورى المتشنج، أو الرغبة فى فرض الرأي، واستجبتُ لرأى المترجمة، خصوصًا وأننى التمست تبريرًا وتخريجًا بلاغيًا ومجازيًا آخر لهذا الاختيار، وهو أنه من قبيل الإحالة على السبب بالنتيجة، أو إحالة النتيجة على السبب، أى أن كشف الوجه كان النتيجة الطبيعية لسببه الذى هو إسقاط النقاب، وإن كان كشف هدى شعراوى لوجهها قد أدى فى حقيقة الأمر أيضًا إلى إسقاط المرأة المصرية للنقاب داخل الفضاء العام. وإن كنتُ مازلت مقتنعًا أن العنوان الثانى أكثر تمثيلا لقوة الفعل الذى ابتدرته هذه الرائدة العفية الجسورة.

لقد كان لا بد من هذا التنويه للقارئ فى الحقيقة ليدرك أن تحوير العنوان على هذا النحو لم يكن وليد نوع من الغفلة أو الاستخفاف من قبل المترجمة أو المراجع، وإنما هو نتاج رؤية للمترجمة رأى المراجع أنه لا بأس من موافقة المترجمة عليها ما دام بوسعه أن يشير إلى ما بين الخيارين من اختلاف فى التأطير للنص والفعل الذى اجترحته هدى على حد سواء.

هدى ومذكراتها كمادة للتنميط وللتأطير:

مارجو بدران وسنوات الحريم

فى إعادة نشر أخرى لمذكرات هدى شعراوى بتقديم الناقدة النسوية البارزة هدى الصدة عام ٢٠١٣، وهو عام لا يخلو بالتأكيد من دلالة على مستوى خيار إعادة النشر فى ذلك التوقيت بالذات، وما كانت تمر به مصر آنذاك من تهديد بمحو ومحق كل مكتسبات المرأة عبر تاريخها الحديث، نجدها تعقد مقارنة لافتة بين كل من ترجمة مارجو بدران ونص سنية شعراوي، على نحو يشير صراحة إلى أن مارجو بدران كانت تحاول أن تُصدِّر الصورة النمطية عن المرأة الشرقية، بداية من استخدام دال الحريم فى عنوان ترجمتها فى حين أن هذا الدال لم يرد سوى مرة واحدة فى النص العربى للمذكرات، وهو الأمر الذى تذهب إليه مهجة قحف وتتبعها فيه كل من منى بيكر، (انظر بيكر، الترجمة والصراع، ص ١٦١ وما بعدها) وهدى الصدة، (انظر مقدمة الصدة لمذكرات هدى شعراوي، ص ١٢). إلا أن المراجعة الدقيقة لنص مذكرات هدى شعراوى تكشف فى الواقع أن دال الحريم لم يرد مرة واحدة كما تذهب قحف وتجاريها فى هذا كل من منى بيكر وهدى الصدة؛ وأن دال الحريم يرد فى النص أربع مرات، مرتين منها يشير فيها إلى المكان المُخصَّص للحريم فى المنزل أى الحرملك، مرة فى بيت أهل هدى، هكذا: "ولميلى الشديد للغة العربية طلبت من زوج خالتى أن يبحث لى عن شيخ أزهرى طاعن فى السن حتى يُسمَح له بدخول **الحريم** فى منزلنا المحافظ" (شعراوي، مذكرات هدى شعراوي،٢٠١٣، ص ٥٩). ومرة فى بيت الأمة بيت سعد زغلول "وفى حوالى الحادية عشرة كلفتُ سكرتيرى أن يطلب سكرتير سعد باشا الخاص، وذهب ليطلب المقابلة، ثم عاد ليقول: لتتفضل السيدة، فذهبتُ على الفور ... وعندما وصلتُ استقبلنى الخادم على **باب الحريم**، وفتح لي"

(المصدر السابق، ص ٢١٤). ومرة كجزء من عنوان كتاب لحرم حسين رشدى باشا يوجينى لوبرون بعنوان "**حريم** ومسلمات مصر" (انظر المصدر نفسه، ص ٦٧). ومرة أخرى يشير إلى مكان خاص بالنساء فى محل لبيع الملابس " كنت قد حصلت على إذن من والدتى بذلك بعد جهد وإقناع، وكان عليَّ أن أصحب وصيفاتى و"سعيد آغا"؛ لأنه لا يليق بى أن أتوجه بمفردي، وكان عليَّ أن أسدل إزارى على حاجبى وأن ألتف بحيث لا يظهر من شعرى أو ملابسى أى شيء. وعندما دخلنا المحل، دهش الموظفون والمشترون من هذه المظاهر غير المألوفة، وبخاصة عندما رأوا الآغا يحملق بنظراته الحادة فى وجوه الناس وكأنه يحذرهم من النظر إلينا، ثم اندفع نحو أحد مديرى الأقسام يسأله فى لهفة وحدة: ألا يوجد عندكم **محل للحريم**؟" (نفسه، ٦٢، والتشديد فى كل المواضع، هنا ولاحقًا، من عندي).

إن بيكر والصدة توافقان قحف تمامًا فى قراءتها لآفاق التلقى التى حكمت اختيارات بدران من نص مذكرات هدى شعراوي، وعمليات الحذف، والإقصاء، ومواضع التأكيد والتشديد والنبر والإبراز من أجل إنتاج نص يتوافق وآفاق التلقى الغربية.

إذ تنطلق قحف من عمل هانز روبرت ياوس حول أفق التوقعات، وترى فى هذا الصدد أن جماهير الولايات المتحدة من القراء، على الرغم من المقاومات الواعدة التى تتناثر هنا وهناك، يستقون معارفهم عن النساء فى العالم العربى بصورة أساسية عن طريق استخدام الأعراف المنبثقة من تاريخ طويل للصور النمطية الغربية عن الشعوب العربية والدين الإسلامي. وأن هذه الأعراف تتخذ شكلها اليوم فى ثلاث صور نمطية عن المرأة العربية: الصورة الأولى هى صورة أنها **ضحية لظلم النوع**؛ بينما تصوِّرها الثانية بوصفها **فارة أو**

هاربة من ثقافتها الظالمة بالفطرة؛ وأما الصورة الثالثة فتمثلها بوصفها رهينة أو مجرد بيدق فى يد القوة الذكورية العربية the (see Kahaf 1999: 30) pawn of Arab male power. وفى ظل هذا تبرر قحف حذف بدران لحكايات شعراوى عن جدها وحذف عبارات تعبيرها عن عشقها لأبيها بأنه من أجل خدمة صورة الضحية التى تحولت إلى فارة. وذلك لأن صورة رب أسرة عربى لطيف لا لا تناسب ولا تتوافق وتوقعات القراءة فى الولايات المتحدة. إذ إن قصة عن فرار امرأة من ظلم النوع للحريم تتطلب بدلاً من ذلك صورة أقل إشراقًا للرجال العرب الذين كانوا يحيون فى سنوات الحريم. ولو كانت بدران قد ترجمت حرارة نبرة شعراوى نحو أبيها وجدها، فإن جهاز الاستقبال كان سينحرف نحو وسم شعراوى بأنها رهينة الرجال العرب. ولذا؛ فإن الصورة النمطية للرهينة شيء تنحو بدران، بوصفها مدافعة عن شعراوى إزاء توقعات القراءة فى الولايات المتحدة، إلى أن تتجنبه. (see ibid: 34-5) كما ترصد قحف فعل بدران لشيء قريب من هذا فيما يتعلق بعلاقة هدى بأخيها عمر، إذ تركز على بعد غيرة هدى بوصفه البعد الحاكم لعلاقة هدى بأخيها أكثر مما تركز على شدة تعلقها به وحبها له ووثاقة علاقتيهما (see ibid: 35). هذا فضلاً عن النصوص الحافة الخارجية مثل كلمات كل من حنا بابنيك على الغلاف التى تصف هدى شعراوى بأنها "تغير غيرة مريرة من الأخ المفضل عليها" وكيف أن بدران تلاعبت بتشديد هدى على عمق علاقتها بأخيها واختزلت العلاقة فى بعد الغيرة. وهو ما ترتب عليه تأطير بابنيك على غلاف النسخة الورقية. كما تنتقد قحف أيضًا هذا التشديد على الدور الأوربى فى تكوين هدى، وهو ما تختار بدران أن تبرزه أكثر من إبرازها لتأثيرات أخرى فى تكوين هدى مثل تأثير ملك حفنى ناصف مثلا، وهو ما يحدو أيضًا ألبرت حورانى لتأكيد الدلالة ذاتها فى كلمته كذلك؛ حيث يقول فى دعايته على ظهر غلاف الكتاب الإنجليزى "إن سنوات الحريم يكشف كيف

أن امرأة موهوبة وحسَّاسة، تربَّت فى عزلة لكن لديها معرفة بالفرنسية فتحت لها نافذة على الثقافة الأوربية، أصبحت بالتدريج واعية بمأزقها ومأزق جنسها ومجتمعها." وهذا التشديد على الدور الأوربى الذى يصل إلى حد المبالغة تتيحه عملية الاختيار ذاتها وعمليات الحذف المصاحب للاختيار؛ إذ كما ترى قحف؛ فإن "الكثير من الشخصيات العربية، والتركية والأفريقية التى تقطن السرد محذوفة أو مقلصة ومختزلة فى النسخة الإنجليزية (ibid : 36). على سبيل المثال، إن شعراوى تصف ما كانت تفعله أمها فى ليلة النصف من شعبان: "وكذلك كانت تفعل والدتى فى ليلة النصف من شعبان وبعد انتهائنا من إطعام الفقراء كنا نجتمع فى غرفة واسعة، وتأتى "الشيخة جُلسن" لتجلس فى وسط الغرفة وتقرأ علينا دعاء نصف شعبان، ونحن نردِّد بصوت عال، وكان لهذا الدعاء فى نفوسنا رهبة وروعة." (شعراوي، ٢٠١٣: ٤١) كما تترك النسخة الإنجليزية أيضًا قصة فطنات تلك المرأة النكدة المنتمية إلى طبقة أدنى والهاجرة لزوجها والتى تجد لها ملاذًا لدى أم هدى هانم. أما مكائد الدلالات من النساء المنتميات إلى الطبقة الدنيا فإنها لا تمنحها إلا بضعة أسطر فى الوقت الذى قدَّمتها فيه شعراوى فى عدة صفحات. وفى حين تخصِّص شعراوى فى المذكرات صفحة كاملة لابنة عم أمها الشركسية حورية تصفها فيها (انظر شعراوي، ٢٠١٣: ٣٢)؛ فإن هذه المرأة لا تذكر فى سنوات الحريم إلا عرضًا كجزء من جملة (Sharawi 1998: 25). إن هذه المحذوفات تقلص عدد النساء الأهليات اللائى لا يناسبن قالب الضحية واللائى لا توفرن للقارئ نماذج غير أوربية يمكنها أن تستثير خيال القارئ لهدى هانم الشابة. هذا فى الوقت الذى يُحتفظ فيه فى النسخة الإنجليزية بكل ذكر مفرد تقريبًا لمدام ريشار أو مدام رشدي، وهما صديقتان أوربيتان للأسرة.. كما يحدث الشيء ذاته تقريبًا مع بعض الشخصيات الأوربية المستشهد بها. إذ يستخدم نص **سنوات الحريم** باستمرار اسم زوجة رشدى

باشا يوجينى لو برون، وهو ما يعكس أوربيتها أكثر مما يعكس كونها كانت زوجة رئيس وزارء مصر، لأربع مرات، حسين رشدى باشا، فى حين أن هدى لا تدعوها فى المذكرات إلا "حرم رشدى باشا" (see Kahf 1999: 36-7).

وفى حين أن هدى فى مذكراتها، مثلما تورد نماذج على قهر وظلم المرأة العربية تورد أيضًا نماذج على ظلم وقهر المرأة الغربية، بما لا يعطى على الإطلاق مجالاً للانطباع الساذج بأن النساء الأوربيات كلهن متحررات فى مقابل أن جميع النساء العربيات مظلومات؛ إذ مثلما تحكى فى النسخة العربية من المذكرات قصص نساء شرقيات تعانين من ظروف ظالمة، مثل عطية هانم، فإنها تحكى أيضًا حالة امرأة فرنسية يدينها الرأى العام الفرنسى ولا يتعاطف معها أحد على الإطلاق لأنها قتلت رجلاً شهَّر بشرفها الجنسى فى الجرائد، (انظر شعراوي، ٢٠١٣، ص ٩٢)، ومع أن هدى تبدو مصدومة فى النسخة العربية من المذكرات لأنه ما من أحد فى باريس قد بدا متعاطفًا مع هذه المرأة التى كانت، وفق رؤيتها، ضحية استغلال ذكوري؛ نظرًا لحساسية النساء حين يتعلق الأمر بالعفاف الجنسي؛ إلا أن بدران تغفل تمامًا هذه القصة الخاصة بالمرأة الفرنسية من النص الإنجليزي، فى الوقت الذى تورد فيه قصة عطية هانم عن ظلم النساء الشرقيات وتترجمها ترجمة كاملة بوصفها "صورة من الحياة الصعبة للمرأة" (see Kahf: 37) وهو ما يترتب عليه بالتأكيد الإضرار بتمثيل المشهد النسوى على نحو ما تمثله وتجسده النسخة العربية من مذكرات هدى شعراوي.

ولعل أول ما يمكن ملاحظته على قراءة كل من بيكر والصدة، هو اعتمادهما على زعم قحف بأن كلمة الحريم لم ترد فى نص المذكرات العربية سوى مرة واحدة، دون التحقق من النص العربى ذاته. وهو زعم غير صحيح، وهو ما دعانا إلى إيراد النصوص الواردة فيها الكلمة والإحالة على مواضعها وسياقاتها من النص.

وإذا كنا لا نختلف مع قحف، وبيكر والصدة، فى أن نص بدران وما حكمها فى اختياراتها وتشديداتها هو تلبية آفاق التوقع والتلقى الخاصة بالقارئ الغربى المنطلق من الصور النمطية الاستشراقية القارة عبر عصور الهيمنة الاستعمارية والإمبريالية، فإن ما لا بد من طرحه ومراجعته هو أن هذه الصور النمطية لم تنشأ قط من فراغ أو من العدم.

يمكن القول، بالطبع، إن الدوافع التى حدت بمارجو بدران إلى تضخيم دال الحريم فى نصها، إلى هذا الحد الذى يجعلها توردە فى المقدمة وحدها خمسًا وعشرين مرة لا ينفصل بحال عما ينطوى عليه دال الحريم نفسه من إيحاءات وتداعيات، وأنه دال حافلٌ ومشحونٌ ومشبعٌ بالكثيرمن الاستيهامات والتخييلات المُستمَدة والمُستوحاة من ألف ليلة وليلة ومن عوالمها الحافلة بالكثير من الصور والتمثيلات التى تجمع الكثير من النقائض، والمُشبعة فى الوقت ذاته بالإثارة، وكذلك مما صوَّره المستشرقون من لوحات وصور للنساء الشرقيات، وما يُحكى من حكايات عن القصور العثمانية وأجساد النساء، وعوالم الحريم فيها (see Lewis 2004: 142-8).

لكنه يمكن القول، أيضًا، إنه على الرغم من أن بدران كانت تحاول إعادة إنتاج الصور النمطية السائدة عن المرأة العربية والشرقية فى المخيلة الغربية، بداية من العنوان الذى أقل ما يقال عنه إنه يوافق تخييلات الصورة النمطية المقترنة بالمرأة الشرقية؛ ومن ثم فإنه عنوان يمتلك قوته التسويقية الذاتية والخاصة به فى السوق الغربية، وأنها كانت انتقائية واجتزائية إلى حد بعيد فى اختياراتها ومواضع حذفها وتهميشها وتأكيدها وتشديدها لما قامت بترجمته ونشره من مذكرات شعراوى تحت عنوان "سنوات الحريم: مذكرات نسوية مصرية"؛ فإن المشكل فى تقديرى ليس هو ما تحاول مارجو بدران فعله، بغض

النظر عن نواياها ودوافعها، وإنما هو أن مجتمعاتنا ما زالت تحيا فيها فصائل وقطاعات من النساء والرجال فى عصور الحريم، وأن هذه الصورة النمطية ذاتها لم تنشأ من فراغ وأن أية محاولة لإعادة إنتاجها تجد فى واقعنا ما يتيح لها هذه الإمكانية بكل يسر وبساطة.

ومرة أخرى، وبعيدًا عما استهدفته بدران بتشديدها على دال الحريم، أو من خلال ما حذفته أو قلصته أو أبرزته؛ فإن هذا لا ينفى بحال واقع الحريم كظاهرة معمارية واجتماعية فى تلك الحقبة، ولا أدل على هذا من هذا النص الجلى فى دلالته لعفاف لطفى السيد الذى تؤكد فيه دلالة عزل النساء الفضائى والمعمارى لدى الطبقات العليا فى المجتمع المصري:

"بدأت حركة تحرير المرأة بالطبقات الراقية لأنهن كن **الوحيدات المُحجَّبات والمعزولات فى الحريم**، بينما لم تلبس الفلاحة الحجاب قط ولم تكن فى عزلة أبدًا، بل قضت حياتها تعمل جنبًا إلى جنب مع زوجها، أما المرأة الحضرية من الطبقة غير العاملة والتى كانت تقلد شقيقاتها الأكثر ثراء، فقد كن محجبات ويعشن فى عزلة وعندما خرجت الرائدات الاجتماعيات من عزلتهن حذت حذوهن بقية نساء المجتمع بعد زمن من التقاعس ميز الطبقة المتوسطة التى تمسكت بالاحترام والوقار حتى أصبح التغيير أمرًا جديرًا بالاحترام. وجدير بالذكر أنه كان على المرأة أن تواجه اضطهاد بنات جنسها فضلاً عن مواجهتها اضطهاد الرجل، ولذلك ربما استلزم تحريرها فترة من التمهيد أطول لو لم تكشف ثورة ١٩١٩ عن الحاجة إلى قدراتها..."

(السيد، تجربة مصر الليبرالية ١٩٢٢-١٩٣٦، ص ٢٩٥).

وإذا كانت مهجة قحف تنتقد آفاق التلقى التى دفعت بمارجو بدران إلى تضخيم مصطلح الحريم فى ترجمتها الانجليزية لبعض أجزاء من المذكرات، إلى الحد الذى ترى فيه قحف أن هدى لم تكن تعانى فى منزلها، وفق ما يرد فى النسخة العربية من المذكرات، من العزل الذى عادة ما يقترن بالحريم، فإنه يجدر القول إن هذا غير صحيح على الإطلاق؛ بدليل هذا النص الذى سبق الاستشهاد به والذى يرد فيه دال الحريم ليؤكد هذه الدلالة الخاصة بالعزل على أجلى وأوضح ما يكون: "ولميلى الشديد للغة العربية طلبت من زوج خالتى أن يبحث لى عن **شيخ أزهرى طاعن فى السن حتى يُسمَح له بدخول الحريم** فى منزلنا المحافظ" (شعراوي، مذكرات هدى شعراوي، ٢٠١٣، ص ٥٩)، فما الذى يمكن أن نجده أوضح من هذا لتأكيد أن هذا العزل كان حاضرًا داخل بيت هدى، إذ كان لن يسمح لرجل بدخول الحريم إلا إذا كان **طاعنًا فى السن**، مع ما لكل كلمة طاعن من دلالة تكاد تجعله على شفا الموت.

بل لعله يمكننا القول إنه لولا هذا العزل وما ترتب عليه من حرمان هدى من مواصلة تعليمها على النحو الذى كانت تطمح إليه، لما كان وعيها النقدى تجاه الممارسات والسياسات الذكورية الجائرة ضد النوع واستراتيجياته قد تشكل على النحو الذى تشكل به، ولما أصبحت تلك الرائدة النسوية التى عرفها العالم.

هذا فضلاً عن أن الحريم ليس مجرد حيز مكانى داخل الفضاء المعمارى للمنازل والبيوت والقصور، لكنه يتجاوز فضاء المنازل والبيوت والقصور إلى الفضاء العام، وإلى فضاءات أخرى عديدة؛ منها الفضاء الذهنى والثقافى والنفسي، بل إنه فضلاً عن كل هذا يمكن القول إن الحريم قد اسْتُدخل واستقر وأدْمج واسْتُدمج فى الفضاء الجسدى والسيكولوجى والعقلى للنساء أنفسهن، وقبل ذلك ومعه فى الفضاء النفسى والعقلى والثقافى للرجال كذلك؛ ومن ثم فإن الأمر يتجاوز نطاق امرأة بعينها هى هدى إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير.

ولهذا؛ فإنه يمكن القول إن خلع الحجاب بهذا المعنى كان بمثابة تدشين لبداية ثورة حقيقية، هى ثورة النوع على السياسات والاستراتيجيات السائدة تجاه النوع فى كل المجالات والفضاءات الاجتماعية، وهى بهذا المعنى ثورة لا تقل فى قيمتها عن ثورة ١٩١٩ ذاتها، إن لم تفقها، ضد الاحتلال الذكورى للفضاءات الأنثوية على الأصعدة المكانية والثقافية والجسدية والنفسية والروحية، ولعل هذا الإدراك الضمنى للاحتلال الذكورى للفضاءات الأنثوية هو ما حدا بقاسم أمين قبل هذه الثورة بأكثر من عقدين إلى أن يُعنْون كتابه بـ "تحرير المرأة".

ولعلنى لا أغالى إذا ما قلت إن خلع الحجاب قد انعكس تدريجيًا على الفضاء المعمارى ذاته، وأنه قد حذف منه هذه المفردة المعمارية المعروفة بالحريم.

وإذا ما راجعنا دال (الحريم) فى المعاجم سنجد أنه هو ما حُرِّم فلا يُنْتَهك، و الحَرِيمُ: ثوب المُحْرم، والحَريمُ من كلِّ شيء: ما تبعه فحرُم بحرْمَته من مرافق وحقوق وحريمُ البئْر: الموضع المحيطُ بهما والجمع: أحْرام، وحريم الدار: ما أضيف إليْها من حقُوقها ومرافقها، وما دَخل فى الدار مما يُغلق عليه بابُها، وحريم الرَّجُل: ما يقاتل دونه ويحميه، وحريم المسجد: الموضع المحيط به، ومَكانٌ حَريمٌ: مُقَدَّسٌ يَحْرُمُ انْتهاكُه، ودَخلَت النِّساءُ للْحَريم: مَوْضع إقامَة النِّسَاء فى قَصْر المُلُوك وَالأُمَراء. وحرُمَ على يَحرُم، حُرْمًا وحَرامًا وحُرمَةً، فهو حريم، والمفعول محروم عليه وحريم. وحرُمَ الشيءُ: امْتنع وحَرُمَ علَيْه: لَمْ يَحلَّ لَهُ وَمُنعَ منْهُ، وحرُمت المرأةُ على زوجها: مُنع من مسِّها، ومكان حرام: لا يُنْتهك، وهو صفة مشبَّهة بمعنى اسم المفعول تدلّ على الثبوت من حرُمَ على (انظر لسان العرب، والقاموس المحيط، والصحاح، على سبيل المثال فقط).

ووفق هذا، ووفق ما تحيلنا عليه المعاجم على اختلافها من دلالات أخرى، يمكن القول إن المجال الدلالى للحريم فى اقترانه بجذر مادته (حرم) يقترن بالموضوعات المحظورة والممنوعة والمُحرَّمة أى ما يدخل فى نطاق التابوهات، ومن ثم اقترانه بالقداسة، سواء كانت هذه الموضوعات أزمنة، كالأشهر الحرم أو الحرام، أو ممتلكات؛ سواء كانت أشياء أو أماكن أو بشرًا، ومن ضمن هؤلاء البشر أو هذه الممتلكات الحريم: الجنس والمكان.

وبهذا المعنى، فإن دال الحريم مثقل بالتشابكات والتقاطعات الدلالية والاجتماعية، إذ يجمع فى آن واحد بين كونه دالاً على جنس أو نوع وفى الوقت ذاته على الفضاء أو المكان الذى يشغله هذا الجنس أو هذا النوع، والذى لا بد من أن يكون له حدود لا يتم تجاوزها. كما نجد الجذر المُشتق منه الدال يقترن بدلالة دينية واضحة وجلية هى دلالة الحظر والمنع الدينى الذى يقترن بالتحريم ومن ثم بالحرمان بقدر ما يجعله هذا التحريم موضوعًا للقداسة، وهكذا ترادفت المرأة والحُرمة، لتصبح المرأة هى الحُرمة بألف ولام التعريف.

وبهذا المعنى، فإن الحريم فى ازدواج دلالته ما بين الدلالة على جنس بعينه والفضاء المُخصَّص لهذا الجنس أصبح يعمل بوصفه مجازًا مرسلاً يدل فيه المحل أى المكان على الحال فيه أى الإناث والنساء، مثلما يدل الحال أيضًا أى الحريم بالمعنى الأخير، أى معنى الجنس أو النوع، على ضرورة لزوم هذا الجنس أو النوع للمحل، أى للمكان المُخصَّص له، أى لهذا الفضاء المُخصَّص للنساء والإناث بعامة. إلا أنه يمكن القول إن فضاء الحظر والمنع هذا قد تجاوز الفضاء المكانى المُخصَّص للجنس ليصبح هو ذاته قاطنًا داخل النوع أو الجنس ومتحركًا معه وحاكمًا لكل فضاء يحل فيه هذا النوع أو هذا الجنس. ومن ثم فإن طرح قحف فى الحقيقة، وبعيدًا عن ألعاب التصوير النمطى الغربية التى تسعى

إلى تأبيد النمط والتنميط، يختزل المصطلح في بعده المكاني فحسب، دون أن يربط البعد المكاني بما يتولد ويتوالد عنه من أبعاد أخرى، أى أنه لا يتعامل سوى مع الدلالة المكانية للمصطلح داخل فضاء البيت أو المنزل أو القصر دون النظر إلى تداخل وتراكب وتعقيد دلالاته وأبعاده الثقافية المعقدة. ذلك أن الحريم، بهذا المعنى الذى أشير إليه، هو مؤسَّسة من مؤسسات الهيمنة والسيطرة والتحكم والضبط والإخضاع الاجتماعى الذكورى لجسد وحركة المرأة، ولا شك أن الحجاب ليس سوى مفردة من مفردات هذه المؤسَّسة، أعنى مؤسَّسة الضبط هذه بالمعنى الفوكوي، حيث يتحول تخصيص فضاء ولباس بعينه لنوع بعينه إلى وسيلة من وسائل السيطرة على أجساد هذا النوع، وتطويعها للمتطلبات الذكورية المهيمنة (حول الأجساد الطيعة وتطويع الأجساد، بغض النظر عن اختلاف السياق، انظر فوكو المراقبة والمعاقبة، ص ص ١٥٧–١٨١).

وبهذا المعنى، يمكن القول إنه على الرغم من الإقرار بمحاولات مارجو بدران تأطير وتنميط هدى شعراوى في صورة الفارة والهاربة من الثقافة الظالمة، فإن هذا لا ينفى أن هذه الثقافة كانت، وبالتأكيد لا زالت، تمارس أشكالاً عدة من الظلم للمرأة، من خلال تحويلها فى بعض المجتمعات العربية إلى تابوه وإلى أن تصبح موضوعًا محرّمًا، وكأنه مُقدَّس ومُدنَّس فى آن واحد.

إلا أن مخاوفنا من أن يبرِّر إقرارنا ببعض محاولات تنميطنا وقولبتنا فى تنميطات وقوالب أبدية سياسات الغرب تجاهنا لا ينبغى له أن يحجب قدرتنا على رؤية عيوبنا ومثالبنا، وإلا كنا مساهمين مساهمة فعالة فى تحقيق ما تسعى إليه تلك المحاولات الساعية إلى تأبيد صورنا النمطية، بما يخدم السياسات الغربية تجاه العرب وتجاه الشرق بعامة.

لكن بعيدًا عن هذا، دعونا نُكرِّر السؤال مرة أخرى، تُرى ما الذى يدفع حفيدة بعد كل هذه السنين أن تحكى من جديد حكاية جدتها، خصوصًا وقد حكت الجدة حكايتها بنفسها؟ هل فقط لتواجه سردية سنوات الحريم بسرديتها كما تذهب الصدة التى تكشف أن ما كانت تعيشه هدى لا يمكن اختزاله فيما يوحى به هذا العنوان "سنوات الحريم"، ربما يكون هذا جزءًا من الدوافع؛ إلا أن المؤكد أنه لا يمكن قصر الأمر على هذا، وإلا لما كان يعنيها سوى القارئ الغربى ولما كانت هناك حاجة للترجمة العربية، ما دام القارئ الغربى هو وحده القارئ المستهدف.

أعتقد أن الأمر لا يقتصر فقط على مجرد الرد على اختزال مارجو بدران لمذكرات هدى ولشخص هدى؛ خصوصًا أن آخر تاريخ تورده هدى فى مذكراتها هو عام ١٩٣٥، أى إن هناك ما يقارب خمسة عشر عامًا من عمر هدى وحياتها لم تتضمنها المذكرات.

وعلى هذا النحو لا يكون الدافع الوحيد المُحرِّك لكتابة الحفيدة لهذه الترجمة الذاتية، على الرغم من أهميته بالتأكيد، هو فقط مجرد مخاطبة القارئ الغربى الذى أطرت وعلَّبت أو قولبت له بدران هدى شعراوي، لتطابق آفاق انتظاره وتوقعه من خلال هذا العنوان المشحون والملغوم وتكرارها لاستخدام كلمة الحريم فى مقدمة النص الانجليزى وحدها، خمسًا وعشرين مرة بينما لم ترد فى النص العربى الذى يقع فى نشرة دار الهلال فى ٤٥٧ صفحة سوى أربع مرات فحسب، إضافة إلى كل ألعاب التأطير والتنميط التى مارستها من حذف وتأكيد وتهميش وإبراز وتشديد. وهكذا يمكن القول إن الأمر يتجاوز هذا إلى شيء آخر، شيء يرتبط فى عمقه وحقيقته بقصور مذكرات هدى بالعربية عن الوفاء بكل تفاصيل صورتها، ورغبة الحفيدة فى تقديم صورة وافية عن

هذه الرائدة، أول ناشطة نسائية مصرية، وفق ترجمة المترجمة، أو بالأحرى "نسوية مصر الأولى". وفى تقديرى هنا أن هذه الترجمة لهذا الجزء الفرعى من العنوان هى الترجمة الأدق والأوفى بأكثر من معنى؛ حيث لا يدل وصف الأولى هنا على الأسبقية الزمنية، خصوصًا فى ظل أسبقية ملك حفنى ناصف، بقدر ما يدل على أولية من نوع مختلف، أولية ترتبط بحجم وقيمة الدور وتنظيم ونوعية الحركة، أولية تتجاوز مرحلة النداءات والصرخات الفردية، إلى مفهوم العمل المؤسَّسى الجماعى المنتظم.

هدى شعراوى من منظور ليلى أحمد وتنميط وتأطير الخطاب ما بعد الكولونيالي

إذا كانت تلك الصورة التى يتم بها تنميط وتأطير هدى شعراوى ومذكراتها فى نص مارجو بدران، وهى صورة لا تخلو من تمثيل إيجابى لشخص هدى وتمثيل سلبى للثقافة التى تنتمى إليها هدى، فإنه يمكن القول إن لدينا تنميطًا وتأطيرًا نقيضًا لهذا التنميط والتأطير، ومعاكس له تمامًا، وهو التنميط والتأطير الذى تقدمه ليلى أحمد لكل من قاسم أمين وهدى شعراوي.

إذ تقرِّر ليلى أحمد بداية، وعلى نحو ما هو معروف تاريخيًا، أن كتاب قاسم أمين "تحرير المرأة" المنشور عام ١٨٩٩، وهى فترة تغيير اجتماعى ملحوظ، وفوران فكرى شديد الحيوية، قد أثار جدلاً مكثفًا ومستعرًا. (Ahmed 1992: 144). ووفق تقديرها، فإن الغضب والانفعال الذى أثاره عمل أمين لا يصبح ملموسًا حين نعاين الإصلاحات المادية التى كان ينادى بها للنساء، وإنما حين نأتى إلى مطالبته بالإصلاح الرمزى الماثل فى خلع الحجاب (see ibid: 144-5).

ويعود هذا، وفق ما ترى أحمد، إلى أن الخطاب الاستعمارى كان يحاول استخدام ورقة المرأة للحط من شأن البلدان المستعمرة بوصفها بلدانًا دون مستوى التحضر، بدليل احتقارهم للمرأة ومعاملتها هذه المعاملة المُشينة، فى الوقت ذاته الذى كانت تحد فيه السياسات الاستعمارية من إمكانية انتشار التعليم من خلال رفع قيمة مصروفات المدارس بعامة سواء بالنسبة للبنين أو للبنات، وأن هذه الازدواجية قد تجلت أيضًا فى مواقف اللورد كرومر، بوصفه ممثلاً نموذجيًا للخطاب الاستعماري، حيث كان يناهض مطالبة المرأة الإنجليزية بحق التصويت، بل كان عضوًا مؤسِّسًا وأحيانًا أخرى رئيسًا لرابطة الرجال المناهضين لحق تصويت النساء فى الوقت ذاته الذى يدين فيه موقف الإسلام من المرأة (see ibid: 153).

وفى هذا السياق، وعلى نحو غريب وغير مفهوم، ترى أحمد أن خطاب قاسم يأتى كامتداد للخطاب الاستعمارى وخطاب كرومر على وجه الخصوص.

وفى حقيقة الأمر، وفى ظل هذا الاعتساف غير المفهوم؛ فإن خطاب ليلى أحمد عن قاسم أمين (see ibid: 155)، ثم عن هدى شعراوى بحكم تبنيها لأطروحاته، يبدو من قبيل المزايدة على الاثنين وعلى القارئ؛ ذلك أن المطابقة بين خطاب قاسم، وضمنيًا هدى، وخطاب اللورد كرومر والخطاب الاستعمارى بعامة لهى من قبيل المغالطة والتشويه، والاجتزاء الخبيث، والاجتراء المجاني، وإساءة التأويل دون أدنى دليل موضوعى يُبرِّر مثل هذه الاتهامات المجانية الجائرة. إذ إن خطاب كرومر والخطاب الاستعمارى عمومًا يهاجمان الإسلام، بشكل كلى وعام، على نحو ما نجد فى الفصل الرابع والثلاثين من كتاب كرومر مصر الحديثة والذى ينص فيه صراحة على فشل الإسلام كنظام اجتماعى و "أن أول وأهم أسباب فشل الإسلام كنظام اجتماعى

هو أنه "يضع المرأة فى وضع متدن" (اللورد كرومر، مصر الحديثة، المجلد الثانى ص ١٧٢، وانظر ما بعد، خصوصًا ص ص ١٩٦-١٩٧)، فضلاعن وصفه الإسلام بعدم التسامح. بينما نجد أن كلاً من قاسم وهدى كانا يُبرزان ويُشدِّدان على احترام الدين الإسلامى للمرأة، وأن هناك الكثير من العادات الاجتماعية والثقافية المحسوبة على الإسلام دون أن تكون لها علاقة أصلاً بالدين، وإنما تُلصق به زورًا وبهتانًا، والدين منها براء. بل إن قاسم ينص صراحة على أسبقية الإسلام لكل شريعة فى المساواة بين الرجل والمرأة؛ إذ يقول "سبق الشرع الإسلامى كل شريعة سواه فى تقرير مساواة المرأة للرجل؛ فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم، وخوَّلها كل حقوق الإنسان، واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل فى جميع الأحوال المدنيَّة من بيع وشراء وهبة ووصيَّة من غير أن يتوقَّف تصرُّفها على إذن أبيها أو زوجها." (أمين، تحرير المرأة، ص ١٢). ولا يفتأ قاسم يُعدِّد ما منحه الإسلام من حقوق ومزايا للمرأة عطلتها العادات والتقاليد ولا شأن لها بالدين من قريب أو بعيد.

كما أن رد هدى على سلامة موسى فيما يتعلق بمسألة ميراث المرأة ينفى تمامًا القول باغترابها عن ثقافتها وأنها لم تكن سوى مجرد صدى للأصوات الغربية؛ حيث تقول صراحة، "وإن كان لا بد من إبداء رأيى فى هذا الموضوع، فأقول بصفتى الشخصية إنى لست من الموافقين على رأى الأستاذ الخطيب فيما يتعلق بتعديل نصيب المرأة فى الميراث. ولا أظن أن النهضة النسوية فى هذه البلاد لتأثرها بالحركة النسوية بأوروبا يجب أن تتبعها فى كل مظهر من مظاهرها، وذلك لأن لكل بلد تشريعه وتقاليده وليس كل ما يصلح فى بعضها يصلح فى البعض الآخر" (مذكرات هدى شعراوي، ٢٠١٣، ص ٢٦٨).

إذ المؤكد أن شعراوى كانت حريصة ألا يُستخدَم الدين كسلاح ضد المرأة، بل إنها كانت حريصة أن يتحول إلى سلاح لها لا عليها.

ولا شك أن خطاب كل من قاسم وهدى خطاب مغاير كلية وتمامًا لخطاب اللورد كرومر وللخطابات التبشيرية والاستعمارية التى تساوى ليلى أحمد بينها وبين خطابى قاسم وهدى. وكأن أى نقد يُوجِّهه الآخر لنا لا يحق لنا أن نوجِّهه إلى أنفسنا أو نواجه به أنفسنا إن كان فيه ما هو حقيقى وصحيح، بغض النظر عن دوافع هذا الآخر؛ إذ قد تكون دوافعه خبيثة وتهدف إلى تنميطنا فى صورة بعينها أو تأطيرنا وفق سردية معينة لا يريد لنا أن نبرحها أو نتجاوزها. إلا أن هذا لا يعنى أن نمارس الإنكار والرفض لما ينعتنا به، وإلا كنا نحن من نكرِّس الصورة النمطية عن أنفسنا بأنفسنا. بل يفترض أن نواجه أنفسنا بنواقصنا ومثالبنا وأن نسعى لتخطيها وتجاوزها، دون أن يعنى هذا أننا تابعون أو أننا نُردِّد خطاب المُستعمر دون وعي، أو أننا نتماهى معه.

إذ للأسف هناك الكثيرون والكثيرات ممن يُحسبون على أنهم من دعاة التنوير والاستنارة والتقدم، وأنهن وأنهم نسويات ونسويون، وينطلقون من خطاب ما بعد الكولونيالية، ومع ذلك يرتبكن ويرتبكون أمام مثل هذه المزايدات، وفى ظل هذا يدخلوننا فى مقابلات بائسة من قبيل أن باحثة البادية مثلاً أكثر أصالة من قاسم أمين وهدى شعراوي، وما شابه هذا من خطابات أحادية الطابع تكشف عن سطحية عميقة، وعن بعض مما يعانى منه خطاب الحركة النسوية المعاصرة، وهو ما يدفع أيضًا إلى أن نجد من يتعصب لقاسم وهدى على حساب باحثة البادية وينعتها بالرجعية. (انظر إجمالاً لهذا الموقف فى مرفت حاتم ملك حفنى ناصف بين رؤى قديمة وجديدة، ضمن من رائدات القرن العشرين: شخصيات ومواقف، تحرير هدى الصدة، ص ٢٣ وما بعد).

وهنا ينبغى لنا أن نصفى وعينا مع الصور النمطية وألا نخشى من تصفية وعينا معها، وإيجاد وسائل ناجزة وفعالة فى مواجهتها. ذلك أنه فى تقديرى كثيرًا ما يكون للصور النمطية أساس واقعي، أو أنها بالأحرى لا تنشأ دومًا من فراغ أو من عدم. وليس معنى أن الآخر ينمطنا أننا لسنا قابلين للتنميط أو أن الصورة النمطية زائفة مائة بالمائة، وإنما ينبغى أن تتم مواجهة التنميط بطرح نقائضه ودواحضه، وأنه جزء وليس كلًا على نحو ما يحاول التنميط تصويره، وكشف وتوضيح أسبابه؛ لأن خطورة التصوير النمطى تتمثل فى أنه يمارس آلية مجازية شائعة فى التفكير الإنسانى وهى آلية استخدم الجزء للكل، أى مجاز الجزئية للإحالة على الكل، وتصوير وتضخيم الجزء على أنه الكل. بعبارة أخرى، إن التنميط، أو التصوير النمطي، يقترف خطيئة التعميم، وإذا كان التعميم خطيئة لأنه يسحب الجزء على الكل، فإن الإنكار خطيئة أبشع من خطيئة التعميم؛ لأنه لا يتيح إمكانية الرؤية أصلًا، ويصيبنا بالعمى الكامل. ذلك أن زيف التعميم لا يعني، فى مثل هذه الحالات، أن الجزء سليم، وليس معيبًا أو سلبيًا، وإلا فإننا نواجه خطيئة التنميط السلبى للكل انطلاقًا من جزء سلبى بخطيئة أخرى أخطر علينا وهى إنكار أن لدينا ما هو سلبي، والعمى عن الجزء إلى أن يتضخم ويستفحل ليوشك أن يصبح هو الكل: وبدلًا من تحديد حجم السلب ننفى وننكر وندين القائم بالتنميط، وهو ما يُفضى بنا إلى سياسات النعام الماثلة فى دفن الرؤوس فى الرمال، أو سياسة الإنكار التى للأسف نمارسها من منطلقات مختلفة.

ولذا يبدو أن أحكامًا من قبيل أحكام ليلى أحمد من أن النسويات الأوربيات من أمثال يوجين لو برون التى طوت هدى شعراوى تحت جناحها هن من كن يُعرِّفن الشابات المسلمات بمعنى الحجاب وفق الفهم الأوربى له، وبضرورة

الحاجة إلى خلعه كخطوة أولى فى النضال من أجل تحرير المرأة، لا تختلف على الإطلاق عن محاولات مارجو بدران فى إظهار الأثر الأوربى على هدى شعراوى والمبالغة فى تأثيره عليها، مغفلة من خلال استخدام الاسم الأوربي، مثلها فى ذلك مثل مارجو بدران تمامًا، واقعة أن هذه المرأة يوجين لو برون كانت زوجة رئيس وزراء مصر لأربع مرات، ومكتفية بالإشارة إلى أنها كانت زوجة رشدى باشا على هذا النحو الغفل (see Ahmed 1992: 176).

كما يفترض مثل هذا الطرح المتهافت، فى حقيقة الأمر، أن هدى شعراوى هذه المرأة الاستثنائية بكل معنى الكلمة لم تكن سوى ألعوبة فى يد يوجين ومن هم على شاكلتها، بقدر ما تسيء أيضًا لكل من رفضن ويرفضن، حتى يومنا هذا، الحجاب عن اقتناع شخصي، وهن متمسكات فى الوقت ذاته بانتمائهن الإسلامى على كافة المستويات. ولذا فإن مثل هذا الطرح الذى تقدمه ليلى أحمد يبدو طرحًا آليًا وفجًا ومتهافتًا ومُسيئًا للشخصية القومية التى تطرح أحمد نفسها وكأنها هى المدافعة عنها فى مواجهة الخطاب الاستعمارى الذى يجسده أمثال قاسم وهدى.

إن ليلى أحمد لا تستطيع هنا أن تفض الاشتباك بين الأدوات المُستخدَمة على أجندة الخطاب الاستعمارى من أجل الهيمنة على البلدان المُستعمَرة، وما يمثل فعليًا معوِّقات حقيقية لتطور وتحديث هذه البلدان، بغض النظر عما إذا كانت بعض هذه المُعوِّقات من ضمن الأدوات التى يحاول الخطاب الاستعمارى توظيفها فى فرض هيمنته وتبعية تلك البلدان له. إذ لا مشكل على الإطلاق فى إقرار أبناء تلك البلدان ببعض ما ينقده فيها الآخر ما دام لدى أبناء وبنات هذه البلدان استجاباتهم النوعية التى تتيح لهم فض الاشتباك وصنع التخارج ما بين تلك المعوقات ومحاولات توظيف المُستعمر لها، أى إن كلمات الحق التى

يراد بها باطل لا ينبغى أن يعمينا باطلها المستهدف عما تنطوى عليه من حق، إذا ما كانت فعلا تنطوى على ما هو حق. ويكون علينا فى مثل هذه الحالات أن نحول دون تحقق الباطل المستهدف دون أن نبطل أو ننفى ما فيها من حق، لأن الاستجابة العكسية لا تصنع سوى أنها تجعلنا دون وعى منا أداة طيعة لتحقيق ما يستهدفه هذا الآخر من باطل باسم الحق. وهو تحديدًا ما حدث فى حالة المنادين والمناديات بخلع الحجاب، وكيف أن هؤلاء الداعين والداعيات إلى خلعه كانوا فى الطليعة الأولى المناهضة للاستعمار وخطابه، ليس فقط بمجرد القول وإنما قولاً وفعلاً وتنظيمًا.

ولا تكتفى ليلى أحمد بهذا بل إنها تتمادى إلى حد وصف قاسم بالبارنوايا (جنون العظمة) (Ahmed 1992: 158) وتتهمه بأن أفكاره صادرة عن تبنيه للسردية الغربية عن الحجاب (حول تباين المواقف من الحجاب والسفور، انظر السبكي، الحركة النسائية فى مصر، ص ص ١٣٩_ ١٤٤، وانظر أيضا عصفور دفاعًا عن المرأة صص ٨٧– ٩٨)، بل إنها تصل إلى حد أنها لا تستبعد إحدى الشائعات التى كانت ترى أن قاسم أمين قد كتب كتابه بناء على توجيهات مباشرة من كرومر (ibid: 159).

كما نجدها تتفق أيضًا مع محمد عمارة حول أن محمد عبده قد كتب جزءًا من الكتاب (ibid: 161)، وهو ما يجعل اتهاماتها لقاسم تنسحب بالضرورة أيضا على محمد عبده بكل تاريخه النضالى والمناهض للاستعمار. وهكذا يتحول اثنان من أبرز القامات التنويرية لدينا، ومن البناة الحقيقيين لمصر الحديثة، إن لم يكن إلى خائنين فعلى أقل تقدير إلى مُداهنين، وعميلين حضاريين.

ولا يقتصر الأمر على اتهام هذين الرمزين الجليلين بالخيانة؛ بل إنها ترى أن كتاب تحرير المرأة ليس إلا إعادة صياغة للسردية الاستعمارية عن المسلمين،

كما يتعدى الاتهام بالخيانة قاسم ليصبح اتهامًا أيضًا بالخيانة للطبقة الوسطى المنتمى قاسم إلى شريحتها العليا والمتحالفة اقتصاديًا مع المستعمرين والمتبنية لأساليب حياتهم (ibid: 161).

ولا تتوقف ليلى أحمد عند هذا، بل إنها تصل إلى حد وصف قاسم بأنه ابن لكرومر، هذا فضلاً عن اتهامه بالبطريركية وكراهية المرأة (ibid: 162-3).

كما ترى أحمد أن استخدام وتوظيف الاستعمار للنسوية قد وصم النسوية ذاتها بتهمة خدمة أهداف الهيمنة الاستعمارية، وأن هذا قد جعلها موضع ريبة واتهام بأنها حليفة للمصالح الاستعمارية (see ibid: 167)، وهو ما ينسحب فى هذا السياق بشكل واضح على هدى شعراوي، دون أدنى مراعاة لتاريخها السياسى الوطنى الحافل بالنضال بداية من تنظيم المظاهرات ضد الاستعمار والخروج على رأسها، وهو ما تشير هى ذاتها إليه (see Ahmed 1992 : 174)، ومرورًا بعشرات البيانات والبرقيات والمقالات والخطب والكلمات المُندِّدة بالاستعمار داخل وخارج مصر، ورئاستها للجنة الوفد المركزية للنساء، ودورها فى تأسيس بنك مصر (حول دور هدى شعراوى السياسى والوطني، انظر خليفة صص ١٧٥ـ ٢٠٨، وانظر الصدة وأبو غازى مسيرة المرأة المصرية: علامات ومواقف، ص ٨٥ وما بعدها). بل إن وطنيتها كانت تدفعها فى العديد من المواقف إلى مجابهة أكبر القامات السياسية فى البلاد من وزراء ورؤساء وزارات، إلى الحد الذى بلغ بها إلى أن تقف فى مواجهة سعد زغلول زعيم الأمة فى أكثر من موقف وفى أكثر من سياق دفاعًا عن حقوق مصر وتحررها، كموقفها من تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢، وموقفها من صراع سعد مع خصومه السياسيين، وموقفها من فصل السودان عن مصر، وهو ما دفع كاتبًا مثل فكرى أباظة إلى كتابة مقال مطول فى جريدة السياسة فى نوفمبر

١٩٢٤ يُحيِّها فيه على موقفها من قضية فصل السودان عن مصر "سيدتى هدى شعراوى أحييك ثم أهنئك: أما "التحية" فلجمالك الوطني، وجلالك القومي، وأما "التهنئة" فلأن "دولة الرجال"فى عالم الجهاد قد دالت وقامت على أنقاضها "دولة النساء".

كنت خصمًا "للجنس اللطيف" لما كان الجنس اللطيف لا يفكر إلا فى الأزياء الجديدة والألوان العديدة، وأما اليوم وقد تظاهر للسودان قبل أن يتظاهر الرجال، وأما اليوم وقد احتج على بلاغ السودان قبل أن يحتج الرجال، وأما اليوم وقد استأنف الجهاد بعد الفشل، والرجال غرقى فى بحار الفشل ... فقد حق عليَّ أن أعتذر، وقد حق عليَّ أن أستغفر وأن أتوب...." (مذكرات هدى شعراوي، ٢٠١٣، ص ١٩٨).

إن وطنية هدى تتجلى فى عشرات المواقف، ولا أدل على ذلك من هذا الموقف الذى تجابه فيه زوجها بكل حسم وثبات وترفض الإذعان أو الاستجابة لإرادته حين حاول أن يحول بينها وبين نداء الوطن وأن تشارك فى المظاهرة التى نظمتها هى وزميلاتها من النساء والفتيات فى لجنة الوفد المركزية للنساء، ضد الإنجليز إبان ثورة ١٩١٩، إذ تروى لنا الواقعة على هذا النحو: "وبينما كنتُ أتأهب لمغادرة منزلى فى ذلك اليوم للاشتراك فى المظاهرة بادرنى زوجى بالسؤال: "إلى أين تذهبين والرصاص يدوى ويتساقط فى أنحاء المدينة؟ فأجبتُه: "للقيام بالمظاهرة التى قرَّرتها اللجنة" فأراد أن يمنعنى فقلتُ له: "هل الوطنية مقصورة عليكم معشر الرجال فقط وليس للنساء نصيب فيها؟" فأجابني: "هل يرضيك إذا تحرش بكن الانجليز أن يفزع بعض النساء ويولولن يا أمى يا لهوتي!" فقلت له: "إن النساء لسن أقل منكم شجاعة أيها الرجال ولا غيرة قومية. وتركتُه وانصرفتُ، ولحقتُ بالسيدات اللاتى كن فى انتظارى

وغادرنا عرباتنا وشكلنا أول مظاهرة نسائية منظمة." (ذكرى فقيدة العروبة، ص ٧)

وعلى الرغم من كل هذا، والعديد من المواقف والأحداث التى لا يتسع لها المقام هنا، نجد ليلى أحمد بكل هذه البساطة واليسر تشوِّه هدى بكل تاريخها وتشوِّه الحركة النسوية التى لم تولد إلا من رحم الحركة الوطنية على نحو ما يشهد التاريخ الذى تتجاهله أحمد، مكتفية بأن تصم الحركة النسوية بأنها كانت أداة فى يد الاستعمار يستخدمها ويوظفها لمصالحه وسياساته دون أن تنتبه إلى أن خطاب أمثالها من المُخوِّنين والمُخوِّنات هو الذى يصم النسوية بهذه الوصمة، ويشيع عنها هذا الارتباط ويؤطرها هذا التأطير المقيت والمُريب، وبدلاً من أن يضعها فى إطارها التاريخى الحقيقى كحركة فى اتجاه تقدم المرأة والمجتمع والوطن يجعلها لا تعدو أن تكون فصلاً من فصول السردية الاستعمارية.

إن مثل هذا الخطاب التخوينى المجانى المتاجر بالشعارات ـ سواء كان صادرًا عن قوى رجعية وبطريركية لا تريد للمرأة أن تتحرر من السطوة الذكورية، أو عن قوميين يرون فى أى شيء يتصل بالغرب بالضرورة علامة تغريب وتبعية وعمالة، أو عن أكاديميين يرون فى تدريبات ما بعد الكولونيالية كتلك التى تمارسها ليلى أحمد علامة من علامات التحرر والتحرير ـ لا يخدم فى حقيقة الأمر، سواء بوعى أو بغير وعي، سوى سياسات الهيمنة الإمبريالية من خلال هذا الهدم المجانى والرخيص لرموز من أنبل وأرقى الرموز الوطنية فى تاريخنا المعاصر كمحمد عبده وقاسم أمين وهدى شعراوي.

وهكذا لا تفعل بعض ممارسات النظرية ما بعد الكولونيالية للأسف سوى أنها تعيد إنتاج التخلف والتبعية، وإن كان بشكل غير مباشر وباسم سلطة العلم

والنظرية وادعاء الانطلاق من منطلقات مناهضة للكولونيالية. وفضلاً عن هدمها لرموز وطنية حقيقية كقاسم أمين وهدى شعراوى ومحمد عبده، فإن أحمد تتبنى، دون أدنى تردد وبلا أى غضاضة، خطابات أمثال محمد عمارة، ومن على شاكلته، باسم مقاومة الاستعمار ومقاومة الهيمنة الإمبريالية. وفى ظل طرح كهذا، بالطبع، لا يعدو صوت مناضلة مثل شعراوى سوى أن يكون مجرد صوت تغريبى للنسوية فى مقابل صوت ملك حفنى ناصف الصوت الوطنى الأصيل الذى اختطفه الموت مبكرًا ليصبح الصوت التغريبى هو الصوت السائد (see Ahmed 1992: 174-5)، ولنصبح، وفق هذا الطرح، أمام صورة من صور الاستقطاب الحدى الذى لا مبرر له؛ ذلك إنه وإن كانت هناك بالتأكيد اختلافات فى طروح كل من هدى شعراوى وملك حفنى ناصف، فإن هذه الاختلافات لا تستوجب على الإطلاق أن يصبحا طرفى نقيض على هذا النحو، وأن يتم تطويب إحداهما وشيطنة الأخرى، على نحو ما يوحى خطاب ليلى أحمد من وصم إحداهما، أى هدى، بالتبعية للغرب، ونعت الثانية، ملك، بالانتماء إلى الثقافة الوطنية وإلى "خطاب وطنى محلى إسلامي" (ibid: 174)، خصوصًا أننا نجد هدى شديدة الوفاء للباحثة، وتشيد بدور أخيها مجد حفنى ناصف فى استكمال مسيرتها، وتقر وتحتفى بريادتها، فهل لو كانت على هذه الصورة التى تصورها بها ليلى أحمد كانت تستشعر كل هذا التجاوب الذى بينها وبين الباحثة والذى يجعلها تشعر أنها امتداد لها؟ إذ تختتم كلمتها فى إحياء ذكراها بهذه الفقرة البالغة الدلالة على وفائها للباحثة وإقرارها بفضلها رغم ما يمكن أن يكون بينهما من اختلافات حول بعض القضايا، كقضية الحجاب مثلاً: "هذه المطالب التى نرفع بها اليوم صوتنا عاليًا، ونلح فى طلب تحقيقها كانت الشعار الأول لباحثة البادية، وظلت تنادى بها منذ نعومة أظفارها، وقد عاجلتها المنية قبل أن تنعم بتحقيق شيء منها، فماتت فى أول الطريق، وها نحن أولاء اليوم نجاهد على

أثرها، ولنا بعض التعزية إذا متنا لأننا قد كوفئنا بتحقيق بعض الأماني التي حرمت باحثة البادية مشاهدتها، وهذا مصير كثير من المجاهدين الأولين في هذه الحياة يضعون الغرس الطيب ليجني ثماره خلفاؤهم.

فنسأل الله للفقيدة الرحمة، ولنا حسن العزاء وتام التوفيق بفضل تآزرنا ومعاونتكم لنا." (ناصف، النسائيات، ص ٣٢٥).

هكذا ترى هدى الباحثة بوصفها أول من زرع وأنها ومن معها الامتداد الطبيعي لها الذي يرعى غرسها؛ وأن ما يجمعهما أكثر بكثير مما يفرقهما.

وإذا كانت مارجو بدران قد اجتزأت شعراوي في اختياراتها لما تترجمه من مذكراتها، فإن ليلى أحمد تبدو حريصة كل الحرص على تشويه صورة هدى تمامًا، سواء من خلال الاتهامات المُرسَلة بكونها تابعة وممثلة للنسوية الغربية، دون أدنى تقييم حقيقي لكل جهودها في الحركة الوطنية، وجهودها القومية في قضية فلسطين مثلا، والذي يتضح لكل ذي عينين أن المؤتمر الذي عقدته عام ١٩٣٨ كان هو البذرة الأساسية التي تولدت عنها فكرة جامعة الدول العربية، أو إساءة التأويل المتعمدة لأفعالها مثل أن خلعها للحجاب ليس إلا تعبيرًا عن رغبة أو طموح من رغبات أو طموحات الطفولة المحفوزة بتأثرها بصديقتها يوجين لوبرون. (see ibid: 176) مع ملاحظة أن مرجعها في هذا هو سنوات الحريم.

وتبلغ ادعاءات ليلى أحمد ذروتها حين نجدها في ختام حديثها عن هدى تُشدِّد على أن منظور هدى لم يكن فقط متأثرًا بالنساء الغربيات والنسوية الغربية بل إنه منظور تغريبي westernizing وأن هذا الميل التغريبي تكشف عنه التفاصيل الخاصة بسيرتها الذاتية. وهذه التفاصيل التي تشير إليها ليلى أحمد، تتمثل في أنه على العكس من ملك حفني ناصف التي كانت تكتب بالعربية

بفصاحة، لم تكن هدى شعراوى تتقن العربية؛ ولذا فقد أملت مذكراتها على سكرتيرها الخاص (see ibid: 178). وفى الحقيقة إن مثل هذا الادعاء إن كشف عن شيء فإنه يكشف عن الوزن الحقيقى لمعرفة ليلى أحمد بتاريخ هدى شعراوى وبتراثها، هدى شعراوى التى ختمت حفظ القرآن وهى فى التاسعة من عمرها، "كنت فى التاسعة من عمرى عندما ختمت القرآن الشريف، فأرادت والدتى أن تحتفى بهذه المناسبة بإحياء ليلة تتلى فيها آيات الذكر الحكيم تحت إشراف معلمي. ودعت بعض صاحباتها لتناول العشاء وسماع القرآن" (مذكرات هدى شعراوي، ٢٠١٢، ص ٣٦). وهى التي، كما سبق ورأينا، كانت تدرس العربية على يد شيخ أزهري، والتى تكشف البيانات التى كتبتها، والمحاضرات والأحاديث الإذاعية التى ألقتها وشهادات العديد من معاصريها من شعراء وبلغاء وفصحاء وأعلام هذه الأمة على مدى بلاغتها، تتهمها ليلى أحمد بعدم اتقان العربية لكيما تكمل صورة هدى المتفرنجة، المتغربة عن ثقافتها ولغة هذه الثقافة، أى لكى تنمطها تنميطًا مبتذلاً، فى مقابل ملك حفنى ناصف ابنة الثقافة الوطنية؛ والمنتمية للغتها؛ ومن ثم الممتلكة لناصية بيانها، وهى فى حقيقة الأمر مقابلة بائسة وتعسة ورثة ومتهافتة ورخيصة، ومحاولة لافتعال ثنائية ضدية بين رائدتين جليلتين بلا داع، وعلى غير ما أساس.

ولا شك أن تصدير مثل هذه الثنائيات والنمذجات والتقابلات الضدية المفتعلة للخطاب النسوى يشغلنا عما هو أهم من ذلك بكثير. إذ نصبح إزاء إعادة إنتاج ممجوجة لتعارضات ثنائية بائسة من قبيل الأصالة والمعاصرة، والتراث والتجديد، والأنا والآخر، إلى آخر هذه الثنائيات الفاشلة التى فرضناها على أنفسنا وأوقعنا أنفسنا فى حبائلها دون أن نجنى منها نفعًا، وأسقطنا عليها الضدية دون أن تكون بالضرورة متضادة، والتى لا يمكن تجاوزها إلا من خلال

العمل والفعل والإنجاز كما فعلت هدى وكما فعلت ملك حفنى ناصف، وليس من خلال تكريسها عبر إعادة إنتاجها.

قد لا يكون غريبًا وهذا توجهها، أن تغفل ليلى أحمد عشرات الشواهد والنصوص التى تنقض طرحها هذا مادامت غايتها ليست البحث عن الحقيقة وإنما ممارسة تدريب من تدريبات ما بعد الكولونيالية على هذا النحو الاستقطابى المجانى المقيت. ومن ضمن هذه الشواهد والنصوص شهادات قامات وطنية وقومية رفيعة وجليلة، ممن شاركوا فى تأبينها ورثائها. إلا أنه من الطبيعى ألا تلتفت أحمد فى ظل إدعاءاتها تلك مثلا إلى ما كتبه وقاله المساهمون فى رثاء وتأبين هدى عن بلاغتها وفصاحتها، ومنهم من هم فى امتلاكهم لناصية البيان، على سبيل المثال فقط، لا الحصر، شعراء وكتاب، مثل شاعر القطرين مطران خليل مطران الذى من ضمن ما يذكره عنها فى قصيدة رثائه لها، أن بلاغة الفعل لديها لا تقل عن بلاغة الأقوال والخطب، وأن ربوع الضاد كلها قد أصيبت بفقدها من خلال هذه الكناية الدالة عما تمثله هدى لربوع الضاد التى ليست شيئًا آخر سوى ربوع اللغة العربية. والقصيدة ليست إلا مجرد شاهد وعينة ممثلة فقط لعشرات الكلمات والقصائد التى قيلت فى رثاء هدى، ونوردها هنا على طولها ليتبين القارئ كيف كان يرى معاصرو هدى هدى، ولأنها بمثابة ترجمة ذاتية شعرية لهدى من علم من أعلام الشعر العربى الحديث:

مصابُ مصرَ مصابُ العالمِ العربى

هل مدمعٌ فى ربوع الضَّادِ لم يُصبِ

أين الزعيمةُ كانتْ للفدى مثَلا

بالجهدِ والمالِ أو بالنفسِ إنْ يَجبِ

فقد تفردتْ بالأفعالِ باهرةً

كما تفردتْ بالأقوالِ والخطبِ

إن حُزتِ أعلى وسامٍ للكمالِ ففى

كلِ القلوبِ لك العُلْيا من الرتبِ

وفى اتحادِ النساءِ العالمى أمَا

خلا لك الصدرُ عن حبٍّ وعن رغبِ

نفحتِ عن مصرَ فى إبان ثورتِها

ولم يُروِّعْك بأسُ الجحفلِ اللجبِ

وفى جهادِكِ لم تألى مراعيةً

ما للعروبةِ من إصرٍ ومن نسبِ

تُؤيِدين الذين استَبْسلوا فحموا

أوطانَها برماحِ الخطِ والقضبِ

فى كلٍّ مرحلةٍ تابعتِ وثبتَهُم

والعونُ يتبعُ منك العونَ عن كثبِ

وهل فلسطينُ تنسى ما بذلتِ لها

فيما تعانيه من حَرْبٍ ومن حَرَبِ

إلى نهايةِ ما فى الجسمِ من رمقِ

كافحتِ فى جلدٍ عنها وفى دأبِ

غاليتِ فيما تقاضيتِ الحياةَ وما

شكوتِ من سأمٍ يومًا ولا نَصَبِ

وقد أبيتِ إذا داعى السلام دعا

إلا الشهادةَ والأعداءُ لم تَغِبِ

كائنْ جَهدتِ لإنصافِ الشعوبِ

وكم شهدتِ مؤتمرًا فى كلِّ مغتربِ

سلاحُك الحقُ إنْ ألقى أشعتَهُ

هوتْ أباطيلُهُمْ رأسًا على عقبِ

وهلْ سلامٌ إذا لم تنتصفْ أممٌ

أغلى مرافقِها نهبٌ لمنتهبِ

وهلْ يقالُ إخاءٌ والسبيلُ دمٌ

والصدقُ تغشاه ألوانٌ من الكذبِ

أمَّا رسالتُك المثلى فما بَرِحتْ

كما بدأتْ بها موصولةَ السببِ

ماذا صَنْعتِ لإنصافِ النساءِ وكمْ

دفعْتِ عنهُنَّ من كيدٍ ومن ريبِ

هل يسلمُ الشعبُ والشطرُ الولودُ به

من الإماءِ وهل ينجو من العطبِ؟

حرَّرْتَهُنَّ برغم الكاشحينَ ومَنْ

يسعى بعزمكِ لم يُخفقْ ولم يخبِ

وكان خيرُ اتحادٍ ما جمعتِ به

من نابهاتِ الغوانى نُخْبَةَ النجبِ

مؤسساتُك لو عُدَّتْ ولو وصفتْ

لما انتهى عجبٌ إلا إلى عجبِ

آياتُ عصرٍ جديدٍ للرُقى يرى

مستقبلَ الشعبِ فيها كُلُّ مرتقبِ

بها تُعدُّ البناتُ الصالحاتُ له

والأمهاتُ لجيلٍ عاملٍ دربِ

ماذا صنعتِ ولم تخطئْكِ مأثرةٌ

للعلمِ والفنِ والأخلاقِ والأدبِ

ظلَّتْ رحابُكِ دهرًا لا يلمُّ بها

راجٍ على دهرِهِ نصرًا ولم يُجَبِ

وكم أعنتِ صنَّاعًا فى صناعتِه

وكم نشرتِ من الأسفارِ والكتبِ

يؤمُّها بالأمانى العفاةُ، وما

ينأى عن الخيرِ منها كلُّ مقتربِ

زعيمةُ النهضةِ الكُبْرى بلغتِ بها

ما عزَّ قبْلُك أن يُرجى مِن الأربِ

لم تذخرى دونها شيئا يضن به

من طيب عيش ومن جاه ومن نشبِ

فالقى ثوابَك فى الجنَّاتِ ناعمةً

من يقرضِ الله ما أقرضتِه يثبِ

محمد اسْلمْ لقوم من مفاخرهم

إنجابُ مثلك فى الصُّيابةِ النجب

جلَّ الذى أكملَ الأخلاقَ فيك بما

زكا من النسبِ الوضَّاحِ والحسبِ

وأنت يا "بثنُ" دومى وليدُمْ بكما

مجدٌ إلى خيرِ أمٍّ يُعْتَزى وأبِ

صونى اتحادًا تولَّتْهُ هدى فغدا

قطبًا له شأنُه فى نهضةِ العربِ

وما "لمصرَ" وللجارات منْ صلة

تُعزُّها كنظامِ الشمسِ والشُّهبِ

(مطران، الأعمال الشعرية الكاملة، ص ص ٢٧٨ – ٢٨١).

وهى قصيدة تشخص على أجلى ما يكون الصورة السائدة عمن هى هدى شعراوى بأبعادها الوطنية والقومية والإنسانية العالمية على نحو ما يتجلى فى العديد من أبياتها، وعلى الطبيعة الكاريزمية لشخصيتها، وعلى ما كانت تبذله بالمال والنفس، ونضالها الوطنى إبان ثورة ١٩١٩ وفتحها صدرها فى وجه بنادق ومدافع الانجليز غير عابئة بالموت من أجل وطنها، فى إشارة ضمنية إلى مقولتها الشهيرة للجندى الإنجليزى من أنها تريد أن تكون مس كافل أخرى، وأن جهادها جاوز النطاق الوطنى إلى النطاق القومى العربي، على نحو ما يتجلى فى نضالها من أجل القضية الفلسطينية حتى آخر لحظة من عمرها أو على حد تعبيره "إلى نهاية ما فى الجسم من رمق"، ثم مواقفها المناهضة للحرب والداعية إلى السلام العالمي، ودورها فى تأسيس الاتحاد النسائى المصري، ومؤسَّساتها الخيرية المختلفة التى تثير كلها العجب، ليجعلها من بناة المستقبل وبناة مصر الحديثة، فضلاً عن دورها فى رعاية العلوم والفنون والآداب، وابتعاثها البعثات فى هذه المجالات المختلفة، وحفاظها على الأخلاق والقيم من خلال مناهضتها لتراخيص البغاء، وتأهيل أمهات المستقبل فى مؤسَّساتها المختلفة، ومساهمتها فى الصناعة الوطنية من خلال مصنع الخزف. ومع ذلك فإن مطران لم يأت على كل مآثر هدى شعراوي. واللافت أننا نجد مطران فى قصيدته عن سيزا نبراوى أقرب حواريات هدى إلى هدى لا ينفك يعود إلى هدى مرة أخرى وينسب التلميذة إلى الأستاذة أو الابنة إلى أمها الروحية:

بين الصواحبِ لاحتْ فى نظام هدى

فأشهدتْنا نظامَ الشمسِ عن كثبِ

وما هدى حين تجلو عن أشعتها

إلا مُحَيَّـا ذُكاء غيرَ منتقبِ

لها رسالتُها العُلْيا تُنيرُ بهـــا

سُبُلَ الحياةِ وكيفَ النورُ فى الحجب

كما نجد فتحى رضوان، بكل ما له من قامة وطنية وقومية، يقارن بعض أقوالها بأقوال خالد الذكر مصطفى كامل، ويرى أن هدى تلميذته الوفية فى الوطنية. وأن هدى استنشقت من أول أيام ولدت فيها ما يجرى حولها من السياسة سواء فى بيت أبيها أو بيت أخيها أو بيت قرينها (انظر فتحى رضوان، هدى شعراوى تلميذة مصطفى كامل، ضمن هدى شعراوي، الذكرى المئوية ص٢٦). كما يرى أن هدى قد نجحت فى تحويل طروح قاسم أمين النظرية إلى ممارسات مؤسَّسية؛ إذ يرى أن هدى تستلهم عنوان كتاب قاسم المرأة الجديدة و"تشكل فى أبريل عام ١٩١٩ والثورة فى أبان تلهبها واضطرامها جمعية المرأة الجديدة" (المصدر نفسه، ص ٢٧).

ويعلق فتحى رضوان على صرخة هدى فى الجندى الانجليزى الذى أشهر بندقيته فى وجهها بأن يقتلها وإنها تريد أن تكون مس كافل أخرى بأن هذه الصرخة كانت "ذات ثلاث دلالات: كانت صرخة الشجاعة فى وجه الخطر الحقيقي، وكانت صرخة الزعامة فى الميدان لا فى الدار وخلف المكتب إذ كان من وراء هدى شعراوى بضع مئات من السيدات المصريات وكانت صرخة الميلاد .. إذ لم يسبقها عمل يبشر بمولد دور جديد من أدوار حياة المصريين فى انسلاخها من القالب الذى صاغه لها الاستعمار" (نفسه، ص ٢٧). بل إن فتحى رضوان يلتقط بعدًا ربما لم يدركه كثيرون مثلما أدركه هو، وهو أن الهم والشاغل السياسى كان يجاوز الشاغل النسوى وأن الشاغل النسوى لم يكن

إلا مكونًا من مكونات الشاغل السياسي، حيث يرى أن من "يدقق فى تاريخ وسجل أعمال هدى شعراوى يرى عجبًا ... يرى أن الحافز الأول لهدى شعراوى إلى مباشرة العمل العام فى مصر والنهوض بتبعات خلق نهضة فى البلاد هو الحرص على العمل السياسى . فتكوينها فى الدرجة الأولى سياسى وشواغلها هى شواغل السياسى .... الذى يشمل مصر كلها بالاهتمام، لا التى تؤثر المرأة وحدها بالعناية والرعاية." (نفسه، ص ٢٤) إلى الحد الذى يرى معه أنها "كادت تكون زعيمة سياسية، بل حتى أصبحت زعيمة سياسية بحق لولا أن كونها سيدة، وكون زعامتها اقترنت بالجهاد من أجل المرأة، حجب على الناس، خصائص زعامتها السياسية." (نفسه ص ٢٥)

إن بعد الزعامة هذا، أو هذا البعد الكاريزمى المشع والآسر والساحر من شخصية هدى، تعكسه وتجسده كلمة سيزا نبراوى عنها وهى ابنتها الروحية وأقرب حوارياتها إليها، إذ نجدها تُجسِّد هذه الطاقة المُشعة بداية مما تعقده من صلة بين اسمها وتجلى أفعالها؛ إذ تنبئنا أن اسم هدى ليس فقط هدى وإنما نور الهدى، وأن هذا الاسم كان يطابق مُسمَّاه قولاً وفعلا وسلوكا؛ إذ تكتب سيزا بتدفق وحرارة وعشق، وشعور غامر بالفقد والخسارة تحت عنوان نور ينطفئ:

"يا نجمة الحب لا تتوارى عن سمائك.

نور الهدى. النور الذى أرشدنا إلى الطريق الصالح ...

كان هذا الاسم الرمزى هو المُسمَّى الحقيقى للشخصية السامية المُشعة التى اختفت من سماء مصر بعد أن خطت ألمع الخطوط.

اسم هدى شعراوي. هذا الاسم وحده كان جليلاً محترمًا محبوبًا فى الشرق كله وسيظل هذا الاسم إلى الأبد علمًا مرفوعًا يلتف حوله كل من كان مثلها يخدم

المثل العليا: العدالة والمحبة والإخاء. ... "الآلهة إيزيس" هكذا كان يسميها المثال مختار.

ولما كنا نسأله لمَ هذه التسمية؟ كان يجيب: إيزيس أم الدنيا، وهدى أمنا كلنا.

أم لأولادها أولاً، كانت تسهر عليهم ليناموا وتتعب ليستريحوا، تضحى فى سبيل راحتهم وسعادتهم حتى بالحياة إذا لزم الأمر. أم لأولادها الروحيين الذين وجدوا فيها الغذاء العقلى والمواساة الروحية التى هى أهم بكثير من الخبز اليومي.

وثالثًا أم لكل البؤساء والمرضى والمحرومين إلى آخر يوم من حياتها. كانت لهم سماء الدعاء المجاب.

أما من جهتي، فمنذ طفولتى كنت أسيرة تلك الجاذبية التى تشع من شخصيتها .. كانت شابة، شابة جميلة مستحيل أن ينظرها إنسان دون أن يحبها ويعجب بها.

بالغريزة أحببتها. أحببتها إلى درجة العبادة.

وقتئذ لم يكن ما يجذبنى إليها جمالها أو جاذبيتها، ولكن حنانها الذى كان يفيض على كل من حولها. حتى آخر يوم من حياتها.

ذلك القلب الكبير فى المصرية العظيمة كان هو مطلع كل تلك الإشعاعات السخية العميقة التى سطعت فى شتى نواحى حياتنا القومية.

معنويتها القوية فوق العادة هى التى جعلتها مركز الدائرة لمعظم الجمعيات النسوية الكبرى والملهمة الأولى للكثير من حركات قادة الرجال.

هل فكرة اتحاد الأمم العربية إلا وليدة المؤتمر النسوى الذى نظمته للدفاع عن فلسطين فى أكتوبر سنة ١٩٣٨؟

كانت شخصيتها العظيمة المثل الحى للضمير القومي"(ذكرى فقيدة العروبة، ص ص ١٨-١٩).

إنها كما تقول سيزا، وكما كان الغربيون التقدميون ينعتونها، المصرية وكما كانوا يطلقون على بيتها بيت المصرية، ذلك البيت الذى حاولت أن تجعل منه، تصميمًا ومعمارًا وأثاثًا وفرشًا، رمزًا ثقافيًا لتلاقى الشرق والغرب، فى نطاق رؤية إنسانية أرحب لا تعرف الانغلاق ولا الخوف من الآخر، وإنما تتسع للآخر كما تجعل الآخر يتسع لها، دون عقد أو أمراض أو عدم الثقة فى الذات. ولعل هذا الاتساع ذاتها هو ما جعل مختار يرى فيها إيزيس، ويرى فيها أمًا للدنيا.

وعلى الرغم من كل هذا وعشرات الشواهد والنصوص والشخصيات الدالة على مدى وطنية وجهاد هدى بالمال والوقت والجهد والفكر والحب، لا تتورع ليلى أحمد عن إلقاء اتهاماتها الجزافية لتشوه رمزًا من أنبل وأرفع رموز هذا الوطن.

إلا أن المدهش حقًا هو موقف ليلى أحمد من لغة هدى، وأنها لم تكن تمتلك العربية، كشاهد على كونها مستغربة ودخيلة على الثقافة العربية. ووجه الدهشة هو أن أحمد لم تلتفت حتى إلى ما تذكره مارجو بدران فى تمهيدها لسنوات الحريم عن علاقة هدى باللغة العربية؛ إذ تقول بدران هكذا صراحة: إنه "كان لدى هدى ولع خاص باللغة العربية، لسان أبيها، ولغتها القومية" كما تضيف أن استخدامها لها كان يتزايد فى اللقاءات الجماهيرية وأنها كانت تلقى بها خطبها،

هذا على الرغم من اتقانها للفرنسية التى كانت تعد اللغة الاجتماعية لنساء الطبقة العليا

(See Sharawi 1998: 1). كما تعود مرة أخرى فى المقدمة لتفترض أن غرام هدى باللغة العربية ربما كان يعود إلى أبيها الذى كان مولعًا ولعًا شديدًا بالشعر العربى (see ibid: 15).

ثم لو فرضنا جدلاً صحة طرح أحمد، وهو غير صحيح على الإطلاق، هل من الأخلاق الأكاديمية اللائقة مثل هذه المُعايرة بالقدرة اللغوية ليُتخذ منها مدخل للتشكيك فى النوايا والميول والدوافع، ثم ماذا لو طُبِّق هذا المعيار ذاته على ليلى أحمد ذاتها، وقلنا إن هدى إن كانت قد أملت مذكراتها على سكرتيرها بالعربية، فإن ليلى أحمد قد كتبت مذكراتها "ممر جانبي" **A Border Passage** بالإنجليزية فهل يمكن أن يتخذ من هذه الواقعة مطعنًا عليها أو منفذًا للتشكيك فيها، أو يؤخذ على ليلى أحمد مثلاً أن كل كتبها بالإنجليزية وأنها أستاذة فى هارفارد أو على مثقف وطنى وقومى مثل إدوارد سعيد مثلاً أنه لم يكن يكتب بالعربية، مع علمنا أن مسألة إتقان اللغات مسألة بالغة التعقيد وتخضع لظروف وملابسات عديدة، لا يكون الشخص أحيانًا مسئولاً عنها. فهل يعد معيار كهذا معيارًا مناسبًا معرفيًا أو لائقًا أخلاقيًا، ناهينا أصلاً عن عدم مطابقته للوقائع فى حالة هدى. ثم هل الدافع الوحيد للإملاء هو عدم امتلاك اللغة كما تدعى أحمد، أم أنه قد تكون هناك دوافع أخرى لإملائها لمذكراتها لا علاقة لها بالمرة بعدم امتلاك اللغة، كضيق الوقت أو الرغبة فى إلزام نفسها أمام طرف آخر بالمواصلة، أو الإفادة من معاونة سكرتيرها خصوصًا أن المذكرات حافلة بالوثائق التى تتطلب من يجمعها ويرتبها، أو ما سوى ذلك من أسباب أخرى، عدا أن يكون عجزها اللغوي. ألم يكن الأجدى والأجدر أن تقرأ ليلى أحمد منجز هدى وما كُتب

عنها فى زمانها وأن تطلع على شهادات معاصريها عنها قبل أن تخلص إلى مثل هذه المغالطات والاتهامات؛ بدلاً من إشعال الحروب الأهلية داخل ذاكرة النوع، أم أن هذا ثمن لا بد منه من أجل تطبيق بعض مقولات النظرية ما بعد الكولونيالية فى مجال النسوية على حساب الواقع والحقيقة؟

ثم هل من المنطقى أو المقبول أكاديميًا ألا تحيل أحمد سوى مرة واحدة فقط على النص العربى لمذكرات هدى (see Ahmed 1992: 273)، وهى تريد أن تتوصل إلى مثل ما توصلت إليه من استنتاجات، وتعتمد فى مقابل هذا اعتمادًا كليًا على نص مارجو بدران الذى لا يكاد يبلغ فى حجمه ربع النص العربي، وهو بالطبع ما يثير شك القارئ فى أن تكون أحمد قد اطلعت أصلاً على النص العربى فضلا عن أن تكون قد قرأته قراءة مدققة؟

والمؤكد أن الراصد لمسيرة هدى ومنجزها يستطيع أن يكتشف دون أدنى عناء أنها كانت تتحرك بيسر وسلاسة وانسيابية بين الثقافات واللغات المختلفة؛ إذ فضلا عن العديد من المواقف التى تحفل بها المذكرات، تنبئنا أيضا أمينة السعيد تلميذتها، ومعاصرتها، وأول من نشر مذكراتها أنها كانت تتقن ثلاث لغات، وأن بيتها كان "صالونًا أدبيًا وسياسيًا يُهرع إليه فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع أعلام السياسة والأدب والفلسفة والفنون" (مقدمة أمينة السعيد لمذكرات هدى شعراوي، صص٧-٨). إن هذه اللغات الثلاث، فضلاً عن العربية هى الفرنسية والتركية والإنجليزية؛ وقد كانت هدى تجايل وتثاقف أعلام السياسة والأدب والفكر والفن، بداية من مصطفى كامل صديق أخيها عمر، إلى سعد زغلول، وعبد الخالق ثروت، وعدلى يكن، ومحمد حسين هيكل، ومحمد على علوبة، وحسين رشدى باشا، وأحمد لطفى السيد، وطه حسين، والعقاد ومى زيادة، ومحمود مختار، والعشرات سواهم ممن كانوا يترددون على صالونها

الفكرى والأدبى والسياسى ويعاونونها ويقدمون لها المشورة من كبار رجالات السياسة فيما يخص الاتحاد النسائى وحركة المرأة بعامة على نحو ما يتضح من سرد الحفيدة. ومن ثم فقد تنوعت مصادر وموارد هدى السياسية والفكرية والأدبية، وهو ما لا بد من أن يكون قد انعكس، بدوره أيضا، على كفاءتها اللغوية وأدائها اللغوي، إذ إن كل أولئك لم يكونوا يتواصلون بالفرنسية، التى تحاول أحمد أن تجعل هدى أسيرتها وأسيرة ثقافتها.

هذا فضلاً عما نجده لهدى من محاضرات وكلمات ولقاءات إذاعية هى غاية فى الطلاقة والانسياب والتماسك اللغوى والفكري، على نحو ما نجد مثلاً فى محاضرتها عن "دور المرأة فى حركة التطور العالمي" التى ألقتها فى قاعة يورت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩٢٩، وهى غاية فى الرصانة والبلاغة والتماسك والاتساق الأسلوبى والفكري. ولذا يمكننا أن نقول إن هدى كانت تتجول بين اللغات والثقافات دون تعثر ودون أى عقد أو شعور بالنقص، وبوعى شديد باحتياجات أمتها وثقافة هذه الأمة، وبما يمثل إضافة إلى ثقافتها من ثقافة الغرب، دون أن يمثل هذا أى تهديد لثقافتها ولقيم هذه الثقافة، ولذلك فقد أنجزت ما أنجزته لصالح هذه الثقافة ولصالح هذه الأمة، بعيدًا عن مماحكات هواة إشعال الفتن والحروب الأهلية الثقافية فى ذاكرة النوع.

وعلى الرغم من كل هذه الاتهامات بتبعية هدى للغرب واستغرابها، فإن ليلى أحمد تختتم الكتاب بأن "الغرب قد أصبح فى كل مكان وأنه كما يقول عالم النفس الهندى أشيس ناندى بأن الغرب فى البنى والعقول، وأن الأفكار السياسية والتقنيات والأنساق الفكرية الغربية تتغلغل بشكل شامل فى كل المجتمعات. وما من سبيل للخلاص، أو للعودة إلى ماض من النقاء الثقافى غير المشوب. (Ahmed 1992: 236)

إن ما تمارسه أحمد ومن على شاكلتها هو فى حقيقة الأمر ليس سوى مظهر من مظاهر تكريس التخلف وسد آفاق التقدم والتطور باسم الوطنية والقومية والخصوصية، والاستقلال وعدم التبعية، وكأن الإفادة من خبرات الآخرين تعنى بالضرورة عدم الاستقلال، والتبعية، والخضوع لسلطة الآخر. وهو بالطبع منطق مغلوط ومأزوم وعاجز، منطق يعكس عدم الثقة فى الذات، والخوف من الآخر أكثر مما يعنى الاستقلال والقدرة على المواجهة والاختيار. إنه منطق الضعاف غير الواثقين فى أنفسهم وفى سواهم، وهناك مئات الأمثلة ومنها ليلى أحمد ممن يمثلون تجليًا صارخًا لهذا النزوع المُكرِّس للتخلف باسم الوطنية. وبالطبع، والمؤكد أن تكريس التخلف لا يصب فى نطاق خدمة الوطن والنهوض به بأى حال من الأحوال. ولكنها قوة وبلاغة الشعارات وما تمتلكه من مخزونات نفسية وطاقات عاطفية لا شعورية تتحول بدورها إلى عوائق معرفية تعيد إنتاج التبعية ولكن فى نسخها الأكثر انغلاقًا وتخلفًا وانحطاطًا. إلا أن الأخطر فى كل هذا هو أن كل هذا يُمارس باسم العلم وتحت غطاء وعباءة سلطة العلم وسطوة النظرية.

من سردية الجدة إلى سردية الحفيدة

فى ظل ألعاب التأطير والتنميط تلك يمكننا أن ندرك بعض دوافع الحفيدة لاستكمال سردية الجدة، كما يمكننا أن ندرك أيضًا لماذا لم تقم الحفيدة بترجمة مذكرات الجدة كاملة أو حتى باختيار بعض أجزاء هذه المذكرات التى تكشف عما لم تكشف عنه اختيارات بدران مثلا وترجمتها على غرار ما فعلت مارجو بدران. وإذا كان يمكن تفسير هذا بأن المذكرات تتضمن بعض الجوانب التاريخية الخاصة التى لا تعنى القراء النسويين والنسويات فى الغرب، مثل دفاع هدى عن

أبيها مثلاً فى أحداث الثورة العرابية؛ فإن هذا ليس وحده هو مبرر الحفيدة فى إعادة تقديم سردية الجدة، فى تقديري؛ بل يبدو أن ثمة ما يجاوز ذلك، وهو تلك المناطق المسكوت عنها فى سرد الجدة؛ خصوصًا أن المذكرات تتوقف، كما سبقت الإشارة، عند عام ١٩٣٥ أى قبل وفاة هدى باثنتى عشرة سنة.

هذا فضلاً عما يعنيه فعل الكتابة عن شخص يحبه المرء من قيمة تختلف كثيرًا عن فعل الترجمة لنص قائم سلفًا؛ إذ تتحول الكتابة فى هذه الحالة إلى ما يشبه طقسًا من طقوس الحب والتواصل والعطاء، عبر رحلة من البحث والتنقيب والتدقيق والتقصي.

ولعل واحدًا من أبرز المواقف المسكوت عنها فى مذكرات هدى هو موقف خلع الحجاب وملابساته، والغريب أن هدى تصمت تمامًا عن ذكره فى مذكراتها، وكأنها قد اكتفت بالاستجابة التى كتبها ودوَّنها الواقع من خلال ردود فعل النساء عن أن تكتب هى مرة أخرى عنه.

إلا أن إسقاط الحجاب كان، ولا شك، فعلاً رمزيًا احتجاجيًا بامتياز؛ إذ كان يمثل دعوة لإسقاط كل ما يرمز إليه الحجاب من دلالات وقيم، أو بالأحرى دعوة لإسقاط ثقافة بأكملها؛ هى ثقافة الحجاب بكل ما تنطوى عليه من عمى، وجهل، وازدواجية، واستبداد، وخنوع، وخضوع وانصياع، وموات.

لقد كان إيذانًا ببداية حركة نوع بأكمله من الحجاب إلى السفور، ومن الخفاء إلى التجلي، ومن التوارى إلى الظهور، ومن العدم إلى الوجود، ومن الغياب إلى الحضور.

إن هذه الحركة لم تكن على هذا القدر من البساطة، بل إنها كانت تعنى تحديًا لموروث كامل لطبقات من التخلف المتراكم على مر القرون والعصور، تخلف

تراكم وتكدّس، وتجمّد وتكلّس، واتّخذ أشكالًا مادية ملموسة كاليشمك والحبرة وغطاء أو حجاب الوجه الذى لم يكن مستهدفًا به حجب الوجه فقط، وإنما حجب وقمع العقل قبل الوجه.

ولذا فإن قوة ورمزية هذا الفعل كانت بمثابة ثورة بالمعنى الاجتماعى والسياسي، أى على مستوى الإيذان بتغيير سياسات واستراتيجيات النوع. ولاشك أن قدرًا كبيرًا من قوة الفعل قد اسْتُمدت من قوة فاعلته؛ إذ إن صدور الفعل عن امرأة مثل هدى قد أضفى على الفعل من المشروعية والإقناع ما لم يكن سيكتسبه لو أن سيدة أخرى، ليس لديها ما لهدى من مقومات وموارد، هى من قامت بمثل هذه المبادرة، وهو ما يؤكد الأبعاد الكاريزمية للشخصية؛ إذ على حد ما يذهب ماكس فيبر؛ فإن ما يتمتع به الفرد من نعمة شخصية واستثنائية (كاريزما)، هو ما يؤمن الولاء الشخصى والثقة الشخصية بفرد ما، إما بسبب ما أوتى من وحى أو لما يتمتع به من بطولة أو من صفات قيادية أخرى، وهذه هى السطوة "الكاريزمية" كما يمارسها الأنبياء أو يمارسها ـ فى المجال السياسى القائد الذى يُتوَّج أميرًا فى الحرب، أو العاهل المنتخب، أو كبير الساسة، أو زعيم الحزب السياسى (see Weber 2004: 34).

ذلك أن ثمة فارقًا فى التلقى للأفعال ذاتها حين تصدرُ عن أشخاص عاديين، وحين تصدر الأفعال ذاتها عن شخوص يتسمون بالهالة الكاريزمية، والحضور الكاريزمى الآسر، هنا يصبح الفعل ذا حمولة معرفية وبلاغية مختلفة، أو لنقل إن حمولته المعرفية والبلاغية تختلف تمامًا؛ إذ يكتسب طاقة وقوة استثنائية، وكأن الكاريزما قد أضفت عليه جزءًا من سحرها وهالتها. وهنا يمكن أن يتحول الفعل من مجرد فعل فردى (لازم) خاص بفاعلته / أو فاعله ليصبح فعلًا (مُتعدّيًا) ومُعديًا. وهذا جزء من بلاغة الشخصية الكاريزمية والأفعال الصادرة عنها؛ إذ

إنها تستقر فى وجدان المؤمنين بها، ومن هم على حافة الإعجاب بها. ذلك أنه إذا ما نقلنا بعض مفردات التداولية (see Austin 1955: 3-4 and Robinson 2003: 3-6)، ونظرية أفعال الكلام من مجال الكلام إلى مجال الفعل الرمزي، والأفعال الرمزية، فإنه يتم التحول من القوة المتضمنة فى الفعل إلى ما يلزم عنها من عدوى. وهذا ما يمكن القول إنه قد حدث مع تلك الإيماءة الإشهارية الرشيقة التى اجترحتها هدى شعراوى فى لحظة فاصلة أو، إذا ما استعرنا لغة الأنثروبولوجيا، لحظة، هى على المستوى المكانى والزماني، لحظة عتبية وبينية بامتياز؛ إذ تجلى هذا الحدث فى مكانيين عتبيين:

(see Gennep 1960: 10-11 & Thomassen 2014:21-45)

العتبة الأولى هى ميناء الإسكندرية، والعتبة الثانية هى محطة مصر بالقاهرة، إذ كل منهما تمثل عتبة فاصلة بين الذاهبين والقادمين، والزمان هو لحظة عودتها من المؤتمر التاسع للتحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع فى ٢٨ مايو ١٩٢٣، المنعقد فى روما... إنها لحظة فرح وانتصار، لحظة خروج وولادة وعبور بالمعنى الشعائري، ومن ثم يمكن أن تحتمل تمرير مثل هذا الفعل، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بلاغة التوقيت.

وكأن رحلة حضور المؤتمر التى مثلت مصر فيها هدى وسيزا نبراوى ونبوية موسى، وهو أول تمثيل نسائى مصرى فى محفل دولى قد جعل اللحظة تبدو وكأنها أشبه ما تكون بشعيرة من شعائر العبور التى يمر بها البطل فى الملاحم والحكايات والسير، وفق ما يذهب إليه أرنولد فان جينب فى كتابه العمدة شعائر العبور. (see Gennep 1960) وها هو المشهد كما تصوره سنية شعراوي:

" وصلت الباخرة إلى الإسكندرية فى ٢٨ مايو ١٩٢٣. وكان محمود سامي، زوج ابنة هدى قد جاء للترحيب بعودتها. وحينما صعد على الباخرة، تحدثت معه عن خطتها لنزع النقاب حتى تطمئن أن فعلها لن يمثل له فضيحة. وكانت سعادتها غامرة لموافقته على خطتها. وقال لها إنه يعتقد أنه قد آن الأوان لاتخاذ تلك الحركة فى مصر. وأن سمعة هدى التى لا غبار عليها سوف تضفى الشرعية على هذه الحركة. وكانت نبوية موسى قد نظمت تغطية إعلامية لعودة السيدتين لكى تكون حدثًا يحظى بأقصى قدر من الانتشار. وقابلهما مراسل من الأهرام فى الإسكندرية ورافقهما بالقطار إلى القاهرة. وفى محطة القاهرة، نزلتا من القطار مكشوفتى الوجه وواجهتا لحظة من الصمت المذهول، أعقبها قيام كل النساء من دائرتهما، واللائى جئن للاستقبال بنزع نقابهن. كان المشهد رائعًا ووصفه كل من حضره بحماس فى الأيام التالية." (Sharawi 2012: 98)

هكذا تتضح لنا قيمة نص سنية شعراوى ذلك أن مثل هذا المشهد المحورى لا يرد له أى ذكر فى مذكرات هدى شعراوي؛ وكأنها قد تجاوزته واكتفت بما كتبه الواقع عنه؛ إلا أنه بالتأكيد مشهد يستحق السرد والتذكر، وأن يبقى حيًا فى ذاكرة الأجيال؛ إذ يصور التحول من عصر إلى عصر، ومن آفاق وعى إلى آفاق وعى مغاير تمامًا، إنه مشهد يجسد الانتقال من زمن ثقافى ينتمى إلى ما قبل العصور الوسطى إلى زمن ثقافى آخر حديث.

إلا أن الباحث والمتتبع لتراث هدى وأعمالها وأفعالها يكتشف أن هذه الحركة التى كشفت فيها وجهها قد سبقتها حركة أخرى بالغة الدلالة وتكاد تكون تمهيدًا لها لم يلتفت أحد إليها على الإطلاق ولا حتى حفيدتها سنية شعراوى فى سرديتها هذه.

إذ نجد عبد الرحمن الرافعي يورد لنا مشاركة السيدات والآنسات في الثورة يوم الأحد ١٦ مارس سنة ١٩١٩ على هذا النحو:

("خرج المتظاهرات في حشمة ووقار، (دلالة هذه الجملة على الخوف من أن يتبادر إلى الذهن نقيض هذا)، وعددهن يربو على الثلاثمائة من كرام العائلات. وأعددن احتجاجًا مكتوبًا ليقدمنه إلى معتمدي الدول، هذا تعريبه:

"جناب المعتمد:

"يرفع هذا لجنابكم السيدات المصريات أمهات وأخوات وزوجات من ذهبوا ضحية المطامع البريطانية يحتججن على الأعمال الوحشية التي قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة لا لذنب ارتكبته سوى المطالبة بحرية البلاد واستقلالها تطبيقًا للمبادئ التي فاه بها الدكتور ويلسن وقبلتها جميع الدول محاربة كانت أو محايدة.

"نقدم لجنابكم هذا ونرجو أن ترفعوه لدولتكم المبجلة لأنها أخذت على عاتقها تنفيذ المبادئ المذكورة والعمل عليها، ونرجوكم إبلاغها ما رأيتموه وما شاهده رعاياكم المحترمون من أعمال الوحشية وإطلاق الرصاص على الأبناء والأطفال والأولاد والرجال العزل من السلاح لمجرد احتجاجهم بطريق المظاهرات السلمية على منع المصريين من السفر للخارج لعرض قضيتهم على مؤتمر السلام أسوة بباقي الأمم وتنفيذًا للمبادئ التي اتخذت أساسًا للصالح العام، ولأنهم يحتجون أيضًا على اعتقال بعض رجالهم وتسفيرهم إلى جزيرة مالطة.

"لنا الأمل يا جناب المعتمد أن يحل طلبنا هذا نحن السيدات المصريات محل القبول، ولازلتم عونًا لنصرة الحق مؤيدين لمبادئ الحرية والسلام"

سارت السيدات فى صفين منتظمين، وجميعهن يحملن أعلامًا صغيرة، وطفن الشوارع الرئيسية فى موكب كبير، هاتفات بحياة الحرية والاستقلال وسقوط الحماية، فلفت موكبهن أنظار الجماهير، وأذكى فى النفوس روح الحماسة والإعجاب، وقوبلن فى كل مكان بتصفيق الناس وهتافهم، وأخذ النساء من نوافذ المنازل وشرفاتها بالهتاف والزغاريد.

وخرج أكثر أهل القاهرة رجالاً ونساء لمشاهدة هذا الموكب البهيج، الذى لم يسبق له نظير، وأخذوا يرددون هتافاتهن.

ومر المتظاهرات بدور القنصليات ومعتمدى الدول الأجنبية لتقديم الاحتجاج المكتوب، ولكن الجنود الإنجليز لم يدعوا هذا الموكب البرئ يسير فى طريقه، فحينما وصل المتظاهرات إلى شارع سعد زغلول يردن الوصول إلى "بيت الأمة" ضربوا نطاقًا حولهن، ومنعوهن من السير، وسددوا إليهن بنادقهم وحرابهم مهددين، وبقى السيدات هكذا مدة ساعتين تحت وهج الشمس المحرقة، فلم يرهبن هذا التهديد، بل تقدمت واحدة منهن وهى تحمل العلم إلى جندى كان قد وجه بندقيته إليها ومن معها، وقالت له بالإنجليزية "نحن لا نهاب الموت، أطلق بندقيتك إلى صدرى لتجعلوا فى مصر مس كافل ثانية" (هذه السيدة هى هدى شعراوي، المراجع)، ومس كافل هى الممرضة الإنجليزية المشهورة التى أسرها الألمان فى الحرب العظمى الأولى واتهموها بالجاسوسية وأعدموها رميًا بالرصاص، وكان لمقتلها ضجة كبيرة فى العالم، فخجل الجندي، وتنحى للسيدات عن الطريق فكتبن احتجاجًا ثانيًا على هذه المعاملة الغاشمة، ألحقنه باحتجاجهن الأول، وقدمنه إلى معتمدى الدول وهذا نصه:

"قرَّر السيدات المصريات بالأمس القيام بمظاهرة سلمية والمرور على دور السفراء لتقديم الاحتجاج الكتابى المرفق بهذا والذى نتشرف برفعه لجنابكم

الآن وعندما اجتمعن بشارع سعد زغلول باشا حاصرتهن قوة مسلحة من العساكر البريطانية ووجهت لهن السلاح حتى لا يتحركن لا إلى الأمام ولا إلى اخلف، وبقى السيدات هكذا مدة ساعتين تحت نار الشمس المحرقة.

"هذا ما رآه المحتلون من معاملة السيدات، وهو بمفرده وبغير تعليق دال على استمرار الإنكليز فى استعمال القوة الغاشمة حتى مع السيدات لإخماد أنفاس هذه الحركة العامة التى لم يكن أساسها أى عداء لضيوفنا الأجانب، لأنها موجَّهة فقط ضد أعمال الاستبداد والقوة التى يقابل الإنكليز بها مطالب الأمة الحقة الشرعية.

"لهذا يا جناب المعتمد نضم هذا الاحتجاج الثانى لاحتجاجنا الأول ونرجو إبلاغه لدولتكم الموقرة التى أخذت عاتقها نصرة مبادئ العدالة والحرية، وتفضلوا بقبول احترامنا".

ووقع على هذا الاحتجاج السيدات والآنسات الآتية أسماؤهن:

حرم حسين رشدى باشا، حرم سعد زغلول باشا، هدى شعراوى حرم على شعراوى باشا. حرم محمود رياض باشا حرم محمد سعيد باشا، حرم اسماعيل صدقى باشا. حرم عمر سلطان باشا. ....

(الرافعى ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومى من ١٩١٤ إلى ١٩٢١، صص ٢١٠- ٢١٢) لقد كان خطاب شعراوى النسوى مغزولا فى نسيج الخطاب السياسى والاجتماعى للبلاد، بمعنى أن الدعوة لتحرير المرأة لم تكن منفصلة عن الدعوة لتحرير البلاد من الاحتلال، وتحول المرأة إلى قوة فاعلة فى عملية التحرير، ومن ثم؛ فلعلها ليست صدفة أن كانت أول مبادرة لحركة المرأة مغزولة فى نسيج الفعل السياسى والمشاركة السياسية فى ثورة ١٩١٩.

وقد اقترنت بهذا الفعل وبهذه المشاركة فى الأحداث السياسية للثورة أول إيماءة مجازية لرفع هدى شعراوى للحجاب، وذلك فى التصريح باسمها مباشرة قبل عبارة حرم فلان على الاحتجاج المقدَّم لمعتمدى الدول الأجنبية، إذ من بين ١٠٣ سيدة وآنسة (٨١ سيدة، و٢٢ آنسة) من الموقعات لا توجد من تصرِّح باسمها سوى هدى شعراوى وحدها، التى يأتى اسمها ثالث اسم بعد كل من حرم حسين رشدى باشا وحرم سعد زغلول باشا، هكذا (هدى شعراوى حرم على شعراوى باشا). فى حين أن باقى النساء والآنسات لا يصرحن بأسمائهن، ويكتفين فقط إما بعبارة حرم فلان باشا أو بك أو الآنسة كريمة فلان باشا أو بك (انظر الرافعي، المصدر السابق، ص ص ٢١٠-٢١٣). أى أن التوقيع كان باسم الزوج أو الأب، وهو ما يكشف تجلى النمط البطريركى فى التواصل حتى مع ممثلى الدول الأجنبية وسفرائهم. بل حتى زوجة أخيها عمر سلطان لا تذكر هى الأخرى اسمها وتكتفى بالصيغة السائدة "حرم عمر سلطان باشا". وهو ما يعنى أن البطريركية والقيم الذكورية كانت مستدمجة داخل الوعى النسائى ذاته، بعيدًا عن الرجال أنفسهم فعمر سلطان مثلاً كان رجلا منفتحًا كما أنه كان متوفى آنذاك حيث توفى فى ١٨ فبراير ١٩١٧، ومع ذلك فإنها لا تكشف اسمها وتكتفى بأن تحجبه باسم الزوج المتوفى.

ولا شك أن كشف الاسم الأنثوى هنا كان يمثل إرهاصًا وتجليًا من تجليات خلع الحجاب وكشف الوجه الأنثوي، ذلك أن حجب الاسم من خلال عبارة حرم فلان الإلحاقية لا تقل فى دلالتها الرمزية والمجازية عن كونها غطاءً وحجابًا، كاليشمك والحبرة والخمار والنقاب، يُخفى النظير اللغوى للتعرف على الهوية الذاتية للمتكلمة أو المُخاطَبة من خلال حجب الذات وإلحاقها وتغطيتها بالآخر الذكوري، بينما هنا ومع هدى نجد اسمها مُصرَّحًا به جنبًا إلى جنب مع اسم

زوجها ضمن علاقة انتساب وليس علاقة تبعية وإلحاق تبدو فيها بوصفها ملكية مطلقة للزوج من خلال عبارة حرم فلان دون أدنى ذكر لهوية ذاتية خاصة بها، حيث ينسخ هذا الفلان حرمه ويلغيها تمامًا، وكأن اسم المرأة لاستخدام المالكين لها فقط.

وبالطبع، فقد كان كشف الاسم هنا يمثل فعلاً من أفعال التوقيع والإحالة الذاتية على الذات، وليس على آخر تُلحَق به وتتبعه هذه الذات. لقد كان يعنى نوعًا من الاستقلالية على مستوى الهوية الذاتية، كما كان يعنى بداية تحول فى رؤية المرأة المصرية لذاتها وللعالم من حولها، وبداية بناء لهوية جديدة. هنا لم تتحول هدى إلى مجرد ترس من تروس آلة اللغة السائدة وإنما أوقفت آلة اللغة واستبدلت بترس من تروسها ترسًا آخر، أخذت تخرج مع حركته الذات الأنثوية من العماء إلى التجلي، ومن الغياب إلى الحضور، ومن العدم إلى الوجود، ومن الصمت والسكوت إلى النطق والكلام. ولذا فإن هذا الفعل اللغوى فى الحقيقة كان يمثل بداية خلخلة للغة ولعلاقات القوة بين النوعين على مستوى اللغة، ذلك أن توقيع هدى باسمها أو بأنها حرم على شعراوى وحسب يعنى كيفيتين مختلفتين تمامًا فى رؤيتها لذاتها؛ ومن ثم فقد كان التوقيع باسم الأنثى هكذا بداية قطيعة ثقافية مع ممارسة ظلت سائدة لزمن طويل، وهى ممارسة مازلت رواسبها حاضرة فى بعض مجتمعاتنا حتى اليوم؛ حيث مازال التصريح باسم الأنثى وكشفه، فى بعض الأوساط العربية، مثار حساسية وتوتر وغضب، وكأنه كشف وتعرية لجزء من جسد الأنثى، أى وكأنه عورة يجب إخفاؤها وحجبها باسم الذكر كبُر أم صغُر. وهو ما يتجلى فى بعض عبارات الحديث عن الزوجة أو النداء عليها ومخاطبتها بعبارات مثل الجماعة، والأولاد، أو مناداة الزوجة باسم الابن، أو يا أم فلان (اسم الابن) الى آخر هذه الممارسات التى نشهدها فى

بعض الأوساط فى مصر، وفى سواها من الأوساط العربية، وكأن اسم الأنثى (سوأة) ينبغى تغطيتها وحجبها وإخفاؤها، جزء من الفضاء الحريمى الذى لا ينبغى له أن يُكشف للعلن أو أن يتم الولوج إليه، ولعله من هنا أتت تلك العادة القديمة الخاصة بتكنية الإناث بأم فلان حتى قبل الزواج والإنجاب. ولذا، فإن تصريح شعراوى وحدها باسمها كان هو الآخر نوعًا من أنواع الخروج من الفضاء الثقافى للحريم.وهكذا يمكن القول إن كشفها لاسمها لم يكن إلا مقدمة وخطوة وإرهاصة أفضت بها لاحقًا إلى أن تكشف وجهها.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

ابن منظور (محمد بن مكرم): لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٨.

الجوهرى (اسماعيل بن حماد): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠.

إدريس (حواء): مذكرات حواء إدريس، تقديم هدى الصدة، مؤسسة المرأة والذاكرة، القاهرة، ٢٠١٦.

ذكرى فقيدة العروبة حضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي: مجموعة الخطب والقصائد التى ألقيت فى حفلة تأبينها بدار الاتحاد النسائى المصرى مساء يوم الجمعة ٣٠ يناير ١٩٤٨.

شعراوى (هدى): مذكرات رائدة المرأة العربية هدى شعراوي، در الهلال، كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٨١.

ـــ (هدى): مذكرات هدى شعراوي، تقديم هدى الصدة، ط١ دار التنوير، بيروت - القاهرة - تونس، ٢٠١٣.

ـــ (هدى): دور المرأة فى حركة التطور العالمي، محاضرة ألقتها فى قاعة يورت التذكارية بدار الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى يوم الثلاثاء ١٢ نوفمبر ١٩٢٩، مفرغة ومودعة بمكتبة مؤسسة المرأة والذاكرة.

الفيروزآبادى (محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٥.

قاسم (أمين): تحرير المرأة، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢.

ناصف (ملك حفني): النسائيات: مجموعة مقالات نشرت فى الجريدة فى موضوع المرأة المصرية، دراسة تقديمية منى أحمد أبو زيد، دار الكتاب المصرى اللبناني، القاهرة - بيروت، ٢٠١٥).

هدى شعراوى الذكرى المئوية ١٨٧٩ / ١٩٧٩. كتيب بدون تاريخ، ضمن مقتنيات مكتبة مؤسسة المرأة والذاكرة.

مطران (خليل): الأعمال الشعرية الكاملة، جمع وترتيب ومراجعة وتقديم: أحمد درويش، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠١٠.

ثانيًا المراجع العربية:

حاتم (مرفت): ملك حفنى ناصف بين رؤى قديمة وجديدة، فى رائدات القرن العشرين: شخصيات وقضايا، تحرير هدى الصدة، مؤسسة المرأة والذاكرة، ط٢، القاهرة، ٢٠١٦.

خليفة (إجلال): قصة المرأة العربية على أرض مصر، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.

الرافعى (عبد الرحمن): ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.

السبكى (آمال): الحركة النسائية فى مصر ما بين الثورتين ١٩١٩ و١٩٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

السيد (عفاف) لطفي: تجربة مصر الليبرالية ١٩٢٢-١٩٣٦، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١.

الصدة (هدى)، أبوغازى (عماد): مسيرة المرأة المصرية: علامات ومواقف، الجزء الأول، مراجعة وتقديم: جابر عصفور، المجلس القومى للمرأة، القاهرة، ٢٠٠١.

عصفور (جابر): دفاعًا عن المرأة، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.

ثالثًا المراجع المترجمة:

بيكر (منى) الترجمة والصراع، ترجمة وتقديم طارق النعمان، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١٨.

كرومر (اللورد): مصر الحديثة، ترجمة: صبرى محمد حسن، مراجعة وتقديم: أحمد زكريا الشلق، المجلد الثاني، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١٥.

فوكو (ميشيل) المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ترجمة على مقلد، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.

رابعًا: المراجع الأجنبية

Ahmed, Leila (1992) Women and Gender in Islam, New Haven and London: Yale University Press.

Austin, J.L. (1995) How to Do Things with Words. Edited by J.O. Urmson and Marina Sbisa, Cambridge: Harvard University Press.

Gennep, Arnold van (1960) The Rites of Passage. Translated by Monika B. Vizedom and Gabrielle L. Caffee. London and New York: Routledge and Kegan Paul.

Graham, Allen (2000) Intertextuality, London and New York: Routledge.

Lewis, Reina (2004) Rethinking Orientalism: Women, Travel and the Ottoman Harem, (London, I.B. Tauris).

Robinson, Douglas (2003) Performative linguistics: speaking and translating as doing things with words, London and New York: Routledge.

Shaarawi, Huda (1986) Harem Years: The Memoirs of an Egyptian Feminist. Ed. and translated by Margot Badran. London: Virago.

Shaarawi, Sania Lanfranchi (2012) Casting Off the Veil: The Life of Huda Shaarawi. Egypt"s First Feminist. London: I.B. Tauris.

Thomassen, Bjorn, (2014) Liminality and the Modern Living Through the In-Between, Farnham and Burlington: Ashgate Publishing Limited.

Kahf, Mohja (2000) Packaging "Huda": Sharawi"s Memoirs in the United States Reception Environment, in Amal Amireh and Lisa Suhair

Maja, ed. Going Global: The Transnational Reception of Third World Women Writers, New York, Garland.

Turner, V. (1991) The Ritual Process: Structure and Anti-Structure, New York: Cornell University.

Weber, Max (2004) David S. Owen, and Tracy B. Strong. The vocation lectures. Hackett Publishing.



إلـــى شقيـقتـــى مـــلك



شكر وتقدير

قال الكاتب الأفريقى الغربى العظيم أمادو هامباتى با إنه حينما يموت رجل عجوز فكأنما قد أُضرمت النار فى مكتبة برمتها. إن التاريخ الشفهى لا يقل حيوية عن التاريخ المكتوب فى تشكيل الخبرة البشرية. ولذا أود الإعراب عن شكرى وعرفانى للراحلات سيزا نبراوى وحواء إدريس وحورية إدريس- شفيق وزوجها حسن شفيق، وشريفة لطفى محرز، وإيفا حبيب المصري، ودرية شفيق، وسوزا خلوصي، وجاذبية سعد الدين، وفتحية عبد الرازق، ولأمى منيرة عاصم، على استعدادهن للكلام إلى بكل صراحة عن حيواتهن وخبراتهن منذ أن كنت فى بداية مراهقتي. لقد انضافت ذكرياتهن إلى ما عثرت عليه من اكتشافات فى دار جدتي. كما أود أيضًا أن أتوجه بالشكر للراحلات جابرييل روسو-فهمى وچان ماركيز ومارى كحيل وكل السيدات اللائى كن يأتين إلى المنزل بانتظام ويجلسن مع العائلة بعد رحيل هدى شعراوى بوقت طويل، على كافة الحكاوى التى سردنها لي. وترتد بى الذاكرة أيضًا إلى ليدى مارچرى كوربيت-آشبى وحفيدتها شارلوت بعفويتها المذهلة، حيث أمضيت معهما بعض الوقت لدى حضورهما إلى القاهرة. وقد استضافتنى ليدى مارچرى بعد ذلك بفترة طويلة فى هورستد كينز، حيث تحدثنا لساعات طويلة عن جدتى وشرُفت بقولها لى بأنها "تود أن تعتبر نفسها جدتى الإنجليزية". كذلك أود أيضًا أن أشكر د. چون ڤون بي رودينبك ود. عفاف لطفى السيد مارسو لنصائحهما الثمينة الخاصة

بالمخطوط، وكذلك د. ملك بدراوى التى أشارت عليّ ببعض المراجع القيمة، ود. عايدة فراج جراف على ما قدمته من إضافة قيمة إلى مصادري. والشكر واجب أيضًا لماريا مارش التى تابعت هذا الكتاب فى مختلف مراحله. مثلما أتوجه بشكر خاص جدًا لجريتشن لادش وروبرت هاستنجز لإسهامهما فى التدقيق ولتحويلهما كتاب فى التاريخ إلى عمل فني. وأريد أن أشكر كذلك د. مارجوت بدران لترجمتها البديعة لمذكرات هدى شعراوي، التى طلبت جدتى من سكرتيرها المخْلص عبد الحميد فهمى مرسى أن يكتبها لها. وبخلاف ذلك، أظهرت د. بدران فى أعمالها الأخرى ولعًا شديدًا بتاريخ الناشطات النسويات المصريات والعربيات، وهى تستحق كل ثناء على إنجاز المهمة الشاقة فى الكتابة بشكل موسَّع عن الموضوع. وأخيرًا وليس آخرًا، أود أن أشكر كل شقيقاتى وأشقائى لمشاركتى ذكرياتهم وكذا أبنائى لمساندتهم الدائمة واهتمامهم الحماسى بتاريخ عائلتي.

- ١ -

طفولة فى بيت محافظ

ولدت هدى شعراوى فى الثالث والعشرين من يونيو ١٨٧٩. وقد سُميَت عند مولدها نور الهدى سلطان. وكان والدها محمد سلطان باشا، الذى كان فى الخامسة والخمسين عند قدوم ابنته إلى الدنيا، رجلا ذا نفوذ كبير فى المجتمع المصرى والحياة السياسية. وهو مصرى من المنيا، بصعيد مصر، حيث أملاكه الشاسعة، كان شديد الثراء ويحظى بتبجيل كبير. وحسب عادتهم فى إطلاق الألقاب على الشخصيات البارزة، فقد اختصه المصريون بلقب "ملك" الصعيد. وقد ذكر ويلفريد بلانت، الإنجليزى المقيم فى البلاد والذى يعرف مصر جيدًا ويتعاطف مع القضية الوطنية المصرية، أن سلطان باشا "كان رجلًا معتدًا بنفسه وصاحب ثروة هائلة وشأن عظيم، وكان له المقام الأول حيثما حلّ."[١] أما إقبال، والدة هدى، فقد كانت فى المقابل شركسية الأصل، ابنة لعائلة من قبيلة الشاپسيغ بداغستان. وقد كانت أصولها العائلية ملتبسة وتحيطها الرومانسية. وكانت على مشارف العشرين عند مولد هدى. أما عمر، شقيق هدى، فقد وُلد بعد عامين من ذلك، فى ١٨٨١.

لقد كانت قصة إقبال ذاتها قصة رومانسية. إذ كانت امرأة معتدة بذاتها ومتحفظة، وقد جيء بها إلى مصر وهى طفلة، وهدى وحدها هى التى استطاعت

أن تجمع أشتات حكايتها تدريجيًا من خلال الكثير الذى عرفته أخيرًا عنها حين التقت بأشقائها. كان والد إقبال زعيم قبيلة على ما يُشاع، وقد قُتل على أيدى الروس إبان الغزو الروسى للقوقاز. وقد هربت أرملته عزيزة حينئذ إلى اسطنبول مع من تبقى من عائلتها، ومن بينهم إقبال. وقد واجهت الأسرة اللاجئة مآسى كثيرة. فقد توفي أحد الأبناء، واختطفت المُرضعة شقيقة إقبال الرضيعة. وحينما بلغت إقبال التاسعة، قررت عزيزة إرسالها إلى مصر، التى لم تزرها قط، فى حماية صديق مصرى كان مسافرًا إلى القاهرة. ويمكن تخيل مقدار ما فى هذا القرار من ثقة عمياء فى هذا الصديق، وكم كانت عزيزة تخشى على مصير ابنتها. وكانت النية هى أن تعيش إقبال فى كنف رجل عرفت هدى لاحقًا من أخوالها، أنه هو نفسه خال والدتها، وهو يوسف صبرى باشا، الضابط بالجيش المصرى وأحد أفراد النخبة التركية-الشركسية بمصر. غير أنه كان فى مهمة عسكرية. خارج البلاد بالسودان فى تلك الفترة. ولدى وصول إقبال، كان رد فعل زوجته، التى وُصفت بأنها جارية مُحرَّرة لأحد أعضاء العائلة المالكة ومن أصول شركسية بلا أدنى شك، سيئًا ورفضت استقبال الطفلة وقالت إنه ليس لزوجها عائلة فى القوقاز. وهكذا اصطحب مرافق إقبال الطفلة بدلًا من ذلك لمنزل صديقه الوفى على بك راغب. وتولى راغب بك وعائلته رعايتها. وتربت مع ابنتهم وتعلمت الحديث بالعربية والتركية. لكن من الواضح أن يوسف صبرى باشا ظل على اتصال بها، وقد كبرت وهى تعده من أقاربها، وارتبطت ارتباطًا خاصًا بابنته منيرة صبري، التى كانت فى منزلة ابنة خالها. وحينما بلغت السن المناسب، راح راغب بك وعائلته يبحثون عن زوج ثرى للفتاة الشركسية التى شبَّت فى كنفهم. كانت إقبال قد أصبحت شابة آية فى الجمال ومن حسن حظها أن سلطان باشا كان يبحث عن شابة مثلها للاقتران بها[٢]. ذلك أن زوجته الأولى، حسيبة، التى أنجبت له ابنه إسماعيل الذى توفى للأسف قبل ذلك بفترة وجيزة، قد انتابها اكتئاب شديد.

ثم راح سلطان باشا يتحرى فى تركيا عن مكان عائلة إقبال، بعد أن تأثر بقوة من نوبات الحزن والنحيب التى كانت تنتاب زوجته الشابة حينما تجتاحها ذكريات عائلتها البعيدة. واكتشف أن أحمد ويوسف إدريس، شقيقا إقبال، يقيمان فى ميناء بانديرما التركى الصغير، على الشاطيء الشرقى لبحر مرمرة. وكانت عزيزة، التى فقدت إقبال الصلة بها، لا تزال على قيد الحياة وفى صحة جيدة. ودعا سلطان الشقيقين وأم إقبال، جدة هدى، للقدوم إلى القاهرة. كان الشقيقان يتحدثان حينها التركية، حتى فيما بينهما. وحملا معهما ذكريات الماضي. وكانت هدى تستفسر بشغف من خالها يوسف عن قصة عائلتها الشركسية. تأسرها حكاويه و يتّقد خيالها حين تتذكر أن هذه حكايات أجدادها. وحكى لها يوسف تاريخ أبيه، شارالوكا جوابيش الذى كان زعيمًا لقبيلة شاپسيغ وكان منزله يقع على ساحل بحر قزوين. وعلى غرار الحاج مراد، بطل القوقاز الذى خلدته رواية ليو تولستوي، قاتل جوابيش ضد الروس وفقد حياته فى معركة يائسة ضد الغزاة. وجاء فرار العائلة إلى تركيا جزءًا من الرحيل الفوضوى الذى تلا استيلاء الروس على القوقاز[٢]. وكانت إقبال قد التقت فى القاهرة بعد زواجها بقليل سيدة شركسية تُدعى چذب عاشق تتشابه قصتها كثيرًا مع تجربتها الخاصة وارتبطت معها بصداقة غريزية. وكان ذلك غير مألوف من إقبال التى كانت بالأحرى متحفظة الطابع. لكن يبدو أن المرأتين قد خلصتا بعد تبادل المعلومات عن حياتيهما، إلى أن السيدة هى شقيقة إقبال الرضيعة التى اختطفت منذ زمن بعيد فى تركيا، بحيث كبرت هدى وهى تدعو چذب عاشق "خالتي". وقد ضمت إقبال چذب عاشق لمنزل عائلتها.

وقد استهل سلطان باشا حياته العملية فى الخدمة الحكومية كحاكم محلى فى إقليم المنيا. وتمكن بفضل مهاراته وثرائه الشخصى من أن يرتقى إلى

منصب مفتش عموم جفالك الوجه القبلي، وهو ما أتاح له أن يوطد أقدامه فى الحياة السياسية المصرية. وقد اكتسب شهرة واسعة وأصبح رئيسًا لمجلس شورى النواب. وكان من دعاة الحكم الدستورى فى مصر ولديه مع شركائه فى العمل خططًا إصلاحية واسعة النطاق(٤). وقد كان، إضافة إلى أصدقائه من الساسة، على صلة بجمال الدين الأفغانى وتلميذه محمد عبده، الذى كان قد أصبح المفتى الأكبر لمصر فى عهد الخديوى توفيق. كما كان يشارك محمد عبده أفكاره ومعتقداته المستنيرة، حتى فى مجال البنوك والتأمينات. وفى عام ١٨٧٩، وهو العام الذى ولدت فيه هدى، وضع سلطان باشا، بالتعاون مع صديقه عمر لطفى باشا، وكان مسؤولا كبيرًا آخر فى إدارة الخديوى توفيق، خطة لإنشاء بنك وطنى فى مصر، يقوم على رأس المال المحلى وليس الأجنبي، وقد مهَّد ذلك المشروع السبيل لأعمال مماثلة فيما بعد(٥).

لم يكن فى حياة محمد سلطان باشا ما ينبئ بمصير مأساوي. غير أنه اضطُر هو والخديوى وطبقة مُلاك الأراضى الأثرياء التى كانت تحكم البلاد، إلى قبول السيطرة المالية والسياسية التى تمارسها البلاد الغربية على مصر، وبصفة خاصة بريطانيا، والتى ترتبت على الديون التى أغرقت الخديوى اسماعيل، الذى سبق توفيق، إبان بناء قناة السويس. لقد أفضى إنشاء الحكومتين البريطانية والفرنسية "لصندوق الدَين"، المكون من لجنة مراقبين لإدارة سداد مصر لديونها، إضافة إلى تواجد مراقبيْن ماليين من البلدين فى مصر للإشراف على شؤون البلاد المالية، إلى احتلال اقتصادى فعلى للبلاد. وكانت أغلب القرارات ذات الصلة بالموضوعات الاقتصادية تُحال للمراقبين اللذين كانت لهما الكلمة الأخيرة بشأنها. وقد أدى التزام مصر بخدمة الدَين إلى اختطاف اقتصادها وإلى جرِّ حكامها إلى وضع خادع يحول دون ممارستهم الفعلية للحكم. وقد

تسبّب هذا الوضع فى انتشار الاستياء بين الناس وفى صفوف الجيش وإلى اعتراض الأهالى على أسلوب حكم الخديوى الأوتوقراطي. وفى فبراير ١٨٨١، طالب ضباط مصريو المولد بالجيش المصري، بقيادة الأميرالاى أحمد عرابى الخديوى بالحكم الدستورى وبمزيد من الفرص للعسكريين المصريين فى الترقي، مقارنة بالنخبة التركية-الشركسية التى كانت تقود الجيش المصرى والكثير مما عداه فى مصر. وكان رد الفعل الفورى لسلطان باشا هو منحهم مساندته. فهو من هذا الشعب المصري، كما يؤمن بأن مصر باتت جاهزة للحكم الدستورى أو البرلماني.

وقد حكى قلليني فهمى باشا، السكرتير السابق لسلطان باشا، والذى كان أيضًا صديقًا للعائلة[٦]، لهدى وهى لا تزال طفلة ما نجم عن هذه القصة. لقد منح سلطان باشا وبعض الوجوه السياسية الأخرى مساندتهم لعرابى وزملائه الضباط. غير أن القنصل البريطاني، سير إدوارد ماليت وسير أوكلاند كولفين، المستشار المالى للخديوي، كانا قد حذّرا مرارًا من أن وقوع ثورة سيشعل الغضب البريطانى وسيسفر عن عقاب رهيب. وكان معنى ذلك أن هزيمة عرابى هى الحل الوحيد لإنقاذ البلاد. وأرسلت بريطانيا أسطولًا إلى الإسكندرية وهدّدت بالتنكيل بهم إذا ما واصل عرابى والضباط المصريون الآخرون خطتهم بإجبار الخديوى توفيق على التخلى عن العرش. وقد جاء تغير موقف سلطان باشا من خشيته من حدوث مذبحة مع وجود السفن الحربية البريطانية على ساحل الإسكندرية[٧]. لقد أدرك أن التدخل العسكرى للجيش البريطانى الذى لا يقهر فى مصر ربما يؤدى إلى احتلال البلاد، وبالتالى إلى الانتقال من الهيمنة العثمانية إلى البريطانية. وكان يعتقد أن ولائه الأخير يذهب فى نهاية المطاف إلى الخديوي، كنائب للسلطان العثماني، وبالتالى للإمبراطورية العثمانية ذاتها.

ودفعته قناعاته الفطرية والسياسية إلى مساندة الخديوى والالتزام بالأمر الصادر عن البريطانيين، والانقلاب على عرابى والضباط الآخرين الذين سبق أن دعمهم. وفى مايو ١٨٨٢، حينما وصلت الأمور إلى ذروتها، وقف سلطان باشا إلى جانب الخديوى فى مواجهة عرابي. ووفق عبارات ويلفريد بلانت، الذى كان يتعاطف مع عدالة قضية عرابي، فإن "إعلان سلطان باشا تأييده للمطالب البريطانية، نبع جزئيًا من انخداعه بموقف ماليت وكذلك من ذعره منه، فانضم بقوة إلى جانب القصر ضد شركائه السابقين(٨)". وقد أثار ذلك السخط عليه وقامت جموع عرابى بمهاجمة ممتلكاته فى القاهرة أثناء وجوده بالإسكندرية. وقد أورد بلانت فى يومياته تصريحًا من صحيفة الأوبزورفر مفاده أن "سلطان باشا ذهب إلى الخديوى للتوفيق بينه وبين عرابي..." . وقد علّق بلانت على ذلك بقوله:

إن الصحف كلها تذكر أنه انحاز مع المجلس إلى جانب الخديوى ضد عرابي، إلا أننى لن أصدق هذا حتى أسمع المزيد. إذ إن ما يحتمل أن يكون قد حدث هو أنه قد جيء بسلطان باشا إلى المجلس بدون اتباع القواعد الإجرائية السائدة للاستدعاء، وفى وقت غير ملائم من العام. وقد كان للجيش نفوذ هائل فى الحكومة خلق له أعداء. والأرجح أنه كانت هناك غيرة، لكنى لا أظن أنه كان هناك ما عدا ذلك. ويبدو أن كولفين وماليت قد شجّعا المسألة برمتها وتحمس الشركسيون لفكرة حدوث تدخل تركي. وقد استدعوا السفن إلى الإسكندرية وسوف يؤدى ذلك، إن لم أكن مخطئًا، إلى توحيد الجميع مجددًا ضد الأوروبيين(٩)

وفى غضون ذلك، وعد سير إدوارد ماليت سلطان باشا وآخرين أنه، وإن كان البريطانيون لن يسمحوا بأى حال لعرابى ورفاقه أن يحكموا مصر بدلا من

الخديوي، إلّا أنهم سوف يسحبون قواتهم فورًا فى أعقاب الأزمة. غير أن ماليت لم يقدم لسلطان باشا فى أى لحظة مذكرة كتابية تحدد موقف الحكومة البريطانية على نحو ما قد طلب سلطان باشا. وأيًا كان الحال، فقد اعتمد سلطان باشا، على الطريقة الشرقية، على كلمة شرف القنصل البريطانى ونزاهته، ولم يشك فى إمكانية أن يكونوا قد تلاعبوا به. وكان اعتقاده الأكيد أن القوات البريطانية لن تبقى فى البلاد بعد كسب المعركة. وقد كانت خيبة أمله، بالطبع، فادحة. ولم يعد سلطان باشا بعد الأزمة الرجل ذاته مرة أخرى. وقد شاع فى العائلة ودوائر أخرى أنه قد أخذ يلوم نفسه لومًا مريرًا حين أدرك أن وعود ماليت بالانسحاب الفورى بعد الانتصار على عرابى كانت كاذبة، وأن البريطانيين الذين زعموا التدخل فى مصر مساندةً لحكم الخديوى سوف يواصلون احتلالهم للبلاد بلا نهاية.

وقد أورد ويلفريد بلانت ما جاء فى ١٨٨٢ على لسان عبد السلام المويلحي، عضو البرلمان المصرى والذى كان فيما سبق صديقًا مقربًا لسلطان باشا، فى حديثه عن نظرة أنصار عرابى للأخير فى أعقاب الأزمة قائلًا:

"إنه كان صديقًا حميمًا ومناصرًا لسلطان باشا، وواحدًا من أولئك الذين انحازوا إلى سلطان فى نزاعه مع عرابي. إلا أنهم يشعرون جميعًا الآن بالأسف الشديد لعدم بقائهم متحدين؛ وأنه لم يوافق على سلوك سلطان باشا إبان الحرب. لقد خدع ماليت سلطان ودفعه إلى أن يسلك على النحو الذى سلكه بناء على وعد صريح بأن حقوق البرلمان المصرى سوف تُحترم. وقد تقدم ماليت بهذا الوعد شفهيًا وطلب سلطان الحصول عليه كتابيًا ولكن الخديوى نصحه بعدم الإلحاح على ذلك وأكد له أن كلمة مندوبى الإنجليز تعادل فى صحتها كلمته شخصيًا. وحين اكتشف الرجل المسن بعد الحرب كيف تم التلاعب به أصيب

بصدمة عنيفة وتوفى وهو يتمنى أن يغفر له عرابى وألا يُقدّم اسمه إلى الأجيال القادمة على أنه خائن للبلاد(١٠)".

وبعد الأزمة بوقت قصير، أصيب سلطان باشا بمرض لا علاج له. وتُوفيَ بعدها بعامين، فى ١٨٨٤، قبل أن يبلغ الستين، خلال إقامة كان يُفترض أنها فترة للنقاهة فى مدينة جراتز النمساوية. وقد ذُكر أنه كان يبدو كما لو كان فى التسعين. وتعتقد العائلة أنه مات كمدًا من الصدمات السياسية التى تعرض لها. وبعد انتصارها على العرابيين، نجحت الحكومة البريطانية فى تأمين قبضتها على قناة السويس كممر خاص لها إلى آسيا. وكان قد تم بالفعل إبرام اتفاقية إنجليزية-فرنسية لتقسيم الدول التابعة للإمبراطورية العثمانية بينهما.

وكان سلطان باشا قد قام قبل وفاته بتعيين على شعراوي، ابن شقيقته – وأحد كبار الأثرياء وملاك الأراضى فى منطقة المنيا– حارسا قانونيًا على هدى وعمر وأبنائه الآخرين ووصيًا على أملاكه. وكانت ثروة شعراوى قائمة على أراض حصل عليها والده، حسن شعراوي، الذى كان عمدة لقرية قريبة من المنيا. وكان على يدير أملاكه ويستعد للدخول فى معترك الحياة السياسية. ولكنه بعد وفاة سلطان باشا تمكن أيضًا من إيجاد الوقت اللازم لأداء واجباته كحارس بالقيام بزيارات منتظمة لعائلة خاله الراحل. وقد واصلت أرملتا سلطان باشا الإشراف على الحياة المنزلية اليومية بمساعدة طاقم الخدم الذين تركهم سلطان باشا والذين برز من بينهم سعيد أغا، كبير الخصيان. كان لالا سعيد، كما كان يُطلق عليه فى ود، هو كبير خدم العائلة المكلف بحماية أمن النساء. فقد كانت إقبال، التى كانت فى الخامسة والعشرين فقط، قد أصبحت مسؤولة عن قيادة قصر العائلة، وهو بيت جميل بناه سلطان باشا لنفسه فى شارع جامع شركس(١١). وبعد أن كانت قد فقدت والدها، والآن زوجها، باتت فكرة الموت

تراودها ووقعت أسيرة للشعور بالانكسار والخوف، رغم نضالها لئلا تظهر هذا. لقد واجهت حياة مليئة بالمخاطر منذ نعومة أظفارها وتبنت موقفًا فلسفيًا وجادًا تجاه الحياة. كانت فى منتصف العشرينيات، امرأة جميلة كما تذكرها العائلة: فارعة وممشوقة القوام، بشرتها ناعمة ملساء، وعيناها لوزيتان وبديعة القسمات. كانت أصولها الشركسية واضحة وتشى استقامة ظهرها ومشيتها المتعالية بأصولها. وقد كانت بفضل ارتباطها بسلطان باشا ترتاد المجتمعات الراقية. وتتذكر هدى نفسها بشكل غائم كيف كانت أمها تصحبها وهى طفلة إلى قصر الخديوى توفيق لزيارة زوجته.

وهكذا شبت هدى فى منزل أضناه الحداد وهزته أصداء الصراعات السياسية التى كانت تموج بها الحقبة. ففى سن الخامسة، كانت تعيش فى منزل غُطيت فيه قطع الأثاث والشمعدانات، والمرايا بصفة خاصة، بالقماش الأسود. وكانت النساء البالغات بالمنزل يرتدين السواد. أما إقبال، التى ظلت ذاهلة عقب رحيل زوجها، فقد طُلب منها الراحة بأمر الطبيب. وقد واجهت السيدة حسيبة، الزوجة الأولى لسلطان باشا، ظروفًا أكثر صعوبة. إذ حولها اليأس الذى انتابها على إثر وفاة ابنها اسماعيل المبكرة قبل ثمانى سنوات من اقتران سلطان باشا بإقبال، الى امرأة كليلة. لقد كان لها ابنتان، لوزة ونسيم، إلا أن هذا لم يُعزّها عن فقد نجلها. والآن بدا أن وفاة زوجها قد قطعت الخيط الأخير بينها وبين ابنها الفقيد. وفيما يتعلق بهدى، كانت كطفلة لا تدرك أن رحيل والدها سلطان باشا كان حدثًا له دلالة سياسية حيث ترك فراغًا فى الحياة العامة المصرية. أما بالنسبة إليها، فقد فقدت أبًا. تفتقد حضوره فى المنزل وتتوق إلى رائحته ولمساته المألوفة. وقد اضطرت فى سن باكرة إلى أن تدرك أن أباها الحبيب الذى كان دائما ما يحتضنها ويملؤها بالطمأنينة حينما تحتاج ذلك، قد رحل إلى

الأبـد. كانـت تشعر بثقـل غيابه وتهفو إلى الذهـاب لغرفته كل صبـاح مع أخيها عمر، الذى كان يصغرها بعامين، وهزيلاً، ويحتاج إلى رعاية خاصة. كانت تفتقد ذراعى أبيها القويتين، وصوته الدافئ، ورزانته، وهدوئه؛ كما كانت تفتقد أيضًا موجات الزائرين اليومية المتعاقبة على المنزل، الذى بات ضخمًا وخاويًا للغاية فى غيابه.

شعرت هدى إذن فى هذه السن المبكرة أن الموت يخطف الناس بعيدًا حيث لا نراهم مجددًا. ورغم أنها لم تلتق البتة بأخيها غير الشقيق اسماعيل، فإنها أحبت زوجة أبيها حسيبة واعتبرتها صديقة شخصية. كانت تعلم كم تفتقد حسيبة اسماعيل. ولهذا، كانت تأوى هدى لساعات بالقرب من السرير الكبير الذى ترقد عليه السيدة الطريحة. كانت تناديها بـ "والدتى الكبيرة". لم تزل صغيرة لكى تدرك أنها فى وضع استثنائى تتمتع فيه برعاية والدتين، أو أن هاتين المرأتين اللتين كانتا زوجتين لرجل واحد، تتبادلان الود، فيما يشبه المعجزة. كانت حسيبة قد فقدت ابنها وصحتها ثم زوجها ولكنها نقلت محبتها إلى إقبال وطفليها، إضافة إلى الاهتمام بابنتيها. كان حزنها على الفقد قد انتهى بمحض ذاته وبدت الآن وكأنها تنتظر فى صبر فى صحبة عائلتها الممتدة، اللحظة التى سيتذكرها فيها الموت بدورها. وكثيرًا ما كانت هدى تطلب من أمها السماح لها بقضاء ليلتها فى سرير حسيبة مثلما كانت تحب. كان لحسيبة تأثير مطمئن على نفس هدى وكانتا كلتاهما تحبان الهواء النقي، فتتركان النوافذ مفتوحة أثناء الليل خصوصًا فى الصيف. وكان ذلك غير وارد على الإطلاق فى الغرفة التى تشارك فيها أخاها الصغير الهزيل. وقد علمتها حسيبة احتساء اللبن البارد والقشدة الكثيفة التى كانت تتجمع فوقه بعد غليه. وكانتا تشربان اللبن وتغمسان فيه الخبز وهما تشويان حبات الكستناء على نار الموقد. وفى أيام

الصيف، كانتا تستيقظان على تغريد العصافير فوق الأشجار من خلف النوافذ، وتمتلىء نفس هدى بالسعادة والهناء. أما إقبال، فلم تكن فى حينها تكف عن التفكير فى صحة ابنها الصغير المعتلة وكان يسعدها بالتالى أن تترك هدى فى صحبة حسيبة الودودة.[١٢] وحينما كانت هدى تشكو من أن أمها تفضل عمر كانت حسيبة تشرح لها أن السبب الوحيد هو أنه صبي، وهو إذن من سيحمل اسم العائلة وأنه يحتاج لاهتمام أكبر نظرًا لهشاشة صحته.[١٣] ورغم غيرة هدى من عمر إلّا أنها أحبته حبًا جمًا.

ومع انتهاء فترة الحداد، راحت هدى تستمتع بروتين الحياة فى المنزل الكبير، الذى كان يقع فى الجزء الجديد من القاهرة آنذاك، وهى منطقة من الشوارع الواسعة والحدائق بين وسط المدينة القديم ونهر النيل. وكان المنزل يشغى بالنشاط والحركة، بكتيبة الخدم والحشم والعبيد الذين يقومون على النظام فيه، والأصدقاء والزوار الذين يتوافدون عليه بانتظام، علاوة على الباعة الجائلين، والشحاذين الذين يقفون دائمًا على البوابة. وكانت المناسبات والأعياد الدينية تُستقبل ويُحتفل بها بحماس. وعلى غرار العائلات المصرية الغنية، التى تشكل جزءًا من الطبقة العليا من المجتمع، كان للعائلة دائرتها الخاصة من الأصدقاء والمعارف. وكان الكثير من أصدقاء الباشا القدامى يزورون العائلة أو يدعونها إلى منازلهم. وكثيرًا ما كان الأطفال يذهبون للعب فى حديقة قطاوى باشا، الواقعة بين شارعى سليمان باشا والشريفين، وقد أتاحت هذه الحياة الاجتماعية لهدى أن ترتبط بصداقات مع بنات من سنها من عائلات كريمة. كان قطاوى باشا أرستقراطيًا يهوديًا من المنيا، يملك أيضًا قصرًا فى الجوار. وكان من بين زوار المنزل الشيخ على الليثي، وهو رجل اشتهر بحسه الساخر وموهبته الشعرية، وكان يقيم فى القصر الخديوى حيث كان شاعر البلاط.

أما زبير باشا، فهو الزائر الوحيد الذى كانت هدى لا تشعر أحيانًا بالراحة فى حضرته، رغم معرفته وثقافته الواسعة. كان سودانيًا ذا حيثية وقد أتت أمواله من تجارة العبيد، وكانت تصرفاته فى بعض الأحيان خشنة وفظة.

كان سلطان باشا قبل وفاته يعقد فى منزله صالونًا أدبيًا أسبوعيًا يحضره بانتظام هؤلاء وآخرون. وكان حب أبيهم للشعر والأدب قد جعل هدى وعمر يقضيان سنوات عمرهما الباكرة فى منزل تحتل الثقافة فيه منزلة عالية، مثلها مثل السياسة. وبعد وفاته حافظت السيدتان اللتان توليتا قيادة المنزل على هذا التقليد. إذ كانت اثنتاهما أيضًا منفتحتى الأفق ولديهما ميول ثقافية، رغم كونهما فى حياتهما العامة مقيدتين بالضوابط المفروضة على النساء من حيث السلوك إزاء الرجال وفروق النوع بين الجنسين. وكانت المعيشة بالمنزل رغدة بالتأكيد، فشبّ الطفلان يجهلان كل شيء عن الفقر وتبعاته. فطبيعة مشاكلهما، إن وجدت، عاطفية بالأحرى، ولا صلة لها بالجوانب العملية للحياة، مثلما هو حال من لا يعرفون القلق المرتبط بتوفر المال. ظل الاثنان يعانيان معاناة شديدة من غياب والدهما، وقد ظلت هدى فترة طويلة من طفولتها مستاءة إلى حد بعيد من اهتمام أمها بأخيها الأصغر، المعتل الصحة، رغم جهود حسيبة فى التخفيف عنها. كما ظلت تفسر على نحو خاطيء اهتمام إقبال القلق بعمر على أنه انحياز بلا سبب ضدها، وكان كل ما تعايشه فى الحريم **the harem** يعزِّز هذه الفكرة لديها. إذ كان الأصدقاء وأفراد العائلة والمدرسون والخدم والعبيد يميزون بين البنات والأولاد، وقد اعتادت هدى منذ وقت مبكر فى حياتها أن تستخلص الأفكار من المواقف والأفعال الفردية للناس. كانت طفلة ذكية وركنت بسرعة إلى تجنب هؤلاء الذين يبدو أنهم لا يظهرون الاحترام اللازم لها أو لعقلها.

وسرعان ما بدأت هدى تقدِّر قيمة الإنجاز الفكرى والتعليم فوق كل شيء، وشعرت أن حياتها ستكون بائسة إذا ما وُجه تعطشها للتعلم بالرفض. وقررت فيما بينها أنها تكره حياتها كبنت لأن أنوثتها تحرمها من المعرفة والرياضة. ولكنها كانت قادرة على تعويض ذلك، إذ إنها إضافة إلى مهارتها، كانت طفلة قوية البنيان وتستمتع كثيرًا بالبقاء خارج المنزل والجلوس إلى كتبها، وتسلق الأشجار والجدران، وزراعة النباتات فى الحديقة. كانت تقضى وقتها فى اللعب بسعادة فى الهواء الطلق بعد الظهيرة، فى حين كان عمر المسكين مضطرًا إلى الراحة في فراشه. وتعلمت قراءة وكتابة التركية العثمانية، وقد وافق الشيخ ابراهيم،[١٤] مدرس اللغة العربية لعمر، على تحفيظها القرآن، وقراءته مثل أخيها وحفظته عن ظهر قلب حين كانت فى التاسعة، رغم أن ذلك، كما أشارت لاحقًا، لم يعْن أنها أتقنت النحو العربي، فقد كان القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى تستطيع قراءته على نحو سليم بسبب تشكيل كلماته. ولأن اللغة العربية الفصحى تختلف عن العامية المصرية، التى كانت هدى بالطبع معتادة تمامًا عليها، فقد كان عليها تعلم نحوها ونطقها السليم لاتقان الكلام والكتابة بها.

لقد كانت هدى شغوفة للغاية بقراءة العربية بشكل سليم، وكانت أحيانًا تشترى كتبًا غير موثوق بقيمتها من الباعة الذين يمرون على البيوت أو فى الشارع. كما كانت تتوق إلى إتقان العربية ودراسة دقائق النحو العربى والجُمل وتركيباتها. وقد حاولت استمالة معلم العربية لعمر لكى يعطيها دروسًا وانتابها إحباط شديد حين أمر سعيد آغا المعلم بوقف تدريسها النحو العربي، قائلا له، وهو يقهقه، "خذ كتابك ...لا لزوم للنحو؛ لأنها لن تكون محامية يومًا من الأيام!"[١٥] كانت العربية الفصحى تعتبر لغة للرجال والعلماء أساسًا. وكان يُعتقد أن بنات الطبقة الوسطى أمثال هدى، ينبغى عليهن التركيز بالأحرى على

إتقان ما يُمثِّل المعرفة الجديرة بالنساء من حيث تعلم اللغة التركية، ثم بشكل متزايد الفرنسية، التى أصبحت فى ذلك العهد أساسية لأى مصرى ذى ثقافة. ورغم حبها الشديد لسعيد آغا لتعلقه الوثيق بعائلتها وبها، فقد كرهته من قلبها لوقوفه ضد تنمية ثقافتها. ولكنها سرعان ما بدأت فى تعلم اللغة الفرنسية ووجدت فيها متعة بالغة.

كما بدأت فى التردد سرًا على مكتبة والدها الراحل؛ لقراءة الكتب التى كان يحبها. كانت تفتح الباب بمفتاح تعلم مكانه الخفى وتقضى وقتها بمفردها فى الغرفة المهجورة التى كانوا يحافظون عليها كما لو كانت ضريحًا لأبيها. وحينئذ كانت فردوس وياسمين،[١٦] البنتان المصريتان اللتان جيء بهما إلى المنزل لتتربيا معها، تقفان لمراقبة الحركة هناك، ومرور سعيد آغا أو غيره. كانت هدى تحدِّق إلى الكتب المتراصة على كامل الأرفف، وتتذكر كم كانت تمثل لأبيها من قيمة ثمينة. وتسترجع كيف كان يقضى ساعات طويلة فى القراءة، وكيف كان دائمًا شغوفًا بزيادة معرفته بكافة مناحى الحياة. بالعالم، والتاريخ والتراث الثقافى لشعبه وكيف يمكن إنمائه والحفاظ عليه. وقد كان دائمًا ما يحتفظ بقطع الشوكولاتة فى المكتبة من أجل الأطفال إن هم ذهبوا إليه هناك، وقد ارتبطت الكتب بالشوكولاتة فى ذهنها كطفلة. بل إنها وجدت، حتى بعد وفاته، آثار بعض قطع الشوكولاتة الذائبة على الأرفف.

كما وجدت هدى سلوى أخرى لها فى الموسيقى. كانت مدرسة اللغة الفرنسية عازفة پيانو أيضًا. وحينما أعربت هدى عن حبها للموسيقى سُمح للمُدرسة بإعطائها دروسًا فى البيانو.[١٧] وكانت قد حصلت على جهاز بيانو بالفعل، بشيء من التردد، وهى لا تدرك إلى أى مدى ستحبه بعد ذلك. وكان عمر قد حصل على مُهر صغير بناءً على نصيحة من طبيبه الذى كان يريده أن يمارس

بعض النشاط فى الهواء الطلق. وأعجبت هدى بفكرة المهر وسألت إن كان يمكنها أن يكون لها واحد هى الأخرى. غير أن أمها أقنعتها بدلا منه بالبيانو، لكونه يناسب السيدات أكثر. وافقت هدى وهى تقول لنفسها إنه يمكنها استعارة مهر عمر حينما تشاء، وبالتالى يُتاح لها الاستمتاع بما يتوفر لكليهما.(١٨) وقد أقبلت على دروس البيانو فى جد، وراحت تتدرب لساعات طويلة. وقد وجدت راحة كبيرة فى عزف البيانو الذى ظلت تمارسه طول حياتها.

ودفع تطلع محمد سلطان باشا إلى زيادة خبرته فى الحياة إلى مصادقة بعض الأجانب إضافة إلى معارفه من المصريين. فقد ضم إلى دائرته على سبيل المثال ام.چي.ريشار، المهندس الزراعى الفرنسى الذى لعبت زوجته دورًا مهمًا فى حياة هدى وهى شابة. وقد استشاره بشأن إدخال إصلاحات على نظام الرى فى مزارعه. وقد ظلت زوجته السيدة چان ريشار صديقة للعائلة. وكانت هدى وعمر يستمتعان بصحبة السيدة العطوفة الذكية. وبالتالى كبرا بدون توجس من الأجانب اللذين اعتادا مبكرًا على وجودهم فى حياتهما. وساهم وجود ناس من أصول مختلفة حولهما فى أن يعتادا الاهتمام بالصفات الإنسانية فى الآخرين عوضًا عن المظاهر الاجتماعية والإثنية المميزة. كانا يتسمان بالجدية ويوليان، كأبناء لشخصية عامة ذات نفوذ، أهمية كبرى لقيم الاتزان ورباطة الجأش. وقد ساهم ذلك فى الحد من روح الدعابة عند هدى فى حين لم يكن عمر أحيانًا قادرًا على السيطرة على حسه الفكاهي.

كانت چان ريشار امرأة خمرية ممشوقة القوام، ذات عينين بنيتين واسعتين وشعر أسود. كان سحرها هو صفتها الطاغية مثلما هو الحال مع الكثير من الفرنسيات اللائى كن يُقمْن فى بلاد أجنبية فى ذاك الوقت. كانت معرفة هدى بآل ريشار هى الأولى فى قائمة طويلة من الصداقات الشخصية بالأجانب

والمصريين على حد سواء. ونظرًا لحاجة آل ريشار للمال، كثيرًا ما كانت إقبال تطلب من السيدة الشابة رعاية الأطفال أثناء وجودها خارج المنزل أو سفرها إلى الصعيد وأحيانًا إلى تركيا. وحينما كانت تذهب لزيارة قبر زوجها فى المنيا مثلًا، كانت السيدة ريشار ترعى الطفلين فى غيابها عن القاهرة.(١٩)

غير أن ذلك قد قاد إلى صراعات بالمنزل، واستدعى من هدى إثبات ذاتها، وجعلها تدرك، ربما للمرة الأولى، قدرتها على التأثير على من حولها. كانت فطنات، خادمة ورفيقة إقبال فى هذا الوقت، سليطة اللسان وأظهرت بوضوح عدم حبها للسيدة ريشار. لم تكن تكنّ ودًا كبيرًا لهدى وكانت تعادى كل من يبدى صداقته لها بالمنزل. وقد حدث أن هربت فردوس وياسمين من المنزل فى إحدى المرات بسبب عدائيتها. كانت فطنات تظهر بلا تحفظ غضبها تجاه السيدة ريشار التى كان على هدى أن تحميها على الدوام من الإهانات والاتهامات.(٢٠) وقد تمكنت من الاضطلاع بهذا الدور بحيث شعرت فى سن مبكرة للغاية بقوة شخصيتها وقدرتها على فرض إرادتها على الذين تعاملت معهم. وكانت أمها تتيح لها دائمًا أن يكون لها أسلوبها الخاص.

شعرت هدى منذ صغرها بالغضب من الكيفية التى تُمحى بها البنات فى الحريم كما لو كن أشباحًا؛ وجودهن غير مرئى وصوتهن غير مسموع. كُنَّ خاضعات لقواعد صارمة من التحفظ والطاعة، فى الوقت الذى بدا فيه النشاط والحيوية مزايا مقصورة على الصبيان. وسعت منذ البداية إلى أن تتخذ نمط المرأة القوية نموذجًا لها. كانت تعرف أن هناك استثناءات للقاعدة. وكان أخوالها قد ذكروا لها أن المرأة فى المجتمع الشركسى لا تُعامل فقط بوقار وإنما أيضًا بإجلال، بل إنه يمكنها حتى محاكاة الرجل. فعلى سبيل المثال، ركبت حورية، ابنة عم شرالوكة جواتيش، الخيل وحاربت ضد الغزاة الروس

مثل الرجال، جنبًا إلى جنب مع أشقائها. ولم تكن حورية هى المرأة الوحيدة التى حظيت باحترام هدى. فهناك أيضًا آمنة، شقيقة سلطان باشا وأرملة حسن شعراوي، التى أرادت أن تحذو حذوها. إذ على الرغم من وضعها كأرملة، كانت تدير ممتلكاتها وتقود الحصان مثل الرجال. كما كانت بالإضافة إلى ذلك أمًا قوية الشخصية استطاعت تعليم على شعراوي، الوصى على هدى، كيفية إدارة الأملاك والأراضي.

وكثيرًا ما كانت هدى تفكر فى المرأتين ولا يسعها الّا أن تقارنهما بإقبال وحسيبة الخجلتين المُنْزويتين، وكذلك لوزة ونسيم أختيها غير الشقيقتين. كانت تشعر بالحاجة إلى الحيز الخاص، والحرية، والنشاط وتطمح بشدة إلى الامتيازات التى يختص بها شقيقها الذى تحيا بجانبه، ليس فقط لإحساسها بأنها أكثر منه قوة. ظل مطلبها الملح هو تلقى معاملة مماثلة لتلك التى كان يلقاها. وكانت تفزع من كون سعيد آغا مكلفًا بالحيلولة دون ذلك، سواء كان يفعله من تلقاء نفسه أو بناء على تعليمات من الوصى عليها. كان توقها كبيرًا للقراءة والكتابة بالعربية التى كانوا يدرسونها للصبيان، ولركوب المهر فى الحديقة مثل أخيها. وتجتاحها منذ طفولتها إرادة قوية فى تجاهل قواعد السلوك التقليدية. ولم تكن تستوعب لماذا لا يجوز أن تكون امرأة مكتملة وفى نفس الوقت قوية البنيان ومحبة للحياة.

وفى داخل العائلة كان أخوها عمر فى حقيقة الأمر هو أوفى أصدقائها. كان يحميها ويحافظ على أسرارها. وهى التى أخبرته، حينما كانوا صغارًا، بوفاة والدهما التى حُجبت عنه. وقد غمره الحزن لدرجة أنه أصابه إغماء وتوعك لعدة أيام بعدها. إلا أنه لم يكشف أبدًا مصدر معلوماته لكى يُجنِّبها العقاب. ولكن هدى، كطفلة قوية البنيان، ظلت غاضبة من منح شقيقها العليل امتيازات كانت

تُمنع عنها. وكثيرًا ما دفعتها الغيرة إلى الغضب منه. ومع ذلك، ظل عمر عبر السنين يساندها دومًا فى كفاحها للحصول على ما كان بأمانته يعتقد أنه من حقوقها المشروعة. وساعدها فى اكتساب الثقافة ومعرفة عالم السياسة. ولما كان عمر قد شب فى الجو الثقافى الذى خلفه والدهما، فإنه كان يدرك أن هناك نساء متعلمات ومُطّلعات قادرات على التحاور مع أكثر الرجال معرفة. وقد عوّد عمر شقيقته على مادرجت عليه طيلة حياتها، من اللجوء إلى الرجال الذين تحبهم وتثق بهم للمساعدة فى المعارك الاجتماعية والسياسية التى شاركت فيها لاحقًا.

وحين كانت لا تزال فقط فتاة فى الثانية عشرة، خاضت هدى تجربة مذهلة حينما حدث ما كان من شأنه آنذاك ألا يزعج بل يسعد أغلب العائلات فى هذا الوقت. إذ وصلت إلى أسماع إقبال أقاويل بأن الخديوى يتحدث بنفسه عن اختيار هدى لتكون زوجة لأحد ربائبه. ومن المفهوم أن حجم ثروة الراحل سلطان باشا كان هائلًا بما لا يمكن أن يخفى على الدوائر الخديوية. وأن وضع هدى كوريثة لجزء من هذه التركة العظيمة يجعل منها زوجة مرغوبة. غير أن إقبال لم تسعد لهذا الحديث ورأت فيه خطرًا يتهدد العائلة وأملاكها. وكانت هدى مريضة، ترتاح فى فراشها، حين سمعت إقبال تناقش المسألة مع جذب عاشق. واقترحت إقبال كإجراء لتفادى هذه الزيجة أن تعد على شعراوي، ابن عم هدى، الذى كان وصيًا عليها، بالزواج من هدى. وبذا يتسنى لها أن تقول للخديوى أن البنت مخطوبة لابن عمها بالفعل، وكان هذا هو العذر الأمثل.

ويبدو أن إقبال كانت تدرك جيدًا أن على شعراوى كان يفكر بالفعل فى إمكانية مثل هذا الزواج قبل أن يثير الخديوى الأمر على هذا النحو غير المتوقع بوقت طويل. وقد كان دافعه فى ذلك هو تثبيت دعائم أملاك العائلة، وقد استهوى هذا إقبال التى كانت تعى جيدًا فضل نزاهة على وعمله الدؤوب فى الحفاظ على

أراضى وعقارات العائلة حتى الآن. وبدت لها فكرة أن تؤول ملكية نصيب هدى فى أملاك سلطان بالمنيا الى ابن أخ زوجها الراحل، وبالتالى أن تبقى فى إطار العائلة، بمثابة تسوية مرغوبة. وهذا ما قرَّرته العائلة. غير أن المشكلة أن على شعراوى كانت له زوجة ولكن إقبال تمسكت بأن يوافق على طلاقها بحيث تكون هدى زوجته الوحيدة. وقد وعد بذلك. كان دائمًا فى زياراته للأطفال كوصيّ عليهما يثير دهشة هدى بمهابته وصرامته. كان يتجاهلها ويقضى الوقت متحدثًا لعمر. وقد أدى ذلك إلى عدم استساغتها لصحبته. والآن أصبح له دافع آخر لرؤية هدى، وأصبحت زياراته لمنزل شارع جامع شركس تزداد وتيرتها. مما كان يسعد عمر الذى يتشوق دائمًا لوجود شخص يجد فيه الأب.

وفى أحد الأيام، دعت إقبال هدى إلى غرفتها وأرتها صندوقًا مليئًا بالمجوهرات لكى تختار من بينها. واختارت هدى عقدًا جميلًا من الماس وسوارين وركضت إلى حسيبة لتشاركها فرحتها، دون أن يخطر على بالها أن تلك كانت هدية زفاف من زوجها المقبل.[٢١] وهنأتها السيدة بحنوها وودها المعتادين وتأملت المجوهرات بإعجاب وأضافت إليها خاتمًا منها. وقد أصبح هذا الخاتم فى ذهن هدى، أثرًا رمزيًا من امرأة اختارت لنفسها أسلوبًا وقورًا ومتباعدًا لسُكنى هذا العالم وللرحيل منه. وبعد أن رتبت إقبال الترتيبات المستقبلية الخاصة بهدى، استأجرت منزلًا صغيرًا لموسم الشتاء فى حمامات حلوان، أرقى ضواحى القاهرة والمشهورة بجوها الصحي، والتى كان الخديوى توفيق والطبقة العليا بأسرها تقضى بها شهور الشتاء. كانت الحياة تبدو أكثر بساطة وأقل قيودًا فى حلوان. وكانت هدى تستمتع بالذهاب إلى حفلات الترفيه التى تقام هناك، مثل عروض مسرحيات الشيخ سلامة حجازى فى الكازينو، وكذلك بالمشى طويلًا مع صديقاتها الصغيرات.[٢٢]

وتم الزواج فى ١٨٩٢ ، حين كانت هدى فى الثالثة عشرة. وقد جرى التقدم للعروس من خلال على باشا فهمي، زوج منيرة صبري، ابنة يوسف صبرى باشا، خال إقبال. كان على باشا فهمى مهندسًا معماريًا مرموقًا من مغاغة، المجاورة للمنيا. وقد ذاعت شهرته لمشاركته فى بناء دار الأوبرا المصرية، التى أقيمت لاحتفالات افتتاح قناة السويس. وقد قبل طلب الزواج رسميًا، نيابة عن هدى، فؤاد سعد الدين بك، زوج چذب عاشق. هكذا إذن تم ترتيب هذا الزواج كمسألة عائلية، واتُبعت الإجراءات الرسمية بالكامل ، رغم غياب كلا الأبوين.[٢٣]

كان العريس أكبر من عروسه بستة وعشرين عامًا. وكان، كوصيّ عليها وابن عم لها، قد عمل باجتهاد دؤوب على حماية مصالحها، وكان وطنيًا شجاعًا. ورغم صفاته الحميدة، كان فارق السن ينبئ بأن الزواج لن يكون ارتباطًا ناجحًا من تلقاء ذاته. فالعروس كانت لا تزال طفلة فى الثالثة عشرة تلهو مثل يلهو الأطفال، ومعشوقها الأكبر هو البيانو. ولما كانت الشريعة الإسلامية تمنع زواج البنات ضد رغبتهن، فقد تم إقناع هدى بالموافقة عليه. وقد أسرّ لها سعيد آغا فى أذنها بأنها إن رفضت فإنها ربما تتسبب فى موت أمها. وقرّرت مسح دموعها وقمع إرادتها الفعلية والخضوع، إنقاذًا لحياة أمها. وقالت لنفسها إنه أيًا كانت العواقب، فهى ستسمح للعائلة بأن يفعلوا بها ما يشاؤون.[٢٤]

كانت تشعر أنها بعيدة عن كل ما يجرى حولها، كما لو كان يحدث لشخص آخر. وقد استمتعتْ بشكل طفولى بالاستعدادات. كانت، على أى حال، ستقيم فى جناحها الخاص الذى تم تأثيثه بفخامة، فى منزل شارع جامع شركس. كما أنها أُعطِيت الماس والمجوهرات وكذلك الكثير من الأردية الأنيقة. وأصبحت جميع اللوازم الخاصة بأفراح الطبقة العليا فى حوزتها. حتى حفل القران، الذى حضرته كالمذهولة، لم يُقرّبها بأى حال من الواقع. كانت مفتونة بفستانها

الدانتيلا المشغول بالفضة والذهب. وكان يعلو رأسها ويحيط بعنقها تاج وعقد من الماس جعلاها تشعر بأنها نجمة فى استعراض فخيم، علاوة بالطبع على اهتمام الضيوف بها. كان المدعوون يضعون الزهور والهدايا الثمينة تحت أقدامها وهى جالسة على عرش العروس. وسعدت كثيرًا خلال الأيام الثلاثة لاحتفالات الزواج مع صديقاتها الصغيرات وفعلت كل ما فى وسعها لكى تنسى النهاية الحتمية للحلم. غير أن الراقصات أحطن بها فى النهاية، وسارت، بمساعدة صديقاتها، بين صفين من الشموع اللامعة والورود على طول الممر المؤدى إلى القاعة الكبرى التى كان العريس سيلحق بها فيها. وقام أحد الأغوات بإعلان وصول على بصوت جهوري، وسار على فى اتجاهها ورفع الطرحة عن وجهها وقبّلها برقة على جبهتها ودعاها إلى الجلوس. ثم قُدّم إليه كأسا الشربات الأحمر فناولها واحدًا واحتفظ بالآخر.[٢٥]

وقد حضرت أوچينى لوبران، زوجة حسين رشدى باشا الفرنسية، حفل الزفاف وكتبت عنه فى كتابها "الحرملك ومسلمات مصر". وصفت فيه "عروسًا صغيرة تقابل مصيرها فى فستان رائع وأجواء ملكية، مثل القربان الذى ينتظر فوق المذبح التضحية به فى أحد الطقوس. وكانت فصوص الماس تتدلى من عنقها وتتلألأ فى شعرها وتحيط بخصرها ومعصميها وأصابعها. ويتدلّى شريطان طويلان من الذهب من أعلى وجنتيها ويهبطان بالتماعاتهما حتى الأرض". وقد بدت للسيدة لوبران، وهى تجلس مرتدية هذه الأردية وقد انثنت ركبتاها قليلاً تحت ثقل المجوهرات، فبدت لها كإلهة وثنية، أو كما وصفتها "أيقونة بيزنطية أو عذراء إسبانية"[٢٦]

وعقب حفل الزفاف، وخلال الليلة الأولى التى أمضتها مع زوجها، تأثر الأخير من دموعها الطفولية، وأظهر للمرة الأولى، وليس الأخيرة، محبته

الصادقة لها بأن تركها لحالها. ولأنه قد عرفها وهى طفلة، ويدرك جيدًا أنها لا تزال طفلة، رغم ملبس وزينة العروس وجمال المراهقة الوليدة، تصرَّف بتحفظ وتعاطف شديد، كما لو كان أبًا حنونًا. لقد أنقذها من زواج غير مرغوب فيه ربما عرّض أملاك عائلتها بل وسلامتها الشخصية للخطر. ومع ذلك، فإن الحياة مع زوجة-طفلة لم تكن سهلة أو ممتعة لرجل فى نهاية الثلاثينات وقد عيل صبره أمام الدموع الصادقة التى ذرفتها حين اكتشفت أنه تم اقتلاع الكثير من الشجر الذى أحبته فى الحديقة لإفساح المجال لإقامة خيمة الزفاف.[٢٧] كان من الواضح أن الحديقة التى كانت تمضى فيها جُلّ وقتها لا تزال أهم من الدور المتوقع منها كامرأة متزوجة مسؤولة. وقد كان من الصعب عليه التواصل معها وهى تلهو وتركض فى أرجاء المنزل بملابسها الملطخة بطين الحديقة، أو وهى فى حالة تركيز لساعات طويلة فى تدريبها أمام البيانو. إذ بدا وكأنها تتناسى نفسها وما طرأ من تغيير على حياتها، وتتجاهل وضعيتها الجديدة. وفى أثناء ذلك، كان شعور على بالوحدة يتنامى وراح يُكثر من ذهابه إلى المنيا لكى يشغل أوقاته بأملاك العائلة.

وانحفرت بينهما فجوة يصعب تجسيرها، رغم روابط الزواج المقدسة، أو ربما بسببها. ولم يكن فارق السن بين الزوجين بالشيء غير المألوف فى حينها، ولكن سلوك الزوج والزوجة هو الذى كان هكذا. استمر على متعاطفًا مع زوجته-الطفلة ولم يحاول ممارسة حقوقه الزوجية. كان رجلًا مُقلًا فى الحديث، كثير العمل، عاطفيًا، سخيًا وعاقلًا. حنونًا ولكنه يفتقر إلى الجاذبية. وقد اعتقد، بلا روية، أن هدى ستتحول الى امرأة بين عشية وضحاها، ولكنه سرعان ما أدرك أن الحال ليس كذلك. فقد استمرت فى اللعب مع عمر فى الحديقة، أو الجلوس مع الجناينى متضاحكة على حكاياته، وفى أغلب الأوقات كانت تجلس أمام البيانو.

وشعرها الطويل منسدل على كتفيها، مأخوذة بنغمات المقطوعات الكلاسيكية التى كانت مولعة بعزفها. وإذا ظهر زوجها بالمنزل على غير انتظار كما كان يحق له، كانت أحيانًا تركض بعيدًا عنه وهى فزعى، يشلها خجلها، وخجله معًا. لقد كانا أسيرين للتقليد الذى يبيح اقتران من فى سنه بفتاة فى سنها، غير أن رد فعله إزاء الوضع الناجم عن ذلك، وهو ما دفعه فى النهاية إلى أن يظهر ضيقه المتزايد، كان فى النهاية مفتاحًا لتحررها.

ولأن هدى كانت مشغولة باللعب والموسيقى والدراسة، فقد كان يصعب عليها أن تلاحظ انعزاله المتزايد. كانت مودته فى الأيام الأولى تسعدها، ولكن موقفه حيالها بدأ يتغير. لقد سجنها بالمنزل من الناحية الفعلية، وكان يستجوبها عن أحاديثها مع صديقاتها عند استضافتهن، ويوبخها حين تعزف على البيانو، ويوجه لها نظرات حادة حين يمر أحدهما أمام الآخر. وبدأت هدى تبكى كثيرًا وتتنقل بين الغرف حاملة الكتب التى اعتقد على أن تأثيرها هو سبب دموعها[٢٨] ولكنها كانت صغيرة على استيعاب السبب فى تغير مزاجه على هذا النحو. وفى النهاية، وبعد أن سئم من الوضع، حنث على بالوعد الذى ألزم به نفسه أمام إقبال بأن تكون هدى زوجته الوحيدة، وعاد إلى قرينته الأولى التى رحبت به دونما معاتبة وحملت له أخيرًا ابنًا فى أحشائها.[٢٩]

ونقلت الأم لابنتها هذه الأخبار وأدركت هدى فورًا أن هذا من شأنه أن يتيح لها أن تستعيد حريتها. وشعرت براحة مفاجئة. وحين جاء على إلى المنزل بعدها حيّته بطريقة رسمية وهنأته بقراره الحكيم بالعودة لزوجته الأولى وبأنه أصبح أبًا. وقالت له أن يذهب بدون شوشرة لأم حسن، ابنه الوليد. لقد استاءت هدى من موقفه الذى يفرض عليها أن تتصرف كالبالغين ومن فشله فى محاولة ملاقاتها فى منتصف الطريق. لم يعرف أبدًا كيف يكون مرحًا. والآن وبما أنها

ليست بمتزوجة ولا بغير متزوجة، وبما أنه لن يكون هناك طلاق، كان فى وسعها أن تبقى فى منزل أمها مع شقيقها الحبيب عمر وبقية العائلة والأصدقاء. كان بإمكانها العودة ببساطة لحياتها السابقة. ورأت هدى أن هذا الوضع الفريد لامرأة متزوجة بدون وجود زوج يثقل عليها، يتيح لها أخيرًا أن تعكف على الحصول على تعليم حقيقي. وقد كانت هذه أمنيتها ورغبتها الأقرب إلى قلبها.

واستمرت أحوال المنزل على هذا المنوال. ففى ١٨٩٩، أى بعد ١٥ عامًا من وفاة سلطان باشا، ظلت إقبال كبيرة العائلة فى شارع جامع شركس، وبقى عمر يقيم بالقرب منها فى نفس الجناح. أما هدى فصار لها قسمها الخاص ولكنها كانت تضع غرفه تحت تصرف أعضاء الأسرة الآخرين حسب الحاجة. وأقامت جذب عاشق بالمنزل لعدة سنوات مع زوجها وإبنهما على الذى وُلد فى ١٨٨٩. كان الأطفال يستمتعون بنظام الحياة الأمومى وبحضور وانصراف الضيوف والأقارب فى رحاب هدوء المنزل الكبير بأجنحته المنفصلة وحديقته الواسعة. وحينما أصبح عمر شابًا بالغًا، أقام لنفسه جناحه الخاص فى ڤيلا منفصلة على أطراف الحديقة، على الطراز الشرقى الذى كان يحبه، وأشرف على تصميمها المعمارى الإيطالى الشهير انتونيو لاسياك. وأقام فيها مكتبه وكان يستقبل بها زواره الشخصيين.[٢٠] وكان مختلف أفراد المنزل يتزاورون بشكل رسمى إلى حد ما فى مختلف أجنحة وشقق القصر.

وإبان السنوات السبع التى تلت انفصالها عن علي، بدأ يصبح لهدى، التى كانت تتحول من طفلة إلى شابة صغيرة، حياة اجتماعية مع صديقاتها من النساء. ولما كبرت أكثر، تبنت سلوكيات المجتمع العصري، وراحت تدخن السجائر. وقد لعبت سيدتان دورًا بارزا فى حياة هدى الاجتماعية فى هذا الحين. إحداهما عديلة النبراوي، وهى سيدة راقية ومرهفة الحس، كانت لها اهتمامات ثقافية مشتركة مع هدى وكثيرًا ما كانت ترافقها إلى المسرح.

عديلة سيدة أنيقة ومثقفة وجميلة، تكبر هدى بقليل. كانت ابنة يوسف النبراوى باشا وأمضت طفولتها فى فرنسا حيث كان والدها دبلوماسيًا بالبعثة المصرية. كانت تتحدث الفرنسية بطلاقة وعلى اطلاع جيد بالأدب والمسرح الفرنسي. كانت متزوجة من ابن عمها، صبحى النبراوى الذى كان شديد التبذير ويلعب القمار. وكان يسافر كثيرًا وتصحبه عديلة فى ترحاله. كانت جميلة المحيا ورشيقة القوام، ذات بشرة ناعمة رقيقة بيضاء، وشعر بنى طويل كثيرًا ما ترفعه للخلف. ابتسامتها وديعة ودودة. والأهم من ذلك أنها كانت صادقة ومُحبة فى صداقاتها. وكانت تنادى هدى بـ "يا عزيزتي" أو "يا حُلوتي" وتحتضنها كما نفعل بطفلة صغيرة. كانتا تذهبان بانتظام إلى الأوبرا حيث كان لعديلة مكان محجوز لها فى معظم العروض وترتادان أيضًا مسارح أخرى تختارها عديلة التى كانت تتولى تنظيم أنشطة الخروج. وفى ١٨٨٦، تشاركتا فى حجز لوج خاص بهما فى دار الأوبرا بثلاثين جنيهًا، وأربعة أخرى لأى إضافات، مثل ستائر القماش الشفاف التى تضطر النساء للاختباء خلفها، رغم ارتدائهما للخمار. وقد اقتسمتا هذا الاشتراك حتى عام ١٨٩٥، حينما لم تعد عديلة قادرة على الوفاء بنصيبها فيه بعد تعقد الحالة المالية لصبحى النبراوى عقب محصول قطن خاسر.[٣١] ومنذ ذلك الحين تحملت هدى عن طيب خاطر ثمن الدخول بالكامل لحبها الكبير لارتياد الأوبرا ولصحبة عديلة. وبدأت تنتقى صديقاتها انطلاقًا أولًا من عشقها للمعرفة والثقافة. وفى دار الأوبرا، ازدادت معرفتها بالموسيقى والغناء الشرقى والغربى الكلاسيكي، علاوة على العروض المسرحية لنجيب الريحانى مثلًا أو أغنيات عبده الحامولى وزوجته ألمظ.

وكانت الاثنتان تتراسلان بانتظام.[٣٢] وكتبت عديلة تقول لهدى يومًا: "سوف يغنى عبده الحامولى وأبو خليل فى كازينو حلوان وسوف أحضر

الأمسية ويسعدنى كثيرًا إن حضرت معي. يمكننا أن نستقل القطار فى السابعة والربع ونكون هناك فى عشرين دقيقة ونعود بالقطار فى منتصف الليل أو الواحدة صباحًا". وبعد عطلة صيفية فى الإسكندرية، كتبت لها مجددًا تقول: "لا أستطيع أن أصف لك مقدار حزنى لتركك؛ فاعتيادى جمال الحياة بالقرب منك يزداد بداخلي". وذكرت أن الجو لا يزال حارًا فى القاهرة ولكنه يتحسن كثيرًا فى سبتمبر. كانت الرسائل تبدأ عادة بكلمة "حبيبتي" وتنتهى بـ "قبلتين كبيرتين". وكانت هدى تقضى الصيف فى اسطنبول بصحبة أمها إقبال كما اعتادتا فى أغلب الأحوال، فى منتجع جزر الأميرة الشهير ببحر مرمرة، بالقرب من المدينة، حينما بعثت إليها عديلة برسالة تُعلمها فيها بآخر من وضعت مولودًا ومن تزوجت، بما فيهن لوزة، أخت هدى الأكبر غير الشقيقة المقيمة بالمنيا.

وفى هذى السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر، كانت الصديقتان تلتقيان بالإسكندرية، عقب عودة هدى من تركيا، وأحيانًا تبقيان بالقاهرة إذا كان حر الصيف محتملًا. وكانت عديلة، التى لم تكن تستطيع الإنجاب، قد تبنت طفلة فى الثالثة تُدعى زينب مراد، وقد ولدت عام ١٨٩٦، وكانت ابنة لابن عم لها، رُزق بالكثير من الأبناء. ويُذكر أن مجلة ليجيبسيان (المصرية)، التى تصدر بالفرنسية قد نشرت خبر وفاته التى حدثت بعدها بوقت طويل.[٢٢] وقد سمَّت عديلة الطفلة سايزا، وتنطقها سيزا، على الطريقة الفرنسية. كانت تكرس لها وقتها وكثيرًا ما كانت تصحبها فى سفرات تقوم بها مع زوجها. وفى ١٩٠٠، أوفدت الحكومة صبحى النبراوى إلى باريس، لتنظيم الجناح المصرى بالمعرض الدولي. وبقيت عديلة هناك من يوليو إلى منتصف سبتمبر من هذا العام. وكان اصطحاب الطفلة فى رحلاتها يجلب لها سعادة بالغة لأنها كانت تشعر بالوحدة أثناء إقامتها بالفنادق.

كانت عديلة على اتصال دائم بهدى وتخبرها دائمًا فى رسائلها بمدى حزنها لبعدها عنها وكذلك بقلقها على صحتها. وكانت تعزو ضعف بنيان هدى إلى التدخين والكآبة، وتوبّخها أحيانًا برفق:

" والسبب أيضًا أنك لست عاقلة يا عزيزتي، فأنت مسؤولة بعض الشيء عن معاناتك. إنك لا تريدين أن تولى نفسك أى رعاية. بل إنك تحتاجين إلى الكثير من التريض والاستجمام، بدلاً الاستسلام للكآبة. أعلم أن حياتك رتيبة ولكن ما عسانا أن نفعل؛ علينا أن نجد علاجًا لذلك. أقول لك كل هذا كأخت كبرى يا هدى، فأنا بالفعل أكبر منك ويجب أن أكون قادرة على تعنيفك بعض الشيء. فلتكن لديك إرادة العناية بصحتك وتناول الأدوية التى كتبت لك بانتظام. ولو كنت متعقلة لأثبت قوتك بالإقلاع عن السجائر المُضرة التى أمرضتك من جديد".

وقد كشفت عديلة إحدى صفات هدى الأخرى فى رسالة كتبتها فى ١١ أبريل ١٩٠١، حين قالت لها :"أعلم أنك حين تغضبين لا تنسين بسهولة". وأضافت أنها كانت ستزورها لو أنها لم تخش من استقبال بارد وأنها تبقى فى كافة الأحوال صديقتها المخلصة إلى الأبد. ولم يُعرف السبب الذى كان وراء هذا البرود فى علاقتهما، وأيًا كان فقد نحّت المرأتان خلافاتهما جانبًا، حتى تتمكن سيزا الصغيرة من أن تشب بالقرب من "طنط هدى" العزيزة على قلبها والتى بدأت هى أيضًا تكتب لها رسائلها الخاصة وتضع بين طياتها الورود المجففة وترسل عبرها القبلات الحارة.

وبمرور الوقت، تدهورت الظروف المالية لعديلة بسبب تبذير زوجها. وكانت ترافقه من مدينة أوروبية إلى أخرى، لاهثة، بعد أن أصبحت ممارسته للقمار عادة لا يمكن الإقلاع عنها، واضطرت إلى ترك سيزا فى مدرسة داخلية بمرسيليا. وبعد أن كانت تبدو دومًا امرأة فى غاية الدقة، بدأت تظهر عليها

علامات عدم التركيز وكثيرًا ما كانت تغفل تحديد تاريخ رسائلها التى كانت تشعر بحاجة قوية لكتابتها. ورغبة فى الترويح عنها، بعثت إليها هدى بصور كلبها مع ليونتين، مديرة منزلها، ولكن سنوات عديلة الأخيرة كان يغلفها الإنهاك واليأس. وحينما خسر زوجها ثروته بالكامل فى عملية غير موفقة بالبورصة، أقدمت فى النهاية هذه السيدة الجميلة، الهادئة، الحكيمة والمفعمة بالأنوثة، على الانتحار فى ١٩٠٣، متجاهلة عرض هدى بإمدادها بالمال.

أما صديقة هدى الأخرى الأساسية فقد كانت الشركسية عطية السقاف. عطية كانت زوجة عمر السقاف، وهو تاجر ثرى من أصول يمنية، ولد فى سنغافورة وعاش حياة مليئة بالمغامرات. كانت عطية ثلاثينية حينما قابلتها هدى للمرة الأولى بعدما دعتها إقبال للإقامة بمنزل شارع جامع شركس حيث استقرت بضع سنوات. وكانت الاثنتان منفصلتين عن زوجيهما فى هذا الوقت. عطية، التى تكبر هدى بعدة سنوات، كانت أمًا لطفلين، محمد وهدى، وتعانى من القلق على مصيرها ولا تثق فى الناس بسبب حياتها المليئة بالمشاكل والشقاء. كانت فى حاجة ماسة للعطف والحنان وتتصف بحب امتلاك كبير. لذلك كثيرًا ما كانت هدى تضيق فى حضرتها. عانت عطية من الحب غير الموفق فى مراهقتها ويئست منها أمها وزوجها فقاما بتزويجها لعمر السقاف، الذى كان يقيم آنذاك فى المدينة، المدينة المنورة فى الجزيرة العربية. وكانت عائلة السقاف تزعم أنها من الشرفاء، أى من سلالة الرسول محمد، وقد حققت ثروة هائلة من التجارة فى جنوب شرق آسيا. غير أن عمر كان للأسف مولعًا بالنساء. وقد جُرحت عطية من جراء خياناته علاوة على أنها، كشركسية، كانت تعيب عليه بشرته السمراء. ومع ذلك، بقيت معه فترة طويلة. وقد عاد إلى سنغافورة فى ١٩٠٦، حيث أصبح من كبار الشخصيات، يعقد الكثير من اللقاءات العامة وبات إحدى ركائز الجالية العربية وشغل عدة مناصب مهمة فى الجمعيات العربية والإسلامية.[٣٤]

كانت هدى تتعجب من قوة التحمل هذه، وبدأت تتصور لأول مرة فى حياتها أنه من الممكن أن تُخضع امرأة نفسها لشخص آخر. عطية تدرك أنها تعلقت بزوجها رغم اشمئزازها منه فى البداية، ولكنها لم تعد تتحمل خياناته المتكررة. وحينما هربت منه، مصطحبة طفليها، لحقت بقافلة عازمة على السفر حتى منزل أمها فى تركيا، ولكن رجال القبائل من البدو اختطفوها. ولم ينقذها سوى ختم زوجها الذى أخذته معها، والذى يشهد على أنها زوجة لرجل من سلالة الرسول. وحينها أظهر لها البدو كل التبجيل. ورغم التقلبات التى لقيتها، فإن ذلك لم يضعف من تصميمها على ترك زوجها. وتمكنت فى النهاية من الوصول إلى القاهرة حيث لاقت إقبال التى دعتها إلى مشاركتها المنزل. كانت هدى لا تكل من سماع قصص عطية المثيرة. وبقيت الأخيرة عدة سنوات بالمنزل مع طفليها. ولكنها فى ١٩١٤ لحقت بزوجها فى سنغافورة.

وقد اكتسبت هدى صديقة أخرى خلال سنوات الحرية. وهى شابة فرنسية كان والدها مستشارًا بوزارة الدفاع فى مصر، اسمها لويزت. وكانت أصغر قليلاً من هدى، وتربطهما اهتمامات مختلفة الأنواع. كانت لويزت عفوية وودودة وتكتب رسائل قصيرة:

هدى العزيزة، عاد أبى إلى الوزارة، وخرجت الماركيزة لتوها، وذهب الجناينى يقضى مصلحة، ولذا فإننى بمفردي. إذا لم تكونى مشغولة تعالى لرؤيتي، يمكننا التجول فى الحديقة. سوف أريك كافة ورودنا الجميلة وأقطف لك أحلاها، فقط تعالى لانتقائها معى إن أردت. تعالى كما أنت يا عزيزتي، لا تغيرى ملابسك، سنكون وحدنا. فقط ضعى "حبرتك" عليك فحسب. إننى فى انتظارك، اتفقنا؟ تعالى بسرعة، بسرعة!! بسرعة!!

ولم تكن لويزت هى الآخرى موفقة فى الحب. فقد هربت فى فرنسا مع شاب فرنسى أصبح عشيقها ولكن والدها لم يقبل به. وخانها عشيقها وعادت إلى مصر حيث توفيت لاحقًا من الحمى. وقد تأثرت هدى كثيرًا بسبب ذلك. لقد دفعت وفاة عديلة ولويزت هدى إلى التفكير فى مجتمع هذه الحقبة. أوضحت لها أن مأزقها لم يكن يرجع فقط إلى البيئة الشرقية التى تعيش بها فى مصر. فقد أدركت إن محنة المرأة واحدة فى العالم أجمع. ولكن ذلك يعنى أنه فى الإمكان معالجتها، فى مصر وفى سواها كذلك. وبدأت تفكر بشكل غير واضح فى البداية، فيما سوف يطلق عليه لاحقًا مقاربة نسائية لمشكلات وحقوق المرأة. وقد خرجت من التجربة بدرسٍ شخصى أيضًا. إذ قرَّرت أن تحصِّن نفسها ضد أى نزوع للرومانسية؛ واعتبرتها ضعفًا ومصدرًا للتعاسة صمَّمت على تفاديه بأى ثمن.

كان "الصالون" هو نقطة انطلاق أى صداقات نسائية فى هذا الوقت. ففيه، كانت النساء تخلعن معاطفهن الفضفاضة وتتحررن من التزامات حياتهن، وتُعبِّرن عن أنفسهن بحرية بين بعضهن البعض. وفى أحد الملتقيات الاجتماعية من هذا النوع، قابلت هدى سيدة أخرى سيكون لها صدى كبير فى حياتها. كانت هذه هى أوچينى لوبران، التى كتبت عن زفاف هدى قبل وقت طويل من تعارفهما بشكل شخصي. كانت الفرنسية أوچينى زوجة حسين رشدى باشا، أحد كبار المسؤولين المصريين الذى سيصبح مستقبلا رئيسًا للوزراء. وقد تزوجها فى ١٨٩٢ فى فرنسا، حيث ذهب لاستكمال دراسته. وحينما أتى بها إلى مصر، عكفت على وصف العالم الإسلامى والمجتمع والعادات المصرية الإسلامية لقرائها الفرنسيين. وكانت كتبها تلقى تقديرًا كبيرًا فى الغرب حيث اعتُبِرت مدخلا إلى عالم يعتبر غامضا ولا يمكن الولوج إليه. وقد جاء كتاباها "الحرملك ومسلمات من مصر"، وهو يدور حول سلوكيات وأخلاقيات النساء المصريات، و"المطلقات"، وهو يتناول قضية الطلاق الشائكة فى مصر، بشهادات اجتماعية قيمة روتها سيدة ذات نظرة ثاقبة. وحينما التقى عمر شقيق هدى بأوچينى قرر تقديمها لها على ظهر عوامته الفاخرة التى يستقبل فيها أصدقائه.

وحينما التقت أوچينى هدى مجددًا، لاحظت أنها لم تعد طفلة وإنما امرأة شابة تنبئ بقدرات فكرية كبيرة. وجذبها تعطشها للمعرفة وتشوقها للتعلم، واهتمامها بالثقافات المختلفة. ونجحت أوچينى فى تعريف هدى بالأدب والثقافة الفرنسية واقترحت عليها اقتناء العديد من الكتب. كان ملؤها التصميم على مساندة المصريين الذين يناضلون ضد هيمنة بريطانيا على بلادهم. ونشأت دائرة من الأجانب والمصريين كان مركزها عوامة عمر على النيل. وضمت من بين من ضمت رشدى باشا وأوچيني، ومصطفى كامل، وچولييت آدم، وپيير لوتى والكثير غيرهم. وكانت هدى تُستقبل بترحاب دائم فى صالون أوچينى أيام السبت، حيث كانت النساء الأجنبيات والمصريات يلتقين للتحادث واحتساء الشاى والحلويات.

هذا وقد ساهم عمر فى اتساع مدارك شقيقته بشكل آخر. فخلال الرحلة التى قام بها إلى فرنسا فى صيف ١٩٠٤، كان يكتب لأخته رسائل مطولة.



هدى فى شبابها

وقد بعث إليها إحداها فور سفره فى ٢٢ يونيو، وقد أعادت قراءتها عدة مرات. لقد جعلها حماسه تشعر بأن عليها أن تسافر إلى فرنسا وتتعرف عليها بنفسها.

"قد تظنين أن السفر بالقطار ليوم كامل مُنهك حقًا. ولكنك مخطئة يا عزيزتى هدى. فالمرء لا يجد الوقت الكافى للإحساس بالزمن، حيث يكون مأخوذًا فى تأمل المناظر الطبيعية التى تتكشف أمام ناظريه. ويشعر وكأنه يجلس أمام مصباح سحري، وجمال مثير للإعجاب لا منتهى له. كنت مبهورًا، هذه هى الكلمة المناسبة، وشعرت بالأسف لسرعة القطار الفائقة التى لم تترك لى الوقت الكافى لمشاهدة جمال الطبيعة وإطرائه. إنها مختلفة كثيرًا عن أراضينا المستوية والمتساوية، وألوانها الواحدة، الفارق مذهل! لا شيء يتكرر هنا. من حقول القمح الذهبية المختلطة بحقول الكروم الخضراء وأشجار الخوخ الأزرق والأسود والأحمر والأصفر والأبيض، وكيفما عنّ لك. ثم يهبط الظلام أثناء عبور النفق وفجأة تجدين على يسارك البحر الأزرق وعلى يمينك جبل أشبه بحديقة إنجليزية على قمته غابة من الأشجار. ثم تأتى قرية، أو اثنتان أو ثلاث على مبعدة، تحيطها الحدائق وتعلوها الأسقف الحمراء، ثم مجرى مائى تظلله الأشجار، وبعده بحيرة، ومن يعلم ماذا أيضًا. لا يكلّ المرء من النظر والاستمتاع. ربما أستطيع حين نجلس سويًا أن أجعلك تدركين كافة الانفعالات التى اجتاحتنى وأنا أتأمل كل ذلك.

لقد كان عنفوان عمر الشاب وحبه اللا محدود للحياة وهو فى سنته الرابعة والعشرين بقدر اشتياقه للترحال إلى أماكن أخرى. وقد جعلته ثروته الضخمة محطًا للأنظار، ولكنه كان يتميز حقًا بثقته بنفسه وبإيمان صاف بقيمة الخير لذاته. وقد كان تأثيره كبيرًا على هدى فى جانب بعينه. ورغم ارتياده لدوائر علية القوم حينذاك، لم يفقد أبدًا محبته والإعجاب الذى كان يكنّه لعلى شعراوى منذ كان صبيًا، وكانت أعز أمنياته أن تعود هدى إلى زوجها.

-٢-

الخطوات الأولى فى العمل الاجتماعى

فى ١٩٠١، كانت هدى فى الثانية والعشرين وقد مر على انفصالها عن زوجها أكثر من سبع سنوات، بعد زفافها فى ١٨٩٣ الذى لم يتحقق فى الواقع أبدًا. وكان على شعراوى يرغب بشدة فى أن يصبح الزواج واقعًا فعليًا. كان عمر شقيق هدى فى العشرين حينئذٍ وكان قد خُطب منذ عامين للزوجة التى اختارتها له أمه إقبال، فتاة مصرية مليئة بالحيوية اسمها عنايات الدرمللي، ابنة عباس الدرمللى باشا. ولكن عمر كان قد أوضح لأمه أنه لن يتزوج إلا إذا عادت هدى لزوجها، على أساس أنه لا يريد أن يتركها لتنزوى وحيدة فى منزل العائلة الخاوى إلا من صحبة أمها. وكانت خطيبة عمر مُستفزَّة مما تراه قلقًا وسواسيًا من جانب عمر على أخته. ولكن عمر كان يأمل فى أن يسفر إلحاحه عن تجاوب هدى لدعواته إلى استئناف الزواج، والتى كانت تزداد إلحاحًا.

وقد طلب على مساعدة أصدقاء العائلة وأفراد من المحيطين بهدى. وذهب لأوچينى لوبران، التى يعرف أن هدى تستمع إليها وكذلك إلى آخرين تحبهم هدى، لكى يعرض قضيته ويسعى إلى وساطتهم. وتوجه إلى كل من اعتقد أن له بعض التأثير على زوجته الشابة. وجاء زبير باشا، الصديق القديم لسلطان

باشا، إلى المنزل لتوبيخ هدى لعدم عودتها لزوجها، قائلا لها إن الشائعات والأقاويل بدأت تتردد فى هذا الشأن. بل إنه ألمح بخشونة أنه هو نفسه يتساءل إن كانت مشاعرها تتجه إلى شخص آخر. وقد أغضب هذا هدى وردت فى حنق أنه لو كان والدها لا يزال على قيد الحياة لما تجرأ أحد على التحدث إليها بهذه الطريقة، واندفعت خارجة من قاعة الصالون العامة فى شارع جامع شركس وانزوت فى غرفتها الخاصة. وقد حاول الشيخ على الليثي، الذى كانت تكن له معزة كبيرة،إقناعها بتغيير رأيها ولكنه تراجع فورًا حين أدرك مدى انزعاجها الحقيقى من المسألة.(١)

وبدأت تكتئب لموجة الإلحاح على وجوب استئناف زواجها، إضافة إلى معاتبات على المتواصلة. فأعلنت توعكها وتمارضت طيلة شهرين فى صيف ١٩٠١، فى الوقت الذى استأجرت فيه إقبال منزلًا صيفيًا فى منطقة الرمل الراقية على الشاطيء بالأسكندرية، حيث هجرت هدى أصدقائها مدعية أنها فى فترة نقاهة. وخلال هذه الإقامة فى الأسكندرية، بدأت هدى بالصدفة، فى إحراز ضربة صغيرة من أجل الحرية النسوية، فى التسوق بنفسها، بدلاً من الاعتماد على الخدم فى شراء ملابسها. كانت ترتدى ملابسها التقليدية وتضع خمارها، وتذهب برفقة لالا سعيد إلى أحد المتاجر الكبرى. وكانت نظرات سعيد الشرسة تخيف البائعات اللائى تساءلن عن هذه السيدة وعن سبب الحراسة الشديدة التى كانت حولها. واستمرت هدى فى شراء أغراضها حتى أقرت إقبال أن ما تجلبه بنفسها من مشتريات وأثواب أعلى جودة وأقل سعرًا. وبعد ذلك كانت الأم والابنة تذهبان معًا للتسوق، و أصبح هذا عادة جارية.

وأخيرًا جاء علوى باشا، طبيب العائلة والصديق القديم، ليرى هدى، ويُذكّرها بأن عمر يؤجل زواجه من أجلها. وأحست أنها تخضع للابتزاز فردت

برقة أن عليها إذن أن تُذعن إن عاجلاً أو آجلاً لمحاولات زوجها للصلح. وتمثلت حيلتها فى وضع شروط تصورت أنه لا يمكن لعلى القبول بها، إذ اشترطت أنه يتوجب على على أن يترك زوجته الأولى بغير رجعة، كما كان قد وعد فى البداية. ويمكن القول إن الوقوف ضد تعدد الزوجات كان الموقف السياسى الأول الذى اتخذته هدى فى حياتها بدون أن تدرك حينها طابعه السياسي. لم تكن لتقبل أن تكون زوجة ثانية وهذا ما دفعها إلى إعلان أول قائمة طويلة من المطالب السياسية التى تقدمت بها خلال حياتها.(٢)

ولكنها كانت مخطئة فى اعتقادها أن عليًا لن يتخلى أبدًا عن أم ولده الوحيد. فهذا ما فعله تحديدًا. إذ يَبدو أنه قد أصبح غير مفتون بها مع تقدم العمر، وإن كانت مطيعة وتتجاوز برضاء عن كل نزواته. بينما كان معجبًا بتطور هدى وخبرتها المتزايدة بالحياة ووعيها بأهدافها واستقامة سلوكياتها. ووجد نفسه متلهفًا إلى رفقتها. وفوجئت به يستجيب لكل شروطها ومطالبها. بل إنه قد فوجيء هو شخصيًا بأنه قد وقع فى حب عميق لهدى وامتلأ إعجابًا برفضها الصارم لكل ما يتعارض مع قناعاتها. ولكنه يدرك فى الوقت ذاته أنها إن كانت قد وافقت على العودة إليه فذلك بسبب الدور المهم الذى أصبح يلعبه على الساحة السياسية وبأنها سيُتاح لها بالتالى استخدامه لتنفيذ أفكارها الخاصة بالإصلاح. كانت هدى عملية منذ البداية. وإن كانت تراعى المسائل العائلية. واستطاع إقناعها بأن عيشهما المشترك معًا من شأنه الحفاظ على أملاك الأسرة مما يمنحهما مزيدًا من السلطة الاجتماعية والسياسية. وفى ١٩٠١، استأنف على وهدى حياتهما معًا وكان تأثير عمر حاسمًا فى إتمام الصلح.

وخلال سنوات الانفصال السبع كانت هدى قد غدت شابة جميلة، مكتملة النضج، على دراية واسعة بالثقافة الشرقية والقضايا الأكاديمية الغربية.

فقد درست القرآن والعلوم الدينية وقرأت كثيرًا فى التاريخ والأدب الفرنسى والعربي. وعلى الصعيد الثقافي، تطورت فى تعلم الموسيقى وأصبحت عازفة بيانو بارعة. لقد طوَّرت بشكل عام رؤية واضحة للحياة، ونمَّت لنفسها عقلية مستقلة. وقد صمَّمت أن تحيا ما تبقى لها من الحياة باعتدال، وألا تقع فريسة للاندفاع والانفعال، وأن تستغل الوقت المتاح لها على أفضل نحو. ولكنها كانت تعرف أنه سيتعين عليها فى حياتها الزوجية أن تصل لحلول وسط مع زوجها الذى كان قويًا وشخصًا صلب الإرادة. فلم يكن الصدام بينهما واردًا، لأن عليًا كان يقدِّر اهتمام هدى المبدئى بمستقبل بلدها وبالمجتمع المصري. وقد وقع الخلاف الوحيد بينهما بعد وقت طويل، حينما شعرت أنه لم يلتزم بالمبادىء العليا التى كان قد وضعها لنفسه. وكان نشاط هدى السياسى والاجتماعى الخاص قد بدأ بالفعل، حتى قبل عودتها إلى زوجها. إذ انضمت، فى وقت مبكر يعود إلى ١٨٩٥، إلى لجنة لمساعدة تركيا أنشأتها زوجة رياض باشا إبان الحرب اليونانية-التركية. وكانت هذه أولى تجاربها فى الحياة العامة وقد تعلمت منها الكثير، برغم صغر سنها.(٣)

وما إن اتخذت هدى قرارها، حتى بدأ موضوع زفاف عمر يمضى قدمًا. وقد أتى يومًا إلى جناحها إبان إعداده لترتيبات الزواج، لمناقشة شكل الاحتفال. كانت خطته إقامة حفل صغير وتوزيع المال الممكن إنفاقه على زفاف باذخ على الفقراء. إذ يوجد فى المنيا جيش من العجزة والمعدمين تتولى الأسرة الإنفاق عليهم منذ سنوات طويلة. وكان من رأى عمر صرف هذا المال فى أشياء أكثر فائدة من الاحتفال بالزفاف.(٤) ولكن هدى كانت تريد أن يكون زواج شقيقها يومًا لا ينسى وجادلت بأنه لدى عمر من الثروة ما يكفيه لإقامة احتفال فخيم والتصدق بوسائل أخرى فى آن واحد. وانصاع عمر لنصيحتها وكان حفل قرانه

حدثًا لا يُنسى. وقد كتب الشاعر خليل مطران، أحد مدعوى عمر إلى الحفل، مقالاً فى المجلة المصرية، سجل فيه الانبهار بثلاثة أيام بلياليها من الاحتفالات.

وبمناسبة استئناف حياته الزوجية مع هدى، شيَّد على شعراوى منزلاً جديدًا رائعًا فى ٢شارع قصر النيل، لدى تقاطعه مع شارع شامبوليون، أحد الطرق الرئيسية بقلب القاهرة، وعلى بعد خطوات من قصر عائلة سلطان باشا القديم فى شارع جامع شركس. كان المنزل الجديد يقع فى مواجهة المتحف المصرى الذى شيَّده مارييت باشا ويطل على قصر قصر النيل الذى كان قد تحول إلى ثكنات عسكرية بريطانية.[٥] وقد شُيِّد المنزل على الطراز الغربى الحديث الرائج آنذاك. وقد بنى غلى منزلاً آخر فى المنيا التى كان يقضى فيها الكثير من وقته. وكان يأمل فى إقناع زوجته بالاستقرار معه فى المنيا لمساعدته فى إدارة الأراضى هناك وخلق حياة جديدة لهما فى صعيد مصر. لم يدخر جهدًا فى جعل منزل المنيا جذابًا لأقصى درجة وكان مُحاطًا بحديقة ساحرة. تميزت غرف الجلوس بالفخامة، بشمعداناتها الكريستالية الضخمة ومراياها الطويلة المُذهَّبة الأطر وأثاثها المُذهَّب وسجادها الفارسى الممتد، بينما طغت البساطة والدفء المريح على غرف النوم وحمامات الطابق العلوي. كان حمام هدى غارقًا فى النور، المنبثق من أكواب الزجاج الملون المعشقة فى الشريط الجبسى المزين للسقف. والتى كانت تطلق دفقات من النور والألوان القوية فى الحمام وتخلق جوًا حالمًا وإن كان ساطعًا. كان إنجازا معماريًا يعلو قرية مهجورة تسمى بانى محمد شعراوى، فى منطقة المنسفيس على بعد ١٦ كيلومترًا جنوبى المنيا، حيث كان الفلاحون يعيشون على عتبة قصر الباشا.

وقد أمضت هدى فى الشهور الأولى لعودتها إلى زوجها بعض الوقت فى المنيا. وركَزت اهتمامها على محنة فقراء الريف وقررت العمل على تحسين

أوضاعهم. وكانت على يقين من إمكان عمل الكثير للارتقاء بمستوى معيشتهم. غير أن العادات الجامدة والحواجز الاجتماعية فى المجتمع الصعيدى جعلت من الصعب عليها التعامل مع أوضاع الناس. وبصفتها سيدة القصر، كانت الأعراف الاجتماعية تعوقها وتحول بينها وبين الاقتراب منهم. وخلصت هدى إلى استحالة مهمتها هناك وقرَّرت أن مجال عملها يجب أن يكون فى القاهرة، حيث الإصلاح ممكن. إذ يمكنها فيها مثلًا حشد مساندة الشخصيات النافذة، بمن فيها الكثير من أعضاء العائلة المالكة. وعلى أية حال، حين حملت هدى بعد وقت قصير من استئناف حياتها الزوجية، بدا أن السيف قد سبق العذل. وشعرت أن عليها العودة إلى القاهرة للحصول على الرعاية اللازمة لها ولطفلها القادم.

وفى غضون ثلاث سنوات، رُزق هدى وعلى بطفلين. وُلدت ابنتهما التى سمَّياها بُثنة فى ١٩٠٣، وتبعها صبي، هو محمد، فى ١٩٠٦. وقد شغلا وقت هدى لعدة سنوات لتصميمها على العناية بهما بنفسها لأطول فترة ممكنة، رغم استعانتها بمربية بالطبع. وقد كانت بُثنة ضعيفة الصحة مثل عمر شقيق هدى فى طفولته، وأصبحت هدى أمًا يغشاها القلق، تُولى كل اهتمامها للطفلين. وسرعان ما استغرقها دورها الجديد فى الحياة. وقد ازدادت هواجسها حين شبَّت النار فى الذهبية التى كانت تعتليها عائلتها الصغيرة على النيل فى القاهرة. و كانت الذهبية راسية فى المرسى؛ مما جعلهما هى وعليًا قادرين على إنقاذ نفسيهما وإنقاذ الطفلين، وأدركت كم كانا محظوظين لذلك. وأثناء الحادث، شعرت بالصدمة لعدم مبالاة المارة وبلادتهم تجاهها هى وعائلتها وهم يحاولون الهرب من النيران.[٦]

وخلال السنوات التى كان لا يزال فيها طفلاها صغيرين، كثيرًا ما كانت تسافر معهما ومع أمها وجِذب عاشق إلى اسطنبول، حيث كانت السيدتان تحبان قضاء عطلاتهما. وكان شقيقا إقبال الشركسيان، يوسف وأحمد إدريس، ما زالا

يقيمان فى نفس المدينة الصغيرة على ميناء بانديرما، التى كانا قد استقرا فيها منذ البداية. وعلى غرار الكثير من الشراكسة فى بداية القرن الجديد، كانا قد جعلا من تركيا موطنهما وأصبحا يتحدثان التركية حتى مع أحدهما الآخر. وكانت العائلة بكاملها، الزوار القاهريون والخالان الشركسيان، يذهبان أحيانًا إلى جزر الأميرات ببحر مرمرة، حيث كان آل خلوصي، أصدقاء عائلة سلطان، يمتلكان منزلاً صيفيًا فى جزيرة كينالي.(٧)

وفى هذه السنوات الباكرة، كانت صحة بُثنة المعتلة سببًا لإقامة طويلة لهم فى اسطنبول. إذ نصح الأطباء هدى باصطحابها إلى خارج مصر فى الصيف لتغيير الجو وتلقى العلاج الطبي. وكانت هدى تريد الذهاب إلى أوروبا ولكن على لم يوافق على السفر بالطفلة لأبعد من تركيا، رغم أنها هدَّدته بأنه إذا حدث شيء لبُثنة فسيكون هو السبب وسوف تفارقه ثانية وهذه المرة إلى الأبد. فقد أصابتها حساسية مفرطة فيما يخص سلامة ابنتها، إلى حد أنها كانت ترفض الابتعاد عنها لأى فترة ولو كانت قصيرة. إلا أن حالة الطفلة لم تتغير حين عادت بها من تركيا إلى القاهرة. ولحسن الحظ، اتصلت أوچينى بأخصائى كانت قد شرحت له الحالة، وشخَّصها على أنها إصابة بالملاريا. وعندها تم اتباع العلاج السليم وأخذت الطفلة تستعيد صحتها تدريجيًا.(٨)

حتى ذلك الحين، لم تكن هدى قد حدَّدت لنفسها بوضوح دورًا سياسيًا، وكان النشاط العام الذى تشارك فيه يتم بشكل أساسى من خلال شقيقها وزوجها. كان الاثنان قد اكتسبا نفوذًا بفضل وضعهما فى المجتمع وثروتهما الطائلة، غير أن أمانتهما الجلية ورشادة خططهما، ساهمتا فى بناء مصداقيتهما. وكان كلاهماعلى استعداد عند الضرورة لبذل المال من أجل تمويل مشروعات تخدم الصالح العام، ولمنح الدعم المالى اللازم للساسة الذين يخدمون القضايا التى

يؤمنان بها. كان عمر من الممولين الرئيسيين للحزب الوطنى الذى يتزعمه مصطفى كامل، والذى أنشيء فى ١٨٩٤، وصحيفتيه العربية اللواء والفرنسية الراية المصرية، اللتين أصدرهما كامل فى ١٩٠٠. كان عمر مرتبطًا عاطفيًا وفكريا بالحزب الوطنى ويساند بقوة مصطفى كامل الذى أصبح بطلاً قوميًا، وضع رحيل بريطانيا عن مصر على رأس أهدافه. وإن كان اهتمامه بالإصلاح الاجتماعي، بما فى ذلك الإرهاصات النسوية الأولى التى بدأت تُثار، أقل قوة. وكان كامل قد التقي، من خلال عمر، الذى نجح فى دخول عالم النخب الاجتماعية والفكرية بفرنسا، بالكاتبة والناشرة الجمهورية چوليت آدم، التى أودعها ثقته واعتبرته بمثابة ابنًا لها. وكتب لها رسالة مفتوحة مؤثرة يطلب فيها مساندتها لنضاله ضد الاحتلال البريطاني، قامت بنشرها فى الصحافة الفرنسية.

كان لورد كرومر هو العدو بالنسبة لمصطفى كامل، إذ كان فى واقع الأمر رئيس الإدارة البريطانية فى مصر. وانتهج فى تعامله مع المعارضة المصرية أسلوب "توجيه الضربات القاتلة"[٩]، كما جاء على لسانه. وفى ١٩٠٤، وقد تساءل كامل كيف يمكن لرجل يناضل بلده من أجل الحرية، وتدّعى حكومته تبجيلها للحرية وتضعها فوق أى اعتبار، يتفاخر بأنه "وجّه ضربة قاتلة" للمعارضة، بما يعنى الحرية ذاتها فى مصر؟ وقال إن المصريين لا يمكنهم التخلى عن حقهم فى التعليم والعدل لأى سبب كان. وكان إهمال كرومر للتعليم فاضحًا، ومبدئه فى ذلك أن تعليم المصريين ليس أكثر من تشجيع لمثيرى الشغب. وقد لفت كامل الانتباه إلى التثبيط المتعمد لصناعة الغزل فى مصر، على غرار النموذج الذى أرساه البريطانيون فى الهند، الذى تكون المستعمرات بمقتضاه بمثابة أسواق للصناعة البريطانية. وتحدّث أيضًا عن عداء كرومر الجلى للإسلام وقناعته الواضحة بأن الحركات الإسلامية تعد تهديدًا للغرب. وإضافة إلى ذلك هل تعد السودان جزءًا من مصر أم لا؟ وهل ستسمح بريطانيا لمصر بأن تكون حرة ومزدهرة، وهل

ستمد حريتها وازدهارها إلى الضفاف العليا لوادى النيل؟ وسرعان ما وافقت هدى مصطفى كامل فى الرأى أن كرومر يملؤه حقد شخصى ضد مصر، ويمثل الإرادة الاستعمارية فى الهيمنة على الآخرين. بل إنه قد وضع العراقيل أمام إنشاء مشروع الجامعة المصرية[١٠] فى ١٨٩٠.

وفى ١٩٠٤، استضاف عمر كلاً من مصطفى كامل وچوليت آدم والأمير حيدر فاضل، فى رحلة إلى صعيد مصر على ظهر ذهبيته. وقد وعدت چولييت خلالها بأنها ستفعل كل ما فى مقدورها لمساعدته هو وأصدقائه فى تحرير مصر. وكانت زينب فهمي، قرينة الأمير حيدر، التى كانت أيضًا الابنة الكبرى لعلى فهمى ومنيرة صبري، من بين أعضاء الحزب المشاركين فى هذه الرحلة، وقد رتب عمر لهم جميعًا ترحالاً فخمًا أينما حلوا. وتولى عمر منصب أمين سر الحزب الوطنى لدى تأسيسه كحزب سياسى فى ١٩٠٧. ويبدو أن إقدام مصطفى كامل على إنشاء حزب سياسى رسمى حينها جاء جزئيًا كرد فعل على تأسيس حزب الأمة، الذى يفترض أنه أكثر اعتدالاً، والذى كان على شعراوى مشاركًا فيه.[١١]



مصطفى كامل (إلى اليمين) وعمر سلطان (إلى اليسار).

كان على شعراوى وأصدقاؤه أقل ثورية من أنصار مصطفى كامل، ويفضلون مقاربة الإصلاح بشكل تدريجي، من خلال الوسائل القانونية. وتعد الحملة التى بدأها على فى ١٩٠٧ للمطالبة بوضع دستور أوضح مثال على أسلوبه. إذ تم، ردًا على التقرير النهائى لكرومر، صياغة بيان كتبه اسماعيل أباظة، وشارك فى توقيعه معه كل من على شعراوى وأحمد يحيى باشا، الذى كان من أثرياء الإسكندرية ومن المحبين لفعل الخير، وآخرون. وقد شدَّد البيان على الحاجة إلى دستور، وإلى تحقيق لامركزية السلطة تدريجيًا، إضافة إلى ما أسموه "تحوّل صحى للحكم فى مصر". إذ لم يشتبكوا، كأعضاء فى المجلس التشريعي، مباشرة مع البريطانيين وسعوا بدلاً من ذلك إلى الوصول للحكم الذاتى من خلال التفاوض. وكانوا يرون أن نقل السلطة من الإيدى البريطانية إلى المصرية لا يمكن أن يتحقق إلا بالتدريج، وأنه يتطلب عملاً شاقًا. كما كانوا واعين أنه لا يمكن للسائلين، فى ظل ظروف الاحتلال العسكرى القائمة، أن يختاروا. وأن مفتاح النصر يكمن فقط فى الصبر وفى اختيار اللحظة المناسبة للتحرك. وقد وجدوا فى السير ألدون جورست، المعتمد السامى البريطانى الذى خلف كرومر، محاورًا منفتح العقل، وقد نجح فى إقامة أسس للتعاون بين الحكومة المصرية وبريطانيا. إلا أن وفاة جورست فى يوليو ١٩١١، واستبدال لورد كيتشنر به، أكَّدت لهم بشكل أكثر وضوحًا أهمية التأثير الشخصى للمسؤول الفرد. فقد وضع وصول كيتشنر إلى منصبه نهاية للمصالحة والحوار مجددًا.

وبالتوازى مع هذا، كان مصطفى كامل يحقق، وحتى موته المبكر، قوة متزايدة فى الحياة السياسية والحركة المناهضة لبريطانيا. فلم يُفوِّت فرصة إلا وانتهزها، على نحو ما حدث فيما عُرف بمحاكمات دنشواى فى ١٩٠٦، حين قُتل ظابط بريطانى فى مشاجرة بين بعض الفلاحين المصريين وبين فريق من

الضباط الإنجليز الذين قتلوا باستهتار إحدى الفلاحات أثناء صيدهم للحمام فى حقول الفلاحين. وقد خلص الأمر إلى الشنق العلنى لأربعة من المصريين المزعوم ضلوعهم فى القتل وعوقب كثيرون آخرون بالجلد. وقد ساهمت الاضطرابات التى أثارها هذا العقاب الجماعى فى قرار كرومر بالاستقالة في١٩٠٧. [١٢] ولكن للأسف الشديد توفى مصطفى كامل من مرض الدرن فى ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره، بعد أن أصبح قوة حقيقية فى السياسة المصرية، ويرأس حينئذ الحزب الوطنى ويُصدر أربع صحف، ثلاثًا منها يومية، ويقضى حياته فى إطلاق الحملات والكتابة ومهاجمة الاحتلال البريطاني. إلا أن الجهد الرهيب لنشاطه قد أثر على صحته، علاوة على فقد أمه فى ١٩٠٧، وهو ما دمر معنوياته. وقد أثار موت مصطفى كامل موجة عارمة من الحزن على امتداد البلاد وعرضها. وكانت جنازته حدثًا مهيبًا. فقد شكل موته خسارة فادحة لكل من عرفوه، وقد استشعرت هدى أيضًا هذى الخسارة، ليس فقط بسبب الألم الذى اعتصر قلب عمر من جراء فقد صديقه الحميم؛ بل لأن مصطفى كامل كان قد أصبح الناطق باسم الوطنية فى مصر، ولم تكن تدعمه فى ذلك الطبقة السياسية فحسب بل أيضًا جموع الشعب الغفيرة. وحينما توفي، تحولت طموحاته وشكوكه لتصبح ميراثًا للآخرين، بمن فى ذلك عمر سلطان وعلى شعراوي، كل بطريقته الخاصة.

وظل عمر مرتبطًا بحزب كامل الوطنى طيلة حياته. أما علي، فقد بقى عضوًا فى حزب الأمة، رغم اعتزازه بذكرى كامل. وقد كان انخراط هدى ذاتها فى السياسة الوطنية وفق ذلك أمرًا لا مناص منه فى حقيقة الأمر. لقد كان على واعيًا بشدة بقدرات هدى، كما كان سابقًا لعصره فى إيمانه بأن المرأة قادرة على أن تلعب دورًا فى الحياة السياسية. وعقب وفاة كامل فى ١٩٠٨، استخدم على اسمه، كعضو فى المجلس التشريعي، من أجل جذب المزيد من المناصرين

لنداء جديد يطالب بمشاركة أكبر للمصريين فى حكم بلادهم، ودعا إلى وضع دستور وفق النموذج الذى كان يقترحه الأتراك الشباب فى اسطنبول.

وساندت الصحافة حملته. وتوجه وفد برئاسة اسماعيل باشا أباظة إلى بريطانيا للتفاوض مع الخارجية البريطانية على تحقيق الحكم الدستورى فى مصر. وطلب الخديوى عباس من ألدون جورست، الذى كان معروفًا برجل المصالحة، أن يساند مهمة وفده. وقد حصل جورست من أباظة قبيل سفره إلى لندن على وعد بأن المباحثات سوف تقتصر على أن يُسمح للمجلس التشريعى بدور أكبر فى الحكم المصري، بدون ذكر قضية الانسحاب البريطانى الجوهرية. ولكن على كان يرغب فى تنازلات أكبر؛ وبالتالى سحب مساندته للوفد قبيل سفره. وطالب جورست بإحياء قانون ١٨٨١، الذى كان يسمح بالرقابة على الصحف، تخوفًا من المزيد من الإثارة السياسية.. وهدَّد سعد زغلول ردًا على ذلك بالتخلى عن منصبه كرئيس للمجلس التشريعى وتم تعديل القانون قبيل إعادة تطبيقه. ورغم ذلك جرت مظاهرات ضخمة وطالب على فى جلسة ١٣ أبريل بسحب القانون ومراجعته. وتم استبعاد طلبه فخرجت المظاهرات قوية ضد البريطانيين والخديوي. وبالتالي؛ أصبح الوضع السياسى شائكًا.[١٣]

وفى هذا الوقت، فى ١٩٠٨، تلقت هدى صدمة قوية لدى وفاة صديقتها المقربة أوچيني. كانت الأخيرة قد تحملت بصبر رائع مرضًا قاتلًا، رغم تدخل جراحى غير ناجح فى باريس. ومع ذلك تحاملت على نفسها لكى تبعث لهدى، من خلال على الذى كان فى زيارة لفرنسا، تطلب منها ألا تترك نفسها فريسة للاكتئاب كما فعلت عند وفاة صديقات أخريات.[١٤] ومع ذلك ظلت هدى لفترة طويلة عاجزة عن تجاوز حزنها لفقد أوچيني. وفقدت شهيتها للطعام وراحت تدخن بشراهة لم يسبق لها مثيل، وأصبح يستحوذ عليها خوفها على أولادها.

وصحتهما، وحالتهما المزاجية وتربيتهما وسلامتهما. وعلى الرغم من نصيحة أوجيني؛ أصيبت هدى، كما حدث فى الماضي، بالاكتئاب. وتذكرت النصيحة التى كانت ترددها لها عديلة، بعدم الرضوخ للحزن. كانت هدى تفتقد عديلة وتشعر بأنها أهملتها فى حياتها وتغرق عند أى لحظة فراغ فى انشغالاتها اليومية، فى التفكير فى حياتها وما فاتها تحقيقه فيها.

وتأثرت هدى فى الفترة ذاتها برحيل آخر، حين توفى قاسم أمين فى ١٩٠٨ فى سن مبكرة، وهو لا يزال فى السابعة والأربعين.[١٥] وكان أمين محاميًا ترقى فى سلك القضاء إلى أن أصبح قاضيًا وكان من أوائل المناصرين المنادين بحقوق المرأة فى مصر. وقد صدم النظام بصراحته الشديدة فى هذه القضية. وكان من حواريى الراحل محمد عبده ونصيرًا عتيدًا لحزب الأمة. كما كان واحدًا من أولئك الذين كانوا مسئولين عن إطلاق مشروع جامعة القاهرة. وقد دافع بقوة عن حقوق المرأة فى كتابه "تحرير المرأة" الذى صدر فى ١٨٩١، وهو موقف أكسبه أعداء كثيرين. وقد طرح فى كتابه فرضية مدهشة مفادها أن الوضع المتدنى للمرأة فى مصر عنصر مُساهم فى استمرار خضوع مصر للهيمنة البريطانية. وقد هاجمت الصحافة كتابات أمين بعنف، وأصبح هو ضحية للعداء والإقصاء الاجتماعى من قبل منتقديه المحافظين. ويبدو أن اكتئابه لرد الفعل العنيف الذى أثاره كتابه قد ساهم فى وفاته، إلا أنه لم يتراجع أبدًا عن وجهات نظره.

وخلال هذه السنوات، وفى ظل الاضطراب السياسى فى مصر، كان عمر وعلى يهتمان كثيرًا بالتعرف على آراء هدى. بل كانا يذهبان إليها بشكل متزايد ليناقشا معها طموحاتهما السياسية وآمالهما لمستقبل مصر ووجهات نظرهما حول الأحداث الراهنة آنذاك. وكان لهذه الأحاديث عظيم الأثر عليها واستخلصت

منها درسًا مهمًا مفاده أن السلاح الأمضى للطرف الأضعف في أى صراع سياسي، يكمن فى الصبر والتصميم. وقد أدركت من تدخلات على الحازمة فى البرلمان أن المعارك يمكن أن تُكسب فقط بفضل الانتصارات الدستورية. وأن المعارضة الفظة والعنيفة لن تفضى إلا إلى سحق الطرف الأكثر ضعفًا. وقد كانت تؤمن بأن تمرد عرابى الذى كان سيء التنظيم، قد مهد السبيل للاحتلال البريطاني.

ومع مرور الوقت، وفى حين استمر على فى متابعة الحوار على المستوى الحكومى والدستوري، شرع عمر يسلك طريقًا آخر، على خطى والده سلطان باشا الذى كان يأمل أن يمتد به العمر ليشهد ميلاد مؤسسات مصرفية أهلية فى مصر. وكرّس عمر المزيد من جهوده لتنمية الاتحاد الزراعي، القائم على تطوير التعاونيات. كان دائم الانشغال بمصير الشعب البسيط ويهفو إلى تحسين حياته بأقصى ما يستطيع. وقد أثمرت خططه فى ١٩١٥، حين شارك فى إقامة أول تعاونية زراعية مصرية أصبحت المصدر الرئيسى للائتمان بالنسبة للفلاح.[١٦] وقد ناضل عمر أيضًا لجمع رأس المال من أجل إنشاء بنك مصر الذى قرّر له هذا الاسم لتمييزه عن البنك الأهلى الذى كان قد أسسه البريطانيون. وكان هدفه تعبئة المستثمرين لإنشاء بنك مصرى من أجل تنمية الصناعة المصرية المحلية، القائمة على رأس المال المصري. وكان تدفق رأس المال الأجنبى فى مصر قد راح يتصاعد منذ بدء التدخل الأجنبى فى ١٨٨٢، وكانت التسهيلات الممنوحة من البنوك الغربية تذهب حتمًا إلى المستثمرين الأجانب، بما يستتبعه ذلك من إضعاف قدرة التجار المصريين على المنافسة مع الأوروبيين. لقد كان لدى كبار ملاك الأراضى المصريين العاملين فى تجارة القطن إذن، ومنهم عمر، أسباب وجيهة تدفعهم إلى تأسيس بنك مصري. وقد انتهج عمر الخطة التى كان قد

وضعها والده وعمر لطفى باشا، وشن حملة لتعبئة أقرانه من مُلاك الأرض فى المنيا، رغم أن البنك لم يرَ النور إلا فى وقت لاحق، بعد وفاة عمر المبكرة.

وفى هذه السنوات السابقة على الحرب، كان الجو السائد، عمومًا، على الصعيد السياسى والاجتماعى فى مصر مواتيًا للإصلاح. فأعضاء الأسرة الخديوية أنفسهم كانوا يسعون إلى تطوير التعليم. ولا يتعاطفون مع الحكومة وعلاقاتها بالبريطانيين. وكان فى مقدورهم أن يفعلوا الكثير لتحسين أوضاع الشعب المصري. وكانت الأميرة شيشمى عفت، زوجة الخديوى اسماعيل، قد أنشأت مدرسة السنية الثانوية للبنات منذ ١٨٧٦. وأسَّس ابنها الأمير فؤاد، الذى أصبح الخديوى فيما بعد، الجامعة المصرية بالقاهرة، بمساعدة شقيقته الأميرة فاطمة اسماعيل، التى تبرعت بأراضيها ومجوهراتها من أجل ذلك. وقد عارض كرومر هذا التحرك ولكنه تركه يمضي. وكانت هدى تتابع عن كثب تطورات الجامعة.[١٧] وفى الوقت ذاته، أقام الأمير يوسف كمال عام ١٩٠٨ مدرسة الفنون الجميلة، وقد لقيت دعمًا أقل رغم كونها ذات أهمية كبرى فى مجالها.

وفيما يخص النساء المصريات، كان مجال النشاط المتاح بدرجة كبيرة فى ظل الاحتلال البريطانى هو إقامة منظمات خيرية. إذ كانت توجد جمعيات خيرية بريطانية تُدعى إليها السيدات المصريات كأعضاء زائرات دون أن يُسمح لهن بالحديث أو التصويت، وهو ما كان محبطًا لهن. كُنّ يُدْعوْن للإسهام بالمال والمساعدة فى بعض الأدوار الثانوية، ولكن إدارة الجمعيات ظلت فى أيدى البريطانيات. وكانت هدى قد رفضت إحدى هاته الدعوات لحضور حفل شاى أقامته زوجة كرومر الثانية، لتوجيه الشكر للسيدات المصريات اللائى موّلن مستوصفًا تم بنائه بتمويلات مصرية على شرف الليدى كرومر الأولى الراحلة. وقد شعرت بأن هذه طريقة غير ملائمة للاحتفال بمشروع مصرى تم تمويله بأموال مصرية.

ومع ذلك فقد كانت هدى عازمة على أن تكون لها جهودها الخاصة بها. كانت على صلة متميزة بالأميرة عين الحياة أحمد رغم فارق السن الكبير بينهما. وكانت الأميرة دائمة التشجيع لهدى، وتعتبرها مُصلحة اجتماعية راسخة القناعات وصديقة شابة يمكنها الاعتماد عليها. واقترحت هدى فى ١٩٠٨ تأسيس جمعية خيرية لإقامة عيادة تمولها وتشرف على إدارتها سيدات مصريات تحت رعاية الأميرة، وحصلت بسرعة على دعمها للفكرة. وجرى الاجتماع الأول لمناقشة المشروع فى قصر الأميرة بشارع الدواوين وتم اختيار لجنة تأسيسية برئاسة الأميرة نازلى حليم، والأميرة عين الحياة كأمينة صندوق. وقامت الفرنسية مدام فوكيه بوضع خبرتها الإدارية والعملية فى خدمة المجموعة. وقدمت كل من السيدات اللائى حضرن الاجتماع إسهامًا ماليًا سنويًا قدره ٥٠ جنيهًا مصريًا فى حين وعدت الأميرة أمينة، أرملة الخديوى توفيق وأم الخديوى عباس حلمي، بمنح ١٢٠ جنيهًا. كما حظى المشروع بدعم الخديوى عباس حلمى وقرينته.[١٨]

وبعد عام من ذلك، وفى ١٩٠٩، ظهرت مبرة محمد على إلى الوجود، وتم تحويل أحد المبانى الصغيرة بشارع البرامونى ليكون مقرًا لها. وقدم العديد من أعضاء اللجنة قطع الأثاث، فى حين تكفل كل من هدى وعمر بكافة النفقات الأخرى. وحضرت الأميرة أمينة الافتتاح حيث ألقت الأميرة نازلى حليم كلمة افتتاحية ووجهت الشكر للقائمين على المشروع. وقد قبلت هدى فى وقت لاحق أن تترأس اللجنة التنفيذية للمبرة. وكانت المديرة، الأيرلندية هيتى كراوزر، تعمل مع عدد من الأطباء الأوروبيين، منهم الدكتور رودر والكتور فوركارت والدكتور تومسن، الذين تطوعوا للعمل فى العيادة، أما اللجنة فقد كانت تتولى من جانبها تقديم الدعم وجمع الأموال من خلال بعض الفعاليات الخيرية. والمفارقة أن المناسبات الاجتماعية الفخمة كانت تحقق موارد هائلة مكنت من

تحسين أوضاع بعض أفقر سكان القاهرة. ولا ينبغى إغفال أهمية جهود النخبة المصرية فى ذلك الوقت. فقد شعرت بالتأكيد بقربها من شعبها أكثر من أى وقت مضى.

وقد أسهمت لقاءات أخرى فى إخراج هدى من الاكتئاب الذى عانت منه بسبب وفاة أوچينى لوبران. فقد كانت تقضى وقتًا طويلًا مع فرانسين دورا، شقيقة أوچيني، التى أصبحت ترعى إقبال فى هليوبوليس، وشارع جامع شركس أو الرمل، حسب الموسم. وكانت هدى نفسها قد بدأت تعانى من قصور الدورة الدموية ومن الدوالى وتجلب لها فرانسين دائمًا الأدوية والجوارب الطبية لساقيها لدى عودتها من فرنسا. بل وأحضرت لها جوارب حريرية "ناعمة لدرجة ألا تشعر بارتدائها".(١٩) كما تعرفت هدى بغرنسية أخري، مارجريت كليمون، المحاضرة المحترفة عن قضايا المرأة. كان على يعتقد أن تنظيم الفعاليات للنساء يمكن أن يكون مفتاحًا لشفاء زوجته من الاكتئاب وراح يشجعها على عقد محاضرات عامة للسيدات تلقيها كليمون وغيرها فى جامعة القاهرة التى أنشئت حديثًا برعاية حزب الأمة. كان لعلى أصدقاء كثيرون من بين أعضاء مجلس محافظى الجامعة الجديدة، أحدهم علوى باشا، صديق العائلة الذى سبق وتدخل لدى هدى من طرف علي. وقد أعلن بحماس دعمه للمبادرة النسائية. بل وعرض على عقد هذه المحاضرات فى مقر صحيفة "الجريدة"، الناطقة باسم الحزب والتى صدرت حديثًا.

وقد أسهم بالتأكيد عمل هدى فى مبرة محمد علي، علاوة على انشغالها بتنظيم المحاضرات وزياراتها للغرب، التى أصبحت تتخذ طابعًا استكشافيًا لطبيعة الغرب أكثر من كونها مجرد عطلات فى تحجيم اكتئابها. لقد كانت هذه المنافذ تمثل فرصًا فعالة لتجاوز حدادها على أوچيني. وقد ظل النشاط

هو طريقها للتغلب على الحزن بقية حياتها. وإضافة إلى عملها، كانت لا تزال منشغلة بشؤون طفليها ومرض أمها. كما أنها بدأت تشعر بالقلق على عمر بعدما سمعت أنه أصبح يحيا حياة غير مسئولة، خاصة إبان سفراته الكثيرة إلى أوروبا. فقد وجد عمر نفسه، بدون صحبة مصطفى كامل، غير قادر على تكريس حياته للحزب واختلف كثيرًا مع سلوك بعض أعضائه. أما هدى فقد رأت أن السبب فى ذلك هو أنه أصبح ثريًا للغاية فى سن مبكرة جدًا. وفى ١٩١٠، ذهبت هدى مع على والأبناء فى عطلة لأوروبا، بصحبة إقبال وعمر وعنايات وأسرتهما. وشعرت هدى بأن زوجة أخيها يسيطر عليها إحساس شديد بالتملك حيال زوجها، خاصة فى حضور هدى. كانت لم تزل تشعر بالغيرة منها بسبب علاقتها الوثيقة بعمر منذ طفولتهما فى منزل شارع جامع شركس. غير أن الرحلة كانت ممتعة فى نهاية الأمر. وكانت هدى قد سمعت الكثير من الحكاوى عن نابولى وتتوق لمشاهدتها. وأعجبت بشدة بالاستقبال الذى جرى فى الميناء لباخرة الركاب التى وصل الجمع عليها من مصر. فقد تجمعت المراكب التى تقل العازفين والمغنين لترحب بالباخرة تحت سماء زرقاء، وحولها أطفال يؤدون بمهارة قفزات فى الماء. أما فى مرسيليا، فقد كانت السماء على العكس رمادية، غير أنه كان فى انتظارهم متعٌ أخرى فى زيارات المتاحف وقاعات عرض التحف الفنية، علاوة على المطاعم الفرنسية الراقية. وفى باريس، أظهرت هى وعمر بذخًا شديدًا وحجزا طابقًا كاملًا بفندق "برنسيس" (الأميرة)، الواقع فى ميدان الشانزيليزيه. زيادة فى متعة الإقامة. وأحست الأسرة كما لو أنها فى منزلها الخاص بفضل جو الحميمية المحيط. وكانت زيارة باريس برفقة عمر تجربة رائعة بالنسبة لهدى لأنه يعرف المدينة معرفة جيدة. وعاد إليها التصاقها بشقيقها وراحا يتناقشان فى كل ما يشاهدانه. وكان هدف هدى من زيارة فرنسا هو العلاج، ولكنهم تناسوا ذلك فى بداية الرحلة. وأمضوا شهرًا فى باريس قبل

التوجه إلى منتجع سان لوران ليبان، قبل العودة إلى القاهرة. وقد اتصلت هدى خلال إقامتها بمارجريت كليمون لتنسيق سلسلة محاضراتها فى القاهرة.(٢٠)

ثم توفيت فجأة چذب عاشق فى ١٩١١، من أزمة قلبية حادة، بعد أن عانت طويلا من أمراض قلبية. وقد تأثرت إقبال كثيرًا لوفاتها، صحيًا ومعنويًا، فقد أحبتها بشدة وبتجرد تام. كانت إقبال تحمل قلبًا كبيرًا وفلسفتها فى الحياة تتمثل فى تقبل الخير والبلاء على حد سواء، حيثما يأتيان، والاستسلام للقدر. وكان تفهمها وتعاطفها يجلبان لها حنان الآخرين، وكان القدر رحيمًا بها فى أشياء كثيرة. غير أن صحتها بدأت فى الاعتلال عقب وفاة چذب عشق. وأصاب الضعف رئتيها والإنهاك قلبها. وطلبت هدى من لويز دوبروق، الرسامة البلچيكية، التى أصبحت صديقة للعائلة، أن تجد لإقبال منزلا فى هليوبوليس، ذلك الحى الجديد الواقع على مشارف القاهرة وكان يقيمه نوبار باشا والمقاول البلچيكى البارون أومبان، حيث الهواء الصحراوى الجاف غير ملوث ومنعش.

وعُقدت محاضرات مارجريت كليمون، برعاية الأميرة عين الحياة فى ١٩١١، فى منزل هدى وبالجامعة بالتناوب. وقد حظيت بترحاب حار من الدوائر المصرية المتعاطفة مع حقوق المرأة. كانت كليمون تربوية واسعة الخبرة وتتحدث بمفردات بسيطة عن أوضاع المرأة فى ذلك الوقت. وعقب الاستقبال الحماسى لمحاضراتها، دعتها هدى لإلقاء سلسلة أخرى يتم طباعتها وتوزيعها على الحضور. وقد دعم الأمير أحمد فؤاد وزوجته الأميرة شويكار هذه المبادرة. وتم اختيار قصر خيرى باشا، الذى سيصبح فى وقت لاحق المبنى الرئيسى للجامعة الأمريكية، مكانا لإلقاء المحاضرات.

وقد حاضرت أيضًا فى تلك السلسلة ملك حفنى ناصف، إحدى رائدات النهضة النسائية المصرية وواحدة من معارف هدى. كانت من مريدى محمد عبده

ويحظى فكرها وتصميمها بإعجاب هدى. وقد اختارت لنفسها "باحثة البادية" كاسم مستعار تستخدمه فى كتاباتها وأنشطتها السياسية. كانت متزوجة من عبد الستار الباسل باشا، شقيق السياسى البارز حمد الباسل باشا، الذى كان يقيم بواحة الفيوم حيث يتولى إدارة أملاك أسرته. ولم يكن من المثقفين وحينما تقدم بطلب ملك للزواج، كانت بمثابة مفاجأة لأسرتها ولها شخصيًا. فقد كانت سيدة ودودة وماهرة، علاوة على كونها شاعرة موهوبة، وإن لم تكن ذات مال أو جمال. وشاع افتراض بأنه يريد الزواج منها رغبة فى الارتباط بعائلتها. كانت ملك محافظة على التقاليد ولم تكن لديها النزعة للعمل الراديكالي، بحيث تبادر مثلًا بخلع الحجاب. ولكنها كانت مدافعة متحمسة عن تعليم البنات والنساء. ومع ذلك، فقد قبلت الزواج، لكى تكتشف بعدها أنها زوجة ثانية. فقد كان الباسل متزوجًا من ابنة عمه التى يذوب فيها عشقًا ولديه منها ابنة. ويبدو أنه تزوج من ملك على أمل أن تتولى تعليم ابنته الحبيبة، حيث لم تكن بالفيوم مدارس للبنات وكان يريد لها أفضل المعلمين.

ولكن انكسار قلب باحثة لم يكن كافيًا لجعلها تترك زوجها أو منزلها الجديد. فقد قرَّرت أن تنذر نفسها للعمل على تحقيق رفاهية مجتمع الفيوم ومساعدة أهلها بقدر المستطاع أمام صعوبات حياتهم البدائية. واعتبرت نفسها مستكشفة للعادات والتقاليد المحلية وارتدت ملابس البدويات اللائى عاشت بينهن. وطالبت بحق النساء فى الصلاة فى المساجد أسوة بالرجال، على غرار الحال فى الأيام الأولى للإسلام. وكذلك بتلقيهن التعليم الأساسى على أقل تقدير وأن يتم ضمان سلامتهن لدى خروجهن من المنزل. وجذبت الانتباه إلى الحاجة إلى إقامة المستشفيات والمدارس المهنية. كما أعلنت وجوب تحجيم تعدد الزوجات بشكل صارم وعدم الإقرار بالطلاق إلا بالاتفاق المتبادل بين الزوجين. وقد بدأت فى وقت لاحق فى تناول قضية الإصلاح الاجتماعى على الصعيد القومي.

وظلت ملك ترتدى نقابها لاعتقادها أن ذلك واجب عليها، وربما لتوافقه مع محيطها الجديد. وربما أيضا بسبب شكلها الذى لا يجذب الأنظار. وقد تجاوزت اهتماماتها الاجتماعية والاقتصادية قضايا النوع الاجتماعي. فهى لم تكن ترى فى الحياة الاجتماعية هدفا فى حد ذاتها، ولم تشعر بالحاجة إلى التواصل مع قطاع من الناس أوسع من الذين تختلط بهم عادة. وفى الوقت ذاته، كانت معرفتها الاستثنائية باللغة العربية تتيح لها متعة الكتابة بلغتها الأم التى كانت تكرس لها وقتا طويلا. كانت تكتب دراسات، وأشعارا وكتابات كثيرة وكانت محاضراتها هى أول محاضرات تدعو فيها سيدة مصرية إلى حقوق المرأة والحاجة إلى التغيير الاجتماعي. ونشرت مقالات عديدة فى الصحف تدافع فيها عن هذه الحقوق وتهاجم تعدد الزوجات، وهو ما كان تعبيرا عن تجربتها الشخصية.[٢١]

وفى ١٩١١، قدمت باحثة عشر توصيات للمجلس الوطنى الإسلامى المنعقد فى هليوبوليس برئاسة رئيس الوزراء السابق مصطفى رياض باشا، والذى جمع حوالى ألفين من الشخصيات الوطنية والدينية. وفى عريضتها التى تم توزيعها على الحضور، طالبت بتعليم المرأة وتحريرها. ولم يُسمح لها بمخاطبة الجمع مباشرة، كما أن الرجال لم يتخذوا بشأن عريضتها أى إجراء، ولكن تمكينها من التعريف بوجهات نظرها كان مهمًا. فقد اعتُبرت مقترحاتها المُحدّدة ذات أهمية وتبنتها لاحقًا مجموعة من المنظمات التى تدافع عن مصالح المرأة. وكانت توصياتها تطالب بقدر أكبر وأفضل من التعليم للمرأة، وكذلك بالمساواة الدينية لهن وبمزيد من الحماية فيما يتصل بقانون الزواج والطلاق.

ومن بين المُحاضِرات اللائى شاركن فى مبادرة هدى مى زيادة التى كانت هدى قد التقتها فى إحدى محاضرات باحثة. كانت مي، وهى لبنانية،

كاتبة موهوبة وصحفية مرموقة. وقد وجدت هدى أنها مدهشة.[٢٢] وكان الذين يعرفونها يقولون عنها إنها تتمتع بحيوية ومرح العصفورة، رغم أنها كانت تعتبر نفسها عصفورة حبيسة القفص. كانت غير متزوجة ويهيم بها عدد من مشاهير الرجال، وتعيش مع أبويها اللذين كان ارتباطها بهما وثيقًا. وكانت تحيا حياة مستقلة، ويتاح لها، كمسيحية، الاختلاط بالرجال في الصالونات. إن فطنتها وعقلها المتوقد، وكذلك قدراتها الكبيرة ككاتبة بالعربية والفرنسية، قد جعلت منها أسطورة.

وفي هذه اللحظة، وقد ألهمتها التجربة المشجعة للمحاضرات ونجاح مبرة محمد علي، رأت هدى أن هناك ضرورة ملحة في وجود جمعية فكرية تجمع النساء المصريات ذوات الفكر المشترك. ولجأت مرة أخرى لمساعدة الأميرات وحصلت عليها. فبعد أن شهدت دوائر حزب الأمة الذي ينتمي إليه علي، والمتداخلة في القضايا السياسية والتربوية، النجاح الذي أحرزته مبادرات هدى الثقافية، منحت دعمها لخطة إنشاء جمعية نسائية. وبعث عبد العزيز باشا فهمي، المحامي والوطني الكبير، برسالة رسمية إلى هدى يدعوها فيها إلى عرض مشروعها بالتفصيل واقتراح النظام الداخلي لمثل هذه الجمعية[٢٣] وجاء مولد "الاتحاد النسائي التهذيبي" في أبريل ١٩١٤، خلال اجتماع بمنزل هدى في شارع قصر النيل رأسته الأميرة أمينة حليم. وقد كانت مي زيادة ولبيبة هاشم، التي أصدرت مجلة فتاة الشرق، من بين أولى عضواته. وقد انبثق عنه كيان جديد "جمعية الرقي الأدبي للسيدات" من أجل تنظيم المزيد من المحاضرات، ودُعيت مارجريت كليمون مرة أخرى لإلقاء سلسلة منها. ويمكن القول إن الحركة النسائية في مصر قد بدأت تتشكل حينئذ.

واضطرت هدى إلى السفر إلى أوروبا مجددًا مع علي وعمر في صيف ١٩١٤ بسبب مجموعة من الظروف. وقد ثبت بعد ذلك أن الوقت لم يكن ملائمًا لمثل هذه

الزيارة وتحولت الرحلة بالأحرى إلى تجربة سيئة. وكان أحد أسباب ذلك طريقة تفكير عمر. فقد كان يعبد ابنته الصغيرة التى أسماها على اسم عمتها هدى، ويعشق أيضًا ابن هدى الصغير محمد. وأصيبت هدى الصغيرة بغتة بمرض تم تشخيصه على أنه التهاب سحائى وتوفيت للأسف، تاركة وراءها العائلة بأسرها فى حالة انهيار. وبدا محمد ابن هدى حزينًا للغاية وتأثرت صحته من جراء ذلك. ونصح أطباؤه بتغيير الجو، والذهاب به إلى منتجع جبلي. كما نُصح عمر أيضًا بأخذ عطلة فى مكان آخر غير الذى قضت فيه ابنته. كان لا يكف عن تذكر كلماتها الأخيرة حينما قالت إنها تلعب لعبة اسمها " ذاهبة إلى الجنة"، وتردد بثقة أنها تسمع العصافير تغرد فى الحديقة. ثم همست "إنها حديقة جميلة مثل جنة عدن" فى نفس اللحظة التى فارقت فيها روحها البريئة جسدها الصغير.[٢٤]

وتحاملت هدى على نفسها لتصبح قادرة على مساعدة ابنها وشقيقها على التخلص من اكتئابهما. ولما كان على قد نُصح بالذهاب إلى منتجع فيتيل الصحى للعلاج، قرروا جميعًا أن تذهب الأسرة بكاملها إلى أوروبا فى الصيف، على أن يتركوا إقبال فى رعاية عطية السقاف بالقاهرة. وكان حسن، ابن على من زواجه الأول الذى يدرس بإنجلترا سوف يلحق بهم فى باريس، حيث يمتلك عمر إحدى الشقق. وبينما كان على فى فيتيل، كانت هدى تقضى وقتها فى شقة باريس مع الأبناء ومع حسن.[٢٥] إلا أن القلق كان يعتصرها فتخرج لتتجول طويلا فى شوارع باريس، وهى تفكر فى حالة أمها وتغمرها مشاعر الانهزام.

وكانت الحرب فى أوروبا على الأبواب، ودُعيَت هدى لاجتماع نسائى فى باريس يدعو إلى السلام وحق المرأة فى التصويت. وقد عقد الاجتماع فى مقر إحدى الصحف وتحدثت خلاله كليمون، التى كانت قد بعثت بالدعوة إلى هدى، فضلًا عن مدام دو سيفينييه ومدام دو سان كروا. وشاركت هدى عقب الاجتماع

فى نقاش حول إمكان الحفاظ على السلام فى أوروبا. وكان السؤال الذى يتردد حينها حول ما إذا كان قد بقى أمل فى السلام رغم نُذُر الحرب البادية فى الأفق ولا تخطئها عين.[٢٦] لقد كانت سماء باريس رمادية وحزينة فى الشهور التى سبقت الحرب وكان هناك جو عام من التفسخ. وقد بدأت التعبئة العسكرية العامة مع ما يترتب عليها فى الحياة المدنية من تغيرات مفاجئة فى مواعيد القطارات التى كانت تربك من يعتزمون العودة إلى بلادهم عبر أوروبا.

ولهذا السبب ساد الارتباك والإنهاك رحلة عودة عائلتى شعراوى وسلطان باشا إلى مصر، عبر بازل وزيوريخ وميلانو. وكانت هدى مضطربة. والآن وقد تحسنت صحة ابنها محمد وشقيقها عمر، سمحت لنفسها بالقلق على سلامة أمها. وبدأت تشعر بأن المستقبل لا يبشر بخير وراحت تتعجل العودة إلى القاهرة، رغم النبرة المُطمْئِنة فى رسائل والدتها. وفى الفترة من ١٩١١ إلى ١٩١٤، كانت هدى قد وضعت إقبال تحت رعاية وثيقة، وطلبت من فرانسين دورا أن تكون مرافقة لها حتى لا تُترَك بمفردها أبدًا. ولكنها كانت تدرك منذ مدة طويلة أن صحة إقبال تتدهور، وشعرت فجأة بالخوف من أن تكون على شفا الموت. وأمضت العائلة ليلة فى فندق برنسيس في باريس، ولكن هدى لم تتحمل البقاء هناك حيث سبق أن أقامت به مع إقبال. وحجز لها على جناحًا بفندق كونتيننتال تركها فيه مع الأبناء فى حين أمضى هو عدة أيام مع حسن فى لندن، لإدخاله المدرسة الداخلية التى التحق بها. وقد بلغت بُثنة الحادية عشرة فى ١٨ يونيو وكان عيد ميلادها فرصة شعرت فيها هدى بالراحة النفسية لتمتع ابنتها بالصحة.[٢٧]

ثم عاد على من إنجلترا وانتقلت العائلة من باريس إلى ڤيتيل. غير أن قلق هدى على إقبال ازداد حدة وتعمق شعورها بالتعاسة.[٢٨] وذهبت إلى باريس مع

مديرة منزلها مارجريت لتتسوق ولتأتى بحسن، الذى قرروا أنه من الأفضل له العودة معهم إلى مصر، نظرًا لتدهور الوضع السياسى فى أوروبا، فى حين بقى الأطفال مع على بڤيتيل، التى خيّم عليها هى أيضًا جو من التخوف. وفى باريس، كانت الشوراع قد بدأت تخلو من المارة. وقد ترك الجميع ڤيتيل بعدها بثلاثة أيام واستقلوا قطارًا لم تكن له وجهة معروفة، وإن كان فى النهاية يسير. ووصلوا إلى مدينة بازل السويسرية فى منتصف الليل ووجدوا بصعوبة غرفة فى فندق. وكان الطعام قد بدأ يشح. ثم سافروا إلى زيوريخ حيث واتاهم حظ قضاء عدة أيام رائعة، كما كانوا قد خططوا سابقًا فى رحلة العودة. وأقاموا فى فندق مريح على شاطيء البحيرة، تحيط به الغابات الخضراء والجو النظيف وحولهم الناس يلقون عليهم التحية بأدب جم.

واتجهوا بعدها إلى ميلانو، التى كانت حينئذٍ مدينة فقيرة، وجدوا فيها غرفًا فى فندق صغيرمجاور للكاتدرائية. وسرعان ما بدت الليالى التى قضوها فى زيوريخ بمثابة ذكريات من حياة أخرى. وخلال ليلتهم فى ميلانو، كانوا يسمعون نداءات بائعى الصحف وهم يصيحون "أخبار الحرب!" وقد بدت، على نحو ما رأتها هدى، مثل بوم ينعق فى هدأة الليل.[٢٩] وقابلوا هناك عدة أصدقاء مصريين بعضهم لم يكن لديه إمكانيات دفع نفقات رحلة العودة المعقدة للبلاد. وكان على لا يتقاعس أبدًا عن تقديم المساعدة، فانتهى به الأمر هو وعائلته إلى تضاؤل ما معهم من مال لأنفسهم. وكان العبوس والعدائية باديين على الوجوه. فالحرب وشيكة وقد أثّرت على الجميع. وكانت الحشود المزعجة التى تملأ ساحة الكاتدرائية ليل نهار تشيع جوًا من القلق.

وسافروا إلى چنوة فور أن سنحت الفرصة، يوم ١٠ أغسطس ١٩١٤، حيث استطاعوا أخيرًا أن يستقلوا باخرة إيطالية مُبحرة إلى مصر. وكانت الغرف

متسخة وكريهة الرائحة. ودفعوا إلى مسئولى الباخرة مبالغ طائلة لاستئجار غرفهم الخاصة. وحتى فى هذه لم يسلموا من الصراصير. وانتهى بهم الأمر إلى النوم على مقاعدهم على سطح السفينة، حيث نُصبت لهم بعدها خيمة أثناء الليل[٣٠] وسمح توقف المركب فى ميناء كاتانيا لهدى برؤية آثار للثقافة العربية فى الجنوب الإيطالي، وهى تجربة جعلتها تفكر فى كيفية تفاعل الثقافات، حتى فى خضم المشكلات التى كانوا يواجهونها. لقد بقيت دومًا المثقفة التى تستوعب التجارب، حتى فى أحلك الظروف.

وفى ١٩ أغسطس ١٩١٤، نزلوا أخيرا فى الإسكندرية.[٣١] ولم يكن هناك من يستقبلهم باستثناء المحاسب وسيدة شابة هى معلمة بُثنة للغة العربية. وفى منزلهم بالرمل، كانت فى انتظارهم برقية تحمل خبر وفاة إقبال قبيل وصولهم مباشرة. وخارت قوى هدى. ها هى هواجسها المرعبة قد تحققت. كانت مشاعرها تجاه أمها هى مشاعر الابنة والأم فى آن واحد، ولكن الوقت كان قد أزف حتى للوداع. وكان عزاؤها الوحيد هو أن عطية لم تتركها لحظة واحدة فى شهرها الأخير. كانت إقبال فى قمة القلق بشأن عودة عائلتها سالمة من أوروبا التى تضربها الحرب، ولكى تطمئنها رتبت عطية أمر إرسال برقية من الإسكندرية تعلنها بوصولهم إليها قبل أن تصل الباخرة فعلا إلى مصر.[٣٢] وبذا فقد رحلت وهى تتوقع قرب رؤيتهم بعد أن طمأنتها عطية بعودتهم سالمين. وتوجه على وهدى لفورهما إلى القاهرة حتى تقضى هدى ليلتها بجانب جثمان أمها. وتم الدفن فى المنيا فى اليوم التالي، فى مقابر سلطان باشا. وانشغل عمر مرة أخرى بمساعدة هدى على تحمل الحزن الذى طالهما سويًا.

وفى تلك الأثناء، كانت للحرب تداعيات خطيرة على مستقبل مصر. ففى ١٩١٤، ورغبة فى ضمان مصالحها الاستراتيجية فى الشرق الأوسط، وجدت

الحكومة البريطانية، التى كانت تحارب ألمانيا، ما يُبرِّر إعلان الحماية الرسمية على مصر، بدلًا من هيمنتها غير الرسمية. ودخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا وكان الخديوى عباس حلمى موجودًا فى تركيا لحظة نشوبها. وطالب البريطانيون بخلعه متعللين بدواع أمنية، ولكن أيضًا بسبب انتقاداته المعلنة للحماية. كانت بريطانيا تريد أيضًا فض الرباط بين مصر والإمبراطورية العثمانية. وتم تنصيب الأمير حسين كمال الدين، خال الخديوى عباس حلمى وابن الخديوى اسماعيل، الذى كان رئيسًا للمجلس التشريعي، حاكمًا جديدًا على مصر، بلقب سلطان بدلًا من خديوي، مما يعنى أن مصر لم تعد دولة تابعة لتركيا. وكان الأمير قد صرح من قبل أنه سوف يظل على ولائه للخديوى عباس حلمى وتعهد بعدم قبول الاقتراح البريطاني. غير أنه قبل العرش لدى عرضه عليه، مدعيًا أنه قد تم تهديده بمنح العرش لحاكم مسلم أجنبي، هو الآغا خان[٣٣] وكانت البلاد فى حالة من الجزع الشديد. وكتب أحمد شوقي، شاعر القصر السابق فى عهد عباس حلمي، قصيدة هجاء حادة فى السلطان حسين لقبوله العرش. انتشرت فى البلاد كالنار فى الهشيم وأدت إلى نفى شوقى إلى اسبانيا[٣٤]

وازداد هدى وعمر قربًا بعد وفاة إقبال، رغم غيرة عنايات. وكان عمر يمر عليها صباحًا ومساء للحديث فى ذكريات الماضى وأحوال العائلة والموقف السياسى فى مصر والقتال فى أوروبا. كان عمر متخوفًا من نوايا الحلفاء بعد الحرب إزاء مصر ويخشى ألا تكون أفضل من خطط الألمان ورفاقهم. وكان يلوم الإمبريالية على الحرب، مُرددًا فى ذلك أصداء فلسفة صديقه القديم مصطفى كامل. ومثل كامل، كان يعتقد أن التدمير الوشيك للإمبراطورية العثمانية ستكون له عواقب وخيمة على الأراضى العربية ومصر.

وفى الوقت الذى كانت تدور فيه رحى الحرب فى أوروبا، كان الموت يواصل ضرباته فى محيط هدى. فقد توفيت منيرة صبري، شقيقة يوسف صبرى باشا فى ١٩١٦. التى كان أولادها زينب وفاطمة وعزيزة وعائشة وعلى أبناء عمومة هدى. كانت ابنتها الكبرى زينب متزوجة من الأمير حيدر فاضل. وانشغلت هدى بمواساة أسرة على باشا فهمى فى وفاة أمهم. وبالتالى أصبح يوسف وأحمد إدريس الوحيدين الباقيين على قيد الحياة من عائلة هدى من ناحية الأم إقبال. وقد عاهدت نفسها ألا تقطع أبدًا الاتصال بهم ثانية، رغم أنهما ظلا يقيمان فى تركيا.

وأوشكت الحرب على أن تضع أوزارها، ولكن المآسى فى حياة هدى لم تكن قد انتهت. ففى فبراير ١٩١٨، عانت أقسى فقد ممكن تخيله مع الموت المفاجئ لشقيقها الحبيب والغالي، من تمدد وعائي، وهو لا يزال فى عمر السابعة والثلاثين. وفى بداية عام ١٩١٨ كانت قد بدأت تشعر بالقلق على صحة عمر وداهمتها كوابيس تنذر بأن شرًا سوف يناله. ويبدو أن عمر نفسه لم يكن بعيدًا عن الإحساس بنذر الشؤم. وحينما غادر القاهرة لآخر مرة متوجهًا إلى المنيا، جعل هدى تعده بأن تزوره هناك فى المستقبل القريب.[٣٥] وبعدها بقليل، أُخْطر على سرًا بوفاة عمر من خلال مرسال إلى القاهرة يحمل النبأ. لم يكن يعرف كيف سيخبر هدى، لخشيته من وقع الخبر عليها. وفى تصرف أرعن، أخفى عنها الحقيقة، لتفادى حزنها. وقال لها بدلا من ذلك، أنها يجب أن تذهب إلى المنيا، لأن أختها غير الشقيقة لوزة، التى كانت تكبرها كثيرًا، قد توفيت.

ووافقت على المشاركة فى جنازة أختها غير الشقيقة وتوجهت بصحبة على وسعيد آغا الذى بقى معها فى عربة السيدات بالقطار للاطمئنان على راحتها. ولدى وصولهم إلى المنيا، كانت هناك عربة فى انتظارهم لتنقلها هى وسعيد آغا

إلى منزل عمر. كانت هدى تسأل عن ظروف وفاة أختها غير الشقيقة وتتلقى إجابات مبهمة، ووجهت أسئلتها عن عمر بالصمت، فى حين امتلأت الشوارع بحشود صامتة وحزينة تبث فى الأجواء نذر الشؤم. وقد كان هذا معتادًا مع وفاة الرجال المهمين، وبدأت هدى تشعر بأن ثمة ما تم مداراته عنها. وحينما وصل الجمع إلى المنزل ظهرت الحقيقية. كانت عنايات هناك فى استقبالها ونطقت بعفوية "إنه عمر، إنها مأساة لنا جميعًا". وقد كان الألم بالنسبة لهدى غير محتمل. وحينما انتهت الجنازة، غرقت فى فترة اكتئاب طويلة.

ودُفن عمر بجوار والده سلطان باشا فى مقابر العائلة بالمدافن الواقعة على الشاطيء الشرقى للنيل بالمنيا، أسفل التلال. كان الطريق طويلاً إلى المدافن بعد عبور النيل، وكانت جموع من الفقراء تحيط بالموكب. بينما كانت الجنازة ذاتها مهيبة وخاضعة للمراسم الشكلية؛ حيث سار ضباط البوليس والجنود حول النعش خلف فرقة الموسيقات العسكرية. وقد أرسل الجيش البريطانى قوة لمرافقة الموكب. وسار على ورجال آخرون من العائلة أمام طوابير المعزين، وتبعتهن النساء فى مركبات.[٢١] ورافق الفقراء النعش طوال الطريق حتى المدافن، وكان الكثيرون منهم قد عبروا النيل فى قوارب تجديف بدائية، ثم ساروا عدة أميال على أقدامهم الحافية حتى المدافن. وقد بدا بعضهم واهنين لا يقوون على السير، فى حين وضحت النحافة وسوء التغذية والإنهاك على البعض الآخر. كان عمر بكرمه المعروف يتولى الإنفاق على الكثير من هؤلاء، ولكنه لم يكن بالطبع يستطيع أن يعول الجميع. وكانت الجموع تتدافع محاولة لمس النعش، كما يفعلون فى جنازات أولياء الله. وحينما رفع الحوذى كرباجه لإبعاد الحشود، منعته هدى. وأمسكت كيسًا من قطع النقود المعدنية كانت تعتزم توزيعها فى المقابر، وراحت تلقى بها بين الناس بكل قوتها. وكانت حفنات قطع

النقود الفضية المتطايرة تلتمع فى الهواء فوق الناس الذين راحوا يتسابقون للإمساك بها. واستمرت تفعل ذلك طوال الطريق إلى المدافن، وكلها تصميم على أن ما من أحد ينبغى إبعاده فى جنازة عمر.

وراحت بعد ذلك تقرأ وتعيد قراءة رسائله. فقد كانت تذكارًا دائمًا لها بعمق وجدانه وسماحة روحه. ففى خطاب أرسله من رحلة قام بها فى ١٩٠٤، حين كان لم يزل فى الرابعة والعشرين، يتحدث عن حبه لعائلته: "أتوسل إليك أن تخففى عن أمى المعبودة التى كانت حزينة ومكتئبة لدى تركى لها. قولى لها إننى سأكون بين ذراعيك خلال شهرين، لكى أقول لكما إننى أحبكما أكثر من أى شيء فى العالم"[٣٧]

كانت هدى وعمر يستمتعان كثيرًا بضحكهما معًا، وكان حماسه الصاخب معديًا للآخرين. يملؤه حب الحياة. وكان ذلك وراء أسوأ مشاحناته مع عنايات، حينما يرفض بغضب محاولاتها تقييد حريته. وبعد وفاة مصطفى كامل، ازداد استياء عمر من الحياة السياسية.

لقد كان شعور هدى بالفقد غير قابل للسكون. كان عمر أفضل أصدقائها فى الطفولة، وشقيقها الصغير الحبيب. لقد شبّا معًا وكان هو من يخفف عنها عند أى ظلم تتعرض له كبنت. هو الذى عرّفها بأوچينى لوبران وچولييت آدم وشجعها وساندها فى تصميمها على الاطلاع والحصول على تعليم متين. وكان أيضًا من دعم مبادراتها فى إقامة المبرة والجمعية الفكرية. وهو من أقنع عليًا بالثقة فى أحكامها وبأن مساندة مشروعات زوجته هو أفضل ما يمكنه فعله. عمر هو من خلق اهتمام هدى بالسياسة وزاده قوة، وهذا ما حدا بعلى إلى الثقة فى آرائها، حتى فى مجالات كانت مقتصرة على الرجال دون غيرهم. باختصار، لقد آمن عمر بها.

لقد ظلت هدى فى حالة اكتئاب بعد مرور الأربعين يومًا المحدّدة للحداد. وقال الأطباء إنها فى حاجة ماسة إلى الهدوء والراحة. وقد نشدت ذلك فى صحبة أبنائها الذين أخذتهم إلى المنيا، حيث كانوا يمضون الوقت مع إبنى عمر محمد ونايلة. بل إن قربها ازداد من الأطفال. كانت تقرأ لهم وتناقشهم طويلًا فى كافة مناحى الحياة. ولكن قلبها الكسير لم يكن ليلتئم. أحست أن وفاة عمر بمثابة ظلم قاس وكان غيابه ثقلًا يجثم على صدرها ولا تستطيع الخلاص منه. ومرت خمسة أشهر مع الأطفال على هذا المنوال فى المنيا. ولكنها تيقنت على الأقل أن عمر حاضر فى الأذهان فى مصر.

كان على متأثرًا بحزنها. وكان الهدف من منزل المنيا الذى أقامه خصيصًا لها أن يجلب لها السعادة. إذ كان يمكنها حين تنظر من النوافذ أن ترى الحقول الزمردية وأشجار النخيل تتمايل على شواطيء النيل. وكان يأمل فى أن تساعدها حياتها الشاعرية هناك على استرداد تفاؤلها. إلا أن معرفته بطبعها جعلته يثق فى أنها لن تتحمل طويلًا البعد فى المنيا عن النشاط وأن اهتمامها المولع بالقضايا العامة سوف يعود مجددًا. وكان لا يكف عن حثها على العودة إلى القاهرة والاضطلاع بدورها فى الحياة السياسية والثقافية فى مصر. قال لها: "أنت لست أى امرأة. فلديك الكثير لتعطيه لشعبنا، ويجب عليك ذلك. هذا ما كان سيريد عمر منك أن تفعليه".

وعادت إلى القاهرة ولكنها قبل أن تستأنف أنشطتها، كان عليها أن تواجه صدمة أخرى كانت فى غنى عنها. جاءت واحدة من خادماتها السابقات يوم ١٧ أكتوبر ١٩١٨ إلى منزلها فى شارع قصر النيل، باكية وترتدى ملابس الحداد، حاملة خبرًا سيئًا. لقد ماتت الباحثة. قالت "ماتت ملك حفنى ناصف" وهى تنخرط فى البكاء. كانت الجنازة فى نفس اليوم. وأسرعت هدى إلى الموكب

وشاهدت النعش فى طريقها. كان هناك العديد من المشيعين، من النساء والرجال. وتواجد أيضا حشدٌ من الأعيان والمثقفين، بالإضافة إلى الكثير من طلبة الثانوية الذين كانت الباحثة فى أعينهم بمثابة إحدى البطلات. وكان القصر قد بعث رسولًا لتقديم العزاء للأسرة، رغم أنه لم يكن تقليدًا أن يشارك القصر فى جنازات النساء. ومع ذلك، حضر رئيس الوزراء وعدد من أعضاء الحكومة وكبار المسؤولين، علاوة على ممثلين عن البعثات الدبلوماسية، وأجانب آخرين ومراسلين للصحافة الأجنبية والمحلية. كانت النساء تنتحبن فى الشرفات لدى مرور الموكب.[٣٨] الذى رافقته هدى حتى المقابر. وقالت هدى فى مذكراتها: "حيث واروا التراب ذلك الجسم النشيط، وأغلقوا القبر على شعلة الذكاء المتقدة".[٣٩]

وعبّرت النساء والرجال عن إجلالهم لملك حفنى ناصف، التى اكتمل ذكاؤها ونظرتها الثاقبة بالتواضع والاعتزاز بالنفس. بل إن كلمة "أصيلة" تبدو وكأنها قد نُحتت خصيصًا من أجلها. وشعرت هدى بوجوب أن تقدم تقديرها الخاص لصديقتها الوفية، التى كانت مصدر إلهام لها وكاتبة متميزة وإنسانة نبيلة. وعُقد حفل التأبين النسائى فى جامعة القاهرة، بنفس القاعة التى حاضرت فيها ملك كثيرًا. ودعت السيدات الحاضرات هدى إلى ترؤس الحفل حيث ألقت أول خطبة عامة لها فى هذه المناسبة الحزينة. وقد ظلت تستشعر فقد الباحثة طيلة حياتها، خاصة إبان الأيام العصيبة لثورة ١٩١٩، حين كما كتبت تقول: "وكنتُ أناديها فى نفسي، فكان لا يتردد صوتها إلا فى ضميري."[٤٠]

لقد خلصت هدى إلى استنتاجاتها الخاصة من كل هذه الحيوات التى انتهت قبل موعدها. كان عمر يلوح لها من عالم الظلال ليذكّرها بخططه التى لم تتحقق. وقد كان دومًا يقول إن الطريق الوحيد لتحرير البلاد يمر عن خلال تنمية اقتصاد

وطنى حر. إن مصر بلد غنى وأرضها ذهب خالص. أما ملك حفنى ناصف، فقد كشفت لهدى أن الإصلاح مبدأ أكثر حكمة من الثورة. أن تكونى ناشطة نسائية يعنى فى المقام الأول أن تكونى امرأة بخصال الأنثى. لا مجال للتشبه بالرجال. ينبغى تكريس السلوكيات الأنثوية، وليس النسوية، فى القوانين. على النساء، قبل أن تنزعن نقابهن، أن تتعلمن، فالمرأة الأمية لن يسعها تفهم التبعات الاجتماعية لهذا الفعل. إن أى إساءة فى استخدام الحرية ستُعرِّض المرأة للعار وتؤدى إلى خسارة حقوقها وتقف عائقًا أمام التغيير الإيجابي. ورأت هدى أنه لم يكن هناك المزيد لتفعله فى الوقت الراهن للمضى قدمًا بمسعى ملك. وعليها إذن أن تلقى بثقلها خلف طموحات عمر من أجل تأسيس مصرف مصري، وهو ما كانت الحاجة إلى إنشائه أكثر إلحاحًا.

وناقشت الفكرة مع عنايات. وكانت الاثنتان تعرفان طلعت حرب جيدًا حيث إنه فى وقت سابق من حياته، وحتى وفاة عمر، كان قد تولى إدارة أملاك عمر التى ورثها عن سلطان باشا فى المنيا، وكان على دراية طيبة بأفكار عمر. وأبدى حرب بعض التحفظ، اعتقادًا منه أنه سيصعب إقناع المستثمرين بالإسهام فى رأسمال المصرف، لعدم ثقتهم فى قدرة المصريين على إدارة مشروع مثل هذا. غير أنه وافق على إطلاق اسمه على مبادرة إحياء فكرة إنشاء بنك أهلى على أساس اكتتاب أثرياء المصريين، من المسلمين والمسيحيين واليهود. وتعهدت هدى باستخدام نفوذها واتصالاتها لمساعدته فى الحصول على الأموال اللازمة. وطلبت منه أن يجد مقرًا مناسبًا للبنك وضمت إليها فؤاد خليفة مرزوق، ابن أختها غير الشقيقة لوزة، لمساعدتها فى حملة جمع رأس المال.

وتم تأسيس البنك فى ١٩٢٠، وأمكن جمع الأموال الكافية لبداية عملياته. وأثمرت جهود هدى فى إقناع الكثيرين من أفراد أسرتها ومحيطها الاجتماعى

بالمشاركة. وضمت قائمة الأسهم المشتراة فى ١١ يناير ١٩٢٤ ٢٥٠ سهمًا اشترتها هدى نفسها فى حين اشترت سيدات ثريات من معارفها حصصًا كبيرة. وقد مكّنت هذه المساهمات من بدء خطوات التنفيذ. وفتح البنك أبوابه فى عام ١٩٢٤، برئاسة طلعت حرب لمجلس المدراء.[٤١] وأصبح فؤاد سلطان أمينًا للمجلس واقترح مع حافظ عفيفى فى أولى اجتماعاته أن تكون هدى عضوًا شرفيًا فيه مدى الحياة، وأن تُدعى لحضور اجتماعه فى بداية كل سنة مالية حيث يتم الموافقة على ميزانية البنك.[٤٢] وكان تأسيس البنك جزءًا من خطة تحرير مصر من الهيمنة البريطانية، وقد قدَّم نفسه فورًا على أنه مؤسسة مُناهضة للإمبريالية.

وحين نتطلع الى ما هو أبعد من ١٩٢٤، نتيقن أن البنك كان له تأثير أوسع نطاقًا على السياسة العربية. ففى هذا العام، أرسلت مجموعة من الأعيان الفلسطينيين الذين كانو يتعرضون للضغوط من أجل بيع أراضيهم للصهاينة، خطابات إلى طلعت حرب تطلب منه فتح فرع للبنك فى بلادهم لكى يتسنى لهم الحصول على قروض تمكنهم من مواصلة أعمالهم وإنقاذ ثرواتهم وأراضيهم بدلًا من بيعها للمستوطنين الصهاينة الوافدين.[٤٣] كان هذا أول ما سمعته هدى عما كان يحدث فى فلسطين. وكادت لا تصدق أن المستوطنين اليهود الذين قيل لها إنهم شرفاء ويعملون بجدية يظلمون الأهالى المحليين. واطّلعت على نتائج تقرير كينج-كرين فى ١٩١٩، الذى أُعدّ بتكليف من الولايات المتحدة، وتشكك فى إمكان قبول السكان الفلسطينيين للمستوطنات الصهيونية المتزايدة باطراد، وأشار إلى أنهم لن يرحبوا بموجات المهاجرين من اليهود الأوروبيين المتصاعدة إلى بلادهم. ولم تكن تعرف حينئذٍ أن تشارلز كرين كان سيصبح لاحقًا صديقًا لها.

-٣-

الحركة النسائية الدولية والاتحاد النسائى المصري

وبينما كان عام ١٩١٨ يشارف نهايته، وبدا أنه من المُقدَّر للحرب العالمية أن تنتهى قريبًا، كانت كل الأفكار فى مصر تتركز على موضوع واحد، هو ضمان تحقيق استقلال حقيقى للبلاد فى أعقاب الصراع العالمي. وعادت هدى تنشغل بالسياسة بعد أن كان النشاط الاجتماعى والخيرى يستحوذ على الكثير من وقتها مؤخرًا. وبات واضحًا أنه لا يمكن ضمان أى تقدم اجتماعى له قيمة بدون حل سياسى لعلاقة مصر المتوترة مع بريطانيا. إذ ينبغى للقضية الوطنية أن تأتى فى المقام الأول. كان حاكم مصر، السلطان حسين كامل، قد توفى فى ١٩١٧ بعد مرض قصير. ورفض ابنه الأمير كمال الدين حسين خلافته، وقيل إن الحماية البريطانية التى أُعلنت لدى بدء الحرب العالمية فى ١٩١٤ كانت وراء الرفض. واعتلى شقيقه الأمير أحمد فؤاد العرش فى ٩ أكتوبر ١٩١٧، وأصبح هو السلطان، ثم، بعد عدة سنوات من الانفصال عن الدولة العثمانية، تحول لقبه إلى الملك فؤاد، الذى كان قد شارك فى تأسيس جامعة القاهرة فيما سبق، فى مواجهة المعارضة البريطانية وكان معروفًا للوطنيين المصريين.

وفى ١٩١٨، كانت مصر خاضعة للأحكام العرفية والأنشطة السياسية خاضعة للمنع التام. وفى خريف ١٩١٨، أخبر على هدى فيما بينهما أن اجتماعًا سريًا سيُعقد فى المنزل الريفى للزعيم الوطنى سعد زغلول بمسجد وصيف. كان زغلول شخصية سياسية بارزة بالفعل، وقد وُلد فى ١٨٥٩ لعائلة ثرية من الأرياف. وكان مسقط رأسه قرية أبيانة بالدلتا، حيث كان والده من الأعيان المحليين. وقد درس هذا الابن البار بمصر فى الأزهر وشق حياته العملية فى مجال القانون وترقى إلى منصب القاضي. وقد عُيّن وزيرًا للتعليم فى مصر فى ١٩٠٦، وهو العام الذى تزوج فيه من صفية، كريمة رئيس الوزراء مصطفى فهمى باشا. وقد أعطى ذلك دفعة لحياته العملية وإن كان حضوره الآسر وقدراته الفائقة هى التى أوصلته لاحقًا إلى القمة. وفى ١٩١٢، وفى تحول فارق التحق بصفوف مناصرة القضية الوطنية التى راح يدافع عنها بشراسة فى المجلس التشريعى المصري، الذى لم يكن له على أية حال إلا سلطات محدودة. وفى ١٩١٣، ألقى بثقله فى الحملة المنادية بمنح المجلس التشريعى مزيدًا من الحقوق الدستورية. وقد عُيّن وزيرًا للعدل فى ١٩٢٠. وقد ضم الاجتماع فى مسجد وصيف جميع من يدعمون زغلول. ومن بينهم على شعراوي، وعبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد وعبد اللطيف المكباتى ومحمد على علوبة وحمد الباسل وسينوت حنا. ويُذكر أن عليًا كان يود، لو كان بوسعه، أن يصطحب زوجته معه، غير أن النساء لم يكن يشاركن بعد فى مثل هذه الاجتماعات. ولذا بقيت هدى بالمنزل تنتظر عودته على أحر من الجمر ليحكى لها ما حدث.

وقد ذهب الاجتماع إلى أبعد مما كانت تتوقع هذه المجموعة من الزعماء الوطنيين المصريين. فقد تقرر أن يتوجه وفد مصري، عُرف لاحقًا باسم الوفد، لمقابلة سير ريجينالد وينجيت، المندوب السامى البريطاني، فى أسرع وقت،

عقب توقيع الهدنة التى وضعت نهاية للحرب العالمية. فعلى ضوء النقاط الـ ١٤ للرئيس وودرو ويلسون والإعلان الفرنسى لعام ١٩١٨، بدا أن الحلفاء يعتزمون تحرير الشعوب التى قمعتها الإمبراطورية العثمانية.(١) وأمل الوطنيون فى أن تستفيد مصر من وعدهم الجديد. وتم اختيار زغلول وشعراوى وعبد العزيز فهمى للوفد الثلاثى الذى سيسعى للحصول على تصريح المندوب السامى البريطانى بالذهاب إلى لندن للدفاع عن قضية بلادهم. وكان الوفديون، كما سيطلق عليهم لاحقًا، يعتقدون أن مصر جاهزة للاستقلال وأنهم حين يعرضون قضيتهم، لن يكون أمام البريطانيين من بديل إلا سحب قواتهم العسكرية فى نهاية المطاف.

وتم توقيع الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨، وتوجه الوفد لمقابلة وينجيت فى ١٣ نوفمبر، كما كان مخططًا، للمطالبة بإنهاء الحماية ومنح الاستقلال التام لمصر. وحكى على لهدى ما حدث وتفكرت بعمق فى ذلك. وفكرت مرارًا فيما قاله على لسير ريچينالد: "نحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لانجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد". وأعاد على مسمعها السؤال الذى طرحه وينجيت: "لقد كانت مصر عبدًا لتركيا، أفتكون أحط منها لو كانت عبدًا لانجلترا؟!". وظلت إجابة على تتردد فى رأسها: "قد أكون عبدًا لرجل من الجعليين (قبيلة عربية)، وقد أكون عبدًا للسير ونجت الذى لا مناسبة بينه وبين الجعلي، ومع ذلك لا تسرنى كلتا الحالتين؛ لأن العبودية لا أرضاها ولا تحب نفسى أن تبقى تحت ذلها، ونحن كما قدّمت نريد أن نكون أصدقاء لانجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد."(٢)

كان وينجيت من جانبه معجبًا بالرجال الثلاثة، رغم قراره اعتبار الاجتماع بمثابة طرح غير رسمى من قبل مجموعة من المصريين ليست لهم صفة رسمية. ونصح الحكومة البريطانية بأن تأخذ زعماء الوفد على محمل الجد، ولكن بلا

جدوى. فلم يحدث تغيير فى سياسة بريطانيا. وكما كان متوقعًا كثّف الشعب المصرى من احتجاجاته وثورته ضد الاحتلال البريطاني. ومنح حسين رشدى باشا، الذى كان لا يزال رئيسًا للوزراء، دعمه الكامل للوفد. وكان موقفه أنه مادامت مصر قد ساعدت البريطانيين خلال الحرب، فقد حان الوقت لكى يردوا لها الجميل.

وتصاعد التوتر. إذ لم يقبل البريطانيون السماح بسفر أى وفود مصرية إلى أوروبا لعرض قضيتهم ورفضوا النظر فى إنهاء الحماية، بحجة أن مصر ليست مستعدة بعد للحرية السياسية. وقد أوضح رشدى باشا للسير ويليام برونييت، المستشار القانونى والمالى المفروض من بريطانيا على الحكومة المصرية، أن إغفال الحقوق المصرية لن يؤدى إلا إلى مزيد من الفوضى وأن الانفجار محتمل. وكان الرد الوحيد الذى تلقاه من برونييت هو الجملة الشهيرة وإن كانت ربما غير صحيحة: "إن ثورة المصريين مثل شرارة فى القش تطفئها بصقة."(٣)

وفى مواجهة الرفض البريطانى المُتعنِّت لكافة محاولات الانفتاح من جانب الوطنيين المصريين، تقدم رشدى باشا باستقالته من رئاسة الوزراء فى ٢ مارس ١٩١٩. وبدأت القلاقل تجتاح أنحاء البلاد كافة، وكأنها حملة منظمة انطلقت للتحرر من الحكم البريطاني. وفى ٨ مارس، ألقى القائد الأعلى لقوات الاحتلال، الجنرال واطسون، القبض على أربع من الشخصيات القيادية المرتبطة بالوفد، اتُهموا بإثارة الاضطرابات، وهم زغلول وإسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا. وقد اصطُحبوا بداية إلى الثكنات البريطانية فى قصر النيل، على الجانب الآخر من الميدان حيث منزل أسرة شعراوى بالقاهرة، وحيث وقف على وهدى يستشيطان غضبًا وهما يشاهدان مكان سجن زملائهم وأصدقائهم وهما عاجزان عن مساعدتهم.

وفى اليوم التالي، ٩ مارس ١٩١٩، تم نفى زغلول ورفاقه الثلاثة إلى مالطا، دون سابق إنذار. وتمثل رد فعل الشعب على نفى زعماء الوفد فى ازدياد السخط وتصاعد العنف. وسرت موجة من الاضطرابات فى ربوع البلاد. وحلّ على محل زغلول الموجود بالمنفى على رأس "الوفد". ومع استمرار الاضطرابات، بدأ الوفد يتحول إلى حزب سياسى كامل الأهلية. وكان على يخبر هدى بكل التطورات، خشية أن يُلقى القبض عليه هو أيضًا فى أى لحظة مثلما حدث مع رفاقه الوفديين. وشنَّت الصحافة البريطانية حملة شعواء ضد مصر وألقى اللورد كيرزون خطبة لاذعة فى مجلس العموم البريطانى هاجم فيها الشعب المصري. وقد تصدَّر توقيع علي، بوصفه الزعيم المناوب لـ "الوفد"، مجموعة من خطابات الاحتجاج الحاملة لقائمة طويلة من الموقعين ضد الموقف البريطاني. لقد لعب الدور المنوط به بكل وقار ورهن نفوذه الشخصى وثروته الهائلة بقضية تحرر مصر. وكان مبدؤه هو أن أى انتصار يتحقق من خلال المناورات القانونية والدستورية أكثر أمانًا واستمرارية من أى مكسب يمكن أن يتأتى عبر الوسائل العنيفة.

وكتب على تقريرًا أُرسِل إلى المندوب السامى البريطانى يُعرب فيه عن أمل أعضاء الوفد فى أن يقدم لهم الحاكم الجديد لمصر التأييد المعنوي، حيث إنه، كما قال الوفديون: "يجلس على عرش محمد على الكبير". وكتب علي: "إن الذى فى نفوس المصريين ليس هو العداوة بأى نوع كان، بل هو الإحساس الطبيعى لكل أمة أن تستقل بشئونها"(٤) وأضاف أن الوفد يرغب الآن فى أن يُسمح له بالذهاب إلى باريس لتقديم التماسهم بالاستقلال إلى مؤتمر السلام. كما أُرسلت برقية الى رئيس الوزراء البريطانى داڤيد لويد چورچ، للاحتجاج على نفى رفاقهم أعضاء الوفد.(٥)

وقد فوجئت هدى ذات ظهيرة، أثناء الاضطرابات، بزيارة من إحدى معارفها الفرنسيات، چان ماركيس، التى كانت على شفا فقدان الوعى عند وصولها إلى قصر النيل. وانهارت على الأرض باكية وقالت لهدى إنها سارت على قدميها بأسرع ما تستطيع من منزلها فى روض الفرج لأنها سمعت شائعة مفادها أن الجنود البريطانيين سيطلقون النار على على شعراوي، وأن قوة لإطلاق النار تتمركز خارج منزله.[٦] وكان على قد أثار حفيظة البريطانيين بعد تأييده لمقترح صفية، زوجة زغلول، بإعلان منزله بالقاهرة مقرًا لـ الوفد. وسرعان ما اشتهر المنزل باسم بيت الأمة. وشارك على فى عشاء وفدى رسمى هناك مع أعضاء آخرين للحزب، مُتحديًا المرسوم البريطاني.[٧] كما أنه لم يُخْفِ مشاركته فى إصدار بيانات ثورية.

وفى ذلك الوقت، كان الإضراب العام يشلّ البلاد. وساندت الجماهير بأسرها المضربين، بمن فى ذلك حتى الثريات من النساء اللائى كن تنتظرن الموظفين المضربين خارج مكاتبهم للتبرع لهم بمجوهراتهن؛ تعويضًا لخسائرهم المالية وتشجيعًا لهم على المضى فى الإضراب.[٨] وكثيرًا ما تحولت أعمال الشغب إلى معارك دامية، وكان الجنود البريطانيون يطلقون الرصاص على الرجال والنساء فى الطرقات. وفى واقعة مُشينة تعرضت سيدة كانت ترفع علم البلاد من نافذة عربتها للضرب المبرح من قبل الجنود البريطانيين الذين كانوا يحاولون دون جدوى إسقاط العلم من يدها، فى حين راح بعض الأجانب المارة يسخرون منهم[٩]

وفى هذه المرحلة، قرَّرت هدى أن تلقى بثقلها فى الميدان، وتمثلت خطتها فى تنظيم مسيرة احتجاج لنساء الطبقة العليا من محيطها. وقد ظنت أنه إذا سارت النساء وحدهن، لن يجرؤ أحد على إطلاق النار عليهن.



على شعراوي

واعتقدتْ أن الرأى العام العالمى إذا ما قُتلت أيٌّ واحدة منهن لن يتجاهل مثل هذه المذبحة. ويمكن أن يتيح ذلك فرصة للضغط على البريطانيين بسبب تأثير المظاهرة النسائية على الرأى العام. ولم يكن بوسع على إلا الموافقة على فكرة زوجته الشجاعة.

وقررت هدى بداية أن تكتب إلى الليدى برونييت، زوجة سير ويليام الأمريكية، التى كانت قد زارتها لدى نهاية الحرب فى منزلها بالرمل. وكانت خلال لقائهما هذا قد ألحت على أن بريطانيا قد دخلت الحرب من أجل هدف واحد، هو مساعدة البلاد الأكثر فقرًا وبؤسًا، وليس من أجل أى طموحات استعمارية. كما أكدت أن مصر قد لعبت دورًا إيجابيًا فى الحرب إلى جانب بريطانيا وأنه ينبغى

بالتالى مكافأتها عليه. ولكن ما شهدته هدى يحدث فى مصر حتى ساعتها لم يتسق البتة مع هذه التصريحات. ولذلك فقد ذكّرت الليدى برونييت فى رسالتها بما سبق أن قالته، وأعربت عن أسفها للظلم المتمثل فى نفى زعماء "الوفد". كما أنها لفتت انتباهها إلى وحشية تعامل الجنود البريطانيين أثناء الاحتجاجات وركزت على فرض حظر التجوال الظالم على البلاد للقضاء على الثورة والذى كان يشلّ حياة المصريين ويعزلهم فى بيوتهم. وكانت هذه الرسالة هى الأولى ضمن سلسلة طويلة من رسائل الاحتجاج التى كتبتها هدى.(١٠)

وقد كتبت هدى رسالتها هذه إلى السيدة برونيت وهى فى قمة الانفعال، وقد صاغتها بلغة صارمة وحادة إلى حد أن عليًا قد قرّر عرضها على المجلس القانونى للحزب، للتأكد من أنها لا تنتهك أى قوانين. وقد أثارت الرسالة إعجاب زملائه فى الحزب، واحتفظوا بنسخة منها فى أرشيفه. وقد كان من الأهمية بمكان بالنسبة لهدى أن يكون اسمها أيضًا ضمن القائمة التى أعدها المسؤولون البريطانيون عمن يمكن أن يمثلوا خطرًا على الإدارة البريطانية. أما بالنسبة لليدى برونييت، فيبدو أنها قد عرضت الرسالة باستخفاف فى الدوائر الخاصة بها، قائلة إنها تعتبرها عديمة القيمة. وقد أصيبت هدى بإحباط شديد من موقفها. ومن دواعى السخرية أن السير ويليام وزوجته كان مضطرين أن يغادرا القاهرة دون الإعلان عن رحيلهما، خوفًا من انتقام الجماهير الغاضبة.

وفى ١٦ مارس ١٩١٩، انطلقت المظاهرة التى نظمتها هدى بحضور ثلاثمائة أو أكثر من سيدات الطبقة العليا المصرية مخترقة شوراع القاهرة لتشهد على تضامن وتصميم الشعب المصري. وضمت الصفوف الأولى صفية زغلول، وهدى، وشريفة رياض ووجيدة خلوصى وريچينا، زوجة الدكتور حبيب خياط. وقد كانت هذه المسيرة رمزًا وتجسيدًا للروح المصرية من عدة أوجه. فقد

شاركت فيها مسيحيات ومسلمات ويهوديات من كافة الطبقات. ورفعت بعضهن علم الوحدة الوطنية الذى ابتكرنه حيث حلّت الصلبان مكان النجوم الثلاث التى يعانقها الهلال على الخلفية الخضراء. وسارت النساء الثريات والفقيرات جنبًا إلى جنب فيما أصبح لاحقًا حدثًا دالاً فى التاريخ المصرى الحديث. تواجدت فى المسيرة نفس السيدات اللائى كن يقدمن دعمهن إلى المواطنين الأقل قُدرة أثناء الاحتجاجات والإضراب الذى أصاب مصر بالشلل. وكانت الوفديات معظمهن من زوجات وشقيقات وبنات أعضاء الوفد، وكُنّ يشعرن بالسعادة لمؤازرة رجالهن. وعلى غرار الطوائف الأخرى من الطلبة والعمال الساعين إلى تحرير بلادهم من الحماية البريطانية البغيضة، كانت نساء مصر المسيحيات والمسلمات يجلسن جنبًا إلى جنب فى اللجنة ويسرن كتفًا إلى كتف ضد الاحتلال، تحت أنظار العالم أجمع.

وقد كان من الطبيعى أن يسعى البريطانيون إلى إيقاف المسيرة النسائية، مثلما سبق أن قمعوا مظاهرات أخرى. وخشى رسل باشا، حكمدار العاصمة، أن يؤدى ذلك إلى احتجاجات للطلبة واضطرابات من نوع أخطر. وكان البريطانيون يعارضون بشدة فكرة أى مظاهرة يمكن أن ينضم فيها الطلبة إلى النساء، بحيث يستطيعون، وفقًا لكلمات رسل: " استخدامهن كدروع بشرية فى مواجهة البوليس والقوات".[١١] وهكذا رُفض التصريح للسيدات بالمظاهرة السلمية، وحال وجود كردونات الشرطة والقوات البريطانية دون تنفيذ خطة المسيرة. ومع ذلك، فإن النساء بوصولوهن فرادى بعرباتهن، ثم النزول منها ليشكلن معًا كتيبة متراصة قد نجحن فى إخراج مشهد مسيرتهن بشكل كامل. فقد نجحت النساء فى الوصول بعرباتهن بشكل فردي، والنزول منها، وتكوين مجموعات متراصة ونقل مشهد متكامل لمسيرتهن.

وقد شعر رسل باشا بسعادة جمة من إخراجه لحدث ظن أنه سيبعث على السخرية من المتظاهرات. وذكر فى مذكراته عن هذا اليوم ما يلي:

وعند إشارة معينة، أغلقتُ الكردون ووجدت السيدات أنفسهن فى مواجهة صف هائل من مجندين الشرطة المصرية، الذين تم التنبيه عليهم مسبقًا بعدم استخدام العنف والوقوف بلا حركة، وأن يتركوا، فى حالة الضرورة، وجوههم فريسة لخربشات الأظافر الغاضبة. كان رجالى يرون فى تعرضهم لهجوم من يعتبرونهم نساء جريئات فكرة فى قمة التسلية، وقد منحهم ضباطهم حرية كاملة فى ممارسة سخريتهم الريفية فى مواجهة السيدات الراقيات الواقفات أمامهم". (١٢)

وكان الغرض هو ما وصفه رسل باشا أن تقف "العزيزات البائسات" تحت شمس الظهيرة "دون تحقيق أهدافهن".

غير أن أحد المراقبين المعاصرين نظر إلى الأحداث بطريقة مختلفة كثيرًا:

"سارت الزوجات من أكبر العائلات عبر مختلف أحياء القاهرة وهن يهتفن "عاشت الحرية والتحرر"، فى حين احتشدت الجموع على الأرصفة تصفق وتحييهم ووقفت النساء فى النوافذ والشرفات يزغردن فى سعادة. كان مشهدًا رائعًا حرّك كل القلوب". (١٣)

وشعرت النساء بالاستياء من موقف الشرطة والبوليس المُحقّر للنساء. وحاولت هدى النفاذ من كردون الشرطة لقيادة المسيرة للأمام ولكن جنديًا بريطانيًا وجه فوهة بندقيته إلى صدرها. وصاحت "هيا، افعلها واقتلني، هيا. اجعل منى ميس كافيل جديدة". ولكن ريچينا خياط، استغلت تردد الشاب الذى أصيب بالذهول لتُمسك بأكتاف هدى وتبعدها عن طريقه. وقالت لها إن

هذا جنون. وإنها لو قُتلت فسوف تحدث مذبحة. فالطلبة العُزّل الحاضرون سوف يُلقون بأنفسهم على الجنود المسلحين. وأعادت كلمات ريچينا هدى إلى رشدها[١٤] وفى هذا الوقت، كانت جموع من الطلبة قد توجهت إلى سفارات أمريكا وإيطاليا وفرنسا طلبًا للمساعدة. وحضر السفير الأمريكى بنفسه ليشاهد ما يحدث والتقط صورًا مع النساء فى مواجهة الجنود البريطانيين أمام منزل سعد زغلول. ثم جاء رسل باشا وتحدث إلى هدى فيما بينهما، فلم يعد لها اختيار آخر غير إيقاف المظاهرة.

وكانت الحشود تنتظر النساء بالقرب من السفارات، وكان هناك الكثير من الأجانب. وقد جاء المارة بالورود لإلقائها على الأرض لدى مرور المسيرة. وقد بقيت بعض الصور تشهد على أن المسيرة قد تمت. وقد سارت سيدات محجبات عزلاوات تحملن علمًا يرمز فيه الهلال والصليب إلى التناغم الديني، وأوقفهن جنود مسلحون. وانتشرت الأخبار حول العالم وسمع بها التحالف الدولى لتصويت المرأة الذى أبدى اهتمامه بهذة المشاركة الجريئة للنساء المصريات فى النضال السياسى لبلادهن.

لقد أخذ الوضع فى مصر يخرج عن السيطرة بشكل متزايد. وتحولت المظاهرات التى كانت حتى الآن سلمية إلى حد بعيد، فيما عدا بعض الحوادث المعزولة، إلى فوضى عارمة واسعة النطاق يواجهها البريطانيون بقسوة شديدة. وقام موظفو الحكومة والعمال والطلبة والمحامون وغيرهم من المهنيين بإضراب عام. وتفجرت أعمال الشغب، وتعرضت المحال للهجوم والنهب وعُطِّلت السكك الحديدية وخطوط الترام والمواصلات. وكانت دعوات الإضراب تتتابع وتتواتر أنباء أعمال الحرق من جميع أنحاء البلاد. وأصبح الموقف مستعصيًا على سيطرة البريطانيين، وأخذ الجنود يردون بقوة السلاح فى حوادث كثيرة،

وكانوا يطلقون النار للقتل على أى مجموعة من المصريين يرونها تمثل خطرًا. وأصيبت البلاد بالشلل وأُعلن عن اتخاذ إجراءات حاسمة.(١٥) وأُرسل اللورد اللنبى إلى القاهرة كمندوب سامى غير عادي. ووصل إلى القاهرة فى ٢٥ مارس مُكلّفًا بإعادة القانون والنظام إلى البلاد، بيد من حديد إذا لزم الأمر. وقد جاء بالقطار من الإسكندرية بصحبة قلة من المساعدين الشخصيين واستقبله فى محطة القاهرة ممثلون عن السلطات المدنية والعسكرية، بما فيهم ممثل للسلطان فؤاد، رئيس المجلس التشريعي، ومحافظ القاهرة وآخرون. وكان من الواضح أن السلطات المحلية لديها الرغبة فى المصالحة. وفى ٣١ مارس، أصدر اللنبى إعلانًا يدعو المصريين الذين يتحلون بروح المسؤولية إلى إعادة الهدوء.

وفى ٧ أبريل وعقب الالتقاء بممثلين من عدة أطراف مصرية، من بينهم الملك فؤاد نفسه، أعلن اللنبى أنه سيتم إطلاق سراح زغلول ورفاقه الموجودين بالمنفي. وتم إخلاء سبيل الوفديين الأربعة وسُمح لهم بالسفر إلى أى وجهة يريدونها. وبناء على ذلك توجهوا مباشرة إلى مؤتمر السلام بباريس لعرض قضيتهم. وسافرت مجموعة تضم أكثر من اثنى عشرة من أعضاء "الوفد"، من بينهم علي، من الإسكندرية لمقابلة الأبطال الأربعة فى مالطا، وبعد مباحثات هناك، أبحروا معهم إلى فرنسا. كان الوفد يهدف إلى إجراء تفاوض مثمر مع زعماء العالم المشاركين فى مؤتمر السلام. وفى القاهرة، استمرت بعض الاضطرابات المتفرقة وسط جو عام من الإحساس بالانتصار لما بدا أنه تراجع من قبل البريطانيين.

غير أن القوى الأوروبية فى باريس تجاهلت، بكل بساطة، الوفد المصري. ولم يلْقَ الوفد فى العاصمة الفرنسية ترحيبًا أو رفضًا رسميًا. ببساطة، قوبلوا بالتجاهل التام. وفى هذا الوقت، تولى محمد سعيد رئاسة الوزراء فى مصر.

وظل أعضاء الوفد قابعين فى فندقهم فى باريس، فى انتظار إشارة إيجابية من الممثلين الأوروبيين بمؤتمر ڤرساى، ولكن اللقاءات القليلة التى حصلوا عليها لم تكن حاسمة. وقد نجح زغلول فى مقابلة چورچ كليمونصو، رئيس وزراء فرنسا عدة مرات ولكنها تمت جميعها على أسس شخصية بحتة. وقد تم إرسال محمد محمود إلى أمريكا لعرض القضية المصرية، إلا أن الرئيس وودرو ويلسون قد أصم هو الآخر أذنيه عنه رغم حديثه البلاغى السابق عن حقوق البلاد الصغيرة. واستخلص الوفد من ذلك أن الولايات المتحدة فى سبيلها إلى الاعتراف بالحماية البريطانية على مصر، وهو ما تم الإعراب عنه ضمنيًا فى المباحثات التى أجرتها بريطانيا والولايات المتحدة على هامش مؤتمر ڤرساي.

وكانت هدى تتابع باهتمام من موقعها البعيد متاعب الوفد فى فرنسا. كان هؤلاء الرجال يمثلون آمال البلاد بأسرها وسوف يتسبب فشلهم فى إثارة الفوضى فى مصر. كما كانت تشعر بالفخر لقرار على بالمساهمة فى نفقات الوفد بمبلغ هائل قدره ثلاثة آلاف جنيه، وهو مبلغ هائل بالنسبة لشخص بمفرده. وكان قد سبق له أن منح الكثير من الدعم المعنوى للحزب فى مصر حين كان قادته فى المنفى. كانت ترى أن عليًا قد بذل كل ما فى وسعه لتحرير مصر من الاحتلال البريطاني. إلا أنه كان من بين أوائل أعضاء الوفد العائدين إلى مصر، فى نوڤمبر ١٩١٩، على إثر خلاف فى الرأى مع زغلول الذى أهانه. وقد تعذر على هدى أن تصدق أن يسمح فى مثل هذه اللحظة التاريخية أعضاء الوفد الذين أودعهم كل من فى مصر مكنون آمالهم لأنفسهم أن يتشاجروا مع بعضهم البعض.

لقد شعر على أنه قد فقد صديقًا عزيزًا حين انفصل عن زغلول، على الرغم من أنه كانت هناك أسباب وجيهة لعودته فى الواقع. كان الوفد المصرى قد أمضى

فى باريس ستة أشهر بدون الحصول على أى تنازلات. وكان على مقتنعًا بأن البقاء لمزيد من الوقت لن يفضى إلى أى نتائج مثمرة. كما أنه بدأ أيضًا يتشكك فى أن زغلول يستمتع ببساطة بوجود أموال طائلة تحت تصرفه وأنه يود البقاء فى باريس لوقت أطول لهذا السبب. وقد تمثلت النقطة الخلافية الحاسمة ليس فحسب فى رفض زغلول إخطار على بمصروفاته، وهو أمين الصندوق فى الوفد، ولكن فى طلب المزيد من المال أيضًا. ويبدو أن الثلاثة آلاف جنيه التى تبرع بها علي، إضافة إلى المساهمات المالية التى قدمها الأعضاء الآخرون وقيمتها مائة جنيه عن الفرد، لم تكن كافية. ومن بين العبارات الحادة التى تبادلها الاثنان، تفوّه زغلول بكلمات جارحة. إذ قال له : "يا باشا أنت غنى ولكن الثروة ليست كل شيء، ونحن أيضًا عندنا بعض الشيء، وأنت فى الوفد لثروتك"(١٦)

شعر على بالإهانة والاستياء. لقد كان متواجدًا منذ مولد "الوفد". ولعب دورًا رئيسيًا فى الاجتماع الأول مع سير ريچينالد وينجيت. كما أنه تولى عن طيب خاطر قيادة "الوفد" بالنيابة أثناء منفى زغلول. والآن فقد ساءه بعمق أن يُقال له إنه قد سُمح له أن يصبح عضوًا فى الوفد بسبب أمواله فقط، وهو من وضع بسماحة بالغة شخصه وماله ووقته تحت إمرة "الوفد". ورغم أن قراره الرحيل من باريس مبكرًا قد جاء نتيجة لهذه الواقعة مع زغلول، إلا أن آخرين فى الوفد، ومنهم حسين واصف وچورج خياط وويصا واصف، شاركوه فى وجهة نظره وقرروا أن البقاء لفترة أطول فى باريس لن يفضى إلى شيء. ووضع على ما بقى فى حوزته من أموال باسم الوفد تحت تصرف الأعضاء الآخرين الراغبين فى البقاء وعاد إلى البلاد فى صمت.(١٧)

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الأحداث فى باريس، كانت هدى والسيدات اللائى شاركن معها فى المسيرة ضد البريطانيين، يفكرن فى التعبير

بشكل عملى عن رغبتهن فى التغيير. وقد كانت نتيجة ذلك ما أسمينه "جمعية المرأة الجديدة" فى وقت لاحق فى ١٩١٩، ويقع مقرها فى إحدى المناطق الأكثر فقرًا بالقاهرة، بهدف تعليم الفتيات من الفئات المحرومة وتحسين مستوى معيشتهن. ومرة أخرى، ساهمت كل السيدات الثريات فى محيط هدى من مواردهن الوافرة. وقد انتُخبت هدى رئيسة للجمعية وكانت حينها فى الأربعين.

وحينما عاد على إلى القاهرة صُدمت هدى واعترضت على قراره. ورفضت الإنصات إلى أى تفسيرات. وبدأ التباعد بينهما والتعاطف يتراجع، بما يذكِّر بالأيام الأولى لزواجهما، وقد عانى على كثيرًا من ذلك. أحزنه رد فعلها. لقد وصل النضال السياسى إلى منعطف صعب ولكن محبة هدى كانت تعنى له أكثر مما تعنى السياسة. كانت مستاءة ومتباعدة. ولجأ إلى المنيا حيث يشغل أوقاته بأملاك العائلة. ووجد عزاء فى العناية بالأراضى والاهتمام بها، ولكنه ظل يعانى من فراغ حياته. وكتب لهدى يقول: "

يا عزيزة،

بعد إهدائكم وافر السلام و كريم التحية أذكركم فى الموضوع الذى ناقشتمونى فيه وكل ما أحب أن تسمعوه منى بسلامة ضمير وحسن ظن أنه قد مضت هذه المدة الطويلة من الخلاف واستحكام حصول الشقاق وأنا منتظر وقتًا يتحول فيه قلبك من الجفاء إلى الرضا ومن الشقاق إلى الوفاق وأملى فى ذلك الوقت أمل قوي. ولم أزد فى المدة الماضية إلا حرصًا عليكم وتمسكًا بكم. ولا غرابة فى ذلك، فإنى مع كل هذا أعتقد فيكم سلامة النية وطهارة القيم والتحلى بكريم الأخلاق وحسن التربية وشرف الأصل والمجد الكريم.. وإن أخطأ لا بد يرجع إلى رشده يومًا. وكثيرًا ما تكلمت مع الكثير من أهلك فى هذه المدة بشأن إزالة الخلاف ولكن لسوء الحظ دون سمع، ربما لجسوء الفهم أو لعجزهم عن

التعبير عما فى ضميري. والآن أذكركم بأن ميلى إلى إنهاء الجفاء وحصول الهناء يزيد طول هذه المدة. وبذلك ترون أنه لا يمكن إجابة طلبكم لأن ذلك أمر لا يحس بصعوبته إلا نفسى ولا يجد ألمه إلا قلبى وربما أحسست به إن رجعتم إلى طبعكم الطاهر وخلقكم الكريم الذى عهدته. ولكن أفيدكم أنى كثير القلق عليكم والميل إليكم وأطلب منكم إزالة الخلاف وحصول الوفاق وأنا مستعد لمرضاتكم وإجابة طلباتكم بأى شكل يكون. وأنا منتظر رد الإفادة منكم. فإن رأيتم ذلك كان لى ولكم الحظ الأوفر وكفى ما حصل من سوء التفاهم بواسطتي. والسلام عليكم.[١٨]

وفى غياب أى تشجيع من هدى، لاذ على بالصمت. لقد اكتئب اكتئابًا شديدًا من رد فعلها الغاضب إزاء صدامه مع زغلول، ولم يكن قادرًا لا على الدفاع عن نفسه فى وجه انتقاداتها، ولا على تجاهلها. وكفَّ عن السعى إلى المصالحة وغاص فى الصمت. وفى الوقت ذاته، كانت خيبة أمله فى رفاقه السياسيين ما زالت مستمرة. هذا على الرغم من أن بعضهم، مثل أحمد لطفى السيد ومحمد محمود وعلى علوبة، كانوا يدعمونه. لكن يبدو أن شيئًا ما كان يموت داخله بالتدريج. واستمر يشعر بالجرح من موقف زغلول الجائر بل ومن موقف هدى أكثر. كان حزينًا لما بدا أنه وقوف هدى إلى جانب زغلول ضده. وأنها لم تحاول حتى الاستماع إليه. كما كانت مرارته كبيرة للطريقة التى تجاهل بها المجتمع الدولى مصر فى مؤتمر السلام. وقد علق الكاتب الفرنسى ڤيكتور مارجريتى على تلك الإهانة التى لقيها الشعب المصرى بقوله "إنهم (أى أعضاء الوفد) كانوا مثل الأصوات الزاعقة فى البرِّية".[١٩]

ومع ذلك، فإن الموقف كان، كما يرى علي، يزداد سوءًا يومًا بعد آخر بسبب إصرار زغلول على البقاء فى باريس، فيما أصبح يشكل وضعًا مربكًا

ومهينًا للكرامة. وإضافة إلى ذلك كانت هوة الشقاق تزداد اتساعًا فى البلاد بين مختلف الطوائف السياسية، مما أصبح يشكل ضررًا على الحركة الوطنية. كان الإجماع الذى حدث فى لحظة ما خلف الوفد قد أنعش آمالًا حقيقية، ولكن ذلك راح يتبدد الآن. وبدأ على يتأثر نفسيًا من جراء التفكك التدريجى لوحدة الصف السياسي، حيث شعر معه أن الجهود التى بذلها قد ذهبت هباءً.

أما هدى فظلت غير قادرة على التعاطف معه والتراجع عن رد فعلها العدائى تجاه عودته المتعجلة التى اعتبرتها غير مبررة. فقد كانت تعتقد، على خلاف علي، أن زغلول كان محقًا فى البقاء فى باريس والثبات على موقفه. لقد كان مطلوبًا، من منظورها، فعل شيء للحصول على الاستقلال من بريطانيا، وكان الصبر والوقت فقط من شأنهما أن يكسبا لمصر من يعطيها أذنًا صاغية. كما أن الخلافات التى تفجرت بين زعماء الوفد قد زادت ورطة مصر تعقيدًا. وعادت الأحداث العنيفة التى كانت تعد الملاذ الأخير للشعب المحتل لتسود المشهد مجددًا، بعد أن كانت قد توقفت منذ سفر الوفد. لقد صم البريطانيون آذانهم عن الوفد فى أوروبا، وظل المصريون على رفضهم للحماية أكثر من أى وقت مضى. وبات واضحًا أنه لا وجود لأى حل وسط وأن الحلقة المُفرغة من سوء الفهم والتنافر المتبادل قد بدأت فى الدوران بلا نهاية.

وفى النهاية، ما كان لتجاهل العالم للوضع المتأزم فى مصر أن يستمر. وأدركت الحكومة البريطانية أن القمع السافر لم يعد هو الرد المناسب على التمرد الشعبي، الذى راح يتجذّر باطراد، وأن المستقبل السياسى لمصر يتطلب اهتمامًا جادًا. وفى ٧ ديسمبر ١٩١٩، وصلت إلى مصر لجنة تحقيق برئاسة ألفريد ملنر للبحث فى أسباب حالة السخط فى البلاد والتقدم بمقترحات من أجل اتفاق دائم. وكان اللورد ملنر مكلفًا بتقديم تقرير يأخذ مطالب الشعب المصرى

بعين الاعتبار ويحاول موائمتها بمصالح بريطانيا والدول الأخرى. غير أن وجود لجنة ملنر، التى بدا وأنها تسعى إلى تجاوز زعامات "الوفد" زادت من حدة الاضطرابات الشعبية. وترك محمد سعيد باشا رئاسة الوزراء عندما لم يفلح فى تأجيل تحقيق لجنة ملنر إلى وقت أكثر ملائمة. وفى الوقت ذاته، شُعر ملنر بإحباط جهوده. ففى غياب زغلول الذى كان لا يزال يُعتبر الممثل الحقيقى للوطنيين والمتواجد فى باريس، واجه ملنر المقاطعة من قبل الجميع حتى الحكومة المصرية قررت عدم التحدث إليه، والتعامل فقط مع ممثلى الحماية الموجودين بالفعل. وحينما حاول ملنر أن يسأل الفلاحين مباشرة عن رأيهم، تلقى ردًا حاسمًا فى كلمتين "اسأل سعد".[٢٠]

وفى ١٢ يناير ١٩٢٠، عقدت السيدات المصريات لجماعة الوفد اجتماعًا احتجاجيًا آخر، هذه المرة أمام كاتدرائية سان مارك القبطية بالقاهرة. وتشكلت فى هذا الاجتماع "لجنة الوفد المركزية للسيدات". فرغم انسحاب على من "الوفد" فى باريس، كانت هدى متمسكة بعتادها الوفدي. ولذا فإنه على الرغم من غيابها عن الاجتماع تم اختيارها رئيسة للجنة. وكانت قد عادت لتوها من زيارة للأقصر حين كاتبتها إستر فهمى ويصا لإبلاغها بأن السيدات قد انتخبن بالفعل لجنة وأن هدى قد حصلت غيابيًا على أعلى الأصوات، ١٣٦ صوتًا. وقد ضمت اللجنة خمس عشرة عضوة، منهن إستر نفسها، التى كانت إحدى الفاعلات الرئيسيات، إضافة إلى زوجة شقيق هدى عنايات وشريفة رياض[٢١] وكانت بالطبع أنشطة اللجنة مفتوحة للمسلمات والمسيحيات واليهوديات على حد سواء، ووفقًا لنفس سياسات الوفديين من الرجال. وقد حظيت أعمال عضوات اللجنة باهتمام متنام من قبل الجمعيات الدولية للمرأة وبدا واضحًا أن مشاركة المرأة فى حركة التحرير المصرية تكتسب أهمية حقيقية.

وقد منح تشكيل "لجنة الوفد المركزية للسيدات" وضعًا رسميًا للحراك السياسى النسائى الذى كان قد بدأ يعبِّر عن نفسه فى المظاهرة النسائية فى مارس ١٩١٩. وقد مثّلت الحركة النسائية تطورًا من نوع جديد فى مصر، يمتد عبر كافة الطبقات والأديان. إلا أن الخط الرئيس لحزب "الوفد"، مثله فى ذلك مثل الكثير من المبادرات فى مصر فى ذلك الوقت، كانت قد سيطرت عليه فى بدايته زمرة مغلقة. غير أن أوان الإصلاح كان قد حان. وكان محمد على قد أرسى منذ وقت طويل، فى مصر، أسس نظام للمنح الدراسية يتيح للنخب المحلية أن تنمو. وقد بدأت تبرز منذ ذلك الحين طبقة من المثقفين والكتاب والفلاسفة والاقتصاديين والأطباء وسواهم، جاهزة لتحمل المسؤولية السياسية لقضايا بلادهم والإمساك بزمام الحكم فى أيديهم. وقد أخذت الحركة الوفدية تنتقى أعضائها من بين صفوف هذه الجماعات. وبذا جاء تأسيس المجموعة النسائية على قواعد أكثر شمولًا.

ومع أن التزامها بفكرة الوفد ظل راسخًا، فقد بدأت هدى تستشعر نوعًا من خيبة الأمل حيال زغلول. والمشكل أن معاركه لم تقتصر فقط على البريطانيين بل امتدت أيضًا لتصبح مع الحكومة المصرية وكذلك مع عدد متزايد من رفاقه السابقين. وعلى ضوء ذلك، راحت هدى تعيد النظر فى رد فعلها المعادى لقرار على بالانشقاق عن "الوفد" والتخلى عن منصبه كأمين للصندوق. وبدأ حكمها على أحداث ماضية يتغير على ضوء تطورات أكثر حداثة. وخلصت لاحتمال أن يكون زغلول قد تغير ولم يعد الوجه الذى حظِى بإعجابها لزمن طويل. لقد اعتقدت دائمًا أن زغلول لديه الكثير ليقدمه لمصر، ولكنها أصبحت تشعر أن طموحه الشخصى قد بدأ يلعب دورًا أبرز فى حياته. لقد كسب تأييد الشعب، ولا يزال يحظى به، ولكنه بدأ يستغل المشاعر الشعبية ويتلاعب بها، غير منتبه.

فيما يبدو، إلى أن الاضطرابات المستمرة التى كان مُلهمًا لها، قد أخذت تتحول تدريجيًا إلى حالة من الفوضى الدائمة، ولم تعد بالتالى سلاحًا فعالًا فى النضال ضد الاحتلال البريطاني. ورغم إعجابها بزغلول، بدأت تفكر فى أنه قد ارتكب أخطاءً وقوى إحساسها بأن حكمها على قرار على بمغادرة "الوفد" فى باريس كان حادًا أكثر من اللازم.

ورغبة منها فى معرفة المزيد عما حدث فى باريس، سعت إلى التحدث مع أعضاء آخرين من الوفد ممن كانوا قريبين من علي. وحكى لها محمد على علوبة، الذى كان محاميًا مرموقًا يحظى باحترام وإعجاب كل من يعرفونه، كيف شعر على بجرح كبير حينما أهانه زغلول، وكيف راح يكرر "وما ضرورة هذا الكلام يا باشا؟"(٢٢) كما حدثها علوبة عن الأيام الأخيرة لزوجها فى باريس حينما تباعد على عن أعضاء الحزب وقبع فى غرفته فى انتظار موعد الباخرة للإبحار به عائدًا الى مصر. كما حكى لها أيضًا حادثًا وقع فى زيارة الوفد إلى لندن فى ١٩٢٠، بعد رحيل علي، يشهد على أن طموحات زغلول الشخصية قد أخذت تتعاظم. كانت مجموعة منهم قد ذهبت إلى ميدنهد لتناول الغذاء على نهر التايمز. وتعطلت السيارة بهم فى طريق العودة فراحوا يتناقشون فى أمور السياسية وهم ينتظرون فى وسط الريف البريطاني. وقال لهم زغلول حينها فجأة أنه يفكر فى تقديم تنازلات فى المباحثات مع ملنر وفى أن يقترح عليه، على سبيل الشيء مقابل الشيء، أن يجبر البريطانيون ملك مصر على التنازل عن العرش. كان يسعى بوضوح إلى موافقة الآخرين على اقتراحه، فى حين أخذوا ينظرون إليه بتشكك، متساءلين عن ماهية دافعه إلى ذلك. ويبدو أنه كان يفكر فى أن يصبح فاروق، الوريث الوليد، ملكًا ويكون هو زغلول، وصيًا على العرش، "وبالتالى يكون من الناحية الفعلية ملك مصر حتى بلوغ فاروق سن الرشد" (٢٣)

وغادر اللورد ملنر مصر فى مارس ١٩٢٠، وفى صيف هذا العام قابل زغلول فى لندن. وقدم فى ٨ أغسطس مذكرة إلى زغلول تحدد مقترحاته التى تمثلت فى النهاية فى إنهاء الحماية البريطانية، وإن تضمنت ما وُصف بأنه ضمانات لبريطانيا. وكانت هذه المفاوضات غير رسمية وقال زغلول إنه لن يسعه الموافقة على أى شيء بالنيابة عن مصر دون التشاور داخل البلاد. وعاد بعض أعضاء الوفد إلى القاهرة. وفى ٩ نوفمبر، التقى زغلول مرة أخيرة بملنر وقدم إليه مقترحات إضافية دفعته إلى إيقاف المفاوضات. وقد نُشر فى فبراير ١٩٢١، التقرير الذى كان ملنر قد قدمه للحكومة البريطانية فى نهاية ١٩٢٠. كانت الحكومة البريطانية قد أقرت عندها أنه ليس هناك مستقبل للحماية بشكلها الحالي، ولكن السؤال ظل قائمًا عن الظروف التى يتم فيها إلغاء الحماية. ودعا البريطانيون مصر إلى إرسال وفد رسمى إلى لندن لمناقشة الشروط.

وقد عاد زغلول أخيرًا إلى مصر فى أبريل ١٩٢١، لكى يدخل فورًا فى صراع مع عدلى يكن باشا، رئيس الوزراء منذ شهر مارس، بشأن من يمثل البلاد فى هذه المفاوضات القادمة. وكانت الإدارة السياسية المصرية منقسمة إلى معسكرين. غير أن أعضاء آخرين من "الوفد" كانوا يرون أن الأهم هو الإبقاء على هذه المفاوضات جارية بدلًا من التشاحن حول من يتزعم الجانب المصري. وبدا أن الحل فى وفد مشترك، يضم يكن وزغلول، ويمثل الحكومة و"الوفد" سويًا، بدلًا من المضى فى العصبيات الشخصية التى ميزت الحياة السياسية المصرية. ولكن تصميم البريطانيين كان باتًا على التحدث مع وفد رسمى واحد فقط. ونظر البريطانيون إلى المظاهرات المؤيدة لزغلول على أنها فوضى واعتبروا الهجمات الشخصية التى وجهها إلى يكن ونشرتها الصحافة على نطاق واسع بأنها غير مسئولة. وانتهوا إلى أن المساندة السياسية التى

يحظى بها يكن، الذى كان يسعى آنذاك إلى تدشين حزب سياسى نيوليبرالى دستورى جديد، تعنى أنه هو محاورهم الفعلى الوحيد. وفى المقابل فقد كان ما أطلق عليه مراقب بريطانى لاحقًا بـ "التبجيل الشعبي" لزغلول، يؤدى باستمرار إلى إضعاف موقفه.(٢٤)

وقد منيت مباحثات يكن فى لندن بفشل ذريع، بسبب التخريب المنظم من جانب زغلول، الذى يبدو أنه كان يسعى لإرضاء غروره ومصالحه الشخصية. واستقال يكن فى ٨ ديسمبر، ولكن النتيجة كانت أفدح بالنسبة لزغلول، الذى تم نفيه مجددًا، هذه المرة إلى جزر سيشيل. ووضح أن الأخير الذى كان قد بدأ كأحد أعمدة حزب الأمة الدستوري، قد راح يرى نفسه الوريث السياسى للأميرالاى أحمد عرابي. وأصبحت الخطة التى كان قد أفصح عنها فى بريطانيا عن إجبار الملك على التنحى وتنصيبه وصيًا له، تلوكها كل الألسنة.(٢٥)

وكانت هدى تعيد التفكير جديًا فى خلافها مع علي. ولكنها كانت قد أجّلت ذلك أطول من اللازم بحيث تأخر الوقت جدًا على تحقيق التصالح. وبدا أن على قد استبعدها تمامًا بلا رجعة، لأول مرة فى حياتهما المشتركة. كما أنه انسحب من المجتمع وأصبح منطويًا ومتباعدًا. وبدت فرص أن يبرأ من عذابه ويعود من انسحابه إلى أعماق نفسه منعدمة. وعقب عودته إلى القاهرة، لم يعد على يرغب فى أن تكون له أى علاقة بـ "الوفد"، ورفض أن ينوب عن أعضاء آخرين كما كان يفعل فى الماضي، مثلما حدث لدى اعتقال محمود سليمان. كانت خيبة أمله فى الحياة السياسية كاملة، وبما أنه لم تكن له طموحات سياسية شخصية. فقد قرر فى الوقت المناسب الانسحاب من السياسة. لقد تمسك على دومًا بمبدأ مؤداه أنه لا قيمة لأى برنامج سياسى لا يستلهم رؤية يوتوبية. وفى أبريل ١٩٢١، أودى به إحباطه من "الوفد" إلى ترك الحركة تمامًا. ولم يبدِ أى اهتمام بما سيفعله الحزب للاستمرار لدى غياب زغلول فى منفاه الثاني.

لقد بدا لمن يحيطون بعلى آنذاك أنه قد انسحب على نحو ما من العالم. وراحت حيويته تخبو وتتراجع صحته. وفى النهاية، قرر فى فبراير ١٩٢٢، تحت وطأة الإرهاق واللامبالاة بأى شيء، أن ينتقل من وسط القاهرة للاستراحة فى فندق مينا هاوس بالقرب من الأهرامات، لعل هواء الصحراء النقى يبرؤه، وقال إنه لا يرغب فى أى إزعاج. وشعرت هدى بالقلق عليه وقررت بعدها بأيام قليلة أن تزوره. وتوجهت إلى مينا هاوس برفقة الأولاد ومعلمتهما جابرييل (جابي) روسو. لقد ذهبوا فى ليلة مكتملة القمر، كما تذكرتْ لاحقًا، وكان القمر يفترش السماء مثل كرة من الذهب، منيرًا الصحراء والأهرامات بغرابة. وصعدت هدى والأولاد ليجدوا الباشا فى غرفته، ولكن كم كانت صدمتهم حينما أدركوا أن جسده فقط هو الموجود، وبدا، كما ظنت فى البداية، نائمًا فى سلام فى ضوء القمر. لتتذكر إلى الأبد القمر المكتمل، وسكون غرفة علي، وجسده المُسجَّى على الفراش. لقد رحل الرجل. لم يفلح هواء الصحراء النقى فى إعادته إلى الحياة. مات على وحيدًا من هبوط قلبى مفاجئ فى الثامنة والستين من عمره.[٢٦]



- ٤ -

فى مواجهة الاحتلال

وفى بدايات ١٩٢٢، ورغم الإحباطات التى واجهها الوفد فى باريس ولندن، كانت مصر تتجه بسرعة أكبر من أى وقت مضى نحو ما يشبه الاستقلال. فقد بدا أن البريطانيين قد أقروا، رغمًا عنهم، أن الإخضاع المتواصل لأمة ضد رغبتها لم يكن بالخطة القابلة لل

بقاء. وفى النهاية كُلِّف عبد الخالق ثروت باشا، خليفة يكن فى رئاسة الوزارة، بالوصول إلى اتفاق مع البريطانيين وتحقيق الهدف المنشود. وقد وصلت مباحثات ثروت والفيسكاونت (النبيل) اللنبى إلى النتيجة التى كان الطرفان يتحركان تجاهها منذ مهمة ملنر. وفى ٢٨ فبراير ١٩٢٢، أعلن البريطانيون من طرف واحد إلغاء الحماية، فى بيان بمجلس العموم البريطاني، وعادت مصر مستقلة مجددًا. ونُشر القرار فى الجريدة الرسمية[١] فى ١٦ مارس ١٩٢٢. وكانت المشكلة تكمن، كما سيتكشف، فى المجالات التى يرغب البريطانيون فى الحفاظ على سلطاتهم فيها. ومع ذلك، فلو كان على لا يزال حيًا، لكان قد سعد كثيرًا لرؤية الهدف الذى كانوا يعملون دومًا من أجله وقد تحقق. شعرت هدى بعد وفاة على بالندم لأنها ظلمته، ولأنه لم يعد فى مقدورها إصلاح الأمور معه. وبقدر إعجابها الماضى بزغلول بلا تحفظ، بقدر ما كانت خيبة أملها فيه الآن كبيرة.

لقد مثَّل موت علي نقطة فارقة في حياة هدى، ولحظة من لحظات الحزن والندم، وبدأت تفكر في مستقبلها. لقد بدأ زواجها بطريقة غريبة، بحفل زفاف عروس طفلة، تلته سبع سنوات من الانفصال مكنتها من التحول من صبية صغيرة إلى امرأة. لكن بعد أن عادت حياتها الزوجية بشكل جدي مرة أخرى، نضج الاثنان سويًا وتقاربا. كانت معجبة بنظرته الجادة للحياة وإحساسه بالمسؤولية، وكان هو يحب زوجته الشابة لثقافتها وآرائها الراسخة وتصميمها. ومع بداية حقبة جديدة من حياتها بدون علي، تذكرت هدى كل الوجوه الحبيبة التي فقدتها، والتي ناضلت من أجل حياة أفضل في مصر أو طمحت لرؤية بزوغ يوم الاستقلال. وضمت القائمة والدها، وأمها، وحسيبة، وچذب عاشق، وأوچيني، وعديلة، بل وحتى لويزيت، وملك حفني ناصف الباحثة على وجه الخصوص، وقبلهم جميعًا شقيقهاعمر وعلي ذاته.

وعلى جانب آخر، كان كل من هؤلاء قد ترك خلفه من واصلت هدى علاقتها معه. كل واحدة من صديقاتها تركت وراءها أولادًا وأصدقاء أعزاء أصبحوا يحيطون بهدى. فقد ضمت تحت جناحها سيزا، ابنة عديلة بالتبني، وعلى سعد الدين، ابن چذب عاشق، الذي كان الصديق المقرَّب للسيد محمد السقاف، ابن عطية. كان الشابان مقربين للغاية من هدى، وخاصة علي سعد الدين، الذي كان يتواصل معها دائمًا ويكتب لها رسائل حنونة طويلة من ليڤرپول، حيث كان يدرس الهندسة. كما كان أصدقاء شقيقها عمر والبطل القومي مصطفى كامل، مقربين منها، ومن بينهم چولييت آدم. إضافة إلى أنها أصبحت، بعد وفاة علي، المسؤولة الوحيدة عن ابنيها، بُثنة ومحمد الحبيبين. وقد شعرت أن فصلًا من حياتها قد طوى وأن آخر قد بدأ. وأصبح التحدي أمامها هو أن تخلق حياة جديدة لنفسها ولمن تُركوا حولها.

وأخذت هدى على عاتقها بعض المسؤوليات تجاه مجد الدين وكوكب حفنى ناصف، شقيقى ملك، فكانت تُسدِّد نفقات دراستهما بالخارج. كان مجد الدين فى باريس، حيث أصبح رئيسًا لجمعية الطلاب المصريين، فى حين كانت كوكب تدرس الطب فى انجلترا. إلى جانب ذلك، ومن رماد باحثة البادية التى لا تُقارن بأحد، ولدت مى زيادة، تلك المرأة الشابة التى أُعجبت بها وأحبتها هدى. وكانت مى قد شاركت فى المحاضرات النسائية التى أشرفت هدى على تنظيمها فى جامعة القاهرة. كانت كاتبة وشاعرة وصحفية، والأهم من ذلك كله أنها كانت امرأة متحررة العقل بشكل استثنائي، يقدِّر قيمة وجودها فى القاهرة كل من يلتقى بها.

وراحت هدى تجتذب المزيد من الأصدقاء إلى محيطها. وكان من ضمن من فى دائراتها فى عام ١٩٢٢ چان ماركيس، التى نشأت فى جزيرة جوادلوپ الفرنسية. چان هى التى كانت قد أتت إليها ركضًا فى يوم من الأيام، فى ذروة الحماس الوطني، لتخبرها بأن زوجها على كان مستهدفًا من الشرطة. تحدثت چان طويلًا مع هدى عن روعة جزيرتها الاستوائية التى وُلدت فيها، ومياهها الفيروزية. كانت تتحدث معها أحاديث شخصية جدًا بنبرة صوت رزينة خفيضة كالهمس. قالت لها إنها من "سلالة فرنسية خالصة، وأن الدم الذى ينبض فى عروقها هو دم أجدادها القراصنة". كانت امرأة جسورة تبدو وكأنها لم تعرف الخوف البتة فى حياتها، ولا تكف أن تعاودها ذكريات قبلات وأحضان مربيتها ساعة الفراق، تلك المربية التى علمتها اللغة الكريولية كلغتها الأم. وسرعان ما اكتشفت هدى أن چان، التى كانت خبيرة لغوية بطبعها، كانت أيضًا كاتبة موهوبة، مثل شقيقتها الشهيرة مارسيل كاپي، المقيمة فى فرنسا. كما التقت هدى كثيرًا، أثناء وجودها فى أوروبا، بفرانسين لوبران، شقيقة أوچيني،

المتزوجة من فرانك دورا. وقد ظلا يتراسلان معها وكانا بمثابة عائلة ثانية لها فى فرنسا. وقد جاءت فرانسين دورا إلى القاهرة لتكون إلى جانب هدى. كما انضمت أيضًا إلى دائرتها أوديل رودان، ابنة شقيق مربية هدى ومرافقتها السابقة چان ريشار.

وكانت أوچينى قد عرّفت هدى منذ وقت طويل بالفرنسية جابرييل روسو، ذات الحيوية والسخرية اللاذعة، والمديرة بمدرسة "الليسيه الصغير" الابتدائية للبنات فى مدرسة الليسيه الفرنسية بباب اللوق بوسط القاهرة. وقد وافقت جابى بسرعة على أن تصبح المعلمة الخصوصية لأبنائها بالمنزل. وعرّفتهما مسرات القراءة بالفرنسية. وقد بدأت جابى لاحقًا فى قضاء عطلتها الصيفية مع الأبناء فى محطة الرمل، حيث كانت تستمتع بالمنزل الفاخر والبحر والمشى طويلاً على الشاطيء والهواء النقى القادم من الشمال الذى يجعلها تحلم بفرنسا، الواقعة عبر المحيط. كانت مقربة من العائلة وازداد قربها من هدى بعد أن تواجدت معها عند اكتشافها لعلى متوفيًا فى مينا هاوس فى واحدة من أسوأ لحظات حياتها. كانت جابى امرأة صغيرة الحجم ونحيفة، لا يشى تكوينها بطاقتها الذهنية والبدنية الهائلة. وكانت ذات طبيعة صاخبة وقد وجدت ضالتها فى البيئة المحيطة بعائلة هدى، حيث واتتها الفرصة لمقابلة ومصادقة شخصيات مثل النحات محمود مختار وغيره من الفنانين والمفكرين.

وأصبح مختار من أقرب الأصدقاء لجابي، وبالتالى لهدى. لقد كان مثالاً فذ الموهبة، وقد تحدر من عائلة بسيطة بقرية قريبة من المحلة الكبري. وقد قادته موهبته وحسن حظه إلى مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة ثم إلى باريس حيث حقق شهرة واسعة. لقد أُعجبت جابى بأعماله وبهرها حسه الساخر الذى كانت قادرة على أن تجاريه فيه؛ لأنها هى ذاتها كانت تمتلك هذا الحس الفكاهي.

كان يحكى لها عن أحاديثه مع الشاعر حافظ إبراهيم فى مقهى ريش كل يوم، ومغامراته فى بار اللواء وأنشطة فريق "لاشيمير" (الخرافة)، وهو اسم مجموعة الفنانين التى كان يرأسها وتضم راغب عياد، ومحمد حسن وآخرين. وكانوا يحظون برعاية الأمير يوسف كمال، الذى كان قد أنشأ مدرسة للفنون فى أرضه بدرب الجماميز، يدعمها ويديرها الفنان الفرنسى جيوم لاپلاني.[٢]

وامتدت صداقات هدى لتشمل مجموعات أخرى مثل جمعية "أصدقاء الفن"، التى كان يختلط فيها المصريون الأثرياء بالفنانين من مصر والخارج. ترابطت الفنون بالسياسة، وكان الفنانون ملتزمين بحرارة بالحركة الوطنية. وفى ١٩٢٠، نظمت جمعية الطلبة المصريين فى فرنسا لقاءً بين مختار والوفد المصرى الذى حضر إلى باريس فى ١٩١٩، وأسفر عن تكليف المثّال الشاب فورًا بالعمل على مشروع سُمّى "نهضة مصر"، يكون رمزًا لهذه النهضة. واتُفق على أن يتحمل نفقاته الوفد ورعاته الأثرياء الذين كان على شعراوى واحدًا منهم. وعكف مختار على العمل من فوره، وعاد إلى القاهرة فى ١٩٢٢، ليبدأ التشكيل الفعلى للعمل.

وكانت تكلفة المشروع باهظة، وبعد وفاة زغلول فى ١٩٢٧، أصبح من الضرورى ضخ أموال حكومية ليتسنى اكتماله. وقد اتخذ العمل شكل نُصب ضخم يجلس عليه أبو الهول، رمزًا لمصر الخالدة، بجانب تمثال لامرأة ممشوقة القوام، ترفع وشاحها عن وجهها ورأسها، كناية عن مستقبل مصر التى تحررت من قيودها العتيقة. وفى ٢٠ مايو ١٩٢٨، أزاح الملك أخيرًا الستار عن التمثال الذى وُضع فى ميدان باب الحديد، بجانب محطة السكك الحديدية المصرية بالقاهرة. وقد بقى هناك حتى ١٩٥٥، حيث استبدل به تمثال رمسيس الثانى الذى جيء به من الصعيد. ويوجد تمثال مختار الآن عند مدخل جامعة القاهرة.

ازداد ارتباط الفن والسياسة فى ذلك الوقت وكُتبت مقالات كثيرة كرّست مختار بوصفه الفنان المصرى بامتياز. وكتب مجد الدين حفنى ناصف مقالاً بجريدة الأخبار بعنوان "مختار والنهضة الفنية فى مصر". وكانت هدى قد دعمت بحماس مختار ومشروعه بالقاهرة واستمرت فى ذلك حتى بعد وفاة علي. كانت ترى أن الفن يلعب دورًا حاسمًا فى الحضارة وأن دعمها للأنشطة الثقافية سيكون من شأنه دفع الجمعيات الثقافية النسائية قُدمًا. وراحت تُكوّن مجموعة مقتنياتها الخاصة من الأعمال الفنية واستغلت قدرتها الشرائية فى مساندة الفنانين المصريين.

وكانت الصالونات الفنية الأسبوعية تقليدًا راسخًا فى دوائر المثقفين بمصر، وقد كان العديد من أصدقاء هدى يعقدونها فى منازلهم. كما واصلت هدى عقد صالونها الأسبوعى الخاص بعد وفاة علي، أيام الثلاثاء، كما كان يفعل والدها فى الماضي. وكانت الصالونات تزخر بالكُتّاب والشعراء والمفكرين والتشكيليين والمثّالين والمُطربين والسياسيين والنخب من الشرق والغرب. وبرعاية هدى، تمكنت النساء من المشاركة فى هذا العالم. وبدأ الكثيرون محاولات الكتابة النثرية والشعرية، وآخرون يرسمون وينحتون، والجميع يشاركون فى مناقشات بنكاتهم وعلمهم الغزير ورغبتهم فى الإبداع وفى الإمساك بزمام مصائرهم. كما كانت تُعقد صالونات أدبية فى منازل الكتاب، مثل عباس محمود العقاد ومى زيادة، وكذلك فى دور سياسيين وأعضاء من العائلة المالكة وغيرهم من الأثرياء والثريات المنتمين للطبقة العليا فى مصر. وتعود جذور هذه الحياة الاجتماعية المصرية لأيام الخديوى اسماعيل بل ومحمد علي، وقد سارت بمحاذاة الحياة الاجتماعية للحكام البريطانيين والجالية الأجنبية المقيمة فى البلاد، بل وتداخلت معها أحيانًا.

لقد كانت مصر تحظى برجال أكفاء كثيرين فى أحزابها السياسية ومؤسساتها المهنية والاجتماعية. إلا أن بصيرة هدى النافذة تمثلت فى إدراكها مدى الحاجة إلى أن تتحقق أيضًا طاقات نساء مصر الكامنة. وقد أسهمت الحركة النسوية الجديدة بدورها فى هذا المجال بالتعريف، على الصعيد الدولي، بقدرات المرأة المصرية وبإحداث تغير فى موقف العالم من مصر. وكانت النخبة المصرية فى مجموعها تتمتع بقدرات عالية على التعبير. إذ بالإضافة إلى اللغة العربية، وأحيانًا التركية، كان الكثيرون منهم يتقنون لغة أوربية أخرى على الأقل، ويستطيعون التحدث فى شؤون الثقافة الغربية والشرقية. وكانت هدى تأمل فى توسيع آفاقِ هذه المعارف عن طريق جمع هؤلاء الناس سويًا.

وفى تناقض ضخم مع حياتها الاجتماعية والعامة الناجحة، كانت أوضاع هدى المنزلية قد تغيرت بشدة للأسوأ بعد وفاة علي. لقد كان تأثير رحيله عميقًا على كل من أحاطوا به. لقد كان المتحكم الوحيد فى ثروة العائلة ؛ والآن فقد أصبح كل فرد من العائلة حُرًا فى نصيبه من الممتلكات الهائلة والمُجزَّأة، مع ما يستتبع ذلك من احتمالات حدوث الشقاق. وكان ذلك يعنى أن ابنى هدى ليسا فقط مستقلين بل ولكل منهما ثروته الخاصة. غير أن المنزل كان حسب الشريعة الإسلامية جزءًا من ميراث الأرملة وأصبحت هدى مالكة لقصر العائلة الكبير. وشعر الجميع أنها أصبحت تمثل رأس العائلة. وقد انصب اهتمامها الرئيس، فى حياتها الخاصة، على ضمان رفاهة الشباب الذين حملّت نفسها مسؤوليتهم.

لقد كانت عائلة هدى الحاضرة تتسع كثيرًا أيضًا بشكل فعلى بالوجود الدائم لأصدقائها وأقاربها من الأصغر سنًا. وعندما تُوفِى خالها أحمد إدريس بعد سقوطه من على حصانه بجبال القوقاز، أُرسلت ابنتا خالها الجركسيتان حواء وحورية إلى عمهما يوسف، الذى كان لا يزال مُقيمًا فى باندرمة، للعيش معه.

ولكن هدى طلبت منه أن يبعث بهما من تركيا للإقامة معها ومع ابنيها. وكانت قلقة بشأن اثنين من رعاياها: سعد الدين، ابن چذب عاشق، ومحمد السقاف، ابن عطية. فقد كانا مرتبطين بالعائلة منذ وقت طويل بعد أن عاشا طفولتهما فى شارع جامع شركس، حيث المنزل القديم لعائلة سلطان باشا، والذى كانت والداتاهما تحلان فيه ضيفتين. وقد ذهب الشابان إلى انجلترا لدراسة الهندسة فى ليڤرپول. ودأب سعد الدين على إرسال خطابات مطولة لابنة خالته يصف فيها بالتفصيل ما يرى وما يفعل. غير أن الأخبار التى كان يوردها عن محمد كانت مثيرة للقلق. إذ تفيد بأن السقاف الصغير كان مولعًا بالتسلية ويبذر أمواله. وخطر لهدى أنه ربما كان من الأفضل أن يذهب إلى سنغافورة للعيش مع والده، الذى كان قد عاد إلى هناك وأصبح من أثرياء التجار ذوى الحيثية. ولكن الشاب فضّل حياة الطالب الفاسق فى ليڤرپول على النفوذ الذى كان يمكن له أن ينتقل إليه من هذا الأب.

وفى القاهرة، كان قد لاح فى الجو ما يشى بوجود ما يربط بين محمد السقاف وسيزا نبراوي، ابنة عديلة بالتبني. كان الاثنان مرتبطين بمنزل شعراوي، مع أنهما لا ينحدران منه، لكنهما قد لعبا فيه معًا وهما طفلان. وكانت سيزا قد التحقت بمدرسة راهبات داخلية فرنسية بالإسكندرية ثم أقامت بعدها مع جديها. وحينها تباعد الاثنان. وفى انجلترا، كان محمد يغترف ببذخ من الأموال التى يرسلها له والده، مما برر قلق هدى من أنه يعيش حياة لامسؤولة. وبدا أن سيزا ما زالت مشغولة التفكير بمحمد كأمل رومانسي، فآلت هدى على نفسها إلا أن تحذرها من التفكير فى الارتباط بشاب تعلم أنه لا يمكن الاعتماد عليه، مهما كانت ثروته. إلا أن هدى ندمت لاحقًا على فعل ذلك، وشعرت أنها ربما قد أساءت الحكم على الشاب.

وكبرت سيزا وأصبحت شابة حلوة، ممشوقة القوام ومتزنة. كان شعرها طويلًا وتربطه بجمال خلف رأسها. وأصبحت هى وبُثنة صديقتين مقربتين عبر الأيام، رغم اختلاف شخصيتيهما. لقد كانت الفتاتان فى عمر واحد، وربما قرّب بينهما شغفهما المشترك بالثقافة الفرنسية وتمسكهما بلغتها. كانت سيزا تحب كل ما هو فرنسي، وكانت تتحدث وتكتب الفرنسية بإتقان كامل. كما كانت أيضًا شابة حازمة جدًا، رصينة وذكية ولم تخضع قط لأى نزوات. لم تكن تسمح لأى مشكلات أن تنال من رباطة جأشها، وتعطشها الفكرى لا يعرف ارتواءً. كان مزاجها المعتدل يتنافى مع الدم الأيرلندى الذى يسرى فى عروقها والموروث عن جدها، عبد الله بك الإنجليزي، ذلك الأيرلندى الذى تحول إلى مسلم مصري. ومع أنها لم تكن جميلة، كما كانت أمها الراحلة، فقد كانت جاذبيتها تكمن بالأحرى فى عقلها وتعبيرات وجهها، أكثر من قسماتها التى كانت غير لافتة للأنظار وإن كانت لطيفة.

لقد كانت بُثنة ومحمد فى سن المراهقة حين توفى علي، إلا أنهما كانا قد انجذبا بالفعل للمبادىء السياسية والفكرية التى تُشكِّل عالم هدى، والتى كان علي يساندها بقوة. لقد كانت بُثنة وكذلك محمد كلاهما يقرآن كثيرًا ويميلان إلى التفلسف. كان التفكير المجرد يجذبهما أكثر مما تجذبهما الطموحات الدنيوية. إن بُثنة بالذات دمّرها فقد والدها الذى ستظل ترثيه طيلة حياتها. كانت تتحدث الفرنسية جيدًا وشغوفة بالثقافة الفرنسية ومخلصة لمعلمتها جابرييل روسو، التى أصبحت صديقتها. إضافة إلى ذلك، وعلى غرار هدى فى سنواتها الباكرة، كان لديها استعداد للاكتئاب. ودفعها جزعها العميق على وفاة والدها، وهى فى سن صغيرة جدًا، إلى أن تنشد الطمأنينة فى حب رجل كبير السن. وسرعان ما تمت خطبتها إلى سياسى صاعد اسمه محمد سامى باشا، تزوجته

بعد أشهر قليلة. وقد نجح سامى نجاحًا لامعًا فى حياته العملية وصعد لمنصب وزير الاتصالات. وكان قد عُيّن حينذاك على رأس السفارة المصرية الجديدة فى واشنطون، كسفير لمصر فى الولايات المتحدة. لقد كان رجلاً ضخمًا، عريضًا، إلا أنه ذو حضور ومهابة. كانت تصرفاته تبعث الطمأنينة وتشهد على كفاءته العالية. كما كان طيبًا وفاتنًا لكل من يقابلهم، وملاطفًا جدًا لبُثنة التى تيّمها حبه بوضوح. كان فارق العمر هو المشكل الوحيد بينهما، إن كان ثمة مشكل.

ولكن بُثنة رأت ذلك أمرًا ثانويًا. فقد كان فارق السن بين أبويها ٢٦ عامًا ورأت أن أمها كانت رغم ذلك محظوظة بالزواج من والدها. كانت غريزتها تنبئها أنه لا وقت لديها لتضيعه. وفخرت، وهى ابنة التاسعة عشر، بالاقتران بباشا ودبلوماسى لامع. كانت مفتونة بإنجازات هدى وكلها تصميم على حذو حذوها واتباع مبادئها، علّها تصبح مصدر فخر لأمها بها فى يوم من الأيام. غير أنها كانت فى اللحظة الراهنة، تبحث عن الملاذ فى شخصية زوجها القوية وطبعه الكريم. وإن قيل لها إنها صغيرة على الزواج كانت سترد بالقول " سأكون أصغر زوجة لدبلوماسى فى العالم". وكان لدى هدى بعض الهواجس ولكنها خضعت لرغبة بُثنة ومضى الزواج فى طريقه. وبعد الزواج مباشرة، ذهبت بُثنة مع زوجها إلى انجلترا فى صيف ١٩٢٣ لقضاء بعض الوقت قبل التوجه إلى واشنطون، حيث كان عليهما بداية شراء مقر مناسب للسفارة المصرية الجديدة فى العاصمة الأمريكية والسعى إلى تحقيق مهمتهما الحيوية، ألا وهى كسب قلوب الشعب الأمريكى إلى جانب مصر.

محمد ابن هدى حزن كثيرًا هو الآخر لوفاة والده، إلا أنه كانت هناك عواقب أخرى بالنسبة إليه. كان فى السابعة عشر، ورغم ميوله الفكرية التى كان قد أظهرها، بدا وكأنه يغترف بكلتا يديه الحرية المفاجأة الناجمة عن رحيل والده.

وكان قد أمضى وقته حتى الآن بين كتبه وأساتذته، ولكنه أصبح فى وسعه الاستمتاع بحرية فعل ما يشاء وإنفاق أمواله على هواه. إن تحرره المباغت من عين والده اليقظة عليه كشف بعض علامات الضعف المثيرة للقلق فى مثل هذه السن الصغيرة. كان ضئيل البنية، داكن البشرة، شرقى الملامح ويتمتع بالجاذبية. كما كان قارئًا نهمًا، يكاد يكون منعزلاً. لقد كان لديه جانب يجعله أقرب الى الباحث منه إلى المثقف. على سبيل المثال، فقد قرأ كتاب روسو "العقد الاجتماعي" بالفرنسية قراءة دقيقة، رغم أنه كان قد تُرجم لتوه إلى العربية على يد محمد حسين هيكل باشا. وقد قُرأت ترجمة هيكل حينها على نطاق واسع فى مصر. ولما كان محمد قد قرأ النصين، فقد كان قادرًا على المقارنة بينهما، ويكاد يحفظ الكتاب عن ظهر قلب. غير أنه لم يكن قد اكتسب معرفة كبيرة بالعالم حتى هذا الوقت. فقد اقتصرت صداقاته على أعضاء عائلته ذاتها ومحيطها المحدود. وكان يشعر بالراحة أكثر فى حضرة النساء. كان يلعب ألعابًا لا حصر لها مع محمد سلطان، ابن عمر سلطان وشقيقته نايلة، بالإضافة الى سيزا وبُثنة وحوا وحورية وشباب آخرين من نفس عمره، ويمثلون أدوارًا من وحى ابتكارهم. وقد عزز من ميوله الرومانسية انعدام المسئوليات وولعه بالخيال والكُتَّاب الرومانسيين أمثال جوته. إلا أن ما كان يؤرق هدى هو الحفاظ على شؤون عائلتها المباشرة تحت السيطرة فى ظل مواصلة حياتها الاجتماعية والثقافية المتزايدة. لكن سيأتى حتمًا يوم يتسبب فيه أولادها فى حزنها، ويدفعونها إلى الندم على الوقت الذى أنفقته فى التزاماتها العامة وحماسها لأمور خارج نطاق العائلة.

ومع ذلك، فإن الوقت كان قد حان، آنذاك، بالنسبة لهدى لكى تباشر مشاريع جديدة. لقد أدركت هدى فى ١٩٢٢، بعد وفاة علي، أنه على الرغم من أنه كان يقيد

حريتها بشكل ما فى حياته، إلا أنه قد منحها دعمًا ومشورة لا يُقدرّان بثمن. وقد كان ذلك مثيرًا للدهشة إلى أقصى حد فى ظل أنه لم يكن شابًا، وفى ضوء العقلية المحافظة السائدة فى ذلك العصر. وفى البداية، حاولت هدى أن تلعب دورًا فى المشهد السياسي. لكن بعد رحيل على بوقت قليل، تحدثت أمام اجتماع "لجنة الوفد المركزية للسيدات" مؤكدة لهن أنها لن تنسحب من قضيتهن.

"لا المرض ولا الحزن ولا الخوف من الرقابة يمكن أن يحولوا دون أن أحمل على عاتقى واجبى معكن فى المعركة المستمرة من أجل حقوقنا الوطنية. لقد تعهدتُ لكم ولنفسى أن أناضل حتى نهاية حياتى لإنقاذ بلادنا الحبيبة من الاحتلال والقهر. وسوف أحترم دائمًا الثقة التى أوليتمونى إياها. دعونا لا نسمح بأن يُقال فى يوم الأيام أن امرأة فشلت لأسباب شخصية، فى القيام بواجبها نحو الوطن. إننى أفضل الموت على أن أجلب العار لنفسى وإلى شقيقاتي. سوف أبقى إلى جانبكم وعلى رأس صفوفكن فى السراء والضراء، يملؤنا الأمل فى المستقبل ونحن ندافع عن حقوق بلدنا الحبيبة. لن يسع المشاق المتكررة أن تفت فى عضدى وتمنعنى من الكفاح من أجل الاستقلال التام لبلادي.[٣]"

وقد تصادف أن تلقت هدى قبل شهر من وفاة على تشجيعًا على المضى فى نضالها السياسي، فى صورة خطاب من چولييت آدم، صديقة عمر ومصطفى كامل القديمة ومرشدتهما فى فرنسا، التى خاطبتها قائلة:

"عزيزتى هدي،

لقد أخطرنى ابنى على كامل، شقيق مصطفى الحبيب، الصديق الحميم لعزيزنا عمر، بأنك كافحت طيلة السنوات الثلاث الماضية من أجل الوطن المُعذّب، وأنك تزعمت هاتيك النساء والفتيات النبيلات اللائى يدافعن عن وطنهن

الحبيب ضد الغزو الأجنبي. وإني إذ أهنئك على اختيارك القيام بالمهمة الجسورة التي تليق بك وبعائلتك، أتمنى لك ولحزبك الباسل النجاح المستحق لجهودكم. إننا نحب مصر كشقيقة تعاني من عذاب القهر وسوف نواصل دفاعنا عنها في فرنسا. إنها تتجسد بالنسبة لنا في شخص المناضل العنيد من أجل الحرية، مصطفى كامل، الزعيم السابق للحزب الوطني.

تمنياتي المُحبة، چولييت آدم"(٤)

كان لهذا الخطاب مفعول السحر على هدى. فقد استدعى معه، كما في لحظات أخرى مهمة في حياتها، ذكرى حية من الماضي. إذ شعرت فجأة أنها مرة أخرى في حضرة كل من شقيقها عمر سلطان ومصطفى كامل معًا. وكانت قد عرضت الخطاب على علي، وحظيت بتقديره أيضًا، فقد كان يشعر بالمثل بغياب عمر ومصطفى ويتمنى أن يكونا بجانبه. وأصبح الخطاب بمثابة العقيدة بالنسبة لهدى. وقالت إن الوقت قد حان لنساء مصر، أن تثبتن أنهن، حتى في الأوقات المعاصرة، لسن أقل من رجالهن. وراحت تردد كلماته حتى حفظتها عن ظهر قلب.

وفي ٢٧ يناير ١٩٢٢، تلتقط هدى قلمها لتخط هذا الرد العفوي على خطاب چولييت:

"سيدتي،

يشقُ عليَّ أن أعبر لك عن مدى تأثري بذكرياتك المُحبة. لقد جاءتني كلماتك براحة معنوية، فما أحوجنا، في خضم نضالنا، إلى وجود من يشجعنا ويتضامن معنا. إن تعاطفك الذي عبَّرت عنه مصدر فخر وشرف لنا. واسمحي لي أن أشكرك يا سيدتي، نيابة عن كافة شقيقاتي المصريات، لاهتمامك ببلادنا المُعذَّبة. وكلنا

تصميم على النضال حتى النهاية لتحقيق الحرية بأى ثمن، انطلاقًا من إيماننا الراسخ بحقوقنا وثقتنا فى المستقبل. ونأمل أن نكون جديرين بهؤلاء الذين ضحوا بكل شيء فى سبيل وطنهم ويعملون معنا حتى من منفاهم. وتقبلى يا سيدتى أثمن تحياتنا وعميق تقديرنا"(٥)

وقد تزامن أن سافر الخطاب فى الوقت ذاته الذى وصلت فيه بطاقة بريدية كتبتها چولييت فى اليوم السابق من مقر إقامتها الصيفى فى فرنسا، فى دير جيف سور إيفيت، المطل على نهر إيڤيت فى وادى شوفروز، بجنوب-غربى باريس. وكان عمر، الذى زار الدير كثيرًا قد وصف لهدى المشهد الرومانسى للمكان، حيث يرتفع أثر قديم فى حديقة تملؤها النافورات على مقربة من مبنى أقيم على هيئة معبد أغريقى صغير بناه والد چولييت. وكتبت چولييت فى عبارات حماسية:

"سيدتى العزيزة،

أنا امرأة عجوز جدًا -٨٥ عامًا- ولكننى أرغب فى إنقاذ مصر قبل أن أرحل. أتمنى أن أراها حرة. أتمنى أن أُصدر صحيفة. وسوف أحتاج لذلك إلى الكثير من المال. لا بد من أنك قرأت مقالى فى لوفيجارو. أريد أن أكتب مئة مقال آخر فى صحيفة تخصني، أحرَّرها بنفسي، يا سيدتي، باسم صديقى عمر. لا بد لامرأتين، - أنت وأنا- أن تُحرِّرا مصر. إننى أمتلك شهرة واسعة وينبغى عليك أن تتوصلى وتتواصلى مع الوطنيين المصريين"(٦)

وسوف تدفع الصداقة والمصالح المشتركة لاحقًا هدى للتوجه إلى دير جيف سور إيفيت هذا، نظرًا لأن چولييت قد أصبحت واهنة فى شيخوختها وغير قادرة على القيام برحلات طويلة. ونشأت بين المرأتين صداقة لا يمكن سوى

للموت أن يفصم عراها، انطلقت من ذكرى أحبائهما وميلهما الفطرى لخدمة مُثُل واحدة.

وفيما بين ١٩١٩ وحتى وفاة على فى ١٩٢٢، مالت هدى بالأحرى للانخراط فى السياسة أكثر من العمل النسائى أو الاجتماعي. وبعد وفاة علي، ظلت هدى على دراية بالخبايا الداخلية لقصص التطورات السياسية من خلال أصدقاء على المقربين، بمن فيهم على علوبة ومحمد حسين هيكل وعبد الرحمن فهمى ومحمد محمود. وقد تطورت الأمور بسرعة فى الأسابيع التى تلت وفاة علي. إذ أسفر الصدام الذى وقع بين زغلول ويكن حول كيفية التفاوض مع البريطانيين إلى انشقاق فى صفوف حزب الوفد. واستمرت طائفة تؤيد زغلول فى حين رافق أعضاء آخرون من الوفد يكن فى الحزب الليبرالى الدستورى الجديد الذى أسسه حين تولى ثروت رئاسة الوزارة، واتجه للمعارضة. وكان الهاجس الأساس لهذه المجموعة هو السعى إلى وضع دستور مصرى والنضال من أجل الوصول إلى حكم دستوري. وأصبح أصدقاء على فى غالبيتهم أعضاء فى حزب يكن الجديد. وسرعان ما اندلع صراع مرير حين صار هؤلاء السياسيون الوطنيون الذين كانوا أكثر حرصًا فيما سبق، يعارضون زغلول الذى استمر يحظى بتأييد شعبى واسع وحماسي. وشعرت هدى بالتمزق بين الموقفين. ومن موقعها كرئيسة "لجنة الوفد المركزية للسيدات"، تدخلت مجددًا فى السياسة ونشرت رسالة فى الصحافة انتقدت فيها بشدة بعض جوانب البيان البريطانى الصادر فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢، والذى تفاوض بشأنه ثروت، وأنهى الحماية فعليًا. وكان غضبها نابعًا بشكل خاص من التحفظات التى أبدتها بريطانيا والتى شملت نية واضحة فى الإبقاء على قطاع الدفاع فى أيديها ومواصلة الحماية فيما تراه مناسبًا للمصالح الأجنبية فى مصر، إضافة إلى إدارة السودان. وكتبت فى رسالة مطولة يملؤها الانفعال تقول:

"غير أننا نسمع أن وزارة ستُشكّل، وأننا إزاء ذلك لنقف مندهشين لا نكاد نصدِّق أن يوجد مصرى تسمح له وطنيته أن يقبل الوزارة فى أحرج وقت تمر به بلادنا المغلوبة على أمرها، إذا صح أن بمصر خائنًا يقبل أن يكون آلة تسخره إنجلترا لتنفيذ حكم الموت على بلاده التى نشأ فيها وغذاه نباتها ورواه نيلها"(٧)

كما بعثت برسالة لثروت، باسم "لجنة الوفد المركزية للسيدات"، تهاجم فيها قمع الحكومة للاحتجاج الشعبى ضد النوايا البريطانية. وهددت باسمهن أنها على استعداد لقيادة الاحتجاجات ضد إدارته. وقالت:

"ها قد امتلأت السجون بأبناء مصر الأبرياء وتخضبت الأرض بدماء شهدائها وتقرحت أعين الثكالى وتفتت أفئدة الأرامل واليتامى، فهل تعتقدون إلى الآن بأنكم تعملون لتحقيق أمانى الأمة، أم هى قوة تدفعكم إلى القيام بما لا يرضى الحق والعدل؟"(٨)

وعلى الرغم من إغراء أن تواصل نضالها فى الحلبة السياسية بعد وفاة علي، فإن هدى سرعان ما قدّرت أن العودة إلى مجال حركتها السابق فى النشاط الاجتماعى أكثر ملاءمة. وبدلاً من إغواء المشاركة فى التطور السياسي للحركة الليبرالية الدستورية الجديدة، حولت انتباهها إلى وجهة أخرى. ومع ذلك فقد ظلت قادرة على أن تحظى بدعم أصدقاء زوجها النافذين فى مبادراتها فى المسائل الاجتماعية.

لقد مثّل عام ١٩٢٢ نقطة فارقة بالنسبة إلى هدى. إذ يمكن القول إنها حينها حقًا بدأت تدفع القضية النسائية إلى الأمام. وكانت هدى قد تلقت منذ ١٩٢٠ اتصالاً من التحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع (IWSA)، ومقره لندن، والذى أنشأته فى ١٩٠٤ الأمريكية كارى شابمان كارت. وقد قبلت

حينذاك، بموافقة علي، دعوة لمؤتمر المنظمة فى چنيف إلا أنها لم تستطع للأسف حضوره فى النهاية. وكانت قد طلبت من سيدات أخريات مرافقتها ولكنهن فشلن فى إقناع أزواجهن بالسماح لهن بالسفر بمفردهن. وكان الوفد لا يزال موجودًا فى باريس، رغم عودة على إلى القاهرة، ولم ترغب هدى، التى كانت لا تزال وفدية متحمسة، فى التغيب عن مصر فى وقت ربما تشهد فيه الأمور تطورات درامية. ولكنها كانت تعطى اهتمامًا كبيرًا للمنظمة النسائية العالمية وبدأت تفكر فى إمكانية انضمام مصر إلى مثل هذا الصرح الكبير.

وكانت مهمة التحالف هى الدعوة إلى تأييد توسيع حق الاقتراع ليشمل المرأة ومد مجال مراقبتها لمسائل النوع الاجتماعى على الصعيد العالمي. وكانت سيدات التحالف يرغبن فى انضمام منظمة مصرية إلى شبكتهن العالمية. وكانت شاپمان كار قد التقت مناضلات مصريات أثناء زيارة لها للقاهرة قبل الحرب وكانت تأمل فى أن تتمكن هدى من تأسيس منظمة مثيلة. إلا أن هدى لم يكن قد سبق لها أن فكرت من قبل فى شيء من هذا القبيل، ولم يكن له سابقة فى مصر. وعلى الرغم من التزامها الشخصى بالقضايا السياسية، فإن المجموعات النسائية المشكلة من سيدات الطبقة الوسطى والعليا التى كانت ترتبط بها كان جلّ نشاطها ينصب على الأعمال الخيرية. إلا أن المنظمات الوطنية الداعية لحقوق المرأة راحت تتشكل غداة الحرب العالمية الأولى فى كافة بلدان الغرب. فقد كانت النساء، فى غياب الرجال أثناء الحرب، قد تولين مسؤوليات كثيرة فى البلاد الغربية وبتن الآن تطالبن بالاعتراف بمهاراتهن وحقوقهن المدنية. وقد كانت هناك دعوة عامة من الرجال للتضامن مع طموحات المرأة.

وكانت لدى هدى خبرة كبيرة فى إقامة المنظمات الخيرية والاجتماعية النسائية. ففى ١٩١٤، كانت قد ساهمت فى إنشاء "جمعية الرقى الأدبى للسيدات"

تحت رعاية الأميرة أمينة حليم. وقد نظمت هذه الجمعية التى كانت عضويتها مقصورة بصرامة على النساء فقط، محاضرات فنية وعلمية وأدبية وتاريخية، بالإضافة إلى غيرها عن الآثار وقضايا أخرى، ورعت أمسيات موسيقية. إلا أن المجتمع كان واقعًا فى حالة من العطالة خلال فترة الحرب. واقترحت بلسم عبد الملك، مؤسِّسة مجلة المرأة المصرية على هدى إنشاء جمعية جديدة، باسم "جمعية المرأة الجديدة"، أُسست بالفعل فى ١٩١٩. وفى فبراير ١٩٢٠، أقامت هدى سوقًا لجمع الأموال لهذا المشروع. وقد نجحت الجمعية الجديدة فى جمع أربعة آلاف جنيه، ساهم فيها أعضاء العائلة المالكة بنحو ألف جنيه فى حين وصلت تبرعات أخرى كبيرة إلى ما يقرب من ٩١٠ جنيه إضافية. وناقشت هدى المشروع مع على الذى قدم، رغم حالة الجفاء بينهما، تبرعًا شخصيًا قدره ألف جنيه.

وفى ٢٢ أبريل ١٩٢٠، دعت هدى المهتمين بالمشروع إلى منزلها. وتمثلت المهمة الأولى فى إيجاد مقر للجمعية الجديدة، وكانت النية أن تضم أيضًا ناديًا ثقافيًا للمصريات يتم فيه عقد العديد من الأنشطة، علاوة على مكتبة للمرأة. وأصبحت هدى رئيسة شرفية فى حين تولت أمينة صدقى وجميلة عطية إدارة الأعمال اليومية. وكانت بلسم عبد الملك تنشر فى مجلتها وقائع أنشطة الجمعية التى احتفظت باسم "المرأة الجديدة" وانطلقت أنشطتها فورًا وحققت ازدهارًا كبيرًا.[٩]

وكان تأسيس الاتحاد النسائى المصرى بعدها فى ١٩٢٣، معلمًا بارزًا فى حياة هدى، وفى التاريخ المصرى كذلك. وجاء ما يحفز جهودها فى صورة دعوة جديدة من التحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع فى فبراير ١٩٢٣، لحضور المؤتمر التاسع للمنظمة، المنعقد فى روما. وقد بعثت نائبة

الرئيسة، السكوتلندية كريستال ماكميلان، بالدعوة الأصلية فى ٧ فبراير ١٩٢٣. وكان من المقرر عقد المؤتمر فيما بين ١٢ و١٩ مايو من هذا العام وعلى رأس جدول أعماله مسألة انضمام الحركة المصرية. وفى ١٤ فبراير كتبت هدى إلى رئيس الوزراء محمد توفيق نسيم باشا، الذى كان قد تولى منصبه فى نوفمبر ١٩٢٢، تطلب رسميًا التصريح بسفر وفد نسائى للمشاركة كممثلات لمصر. وكان رده بأنه سوف يبارك هذا الطلب فور أن يتم تأسيس منظمة.

وفى ١٦ مارس ١٩٢٣، دعت هدى زميلاتها من "لجنة الوفد المركزية للسيدات" ومبرة محمد علي، وكذلك جمعية "المرأة الجديدة" لاجتماع فى قاعة الاستقبال الكبرى فى ٢ شارع قصر النيل لتأسيس اللجنة الدائمة للمرأة المصرية، إطارًا لإنشاء منظمة نسائية سوف تعرف باسم الاتحاد النسائى المصري. وتم انتخاب هدى رئيسة، وشريفة رياض نائبة لها، وعطية فؤاد أمينة للصندوق وإحسان أحمد للأمانة. وانْتخبت أخريات للعمل فى الاتحاد منهن سيزا نبراوى ونبوية موسي، المثقفة المرموقة والناشطة النسوية المعروفة.



مجلس الاتحاد النساني/النسوى المصرى (سيزا، هدي، مارى كحيل، ريچينا خياط، عنايات سلطان وشريفة رياض).

وقد كنّ جميعًا صديقات لهدى وشاركن فى الأنشطة النسائية أثناء وبعد انتفاضات ١٩١٩. وتم إيجاد مقر للاتحاد والتقدم بطلب للحصول على تصريح رسمى من الحكومة المصرية بتمثيل مصر فى مؤتمر روما، بمجرد اختيار وتعيين عضوات الوفد.

وأعطى رئيس الوزراء الجديد، يحى ابراهيم باشا، الذى تولى المنصب فى ١٥ مارس، تصريحه من فوره وتمت الموافقة على أن تذهب هدى إلى روما وفى رفقتها سيزا نبراوى ونبوية موسي، اللتين تتميزان بطلاقة تعبير كبيرة من بين زميلاتها. وكلاهما غير متزوجة، وبالتالى لم تكونا بحاجة لتصريح شخصى بالسفر. كانت سيزا قد أصبحت كاتبة موهوبة ذات شخصية قوية، مكنها تعليمها الغربى من القدرة على محاورة الغربيات، أما نبوية فقد كانت هى أيضًا شديدة الذكاء وباحثة دؤوبة، علاوة على إتقانها اللغة العربية إتقانًا تامًا. انبهرت هدى بالطابع الدولى للتحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع. كانت مكاتب المنظمة فى لندن، ولكن مقر الرئيسة كارى شابمان كارت فى نيويورك. وكانت نائباتها الأربع من فرنسا، وسكوتلندا، وألمانيا والسويد. وقد أحست هدى من فورها أن هذا المنبر سيكون منبرًا مفيدًا ومؤثرًا فى الترويج للمصالح المصرية.

وفى ٦ مايو، وصلت السيدات الثلاث من الإسكندرية إلى بريينديزى على متن الباخرة حلوان. وكان فى استقبالهن مجموعة من الطلبة الإيطاليين اصطحبوهن إلى روما. وقابلتهن كريستال ماكميلان فى روما فى اليوم التالى وقدّمن للجنة التنفيذية للتحالف مسودة مشروع لإقامة منظمة مصرية تابعة له. وحينما اكتشفن عدم وجود علم مصرى من بين أعلام المنظمات المشاركة المعلقة فى مقر المؤتمر، طلبن من يوسف كامل، الرسام المصرى الشاب الذى

كانت هدى تتولى نفقات دراسته فى إيطاليا، أن يرسم علمًا مطابقًا للذى كانت ترفعه السيدات إبان مظاهراتهن فى ١٩١٩. وعلقت السيدات العلم بأيديهن ورُفع فى الجلسة الافتتاحية، بهلاله وصليبه الأبيض على خلفية خضراء، بدلًا من نجوم العلم الوطني.

ولما كان العلم ذا طابع دينى وصمَّمته سيدات، فقد شعر منظمو المؤتمر بشيء من القلق حتى تأكدن من عدم وجود اعتراض رسمي من جانب مصر. ومع بداية أعمال المؤتمر، رأت المشاركات الجديدات الثلاث أنه سيكون بمثابة ورشة عمل يتعرفن من خلالها على الحركة النسائية العالمية ويكتسبن معلومات قيمة. ففى يوم السبت ١٢ مايو، تم على سبيل المثال، تقسيم الجلسة إلى أربع لجان لبحث المساواة فى الأجور والتوظيف، وجنسية المرأة المتزوجة من أجنبى والوحدة والوضع القانونى للمرأة، وكلها مسائل ذات أهمية قصوى فى مصر.(١٠)

وقد شاركت فى المؤتمر قرابة ألفى سيدة. وحضر بنيتو موسوليني، الذى كان رئيسًا لوزراء إيطاليا، الجلسة الافتتاحية مع ثلاثة من الوزراء. وكانت فى استقباله فى بهو القاعة المندوبات الإيطاليات مارجريتا أنكونا من ميلانو، وأليتشى سكيافوني-بوزيو الناشطة النسوية الإيطالية المعروفة ورئيسة اللجنة المركزية الرومانية للاتحاد الوطنى لتصويت المرأة. وقد استُقبل بنيتو موسولينى بتصفيق هادر من الوفود الحاضرة. ثم ألقى كلمته التى جاء فيها أن الحكومة الإيطالية تعتزم بحث مسألة اقتراع النساء بحثًا مستفيضًا. ولكنه استطرد بملاحظات لم تحظ بترحيب مماثل من الحضور بشأن ما وصفه بواجبات وأنشطة المرأة فى المنزل والأهمية الأولية لمثل هذه الأنشطة فى حياة النساء وفى حياة المجتمع.(١١)

وأجلست كارى تشاپمان هدى على يمينها فوق المنصة، وقدمتها إلى الوفود الأخرى فى كلمتها كرئيسة. وقالت فى هذا الشأن إنه يسعدها أيما سعادة أن ترحب بوافدة جديدة، هى رئيسة وفد مصر، ذلك البلد المعروف بحضارته العريقة وتاريخه المجيد. ولقيت الموفدات المصريات الثلاث ترحيبًا حارًا. ووُجِّهت إليهن أسئلة كثيرة عن العلم ذى الهلال والصليب، الذى صممنه بهذا الشكل الخاص. وشرحن رمزية الشكلين وأنها تُعبِّر عن وحدة الأقباط والمسلمين معًا فى الكفاح من أجل تحرير مصر من الاحتلال البريطاني. وكانت التعليقات شديدة التعاطف. وأجرت هدى وسيزا اتصالات كثيرة من بينها بالأميرة الرومانية الكساندرا كانتاكوتينو، ممثلة رومانيا التى ستصبح لاحقًا من أولى الشخصيات المؤثرة فى المجلس الدولى للمرأة، والتى ظلت هدى على اتصال دائم بها بقية حياتها.

وكانت شوراع روما تعج بالموفدات إلى المؤتمر اللائى جئن من كافة أنحاء العالم، وكثيرًا منهن قد ارتدين اللباس الوطنى لبلادهن. وكانت الأسيويات والأفريقيات المرتديات السارى والفساتين الفضفاضة، محط الأنظار.[١٢] وكانت الصحافة الإيطالية فى حالة من الانتشاء. فقد كان الإيطاليون مندهشين لكون معظم هؤلاء الهنديات والصينيات واليابانيات والمصريات، الآتيات من أراض وثقافات مختلفة، صحفيات ومحاميات وسياسيات وخريجات جامعة. وكانت سيزا وهدى ترتديان الملابس الغربية وتتحدثان الفرنسية بطلاقة. وقد صرحتا فى لقاءاتهما أن المرأة المصرية ليس لها بعد حق الاقتراع، ولكن ذلك هو حال المرأة أيضًا فى بلد متقدم مثل فرنسا. إلا أنهما ترغبان حين تستعيد مصر الحقوق السياسية أن تمتد لتشمل النساء كما تشمل الرجال. وردًا على سؤال عن تعدد الزوجات، أجبن بأنه لم يُمنع بعد ولكنه لم يعد هو العادة السائدة. وأكدت

استر لومباردو، الصحفية الإيطالية بـ "چيورنالى دى روما"، أن فرصة مقابلة شقيقات من قارات بعيدة هى فى حد ذاتها مبرر كافٍ لانعقاد المؤتمر، لأن "سفر الروح لا يعادله كثرة الترحال والتعرف على أى اكتشافات جديدة فى العالم"(١٢)

لقد تولد قرار هدى وسيزا بخلع النقاب عند عودتهما إلى القاهرة بشكل طبيعى من خبرتيهما فى روما. فقد كانت المندوبات الثلاث تكشفن وجوههن أثناء جلسات المؤتمر، بعد أن أدركن أن الوجه المغطى عائق أمام التواصل ويحدّ بالتالى من فعالية عملهن. وسبقتهما نبوية موسى فى السفر إلى مصر، من أجل التحضير لاستقبال الأخريين، فى حين عادت هدى وسيزا سويًا. وخلال رحلة العودة، وحين أثيرت مسألة النقاب، أصرت سيزا على أنها ستبقى منذ تلك اللحظة بلا نقاب. وكانت هدى قد وعدت فى الماضى بخلع النقاب حين يكون الوقت ملائمًا لذلك. وبدت هذه هى اللحظة الملائمة. لقد ظهرن بوجوه مكشوفة أمام الجميع فى المؤتمر وعليهن إذن أن تعُدْن بكل فخر إلى البلاد ووجوهن مكشوفة تمامًا. وأكدتا سويًا أن المسألة ستكون ضربًا من النفاق إن لم تفعلا. وبدت الحجة مقنعة ومنطقية. غير أن هدى ظلت تشعر بأن عليها أن تطمئن أولاً بأنها لن تدمر حياة ابنتها الاجتماعية أو زواجها من خلال القيام بمثل هذه الخطوة الثورية.

وصلت الباخرة إلى الإسكندرية فى ٢٨ مايو ١٩٢٣. وكان محمود سامي، زوج ابنة هدى قد جاء للترحيب بعودتها. وحينما صعد على الباخرة، تحدثت معه عن خطتها لنزع النقاب حتى تطمئن أن فعلها لن يمثل له فضيحة. وكانت سعادتها غامرة لموافقته على خطتها. وقال لها إنه يعتقد أنه قد آن الأوان لاتخاذ تلك الحركة فى مصر. وأن سمعة هدى التى لا غبار عليها سوف تضفى الشرعية على هذه الحركة. وكانت نبوية موسى قد نظمت تغطية إعلامية لعودة السيدتين

لكى تكون حدثًا يحظى بأقصى قدر من الانتشار. وقابلهما مراسل من الأهرام فى الإسكندرية ورافقهما بالقطار إلى القاهرة. وفى محطة القاهرة، نزلتا من القطار مكشوفتى الوجه وواجهتا لحظة من الصمت المذهول، أعقبها قيام كل النساء من دائرتهما، واللائى جئن للاستقبال بنزع نقابهن. كان المشهد رائعًا ووصفه كل من حضره بحماس فى الأيام التالية.

وبعد عودة هدى ورفيقتيها إلى القاهرة، تمثلت المهمة التالية فى إرساء قواعد مالية متينة للاتحاد النسائى المصرى الجديد. وكان قد تم فى غيابهن تنظيم حفل خيرى فى ١٦ مايو ١٩٢٣ بحديقة الأزبكية، لجمع الأموال للاتحاد ولجمعية المرأة الجديدة. وكانت الحديقة بنافورتها الرخامية البيضاء المهيبة ومظلاتها الخشبية ونباتاتها الكثيفة موقعًا خلابًا لأى من الفعاليات الاجتماعية. كما ساعد جو شهر مايو اللطيف فى جذب حشد كبير من النساء العصريات. كانت مثل هذه الفعاليات الخيرية وسيلة فعالة للغاية لجمع الأموال للمنظمات من الطبقات المُوسرة. كما أن قضية النسوية كانت قد اكتسبت أهمية كبيرة. وحان وقتها. وقد مهدت هذه الفعالية الأولى الطريق لما سيصبح بعدها نشاطًا منهجيًا لجمع التبرعات من علية القوم فى المجتمع المصري.

وفى الوقت الذى كانت فيه خطط هدى المدروسة قد بدأت تؤتى ثمارها، فُجعت بحادث شخصى مُروِّع أحزنها كثيرًا. فقد أصابت كارثة أقاربها من عائلة فهمي، حينما قُتل على كامل فهمى فى لندن فى الأول من يوليو ١٩٢٣. وكانت والدته منيرة صبرى قد وافاها الأجل فى ١٩١٦، بعد رحيل زوجها على الذى ترك لهم ثروة هائلة. وكان على كامل قد ورث فى سن العشرين الكثير من ثروة والده. وقد التزم بواجباته الأسرية وأقام مستشفى ومدرسة فى مغاغة، بالقرب من المنيا، حيث أملاك عائلته، بالإضافة إلى تمويل منح دراسية لطلبة من القرية

التى كانت مسقط رأس والده. غير أنه اتسم باللامسؤولية فى إنفاق ثروته. كان سهل الانقياد، ووقع ضحية لرفاق السوء الذين شجعوه على أن يحيا حياة بذخ رهيب. وقد أدى سخاؤه وأسلوب حياته الباذخ إلى أن يُعرف باسم الأمير على فهمي. وحالت غطرسته دون محاولة أن يصحّح الفكرة التى شاعت عنه فى البلاد الأوروبية بأنه يحمل حقًا لقب الأمير، الذى كانت تطلقه عليه الصحف الغربية.

وفى ١٩٢٢، كان لا يزال فى الثانية والعشرين حين وقع فى حب مغامرة فرنسية سمعتها مُريبة كان قد قابلها فى القاهرة. كانت مارجريت لوران ميلير، ابنة سائق تاكسى بباريس وتكبره بعشر سنوات. وتزوجا فى ٢٧ ديسمبر ١٩٢٢. كانت مارجريت قد تزوجت وترملت مرتين بالفعل، ويقال إنها طعنت زوجها الثاني، والد طفلتها، حتى الموت خلال مشاجرة بينهما. لقد كان على مسلوب اللب تجاهها وعلى أية حال فقد أخفت عنه ماضيها. وأغرقها بالمجوهرات التى قامت ببيعها. وتحوّل الزواج إلى سلسلة من المشاحنات المهينة. وحاول الشاب أن يسيطر على زوجته، وحين فشل فى ذلك قرر أن يستعيد هداياه ويطلقها. ولكنه للأسف لم يفعل وكان ذلك خطأً عظيماً.[١٤]

وبعد نحو ستة أشهر من ذلك، أطلقت ميلير التى كانت تقيم فى فندق سافوى بلندن، النار على على من مسدس قيل إنهما كانا يحتفظان به فى غرفتهما بشكل غير قانوني. وأصابته بثلاث رصاصات فى رأسه من الخلف، بينما كان منشغلاً بمداعبة كلبهما الصغير. وحين عُرضت القضية على المحكمة، تولى المحامى البريطانى الشهير سير إدوارد مارشال هول الدفاع عنها.

وقد أمطر على بالإساءات البالغة وهاجم بشدة مؤسسة الزواج كما هى قائمة فى مصر وقرّع العادات والتقاليد المصرية بشكل عام وقدم ميلر على أنها ضحية أوروبية بريئة لما وصفه بسوء المعاملة الذى يميز الشرقيين. وقد

نشرت بلسم عبد الملك القضية فى مجلتها[١٥] وبعثت هدى باسم "لجنة الوفد المركزية للسيدات"، برسالة احتجاج للحكومة البريطانية:

"تُعرب " لجنة الوفد المركزية للسيدات "، نيابة عن كل نساء مصر، عن أسفها للاتهامات البغيضة والكاذبة التى وجَّهها محامو السيدة مارجريت فهمى وغالبية الصحف البريطانية، إلى كافة الشرقيين وإلى الرجال المصريين بصفة خاصة. وتعتقد نساء مصر أن الأمر مجرد هجوم على مصر مع سبق الإصرار والترصد ونوع جديد من الدعاية يسعى بها الاحتلال البريطانى إلى تبرير سياساته من خلال التشهير بالشعب المصري. إن مثل هذه الاتهامات تمثل أحقر أنواع العدوان، ومن دواعى الأسف أن تُوجَّه حجج الدفاع سهام هجومها ضد أمة بأسرها، خاصة حين يكون ذلك فى محكمة للعدل، كان يجدر بها أن تسمو بنفسها عن الكراهية وتمتنع عن انتهاك القانون بتوجيه اتهامات باطلة".

وفى الوقت الذى واصلت فيه قضية على فهمى سيرها فى لندن، تلقت هدى تقارير من بُثنة التى كانت تحضر الجلسات مع محمود سامي، الذى كان قد تم تكليفه بمتابعة القضية بصفته دبلوماسيًا مصريًا مُقيمًا فى لندن. وكانت بُثنة متحفظة فى تقاريرها ،لانزعاجها من الحديث عن وقائع بمثل هذه الفظاعة. ولكنها أخبرت هدى بتدخل محامية شابة، أوديت سيمون، تطوعت كمترجمة فورية فرنسية فى المحكمة. وسعت بُثنة للقائها وتصادقت معها، لإعجابها بشجاعتها فى اختيار مهنة القانون فى وقت لم يكن يوجد فيه إلا قلة قليلة من المحاميات من النساء. ومع استمرار الجلسات الكئيبة، لاحظت هدى أن بُثنة تفتقد وجود أمها، رغم مسانده زوجها لها. كان تعلق بُثنة بها يظهر بوضوح عبر رسائلها، حيث تتحدث دائمًا لأمها بكلمات تدليل مثل "أمى الصغيرة الحبيبة".

وفى هذه الأثناء، كانت هناك تطورات سياسية خطيرة تجرى فى مصر. فقد استقال نسيم باشا من رئاسة الوزراء فى ٥ فبراير ١٩٢٣، عقب مواجهة ضغوط بريطانية لوقف الإلحاح على حقوق مصر فى السودان. وألقى المندوب السامى البريطاني، اللورد اللنبي، القبض على العديد من الوفديين وأغلق منزل زغلول، بيت الأمة، لمنع استخدامه كمقر لأنصاره. غير أن هذا الاتجاه اتخذ فجأة مسارًا معاكسًا عند تعيين يحيى باشا لرئاسة الوزراء فى ١٥ مارس وحصوله على قرار إطلاق سراح زغلول من منفاه فى جزر السيشيل، علاوة على سماح البريطانيين بالإفراج عن سجناء سياسيين آخرين. وأُعلن الدستور الجديد فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ وصدر فى ٣٠ منه قانون انتخابى يتيح حق الاقتراع للرجال. وعاد زغلول إلى مصر فى سبتمبر، حينما قدّر أن الوقت أصبح مواتيًا لبدء حملته الجديدة لانتخابه رئيسًا للوزراء.

وكانت هناك مفاجآت وإحباطات شخصية أخرى فى انتظار هدى. ففى صيف ١٩٢٣، ألقت بالذكريات الأليمة لقضية فهمى وراء ظهرها، وقامت بزيارة لباريس بصحبة ابنها محمد. وكان كل منهما يخطط لرحلة أبعد. فكانت هدى تعتزم الذهاب إلى دير دو جيف لرؤية چولييت آدم، إلا أنها وجدتها فى حداد على وفاة پيير لوتي. وكانت قد تعوَّدت على زيارة صديقتها العجوز فى الدير الذى أصبحت تعرفه معرفة جيدة. وكتبت چولييت بعد هذه الزيارة فى رسالة بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٢٣ تقول:

"لا زلتُ أراك أمامى وأنت فى شرفتى تتحدثين عن مصرنا الغالية. وأتذكر أيام صيف بعيدة كنت أتحدث فيها عن مصر هذه ذاتها مع مصطفى وعمر. كانا زعيمين من زعماء المستقبل، مثلك وأنت تناضلين فى سبيل هذا المستقبل. تذكَّرْنَ أيتها النسوة المصريات ملكاتكم العظميات اللائى لم تكن عهودهن أقل قيمة

من عهود ملوككم. ولكن هذه المساواة لا تعنى أن تكن ذكوريات. لتكنّ زوجات، ولتكنّ أمهات، ولتسْعَيْنَ إلى ذلك الدور العظيم المتمثل فى تقديم المشورة. ولتُصْبِحْنَ - فى هذه اللحظة التى ربما يتعرض فيها المستقبل العظيم لمصر القديمة للخطر، مصدر إلهام لمطالب وطنية مشروعة. اذْهبْنَ إلى الشعب، وأنرنَ عقول أبنائه لو كانوا لا يعرفون من هم، واجْعَلنَهم يعرفون حقهم فى الحرية ويعرفون مسؤوليتهم الوطنية. أنت الجسورة، وأنت الواعية بقوة الجسارة، وبقيمة العمل. إن أمنياتى تطير بها إليكن السنونوات المصرية المهاجرة التى تغادرنا لتوها لتعود العام القادم إلى الدير بأعداد غفيرة أكثر كثيرًا مما هى فى أى مكان آخر لتنبئنا بأخبار مصر وقد تحرَّرت من نير المحتل الأجنبي."

أما محمد فقد كان يعتزم الذهاب من باريس إلى لندن لرؤية أخته ثم التنقل فى أوروبا بمفرده. وكانت رحلة هدى تمضى على ما يرام. وكان مجد الدين حفنى ناصف، الشقيق الأصغر لباحثة الذى كان ينهى دراسته فى باريس، قد وضع لها برنامجًا شاملًا لفترة إقامتها. وليلفت انتباه الصحافة الفرنسية لزيارتها، فقد نظم لها زيارة لقبر الجندى المجهول، الذى وضعت عليه إكليلًا من الزهور. ثم نظم حفل شاى على شرفها للطلبة المصريين الذين يدرسون بفرنسا وبريطانيا، بفضل المنح الدراسية التى منحتها لهم، وأيضًا احتفالًا بعودة مجد الدين الوشيكة إلى مصر، بعد أن اختتم درجته العلمية فى الاقتصاد والعلوم السياسية. وقد منحها هذا التجمع فرصة الحديث إلى الطلبة عن مجريات الأحداث فى مصر وموقف النساء المصريات. وكانت تودّ لو أنها تحدثت عن الإسلام لإحساسها بالحاجة إلى مزيد من الفهم بين الشرق والغرب بسبب الأقاويل المُفزعة التى تردَّدت خلال محاكمة زوجة على فهمي. كانت تريد أن تبرز أن الإسلام ليس مسؤولًا عن تخلف المرأة المصرية وأن الحجاب بدعة

عثمانية فُرضت على نساء الطبقة العليا فى ظل الإمبراطورية العثمانية. كما أرادت أيضًا أن تقول إنه من العبث حرمان المرأة من التعليم العالى لأن المرأة المتعلمة سوف تعلم أبناءها، وترفع بالتالى من مستوى البلاد ككل.

وقد استمتعت هدى كثيرًا بالوقت الذى أمضته فى ذاك الصيف مع مجد الدين ومحمد فى باريس. وقد بدا محمد سعيدًا بوجوده فى باريس، وشعر وكأنه فى وطنه، وقد استمتع بصحبة مجد الدين وظرفه وحسه الساخر، وبدت عليه علامات الارتياح والسعادة. وحينما ترك هدى لكى يذهب أولًا لزيارة شقيقته بُثنة فى انجلترا، كانت هادئة البال وواثقة تمامًا من أن رحلتها الخاصة سوف تتيح لها، كالعادة، لقاء شخصيات بارزة ورؤية أماكن مثيرة.

وفى سبتمبر ١٩٢٣ وأثناء عودتها إلى مصر، كانت المفاجأة الكبرى هى أن تلتقى هدى بسعد وصفية زغلول على متن الباخرة وهو فى رحلة عودته إلى مصر. وكان قد نُقل من منفاه فى جزر السيشيل إلى مضيق جبل طارق، ومع ذلك ظل يُوجِّه الوفد من خارج البلاد رغم إطلاق سراحه منذ شهر مارس. وأمضت هدى فى البداية وقتًا طويلًا مع سعد وصفية يتبادلون الأفكار، على ظهر السفينة وفى صالوناتها وفى قاعة الطعام. وأعرب سعد عن إعجابه بقرارها فى وقت سابق من العام بخلع النقاب. وقال إنه يعتقد أنه ينبغى على زوجته أن تفعل هى الأخرى ذلك. وطلب من هدى أن تشرح لصفية كيفية ضبط حجابها بحيث تكشف وجهها. وتحدث الاثنان إليها عن الصعوبات التى واجهاها فى السشيل، حيث كانت الحياة مريحة ولكن الإحباط رافقهما لانفصالهما عن أصدقائهما وبعدهما عن منزلهما. وأشارا إلى أن وجودها على الباخرة أشعرهما بأنهما صارا أقرب إلى مصر. وحدثتهما من جانبها عن أنشطتها مع التحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع **IWSA** والاتحاد النسائى المصرى وجمعية

الفنون، وكذا عن مشروعاتها لإقامة مصنع للخزف فى روض الفرج وورشة للسجاد فى الاتحاد النسائى المصري. وأضافت أن مصر عادت للحياة حقًا بفضل صحوتها الثقافية.

وكان سعد قد سمع بانتقادات هدى لزملائه الوفديين. ويعلم أن محمد توفيق نسيم باشا، خليفة ثروت فى رئاسة الوزراء، قد أثار استياءها حين انصاع للمطلب البريطانى بأن يصبح اللقب الدستورى للملك المصرى الآن "ملك مصر" بدلاً من "ملك مصر والسودان". وكانت المظاهرات اللاحقة قد أدت إلى إغلاق منزل سعد، "بيت الأمة"، والذى كان بمثابة نقطة فارقة بالنسبة للوفد، إضافة إلى اعتقال العديد من النشطاء. إن ما يريده الشارع المصرى الآن هو وجود سعد فى السلطة بأى ثمن، بغض النظر عن ماهية السياسات. وبدا أن سعدًا يرى أن وصوله إلى السلطة أهم من التمسك بمبادئه، حتى وإن اضطر إلى القبول بالتنازلات التى قدَّمها نسيم. وكان شديد الانزعاج لما يمكن أن يكون قد ألمّ بمنزله. وراح يلح فى سؤال هدى عن التأييد الذى يمكن أن يحظى به من قبل أعضاء حزبه. ولما أحست بعودته إلى ما كانت تعتبره أسلوبه الأناني، عاتبته على قلقه المبالغ فيه على مستقبله الخاص. وقد انزعج زغلول من معاتباتها، وبدأت تثقل الأجواء فيما بينهم، إلى حد أنه قد أمضى بقية الرحلة وهو راقض الحديث إليها، كما كان واضحًا أيضًا أن صفية غاضبة منها. وساورت هدى الهواجس حينها تجاه ما ستكون عليه ردود فعل صفية المستقبلية إزاء هذا الحديث، وقد أدى بالفعل إلى فتور العلاقات بينهما.

ولما أصبح الساحل على مرمى البصر، جاء الكثيرون فى مراكب صغيرة للترحيب بسعد وهم يهتفون باسمه أسفل الباخرة. كان فى غيابه قد تحول إلى أسطورة. وبعث إليه اسماعيل أباظة باشا، من فراش الموت، ببرقية طلب منه

فيها أن يطوى صفحة الماضى وأن يواصل خدمة بلاده كما فعل فيما سبق. وركض سعد نحو صفية رافعًا البرقية فى يده. وأدركت هدى أن هواجسها عن ماهية طموحاته كانت صادقة. وراحت تتساءل كيف أمكن أن يتغير هكذا "الأسد العجوز"، كما كان يُطلق عليه فى بعض الدوائر، خلال منفاه.[١٦]

وبعد كل الحديث الذى دار بين هدى وصفية حول النقاب، كانت صفية ترتديه على نحو ما اعتادت لدى مغادرتها الباخرة فى ١٩ سبتمبر. ولما أعربت هدى عن دهشتها لتجاهلها رأى زوجها، أجابتها صفية: "أنا ليس لى زوج واحد... واصف باشا غالى استحسن ألا أغير زيى حتى لا أحدث تأثيرًا سيئًا فى المستقبلين".[١٧] كانت هدى فى ذهول من العودة المُفاجئة إلى النقاب، خاصة أنها تستند كما اتضح إلى وجهة نظر مسيحي. وقد أحزنها فتور الزوجين إزاءها وهما يغادران السفينة.

وبعد شهرين، وبتاريخ ١٣ نوفمبر، تتذكر هدى وداع سعد الفاتر لها، حين تجاهل أن يُوجِّه إليها الدعوة بوصفها رئيسة "لجنة الوفد المركزية للسيدات"، لحضور الاحتفال بذكرى تأسيس الوفد فى كازينو سيروس. والغريب أن التقارير الصحفية ذكرت اسمها من بين المدعوين، كما لو أنها كانت حاضرة. ومما عمَّق الجراح أن سعدًا لم يذكر فى خطبته الدور المهم الذى لعبه على فى الحزب. ونشرت هدى تصريحًا أوضحت فيه أنها لم تُدْعَ إلى الاحتفال ولم تحضره.

وفى وقت لاحق من نوفمبر ١٩٢٣، نشرت هدى وزميلاتها بيانًا يتضمن المباديء التسعة الرئيسية "للاتحاد النسائى المصري"، حيث تمثلت أهدافه فى السعى إلى رفع مستوى المرأة الأدبى والخُلقى لتحقيق المساواة السياسية والاجتماعية بالرجل من وجهتى القوانين والآداب العامة. منح الفتيات حق حرية

الالتحاق بالمدارس العالية. كما يسعى الاتحاد إلى تغيير العادات المرتبطة بالزواج، حتى يتيسر للطرفين أن يتعارفا قبل التعاقد، وتعديل قانون الزواج بما يمنع تعدد الزوجات والطلاق بدون موافقة الزوجة، وكذلك رفع سن الزواج إلى السادسة عشر. كما يهدف الاتحاد أيضًا إلى تطوير الصحة والنظافة العامة فى مصر ومحاربة الرذيلة. وجاء فى ختام البيان أن الاتحاد سوف يعمل على نشر هذه المبادىء على أوسع نطاق وعلى حشد المساندة العامة لها. وكانت المبادىء المذكورة تعكس تلك التى سبق أن صاغتها ملك حفنى ناصف.

وفى الوقت ذاته واصل الاتحاد العمل على إيجاد قاعدة مالية متينة يقوم عليها. ودعت اللجنة الأثرياء وذوى النفوذ المتعاطفين مع مبادئه إلى أن ينضموا إلى عضوية مجلس أمناء فخري. وتمثلت الموارد فى التبرعات والمساهمات الفردية واشتراكات الأعضاء. ودعت لجنة الاتحاد جمعًا كبيرًا من النساء لحضور اجتماع فى قاعة الجامعة المصرية لشرح برنامج التحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع **IWSA**. وحددت مقترحين عمليين للتنفيذ الفورى طلبت من الحكومة المصرية إدراجهما فى القانون المصري. أولهما ينص على منع زواج الفتيات تحت سن السادسة عشر فى حين يتعلق ثانيهما بمؤسسة للمساواة فى النوع الاجتماعى فى كل فروعه وفى كافة مستويات التعليم وفروعه.

وقد استقبل رئيس الوزراء يحيى ابراهيم باشا وفدًا مصغرًا من الاتحاد النسائى المصرى وأعرب له عن إعجابه بالحركة النسائية ووعد بأن يأخذ مجلس الوزراء مطالبهن مأخذ الجد.[١٨] وقد أوفى بوعده، فما هى إلا أشهر قليلة وكان قد صدر القانون المُحدّد للحد الأدنى لسن زواج الفتيات. وفى السادس من ديسمبر، وخوفًا على مصير مطلبها الثاني، طلبت "لجنة الوفد المركزية للسيدات" من الحكومة أن تُعلن صراحة برنامجها التشريعي. غير أن التغيير السياسى كان وشيكا واستبق أى استجابة فى هذا الشأن.

- ٥ -

وزارة وفدية

وفى ١٢ يناير ١٩٢٤، حقق الوفد انتصارًا ساحقًا فى الانتخابات التى جرت وفق القانون الانتخابى الجديد فى مصر وأثمرت طموحات سعد زغلول أخيرًا حين تولى رئاسة الوزراء فى ٢٨ يناير ١٩٢٤. وقد ثارت فى البداية داخل صفوف الوفد وخارجه، تساؤلات حول ما إذا كان من المناسب أن يقبل زغلول المنصب. وقيل إن ذلك سيعنى قبوله بالتصريح البريطانى الصادر فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢، بتحفظاته التى تتضمن قيودًا على حرية الحكومة المصرية وكذلك الإخراج الفعلى للسودان من تحت السيطرة المصرية. وجادل البعض بأنه كوطني، لا يجوز أن يضع نفسه فى مثل هذا الموقف. إلا أن الشعب كان يريد زغلول وفرض المنطق والمشاعر فى النهاية قيادته للوطن. كما أنه كان مُصمِّمًا على تولى المنصب الذى حارب من أجله كثيرًا. ووعد بأن يسعى جاهدًا ويبذل قصارى الجهود لتحقيق اكتمال استقلال مصر.

وفيما يتعلق بالاتحاد النسائى المصري، فقد كان من المثير للأسف أن يتم قبول استقالة يحيى باشا، الذى كان متعاطفًا مع مطالبه، من رئاسة الوزراء قبل تنفيذ الإصلاحات التى طالبت بها النساء. ولكنه بدا واضحًا للوهلة الأولى أن الإصلاح سوف يستمر فى جميع الأحوال.[١]

مع ذلك فقد كان زغلول صديقًا قديمًا لقاسم أمين، أحد أوائل المنادين بقضايا المرأة، وبدا واثقًا من دعم أى تحركات فى اتجاه تحرير المرأة. وإضافة إلى ذلك، كانت زوجته صفية من أنشط أنصار الوفد، وهى وهدى تعرفان كل منهما الأخرى جيدًا. إلا أن مرور الحدث على هذا النحو قد أصاب النساء بخيبة أمل فادحة. وبداية، وقبل كل شيء، فقد وجّه زغلول إهانة إلى الحركة النسوية بتقاعسه عن دعوة ممثلات منهن لحضور افتتاح البرلمان، رغم توقع هدى وزميلاتها مثل هذه الدعوة. ولم يكن التذرع بعدم لياقة وجود نساء بين الحضور مقبولًا أو مقنعًا، نظرًا لأن زوجات الوزراء والمسؤولين والدبلوماسيين الأجانب قد دُعين للمناسبة انصياعًا للمراسم المتعارفة. ثم اتضح أيضًا أن زغلول لم يذكر فى خطابه الافتتاحى إلى الملك والبرلمان، أيًا من اهتمامات المرأة، رغم يقين هدى أن زغلول سوف يستمع إلى ممثلاتهن بحكم علاقتهما الطويلة. وفكرت أنه ربما لم يكن من الحكمة حديث هدى إليه بهذه الحدة وهما فى الباخرة العائدة من أوروبا فى سبتمبر. وشعرت النساء بخيبة أمل قوية وأخذ غضبهن يتزايد. لقد تخيلن، ربما بشكل ساذج، أنه بوجود الوفد فى السلطة، سوف يُنظر إليهن على أنهن تمثلن نصف الوطن. وكان من الواضح أن هذا لم يحدث حتى ذلك الحين.

وعند افتتاح البرلمان فى ١٥ مارس، وقفت فتيات من مدرسة وورشة الاتحاد النسائى المصري، يمثلن "لجنة الوفد المركزية للسيدات" والاتحاد النسائى المصري، أمام المبنى فى حركة احتجاج حملن خلالها لافتات كُتبت عليها مطالبهن بالعربية، لعامة الشعب، وبالفرنسية للدبلوماسيين الأجانب والصحافة الأوروبية. وكانت خمسة من هذه المطالب ذات طابع سياسي، تتعلق باستقلال مصر ودستورها وسلامتها الإقليمية. بينما تعلقت تسعة عشر منها بالقضايا الاجتماعية، وسبعة منها بالقضايا النسوية. أما الرسالة الاجتماعية،

فقد ركّزت على تنفيذ الضمانات الدستورية القائمة والنصوص الخاصة بتوفير تعليم حر وإلزامى فى كافة أنحاء البلاد، إلى جانب الحق المشروع لكل مصرى فى التعليم الثانوي. وتضمنت القضايا النسوية الدعوة لمنع الدعارة وحظر العادات البدائية مثل حفلات الزار التى تمارس خلالها النساء طقوسًا لطرد الأرواح الشريرة والعلاج من خلال الرقص، والتمثيل، وذبح القرابين، تصل فى ذروتها إلى فقدان الوعى. كما طالبن أيضًا بإقامة مستوصفات للفقراء وحدائق عامة للأطفال فى المناطق الحضرية.

وفى ٣١ مارس حاولت النساء مجددًا إيصال صوتهن إلى الحكومة. فاجتمعت "لجنة الوفد المركزية للسيدات" فى مقر مجلة المرأة الجديدة وصاغت تعديلات رغبت فى إدخالها على خطاب زغلول الذى ألقاه فى افتتاح البرلمان. كانت مطالبهن تتسم بالرزانة وتتصل بقضايا السياسة العامة بالأحرى وليس بمسائل نسوية تحديدًا. وركزت على أربع نقاط اعتبرتها النساء ذات أهمية قصوى إن رغبت الحكومة فى ألّا يتلاعب بها البريطانيون. أولًا، كان على زغلول أن يدعو إلى وضع تحديد واضح لحدود الدولة المصرية وإلى التعهد بأنه لن يتم قط الفصل بينها وبين السودان. ثانيًا، كان عليه أن يمنح ضمانًا لحرية التجمع لكل المصريين وأن يضمن أيضًا حرية الصحافة. ثالثًا، ينبغى الإعلان الصريح بحق مصر فى الحكم الذاتى داخل حدودها، بما فيها السودان. ورابعًا، لا بد من وجود التزام محدَّد بتعزيز القوات المسلحة المصرية كضمان للأمن الوطني. وقد صيغَتْ النقاط الأربع فى رسالة إلى الحكومة بتوقيع هدى ورفيقاتها. وقد بدا أن هدى قد أخذت على عاتقها فى هذه المرحلة قضية وحدة مصر والسودان كمسألة ذات أهمية خاصة.

وفى الوقت الذى كانت تحاول هدى فيه انتزاع تنازلات من زغلول من خلال تدخل "لجنة الوفد المركزية للسيدات"، كانت فى الوقت ذاته تشرع، كرئيسة

للاتحاد النسائى المصري، فى تنفيذ برنامج للنشاط الاجتماعى ذى طابع عملى بحت. وقد تمثل فى إقامة عيادة ومستوصف سُميا بدار الإصلاح فى مقر تم استئجاره فى شارع يحى بن زيد، بالحى المعروف بالسيدة زينب. وكان الدكتور سامى كمال بك مديرًا للعيادة التى تطوع للعمل بها سبعة أطباء. وواصلت العيادة نشاطها لسنوات طويلة وكان يتم فيها فحص العديد من النساء والأطفال وعلاجهم مجانًا. وكان الاتحاد يتحمل ثمن الأدوية المطلوبة. كما كان يتم فى العيادة تعليم الفقراء القواعد الأساسية للصحة العامة.

وبعد قليل من فتح العيادة، شكّلت هدى كتيبة، أو ما يشبه الجيش السريع، من الفتيات المتطوعات لتقديم الرعاية إلى الفقراء فى منازلهم. وقد تم تدريب المتطوعات من صغار عضوات الاتحاد، الذين أطلق عليهن "الشابات"، على العمل الميدانى وإرسالهن بما يلزم من قطع الصابون والمنظفات والأدوية إلى أكثر المناطق فقرًا فى القاهرة، حيث يقدمن المساعدة والنصائح. وكانت الفتيات تتحركن وكل منهن تحمل حقيبتين مليئتين بالصابون ومواد التنظيف وكذلك احتياجات الإسعافات الأولية. وكانت من بينهن ابنتا خال هدى، حوا وحورية، إلى جانب العديد من الطالبات اللائى سبق أن أرسلتهن فى منح دراسية بالخارج، ومنهن أمينة وكريمة السعيد وسهير القلماوي، بالإضافة إلى شريفة لطفى التى كان جدها عمر لطفي، أقرب أصدقاء سلطان باشا.

وقد ضمت الشابات أيضًا منيرة عاصم، ابنة فاطمة فهمي، التى حملت اسم جدتها منيرة صبري، قريبة والدة هدى وراعيتها. وكانت هدى قد رأت فيها زوجة مناسبة لابنها محمد، غير أن الخطة لم تفلح بعدما ظهر من عدم انجذاب أى منهما بالمرة إلى الآخر. ولكن العائلتين ازدادتا قربًا منذ دافعت هدى عن شقيقهما على كامل فهمى لدى مقتله، وقد ظلت فاطمة وشقيقتاها عزيزة وعائشة

ممتنات لها على موقفها هذا. ولهذا السبب أيضًا كانت هذه العشيرة من عائلة فهمى على استعداد لضم مواردها الهائلة إلى موارد هدى والقيام بجمع تبرعات وفيرة من ثروة عائلتهما الضخمة لدعم أى مشروعات تقدِّر هدى ضرورتها لخير المرأة والوطن.

وإضافة إلى أهمية عملهن الخيري، كان للشابات أيضًا وقت للترفيه، بالمشاركة فى استعراضات تنظم فى الحفلات الخيرية التى يقيمها الاتحاد النسائى المصرى لجمع الأموال. وعادة ما كانت جابرييل دالبريه هى من تُصمم الرقصات التى تظهر فيها الفتيات أحيانًا بالملابس الفرعونية، والشركسية أو غير ذلك، لتقديم مختلف الإثنيات والحضارات. وقد أدت شريفة لطفى فى أحد العروض الحية لـ "نهضة مصر" للمثَّال مختار، دور الفلاحة المصرية التى ترتدى جلبابًا طويلًا وطرحة وتقف إلى جانب أبى الهول. وقالت مجلة ليچيبسيان (المصرية)، فى تقريرها عن العرض، أنها قد أدت دورها بموهبة تامة: "لقد استيقظت من سبات وخمول قرون طويلة ببطء وبصعوبة".(٢) كانت الاسكتشات التى يقدمنها تمزج الأسطورة بالسياسة وتمثل دعوة إلى السلام والتفاهم العالمي. ومراعاة لمقتضيات اللياقة، لم يخطر ببال هدى أن تشارك بنفسها فى العروض. ولكنها كانت على سبيل المزاح تجرب الملابس أحيانًا خلف الكواليس أو بالمنزل، وتم تصويرها فى مناسبات مختلفة وهى برداء الفلاحة المصرية أو ملابس الأميرة التركية، ومرة فى ملابس امرأة هولندية يصحبها طفلان داكنا البشرة يبدو عليهما الضيق فى لباسهما الهولندى المصحوب بغطاء الرأس والمريلة. وكانت الفتيات تملأهن نفس روح الدعابة. وفى أحد الأيام، جذبت حورية التى كانت تقوم بدور الخادم فى اسكتش بعنوان "شجرة الدر"، على اسم الملكة الأيوبية، الزى المخصص للملكة وارتدته ورفعت

يدها بمروحة من ريش الطيور ووقفت بجلال أمام المصور. كانت فتيات الكتيبة الصغيرة القويات البنية، اللائى يزرن المنازل الفقيرة طول العام، يتحولن فى الحفلات الخيرية إلى أميرات وراقصات مبهرات مُزدنات بالجواهر.

غير أنه لم يكن للهو والمرح أن يدوما. فقد كانت التطورات السياسية تشى بأن مشاكل "لجنة الوفد المركزية للسيدات" فى طور الكمون والتخلق. وأدّت المواجهة بين اللجنة وبين حكومة زغلول إلى انقسام فى صفوف النساء. فقد رأت بعضهن أنه من الصعب معارضة سياسات زغلول كما كانت تريد هدى. ورفضت شريفة رياض، إحدى مناصرات هدى الوفيات، أن توقع على عريضة النساء التى تنتقد زغلول. وفى ١٨ يونيو ١٩٢٤، استقالت شريفة عن اللجنة بعدما رأت استحالة التعامل مع الصدام بين الحركة النسائية بقيادة هدى وبين حزب الوفد بزعامة زغلول. وقبلت هدى استقالتها على مضض، على أمل أن تستأنف نشاطها لاحقًا. وكانت هذه الاستقالة بمثابة صفعة على وجه هدى التى ظلت على يقين بأنه لا بديل عن انتقادها البناء لحكومة زغلول. وشاركت الكثير من العضوات الوفديات الأخريات قناعة شريفة رياض، التى أنشأت مجموعة بديلة أسمتها "لجنة المرأة السعدية".

وكانت هدى فى قمة الانزعاج من رفض زغلول المتعنت الاعتراف بالمطالب النسائية. غير أن هذا الرفض لم يكن متعارضًا مع مواقفه العامة. فقد أصبح زغلول، وهو فى السابعة والستين زعيمًا كاريزميًا ذا شعبية طاغية، ولكنه فى واقع الأمر راح يتصرف كديكتاتور. لقد كانت الأغلبية التى يتمتع بها فى البرلمان ساحقة بحيث لم يكن يكترث ببساطة بالمعارضة. وكان الوضع السياسى فى مصر متقلبًا إلى أقصى حد. وأفضى الاختلاف فى معظم القضايا السياسية إلى نزاعات بين الوفديين والأحرار الدستوريين. ورفع زغلول قضايا ضد معارضين

سياسيين بل وضد أعضاء البرلمان من المعارضة، لأسباب واهية مثل الإدلاء بتصريح يعتبره تشهيريًا أو كتابة مقال ينتقد شخصه. وكان يتم بكل بساطة فصل أى سياسى لا يظهر حماسًا مطلقًا لسياساته. ووضع قاعدة أنه لا انتقاد لتشريعاته ولا قبول لأى تعديل لها.(٣)

وتجسد ضعفه بدقة فيما سبق أن أوضحه من تشككوا فيما إذا كان يفترض أن يصبح رئيسًا للوزراء. وتمثل هذا فى أنه على الرغم من وطنيته الضارية السابقة، قد اختار قبول المنصب الرفيع فى ظل تمسك بريطانيا بالنقاط الأربع التى حدَّدتها كامتيازات خاصة لها، وهى الوضع المتميز للأجانب، واحتكار بريطانيا لمجال الدفاع، والسيطرة على قطاع الاتصالات ووضع السودان. وقد عرَّضه ذلك لتهمة الانجرار للحلول الوسط. وبدا أنه إن لم يستطع حل هذه القضايا فإن سلطته ستكون عرضة للتحدي. وذهب إلى لندن فى نهاية سبتمبر ١٩٢٤، لإجراء محادثات مع رئيس الوزراء البريطانى رمزى ماكدونالد، المعروف بتعاطفه مع مصر. والتقى به فى مقر رئاسة الوزراءء بلندن أيام ٢٥ و٢٩ سبتمبر و٣ أكتوبر. وقد كان يأمل فى إيجاد طريقة لحل نقاط الخلاف الأربع.(٤) وعاد زغلول إلى القاهرة فى ٢٠ أكتوبر، حينما فشلت هذه المباحثات فى التوصل إلى حل مُرضٍ.

وكانت هدى قد دُعيت فى نفس شهر سبتمبر هذا إلى السفر إلى جراتز بالنمسا لحضور الدورة الخماسية السادسة للمجلس الدولى للمرأة، الذى كان سيناقش موضوع حماية الطفل وإلغاء الدعارة. وكانت مُنظِّمة المؤتمر الدكتورة كريستينا باكر ڤان بوص التى قابلتها هدى فى روما من قبل. واتخذت هدى من المناسبة فرصة للإعراب عن انتقاداتها للوضع الاجتماعى والقانونى فى مصر فيما يتعلق بالزواج. كما انتهزت الفرصة أيضًا لمهاجمة الاحتلال البريطانى

للبلاد واستهدفت لأول مرة قوانين الامتيازات الأجنبية، أى تلك التى تُخضع الأجانب المقيمين فى مصر لقوانين بلادهم بدلاً من القانون المصري. وأشارت إلى وجود جانب يخص المرأة فى هذه القضية حيث إن القوانين المذكورة تحول دون اتخاذ الحكومة المصرية إجراءات فعالة ضد بيوت الدعارة التى كان الأجانب يمتلكون أغلبها. ودعت المؤتمر إلى أن يطلب من الحكومات الأجنبية التخلى عن حقوقها فى الامتيازات الأجنبية فى مصر.

وقد أصبحت هذه الحقوق، فى الوقت المناسب مصدرًا لقلق عظيم للوطنيين المصريين، بل ولجميع المواطنين فى الواقع. فقد كانت فى الأصل قائمة على مفهوم مُكرّس فى المعاهدات الموقعة بين الإمبراطورية العثمانية والدول الأوروبية، يقضى بعدم خضوع الرعايا الغربيين للقانون المحلي. وكانت هذه الترتيبات قد أُلغيت فى كل مكان آخر من الأراضى العثمانية السابقة بموجب معاهدة لوزان المبرمة فى ١٩٢٣. ويُذكر أن اتفاقيات بامتيازات أجنبية أخرى كانت قد وُقّعت مع مصر فى القرن التاسع عشر نظرًا لحكمها الإدارى الذاتى داخل الإمبراطورية العثمانية، وكان استمرارها يمثل وضعًا شاذًا. إذ على الرغم من الاعتراف باستقلال مصر فى ١٩٢٣، ظلت البلاد خاضعة إلى حد كبير لسيطرة الحكومة البريطانية، التى لم تكن على استعداد للتخلى عن الحصانة التى يتمتع بها رعاياها، وبالتالى عن حصانة رعايا الدول الغربية الأخرى. ولم يتم الإقرار بمبدإ إلغاء قوانين الامتيازات الأجنبية إلا فى عام ١٩٣٧، بموجب معاهدة مونترو. وظلت القوانين قيد الممارسة لفترة انتقالية حتى أواخر ١٩٤٩.

وقد أثارت الزيارة إلى جراتز مشاعر كانت دفينة فى أعماق هدى. فهاهنا مات والدها سلطان باشا. وقد وجدت بعض الوقت على هامش المؤتمر لتستفسر عن أيامه الأخيرة. وزارت فندق "ذى إليفنت" الذى أمضى فيه أسابيعه الأخيرة.

وقابلت طبيب الفندق الذى كان فى إمكانه فحص الأرشيف المحفوظ منذ ١٨٨٤، وقد استطاع إمدادها ببعض المعلومات. وقد أتاح لها ذلك على الأقل أن تستبعد قصة روّجها سكرتيره قللينى فهمى باشا، حول إمكانية تسميمه على يد بعض عملاء الخديوى أو أعداء آخرين. فقد كان قد تم تشريح الجثمان ولا تزال النتائج محفوظة بالملف بعد أربعين عامًا، تفيد بعدم وجود أثر للسم فى جسده. لقد كانت حزينة لوفاة والدها وحيدًا فى جراتز وأدخلها تنقيبها فى هذا الشأن فى مزاج فلسفي. هل كانت أولوياتها صحيحة؟ فقد توفيت أيضًا والدتها إقبال فى غيابها، أثناء وجودها فى أوروبا. ألم يكن واجبًا عليها أن تتواجد مع أهلها أينما كانوا فى أيامهم الأخيرة؟ هل فشلت فى القيام بواجباتها حيالهما؟ وملأتها هذه الأفكار بالشجن ولازمها الحزن حتى إبحارها عائدة من أوروبا فى نهاية سبتمبر ١٩٢٤.

وبعد عودتها من النمسا، قررت هدى أنه ينبغى انتهاج ردود فعل مدروسة بعناية وغير عنيفة فى مواجهة القيود التى لازالت بريطانيا تفرضها على حرية مصر. وكانت متأثرة بأحداث الهند حيث أصبح غاندى زعيمًا لحزب المؤتمر الوطنى الهندى فى ١٩٢١، وشرع فى شن حملة غير عنيفة ضد البريطانيين بهدف الحصول على الحكم الذاتى للبلاد. وفى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٤، دعت هدى مجموعة من السيدات إلى منزلها فى ٢ شارع قصر النيل لعقد اجتماع لمناقشة إنشاء لجنة تتولى تنظيم مقاطعة للسلع البريطانية عل غرار نموذج غاندي. وفى اجتماع لاحق للمتابعة، وجّهت اللجنة رسالة إلى عموم الشعب المصرى تدعوه فيها إلى ما يلي: "مقاطعة البنوك البريطانية، وشركات التأمين، ووسائل النقل، والسلع، ودعم المنتجات المصرية"(٥) وحثت الرسالة الشعب على وقف التعامل مع المحال والشركات البريطانية. وكانت فكرة المقاومة السلبية تكتيكًا لقى

الترحيب حول العالم، وخاصة بين النساء. وأملت هدى في أن تدعم مثل هذه المقاومة موقف زغلول في مفاوضاته المستمرة مع بريطانيا. وبعثت له ببرقية تحثه فيها على أن يقاوم بضراوة أى حلول وسط.

وقد حظيت لجنة المقاطعة بموجة هائلة من التضامن الشعبي.[٦] وبذلت النساء جهودهن القصوى لمناشدة الشعب بمواصلة تأييده للمبادرة:

"يا أبناء مصر، ليس لكم سلاح تشهرون، ولا أسطول تخوضون به غمار البحار، ليس لكم حول ولا قوة أمام حولهم وقوتهم. ولكن لكم سلاح أمضى ومدفع أبعد مدى، ذلك هو الإضراب عن معونة الإنجليز في جميع الأعمال الاقتصادية والتجارية والصناعية، فلا تشتروا بضائعهم، ولا تستأجروا مزارعهم، ولا تؤجروهم منازلكم، ولا تودعوا نقودًا في مصارفهم، وطنوا أنفسكم على ذلك غيرة على حياتكم وشرفكم."[٧]

غير أن فكرة المقاطعة لم تحظ بمساندة شاملة. ففي ٣ نوفمبر ١٩٢٤، نشرت صحيفة البورصة المصرية رسالة هاجمت فيها المقاطعة وسخرت من هدى شخصيًا:

"إن السيدة شعراوى باشا تناشد مواطنيها باسم وطنيتهم بالتوقف عن شراء المناديل البريطانية، ومفارش السفرة البريطانية، والملابس الداخلية البريطانية، أو حليات الرقبة أو رابطات العنق أو البيچامات البريطانية، أو أى شيء بريطاني في الواقع. والمرء يتساءل حقًا في أى عالم خيالي تعيش السيدة هدى شعراوي، بما أنه من الواضح أنها لا تعرف مصر. فلو كانت تعيش بيننا كان حريًا بها أن تعلم أن مواطنيها لا يستخدمون السكاكين والأكواب والشُوك ومفارش المنضدة أوالمناديل والمراتب أو أى شيء شبيه بهذه الأغراض.

فقد عاشوا بدونها لعشرة آلاف سنة، بل وربما مائة ألف. إن ما يحتاجونه في الحقيقة هو إبريق ماء وطبقًا من الفول، ورغيف من الخبز المسطح الذى يقوم مقام المنضدة والطبق ومفرش السفرة والمنديل، وكذلك الغذاء: هذا ما هم فى حاجة إليه لسد جوع اثنى عشر مليونًا من المصريين. إن المقاطعة سوف تؤدى فى الواقع إلى التضخم ليس إلا، وإلى مزيد من الفقر فى مصر".

وأثار هذا المقال سخط هدى، واعتبرته ليس فقط ساخرًا بل تشهيريًا أيضًا. ولكنها لحسن الحظ لم تخضع لنزعة التناحر التى سيطرت على زغلول. وواصلت النساء حملتهن. وفى ١٠ نوفمبر تم إرسال ترجمة إنجليزية لقرارات اللجنة إلى اللورد اللنبي.

كانت مشاعر هدى تجاه زغلول ملتبسة بعمق فى تلك اللحظة. إذ على الرغم من تأييدها للوفد، انتابها شعور بأن سعد زغلول الذى وثقت فيه بقوة فى الماضي، بغض النظر عن خلافاته مع زوجها، إنما يخذل مصر. وبدا وكأنه يضعُف فى مواجهة البريطانيين وإن كان مُصممًا على التشبث بالمنصب. ثم تدافعت الأحداث. إذ قتل فى ١٩ نوفمبر سير لى ستاك، الحاكم العسكرى العام للسودان الإنجليزي-المصري، المعروف بالسردار. فقد أطلق عليه مهاجموه النار وهو يقود سيارته عبر شوارع القاهرة. وقد ألقى البريطانيون المسؤولية فورًا على زغلول، رغم إعلانه المباشر عن صدمته المروعة للحادث. وبعد إطلاق النار، حُمل السردار إلى منزل اللنبى المجاور، حيث ظل على قيد الحياة يومين كاملين قبل أن يُتوفى متأثرًا بجراحه. وقد عزّز ذلك من تصميم اللنبى ليس فقط على عقاب القتلة، وإنما أيضًا على محاسبة البلد برمتها. وكان انشغال زغلول بذاته قد بلغ مبلغًا اعتقد معه أن مصيره السياسى كان هو الهدف الحقيقى لعملية الاغتيال. وتحدث فى أسف عن السردار قائلًا: "إن الرصاصة التى أودت بحياته

لم تُوجَّه إلى صدره، بل وجِّهت إلى صدرى أنا."[٨] ولم تكن هدى الوحيدة التى صدمها هذا التصريح. كيف يمكن لأحد أن يكون بمثل هذه النرجسية؟.

وفى ٢٢ نوفمبر توجه اللنبى إلى مكتب رئيس الوزراء ترافقه حراسة عسكرية مُشدَّدة لتسليم زغلول إنذارًا يمثل رد بريطانيا على الحادث. وطالب البريطانيون باعتذار رسمى وبتعهد بملاحقة الجناة وكذلك بتعويض قدره نصف مليون جنيه وبمنع المظاهرات السياسية. وبالإضافة إلى ذلك انتهز البريطانيون الفرصة أيضًا للدفع بمطالب أخرى لا علاقة لها بالحادث نفسه، تتضمن سحب كافة القوات المصرية من السودان. وانزعجت هدى بشدة مثلها فى ذلك مثل كل المصريين.

وبدا زغلول وقد يئس من إيجاد مخرج من الأزمة. ووجه لأقرانه من النواب الذين اعتبروا رده على البريطانيين غير ملائم سؤالا يرمى لمجرد التأثير الخطابي، فقال لهم: "إذا كان فى إمكانكم عمل تجريدة أو عندكم قوة لمنع الإنجليز وأخذ السودان من أيديهم، فتفضلوا ودلونى عليها ".[٩]

ان إقراره الواضح بأنه لا فائدة من الكفاح ضد البريطانيين يتناقض مع التصريحات الجسورة التى كان يدلى بها إبان حملته الانتخابية. وناشدت هدى زغلول ألّا ييأس وأن يواصل ضغوطه على البريطانيين، قائلة إنه وحده القادر على حماية مصر من الغرق. وبعثت برسالة إلى صحافة القاهرة نُشرت فى كبريات الصحف، وأُرسل نصها إلى العديد من كبار المسؤولين وكذلك إلى المنظمات والأفراد بالخارج.

"باسم الإنسانية، تضع مصر المعزولة والعزلاء نفسها بين أيدى الدول الكبرى وعصبة الأمم، أبطال العدالة، لحمايتها والدفاع عنها. فلتأت المساعدة

التى نطلبها بسرعة، قبل التدمير الكامل لبلادنا، التى كانت لقرون طويلة مهد حضارات العالم ولم تزل نقطة الوصل بين الشرق والغرب. إنكم بحماية مصالح مصر ومساعدتها على البقاء سوف تحمون مصالح العالم بأسره، مصالح كل أمة... فلا يمكن أن يوجد خطر أعظم على مصر من رجل يعترف صراحة بأنه ليس قادرًا على تحقيق الوعود التى قطعها على نفسه قبيل وصوله إلى السلطة"(١٠)

وفى ٢٣ نوفمبر، أعلن واصف غالى باشا، وزير الخارجية المصري، رد مصر على الإنذار البريطاني. وقال إن حكومة زغلول صرحت بأن كافة الجهود سوف تبذل من أجل العثور على القتلة وأن التعويض سوف يُدفع دليلاً على حزن مصر وأسفها. ولكن مضر ترفض، بخلاف ذلك، المطالب البريطانية. واتخذ اللنبى خطوات فى اتجاه تنفيذ الإجراءات البريطانية بالقوة، وقام باحتلال إدارة الجمارك بالإسكندرية وأصدر تعليمات للقوات البريطانية فى السودان بطرد القوات المصرية. وتوقعت هدى أن تكون فى ذلك نهاية زغلول وكتبت له رسالة مفتوحة نشرتها الصحف المصرية الرئيسية، تطلب منه فيها التنحي، وهى تدرك جيدًا أن نبرتها الحادة سوف تسيء زغلول.

"إن البلاد لا ترغب فى رحيلك. لقد جعلت منك قائدها على أمل أن تحفظ وعودك وتحقق الاستقلال التام لمصر والسودان. غير أن بقاءك فى السلطة لا يكفى عن إبعاد البلاد فى الواقع مما وعدت به. لقد أدت سياساتك إلى انفصال مصر والسودان وطرد المصريين منها، بل إلى تعزيز التدخل البريطانى فى شؤون مصر الداخلية. وعلى ضوء فشلك كرجل دولة فإننى أناشدك بألّا تصبح شخصيًا بمثابة العقبة، وأن تتنحى عن منصبك حفظًا للكرامة. عليك فى الحقيقة أن تزيل عنا الحرج الذى وضعتنا فيه بتهديدك بالاستقالة. عليك أن تعلن من موقعك الكبير هذا عن غضبك وتدين التدخل البريطاني، وأن تبقى حيث أنت وأن

تشارك عذابات البلاد بأن تظل واقفًا فى مقدمة صفوف النضال، بدلًا من الهروب فى هذه الظروف العصيبة". [١١]

وكتب الكثيرون انتقادات مماثلة. وأدرك زغلول أنه قد هُزم وما عاد يتوقع إمكان الاستمرار، رغم بقاء شعبيته بين الشعب العادى غير منقوصة. وفى ٢٤ نوفمبر، تقدم باستقالته إلى الملك فؤاد الذى قبلها. واستقالت عندئذ هدى من رئاسة "لجنة الوفد المركزية للسيدات" وتولتها شريفة رياض. وانتهى بذلك ارتباطها الرسمى بحزب الوفد، الذى استمر لأكثر من عامين بعد وفاة علي.

ومنذ هذه اللحظة، كرّست هدى نفسها تمامًا للاتحاد النسائى المصري، وركّزت جهودها فى القضايا النسوية أكثر من المسائل السياسية، التى لم تغب رغم ذلك عن اهتمامها. وقرّرت أنه بات من الضرورى التعريف بأنشطة الاتحاد واستنت سنة لم تحد عنها بقية حياتها فى إيفاد ممثلات للخارج أينما كان وجودهن مفيدًا للدفاع عن قضاياهن. وقد ساعدها فى ذلك علاقاتها الشخصية الخاصة واتصالها برائدات الحركة النسائية بالخارج، واعتمدت أيضًا على العديد من المصريات الشابات ليتحدثن بالنيابة عنها.

وعلى سبيل المثال، فقد ألقت ناچية رشيد، فى الأول من ديسمبر ١٩٢٤، محاضرة فى اسطنبول بعنوان "أصول الحركة النسائية المصرية والنضال من أجل الاستقلال والرفاهية". وقد حظيت المحاضرة بمردود إيجابي، وعزز نجاح المبادرة الطرح الخاص بأن الدعاية تسهم فى دعم قضايا المرأة فى الداخل والخارج على حد سواء. وتوجهت بعدها رشيد إلى ڤيينا لإلقاء محاضرة أخرى فى الخامس من ديسمبر ١٩٢٤. كما جرت، بعد ذلك، أنشطة أخرى مماثلة بالخارج حققت مردودًا كبيرًا. وفى ٢١ فبراير ١٩٢٥، ألقى مجد الدين حفنى ناصف بحديث فى باريس، تحت رعاية ماريا ڤيروني، كما قدمت إحسان أحمد

فى نفس الشهر عرضًا فى الجامعة الأمريكية ببيروت، التى ذهبت إليها لحضور دورات تدريبية.[١٢]

وشهدت نهايات ١٩٢٤ وصول ڤالنتين دو سانبوا، الفرنسية الشهيرة والغريبة الأطوار، إلى مصر حيث ذهبت للتعرف على هدى. وقد ولدت ڤالنتين فى ١٨٧٥، وحملت لدى مولدها اسم آنّا چان ڤالنتين ماريان ديجلان دو سيسيا-ڤارصال. كانت حفيدة ابنة شقيق الشاعر الفونس دو لامارتين، وكان اسم سانبوان هو اسم قصر لامارتين. وكانت ڤالنتين كاتبة وصحفية فى فرنسا، التى انفصلت فيها بالطلاق فى سن الـ ٤٩ من سياسى فرنسى صاعد يسمى شارل دومون. وكانت تسعى جاهدة لمقابلة السياسيين والكتاب والفنانين الذين يرتادون صالون هدى. وكانت قد طُلقت من دومون فى ١٩٠٤، ثم أصبحت بعدها كاتبة وصحفية وعاشت حياة تتسم بالمغامرة. وقبل السفر إلى القاهرة كانت قد أقامت مع الشاعر الإيطالى ريتشيوتو كانودو وزوجته حيث جمعتهم علاقة ثلاثية حميمة. كما مثّلت "الموديل العاري" للعديد من الرسامين. وصادقت الروائى والمفكر الإيطالى مارينيتي، مؤسِّس الحركة المستقبلية والكثير من روادها الإيطاليين وساهمت فى نشر أفكارهم فى فرنسا. وقد عملت أيضًا كراقصة وأدت رقصات مستقبلية فى فترة حياتها مع مارينيتي. وفى أعقاب الحرب العالمية فى ١٩١٨، طافت أوروبا لتقديم رقصات تعلن عن فشل المادية الغربية، فى مواجهة عودة الروحانية الشرقية إلى الحياة. تلك كانت الرسالة التى تسعى رقصاتها إلى إيصالها من خلال الخطوات والملابس المُصمَّمة لها.[(١٣)]

وقد توجَّهت إلى مصر بعد وفاة كانودو وقرَّرت مقابلة هدى التى دُهشت حين اكتشفت أنها على دراية كبيرة بالإسلام وأنها أصبحت صوفية، بعد أن اعتنقت الإسلام عقب مقابلة رونيه جينون.

وصلت ڤالنتين إلى مصر بصحبة إحدى مساعداتها، ڤيڤيان پوستال دوما، إضافة إلى چان كانودو، زوجة عشيقها السابق، الذى كان قد توفى فى العام المنصرم. كانت ڤالنتين على علم بأنشطة هدى وبثرائها. وقد أتتها باقتراح أن تتولى هدى تمويل مجلة باللغة الفرنسية تكون أداة وصل واتصال للنوايا الحسنة بين الشرق والغرب. وقد انجذبت هدى للفكرة انطلاقًا من أن مثل هذه المجلة من شأنها الإسهام فى إقناع العالم بأن مصر أصبحت جاهزة للاستقلال ولم تعد فى حاجة للحماية الأجنبية. وقالت إن الفكرة تروقها من حيث المبدأ ولكن التعاون لا يمكن بأى حال أن يتم بالشكل الذى تأمله ڤالنتين.

وقد حزنت هدى ورفيقاتها كثيرًا لرحيل زغلول عن السلطة وعودة البريطانيين إلى المواقف المتشدِّدة. وبعثت كوكب حفنى ناصف، شقيقة الباحثة التى كانت قد أرسلتها هدى لدراسة الطب فى إنجلترا، إلى هدى برسالة بعد ما سمعته من أنباء عما أصبح يشعر به معظم المصريين من خيبة الأمل. وقد قالت فيها إن السياسيين أصبحوا يهتمون فقط الآن بأن ينجوا بأنفسهم. لقد كانت كوكب تتمتع مثل شقيقها مجد الدين بحس السخرية اللاذع وقادرة، رغم صغر سنها، على كشف حقيقة السياسيين. ولم تُخف احتقارها للرجال الضعفاء. وكانت تأسف لأن صغر سنها وعدم قدرتها على التأثير، يحولان دون تمكنها من مساعدة هدى فى نضالها من أجل مصر بالقدر الذى كانت تتمناه. وأطلقت على هدى لقب ربة أسرة النساء وحاميتها. وأضافت أنها وزملاءها طلبة الطب يواصلون الدراسة بعزم شديد لتحقيق آمال بلادهن، رغم أنه كان يجدر بهم بالأحرى دراسة علم النفس لمعالجة كافة الأمراض النفسية لساسة مصر من الرجال. ثم هنّأت هدى على مولد علي، أول أبناء بُثنة، وقالت لها مداعبة إنها تأمل فى ألّا يتعلم المشى سريعًا حتى لا يضطر إلى المشاركة فى أى مظاهرات فى هذه السن الصغيرة.[١٤]

وفى هذه الظروف الدستورية الاستثنائية، خلف زغلول فى رئاسة الوزراء أحمد زيور باشا، وهو أحد أفراد النخبة التركية-الشركسية التى تحظى بثقة الملك، وكان حتى حينها رئيسًا لمجلس الشيوخ. وقد عيّنه الملك فؤاد، وتجاهل بقراره هذا الدستور الديمقراطى الذى صدر فى العام السابق. وقد تسلم زيور المنصب فى نفس يوم دخول استقالة زغلول حيز التنفيذ فى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤. وتمثّلت مهمة زيور بكل بساطة فى استرضاء البريطانيين بالموافقة على بنود الإنذار. وفى ٢٨ نوفمبر، عقدت اللجنة النسائية للمقاطعة اجتماعًا آخر للتنديد بالمطالب البريطانية وفضح سياسات الحكومتين البريطانية والمصرية. وفى هذا الوقت، كان نشأت باشا، نائب رئيس الديوان الملكي، يسعى لحشد أعضاء من الطبقة السياسية المصرية للانضمام إلى حزب سياسى جديد عُرف باسم الاتحاد، ليصبح مُمثلًا لمصالح الملك. وأعلنت استقالة اللنبى فى ٢٠ مايو واستبدل به سير چورچ لويد، الدبلوماسى السابق الذى شغل قبلًا منصب حاكم بومباى. وتسلم لويد الذى تم منحه لقب اللورد مهامه الجديدة فى ٢١ أكتوبر. وحينما كتب مذكراته لاحقًا عن هذه الفترة، قال بعفوية شديدة: "إن زيور باشا قد فرض بشجاعته وولائه الراسخ للملك فؤاد والأصدقاء البريطانيين على حد سواء، فرض علينا التزامًا أعلنت بوضوح أنه ينبغى الوفاء به مهما كان الثمن"(١٥)

وقد واصلت السياسة البريطانية من جانب آخر استرضاء الرأى العام المصرى من خلال إعادة الحياة السياسية الديمقراطية فى البلاد، وأجريت انتخابات أخرى فى ١٢ مارس. وكان التأييد الذى يتمتع به زغلول كاملًا لم ينقص ففاز الوفد بالتالى بأغلبية مقبولة فى البرلمان، رغم كل محاولات إعاقة انتخابه. واستقال زيور فى ١٣ مارس. ورغم تجديد الولاية الانتخابية لزغلول، أصدر الملك تعليمات لزيور بتشكيل حكومة جديدة. وانعقد البرلمان

الجديد فى ٢٢ مارس بأغلبية أعضاء جاءت بـ الوفد مُجدَّدًا، مما أفزع السلطات، خاصة وقد انتخبوا زغلول رئيسًا له. إلا أن الملك قد حل البرلمان فى اليوم ذاته، وواصل زيور الحكم بدون مجلس نيابي. وقد طُلب من زيور أيضًا إصلاح القانون الانتخابى بحيث يتم ضمان الفوز المقبل لحزب الاتحاد الجديد، الذى أمل البريطانيون فى أن يخلصهم من زغلول إلى الأبد.

ومع ذلك، فقد كان زغلول يعتقد أنه إذا لم تُحكم مصر بـ الوفد، فلن تُحكم بغيره. كان يعلم أنه يحظى بتأييد الشعب، ورأى أن ينسحب من السياسة لخلق الفوضى، مادام أنه لن يسع أى حكومة أخرى أن تحصل على مساندة شعبية حقيقية. ولكن أنصاره رفضوا انسحابه من السياسة. وحثوه من كل جانب على إنشاء تحالف من ثلاثة أحزاب كبرى، الوفد والأحرار الدستوريين والوطنيين، فى مواجهة حزب الاتحاد. إلا أنه رفض وأصر على ضرورة أن تنصاع الأحزاب الأخرى تمامًا لقيادته وتندمج فى الوفد إن كانت تريد تحالفًا. وناقشت هدى المسألة مع من تعرفهم من الأحرار الدستوريين، وكلهم من قدامى أصدقاء علي، من ضمنهم محمد هيكل ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى وعلى علوبة، فوجدتهم جميعًا متفقين على أن الوقت قد حان للجميع أن يعملوا كتفًا بكتف مع زغلول من أجل مصلحة مصر.

وانساقت هدى مرة أخرى وراء حماسها الوطنى وأحسَّت أنه من واجبها العمل على تحقيق ذلك، وأن تعتمد على معرفتها الطويلة بزغلول، رغم خلافاتهما الحديثة. وظنت أنه لو حاول المزيد من الناس إقناع الزعيم بالتعاون، ربما يتسنى تشكيل حكومة ائتلافية. وقررت أن تفاتح زغلول بنفسها وتحاول إقناعه بالتعاون مع الأحزاب الوطنية الأخرى فى إطار تحالف ربما تواتيه فرصة إنقاذ الموقف. وبعثت إليه برسالة تطلب فيها مقابلته لمناقشة الفكرة. وكانت على

المستوى الشخصى على استعداد للتصالح معه بغض النظر عما حدث بينهما. فقد كان صديقًا قديمًا على أية حال. وقالت له إنها ترحب بزيارته لها فى المنزل.

ولم يرفض زغلول عرضها. غير أن حالته الصحية لم تكن على ما يرام وقال لها إنه يفضل مقابلتها فى منزله. واجتمعا فى ٥ أبريل ١٩٢٥، وحكت هدى فى مذكراتها ما دار فى اللقاء.[١٦] استقبلتها مديرة منزل أوروبية عند باب الحرملك. واندهشت هدى لعدم رؤية صفية، وقدّمت لها السيدة اعتذارًا مبهمًا. ثم قالت لها إن الباشا ليس على ما يرام وغير قادر على هبوط السلم وسألتها إن كانت لا تمانع فى الصعود إليه لزيارته. ووافقت هدى فى صمت وتبعتها على الدرج. ووجدت سعد جالسًا على كرسى بمسندين بذل جهدا فى سبيل القيام منه واعتذر عن إزعاجها بالصعود. لقد كان يعانى من نزلة شعبية فى الشتاء وتأثرت رئته منها. وتذكرت فجأة عُمره، لقد وُلد فى ١٨٥٧، أى أنه فى نفس عمر على حين وفاته. وقد جالت الفكرة فى رأسها حتمًا، هل هو على مشارف الموت؟ وشعرت بفيض من التعاطف معه وتمنت له تحسن صحته.

ثم طرحت الموضوع فورًا وسألته إن كان يقبل مبدأ الاتحاد مع الأحزاب الأخرى من عدمه. وأصر سعد على أن الأمور ليست بالبساطة التى تظنها. وقال لها: "لا أحد يميل للاتحاد مثلي، ولكنى أريد أن أعرف مع من سيكون هذا الاتحاد؟ وعلى أى قاعدة ولأى غرض؟ ...أتريدين أن أتحد مع من هدموا الدستور؟" وواصلت هدى الإلحاح عليه وقالت إنه ينبغى أن يتحد مع خصومه السابقين لإنقاذ البلاد. وتحت ضغطها فقد سعد أعصابه وعنّفها للحرج الذى سبَّبته له بحملاتها ورسائلها إلى الصحافة. وقال إذا كان أصدقاؤها يريدون استقلال مصر فهو يريد أن يعرف لماذا لم ينضموا إلى الوفد؟. وأجابته بأن هدف كل حزب من الأحزاب هو تحقيق استقلال مصر حسب طريقته، وهو ما

ليس بحكر على الوفد. واستمر النقاش ثلاث ساعات. وفى النهاية، قرَّرت هدى الرحيل بعد أن عجزت عن الاتفاق معه. لم تكن تقبل بما يريد فرضه من تركيز السلطة السياسية فى يديه. وسألها لماذا لا تعمل معه بشروطه وختامًا، صدر منه ما بدا تقريبًا بمثابة التهديد حين قال لها: "غدًا ترين ما يحل بك!". وأجابته بحزم وهى تغادر منزله للمرة الأخيرة: "أنا لا أخشى شيئًا لأننى واثقة بأننى لا أعمل لأى غرض إلا لخدمة بلادي، وإن يدك يا سعد لن تصل إليَّ ولو فرضنا أنك ستحرِّض عليَّ صبيان الوفد ليرموا منزلى بالحجارة أو ليقتلنى أحدهم، فهذا كل ما أتمناه، وهو أقل تضحية فى سبيل خدمة بلادي."

وقد انضم زغلول فى نهاية المطاف إلى الأحرار الدستوريين والوطنيين فى تحالف من الأحزاب الثلاثة الكبرى، كما كانت هدى قد اقترحت. وكان هدفهم المشترك هو الحصول على الاستقلال عن الحكم البريطاني، من خلال إثبات قدرة وفعالية الحكم الذاتى المصري.

-٦-

درسٌ فى الدبلوماسية

كان تأسيس ليچيبسيان (المصرية)، مجلة الاتحاد النسائى المصرى الجديدة الصادرة باللغة الفرنسية أكثر التطورات أهمية بالنسبة لهدى فى ١٩٢٥. فقد أتاحت لها منبرًا لنشر وجهات نظرها فى القضايا النسوية والسياسية وغيرها من الأمور. وكانت تفكر أيضًا فى إنشاء ورش ومصانع، حيث أدركت منذ أمد بعيد أن ركود الصناعات الصغيرة فى مصر هو أحد مشكلاتها. وكان لورد كرومر قد دأب بهمة على تثبيط الصناعة فى مصر لنفس الأسباب التى دفعت الإدارة البريطانية إلى عدم تشجيع الصناعة فى الهند، لأنه من الأصلح لها أن تبقى مصر سوقًا لمنسوجاتها المصنعة فى بريطانيا بدلًا من تطوير النشاط الصناعى الوطني. وقد كانت معظم الصناعات المحلية الصغيرة فى أيدى الأجانب إلى حد كبير ولم يكن هناك أى دعم للمشروعات المصرية.[١] ورأت هدى أن هناك ضرورة ملحة فى تشجيع الصناعات الصغيرة على التجذر فى مصر. ويُذكر أن الزعيم الوطنى مصطفى كامل كان قد صرَّح فى الماضى بأنه فى عهد كرومر كان يوجد من النظام فى مصر

أكثر مما يوجد من النشاط. وأشار فى خطبة له إلى أن البريطانيين سعوا إلى تقليص نشاط المصريين عن طريق إغلاق المدارس.[٢] وكان التزام هدى بتشجيع التعليم التزامًا راسخًا لا يلين.

وفى ١٩٢٥، عقب غزوتها فى عالم السياسة، شغلت هدى جُلّ وقتها فى أعمال الاتحاد النسائى المصرى ودام ذلك لبقية حياتها، إضافة إلى أنشطتها النسائية الدولية، ومتابعة الجمعيات الثقافية والأعمال الخيرية التى ساهمت فى إنشائها. ومع ازدياد تراكم المسؤوليات الإدارية عليها، أدركت أنه يمكنها تفويض السلطات لآخرين. وكانت تجد من الأشخاص من يتسابقون لمساعدتها فى أى عمل تختار الشروع فيه. فقد كانت جاذبيتها الشخصية وتأثيرها الكاريزمى يضمنان لها أن تجد بشكل فعلى عونًا لا محدودًا. وفى الوقت ذاته، فقد ظل صالونها يتيح لها الاتصال بهؤلاء الذين يمتلكون أفكارًا يعبرون عنها أو من لديهم مشروعات فنية أو اجتماعية يبغون تنفيذها. وقد كانت مصر تتحول على يد مستثمريها الأجانب والمحليين إلى مجتمع حافل بالإمكانيات. وبدأ المصريون أخيرًا يتدربون لكى يخلُفوا الأجانب على كافة المستويات. وحين أنشأت هدى القسم الطبى بالاتحاد النسائى المصري، أمكنها استبدال الأطباء المصريين بالأجانب وكان هذا هو الحال أيضًا بالنسبة لكبار المتطوعين للعمل الطبى فى المبرة، ممن ساهموا مساهمة لا تقدر بثمن فى مرحلة سابقة. وتم تعيين سيدات لإدارة مدرسة البنات الملحقة بالاتحاد وكذلك الورشة ومركز الحرف اليدوية التى أنشئت لتعليم الإدارة المنزلية وتقديم دورات للفتيات على أشغال التطريز والحياكة.

وكانت هناك مخططات أخرى يجرى الإعداد لها على قدم وساق. وقد تم تصميم النظام الجديد الذى وضعته هدى للورش الحرفية التعاونية الموصولة

بمؤسساتها التجارية لتسويق منتجاتها، على غرار مشروعات هندية حققت النجاح فى الهند. وقد كلّفت هدى ألفريد كولون، الفنان الفرنسى العضو فى جمعية "أصدقاء الفن" والذى سيعمل فيما بعد فى مجلة ليچيبسيان، بأن يبني، ويدير نيابة عنها، مصنعًا للفخار والخزف، وكان ثالث مدارسها للتدريب المهنى بعد ورش التطريز وغزل ونسج السجاد الموجودة بالفعل بالاتحاد. وقد أطلق عليه مصنع الهدى. وكانت هدى قد بدأت تتخيل بشكل جزئى المشروع بعد أن قابلت أحمد محمد نصير، الخزاف المصرى الموهوب. وقد تقرر إقامة المصنع فى روض الفرج، المنطقة الصناعية الجديدة القريبة من شبرا ونهر النيل. وعلى الصعيد العملى كان يتم استخدام العائدات فى تمويل المزيد من المدارس والأعمال الخيرية. وقد وضع كولون تصميمات لقطع خزفية أصلية سوف تعرض لاحقًا فى مصر والخارج. وكانت فكرة هدى من وراء إنتاج الخزف والسجاجيد الشرقية فى ورش الاتحاد النسائى المصرى هى تجميع أوصال بلد قام الاحتلال بتمزيقه بشراسة. واعتبرت هدى نفسها بمثابة حرَفية تغزل بأصابعها على النول نسيج مجتمع متحرر يستعد للحكم الذاتي.

وعلى المستوى الشخصي، كانت هدى تنتظر فى بداية ١٩٢٥ زيارة من صديقتها القديمة عطية التى لم تزل تقيم فى سنغافورة مع زوجها عمر السقاف وتغمرها السعادة لرؤيتها مُجددًا. كانت تحتاج لأذن صاغية وعطية كانت على الدوم مستعدة للإنصات إلى فضفضاتها. أما بُثنة، التى أصبح لديها طفلان الآن، فقد كانت على وشك مغادرة انجلترا أخيرًا إلى الولايات المتحدة، حيث قرَّرت الخارجية إرسال محمود سامى باشا لتولى منصب سفير مصر فى العاصمة واشنطون.[٣] وكانوا سيبحرون على متن الباخرة إس إس ماچستيك فى يونيو ١٩٢٥. وكانت رسائل بُثنة كما كانت دومًا مفعمة بالحب والسكينة، ولكن هدى

كانت تشتاق بشدة لرؤية ابنتها. وفى رسالة كتبتها على متن الباخرة، عبّرت بُثنة لأمها عن محبتها: "أفكر فيك وأنا أتناول طعامى وأنا فى منامي، فى كل مكان. لا أستطيع التأقلم مع فكرة بعدى عنك هكذا يا حبيبتي". [٤] وأصبح محمود سامى رسميًا سفيرًا لمصر فى الولايات المتحدة فى ١٦ يوليو ١٩٢٥.

وفى ١٩٢٥ انخرطت هدى فى مشروع آخر، وهو وصول المرأة إلى التعليم الجامعي. إذ كانت جامعة القاهرة عام ١٩٢٥ لم تزل حينها مؤسسة خاصة لا تعترف الدولة بشهاداتها، وقد انتقلت إلى سيطرة الدولة وأعيد تسميتها بجامعة الملك فؤاد الأول. إلا أنها قد خضعت أيضًا للسيطرة البريطانية. وتم استجلاب أساتذة بريطانيين يتلقون أجورًا فلكية مقابل عمل ضئيل. ولم تعد الدراسة باللغة العربية، وتم إلغاء مجانية التعليم. [٥] غير أن قناعة هدى كانت أن الإصلاح ليس بالمستحيل، حين يتم بالتدريج وبدون خوف. وكان أحمد لطفى السيد يدعو فى صحيفته الجريدة منذ بعض الوقت إلى التعليم الجامعى للمرأة. وحين تولى عمادة جامعة القاهرة فى ١٩٢٥، كان يعتزم قبول دخول المرأة فى أقرب وقت ممكن ويبحث عن الطالبات المناسبات. وطلب فى هذا الشأن مساعدة هدى التى أمدته بقائمة من الأسماء. غير أن قبول النساء بالجامعة لم يحدث إلّا فى ١٩٢٩، حين قبل طه حسين التحاق سهير القلماوى وأخريات بكلية الآداب، فى الوقت الذى كان عميد كلية العلوم لا يزال يرفض الطالبات. ورغم أن طه حسين كان خريج الأزهر، وهو مؤسسة إسلامية، إلّا أنه كان يعتقد أن التعليم العلمانى سيكون أفضل للشباب المصرى من التعليم الدينى وأنه سيدعم المجتمع متعدد الطوائف الموجود فى مصر. وبعد قبول انضمام فتيات لكلية الآداب، أصبح التحاقهن أسهل بالكليات الأخري.

وفى فبراير ١٩٢٥، صدر العدد الأول من ليچيبسيان التى بذلت فيها هدى قصارى جهودها وعزيمتها. وعرضت ڤالنتين دو سانبوان أن ترأس تحريرها،

ولكن هدى لم ترحب بذلك رغم أن فالنتين، وللمفارقة، كانت هى صاحبة اقتراح إصدار مجلة باللغة الفرنسية. وكانت سيزا نبراوى مُصمِّمة على تولى المنصب وتم لها ذلك. فقد عارضت وجود ڤالنتين، واعتبرتها متطفلة ودافعت بقوة عن حجتها بانتفاء الحاجة إلى أجنبية فى هذا المنصب، ما دامت هى المصرية وصديقة عمر هدى قادرة على توليه. وتخلت ڤالنتين عن حلمها فى أن تتولى رئاسة التحرير، بعد أن تدخلت سيزا بقوة وأجبرت هدى حرفيًا على تعيينها فى المنصب. ورأست سيزا التحرير منذ البداية وكان لجودة المجلة ونجاحها ما يبرهن على صواب تصميمها فى هذا الشأن.

ورأست سيزا تحرير المجلة على مدار الخمسة عشر عامًا لصدورها، وأسهم ذلك فى تقاربها الشديد مع هدى. إذ كانت تتوجه يوميًا إلى ٢ شارع قصر النيل، الذى كان يُذكر كمقر للمجلة، وتظل هناك مع هدى من الصباح حتى المساء، واستمر ذلك حتى تاريخ خطبتها وزواجها فى ١٩٣٧. وحمل غلاف العدد الأول صورة لامرأة مصرية تخلع بقوة حجابها وتشبه كثيرًا المرأة الماثلة فى تمثال مختار. وكان السعر المطبوع على غلاف المجله خمسة قروش، وهو ليس بالرخيص وإن لم يكن مرتفعًا بشكل كبير. وكانت المجلة تُطبع فى دار پول باربي، التى تحمل اسم الناشر والذى طبع المجلة حتى العام الأخير لصدورها. ولم تكن المجلة قط مصدرًا للربح، وقد ظلت هدى تدعمها بقوة طول فترة صدورها.

وفى ١٩٢٥، كانت هناك عدة مجلات نسائية تصدر فى مصر، بعضها من قبل ليچيبسيان وغيرها فى وقت لاحق عليها، بعدما أُغلقت للأسف مجلة المرأة المصرية، لصاحبتها بلسم عبد الملك. وفى ذلك الحين، بدأت ناشطة نسوية شابة من الإسكندرية، هى منيرة ثابت، فى إصدار مجلة بلغتين، الأمل،

بالعربية ولسبوار بالفرنسية. وكانت هناك أيضًا مجلة روز اليوسف الشهيرة، لصاحبتها فاطمة اليوسف، التى صدرت فى ١٩٢٥، كذلك أدب الفتاة، التى كانت تصدرها ڤيكتوريا مجلى فى الفيوم. وأخيرا، بدأت ڤالنتين دو سانبوان، فى وقت لاحق من نفس العام، فى إصدار المجلة التى كانت قد جاءت إلى مصر لكى تنشئها. وأسمتها لوفينيكس (أى العنقاء)، وترمى إلى زيادة الوعى الغربى بالنهضة الشرقية. وقد وضع ذلك نهاية لتوتر سيزا لمجرد ذكر اسم ڤالنتين دو سانبوان أمامها، لأنه كان يعنى أن الأخيرة قد تخلت عن مطالبها الخاصة بمجلة ليچيبسيان. بل أعربت سيزا عن تهانيها لڤالنتين ومنيرة ثابت على جهودهما الدؤوبة. بل ذهبت إلى حد التأكيد بأن ڤالنتين هى أفضل الدعاة المعاصرين للقيم الشرقية فى الغرب وأن منيرة، التى كانت لا تعرف الكلل، تدلّل على وضوح تفكير النساء وعمقه.

وكانت ليچيبسيان تهدف بإيجاز إلى تعريف قرائها بقضايا اليوم، واستشراف مستقبل مصر الحديثة، بالإضافة إلى تذكيرهم بأمجاد الماضي. وكتبت هدى فى العدد الأول مقالا بعنوان "أمس واليوم"، تستعرض فيه تقلبات السياسة المصرية، وقد وجهت هجومها على أن:

"الثقة العمياء والمبالغ فيها التى وُضعت فى زعماء لم يتحملوا مسؤولياتهم، أدت فيما أدت إلى انقسام الأحزاب التى ترتبت على طموحات هؤلاء الزعماء. ولا ينبغى لذلك أن يفت فى عضدنا، لأننا رغم جواز اختلافنا بشأن قدرات زعمائنا، إلّا أننا نظل متحدين خلفهم فى مواجهة العدو فى كفاحنا لتحقيق هدفنا الأسمى: الاستقلال التام لوادى النيل".[٦]

وعلى خلفية المشهد السياسى المصرى المضطرب فى ١٩٢٤ و١٩٢٥، الذى ساد فى الواقع منذ مقتل السردار، أصبحت هدى، على خطى المطالبات

بحق المرأة فى التصويت، على قناعة بأن الإعلام سلاح سياسى فى غاية القوة. ووجهت من خلال ليچيبسيان نداءً مجددًا للعالم برفض السيطرة البريطانية على مصر، التى يريد البريطانيون أن يقمعوها بشراسة متجددة. وسرعان ما استدعى النداء ردودًا من مجموعة بالخارج أسمت نفسها "أصدقاء مصر"، تضم الكثير من النساء وأعضاء التحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع (IWSA)". كما كانت هناك أيضًا حركة نسوية فى فرنسا واعية بطبيعة الموقف فى مصر. فقد ندّدت چولييت آدم، بظلم الإنذار البريطانى لمصر وبخطر الإدارة البريطانية للسودان على مصر وعلى العالم أجمع: "إلى أى مدى يمثل وجود انجلترا فى السودان، واستحواذها على مصادر مياه النيل مصدرًا لمعاناة كل المصريين وهم يرون مياه النيل، نيلهم، وهى تتم المتاجرة بها، ويتم قياسها، بل وربما يتم منعها، بواسطة هذه الإرادة المُهدِّدة..." [٧]

وقد منحت چولييت آدم مساندتها الكاملة لهدى. وتمكنت ليچيبسان من أن تنشر فى ١٩٢٥، عدة مقالات لها حيَّت فيها مقاومة مصر للاحتلال البريطانى وأدانت تعنت بريطانيا فى تنفيذ العقوبات الواردة فى الإنذار. كما أرسلت چولييت لهدى ثلاث رسائل تلقتها من ثلاثة بريطانيين كبار ينتقدون فيها بشدة الحكومة البريطانية بسبب سياساتها فى مصر.[٨] وكانت الرسائل من تشارلز جى جوردون باشا (٢٤ يناير ١٨٨٠)، وإدوارد سان چون فيرمان (١٥ يونيو ١٨٩٣) وويلفريد سكاون بلانت (١٣ أكتوبر ١٩٠٦). وقد ندَّد ثلاثتهم، وهم المعروفون بتدخلاتهم فى الحياة السياسية بالمنطقة، فى كلمات حادة، بسياسة الحكومة البريطانية فى مصر. وذكر جوردون، الذى سيُقتَل لاحقًا فى السودان، فى رسالته أن سفيره منعه من لقاء چولييت أو مناقشة قضايا سياسية معها. أما فيرمان فقد أوضح أنه عاد من مصر إلى انجلترا لأنه لم يتحمل رؤية ما

تفعله حكومته فى البلاد. وتحدث بلانت، المناصر العنيد للوطنيين المصريين والأيرلنديين ضد الاحتلال البريطاني، ببلاغة عن إيمانه بالحركة الوطنية فى مصر. وقد أعيدت طباعة مقال كتبته چولييت نفسها تحت عنوان "درسُ فى الدبلوماسية" يحث فرنسا على عدم مساندة القضية البريطانية، فى صورة كُتَيِّب تم توزيعه على نطاق واسع داخل مصر وخارجها.(٩) وكانت تؤكد فيه أن قناة السويس جزءٌ لا يتجزأ من الأراضى المصرية وينبغى إبقائها محايدة تحت الحماية المصرية، وفق ما نصت عليه المعاهدات الموقَّعة فى الماضى مع الخديوي.(١٠)

وفى هذه الفترة، نشرت ماريا ڤيرون، رئيسة الرابطة الفرنسية لحقوق المرأة، مقالاً يأسف لضم بريطانيا الفعلى للسودان، ويُشيد بالمصريات اللائى قاطعن، تحت قيادة هدى، البضائع البريطانية. وبعثت آڤريل دو سانت كروا، رئيسة المجلس الوطنى للمرأة الفرنسية، وچيهان ديڤريي، الكاتبة الفرنسية فى الشؤون المصرية، رسائل تدين التهديدات البريطانية وتُساند الاستقلال المصرى والسوداني. كما عقدت اللجنة الفرنسية لحقوق الإنسان اجتماعًا فى باريس أكدت فيه أن النزاع البريطاني-المصرى إما أن يُعرض على محكمة العدل الدولية بلاهاى أو يُرفع أمام عصبة الأمم.(١١) هذا وقد أعلنت دكتور أليتا چيكوبز، رئيسة ومؤسسة الفرع الهولندى للرابطة النسائية الدولية من أجل السلام والحرية، مساندتها لمصر. وفى بريطانيا أعرب الفرع البريطانى للاتحاد النسوى الدولى عن احتجاجه على قرار حكومته ودعى إلى عقد مفاوضات. وذكرت النساء البريطانيات أنه كان على البريطانيين أن يحصلوا على تفويض من عصبة الأمم إذا كانوا يرغبون فى حكم السودان وأنه ينبغى أن تصبح مصر أيضًا دولة عضوًا فى العصبة. وكانت مارچيري-كوربيت آشبي، الرئيسة

الجديدة للتحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع (IWSA) التى تولت المنصب بعد المؤتمر الذى حضرته هدى فى روما فى ١٩٢٣، قد أصبحت بعدها صديقة مهمة لهدى التى رأت أنها يمكن أن تساعدها كثيرًا. وقد شعرت هدى بسعادة جمة للردود التى تلقتها على ندائها إلى الرأى العام العالمي. وملأها حصولها على التشجيع والدعم المعنوى أملًا فى أن تجد القضية المصرية حلًا مرضيًا فى يوم من الأيام.

وفيما يتعلق بسيزا، فقد اشتعلت بالنشاط والطاقة فى العمل خلال عامها الأول كرئيسة لتحرير مجلة ليچيبسيان. وسافرت لاكتساب مزيد من الخبرة، وتصادف أن تواجدت على متن نفس الباخرة المتجهة إلى تركيا مع الشاعر المصرى العظيم أحمد شوقي. وكان شوقى شاعر البلاط فى عهد الخديوى عباس حلمى الثاني، ولا يزال يقضى الصيف فى تشوبوكلو، القريبة من اسطنبول، والتى أقام بها عباس قصرًا صيفيًا على أحد التلال. وفى رسالة بعثتها إلى العائلة بمصر، وصفت سيزا "أمير الشعراء" كما كان يُطلق عليه، بأنه "غريب الأطوار بدرجة كبيرة". وكان وهيب بك دوس، والد أحد الوزراء بالحكومة على متن نفس الباخرة وانتهزت سيزا الفرصة لتناقش معه استبيانًا حول عدم الشرعية كانت تعد لنشره فى المجلة. كانت سيزا تزداد معرفة ودراية بالصحافة، وأصبحت امرأة ذات رؤية واضحة تعرف ماذا تريد من الحياة. وتوقفت خلال هذه الرحلة ببيروت ودمشق، ثم اتصلت بوچيدة وإيهاب خلوصى فى اسطنبول، وزارت بعدها جمعية "نقطة الحليب" التركية، التى بدأتها جهة خيرية فرنسية وأصبحت آنذاك تحت إدارة نساء تركيات وهدفها هو إمداد أطفال الأحياء الفقيرة بالحليب. واستهدفت سيزا من الزيارة النظر فى إمكان إقامة جمعية مماثلة فى مصر، أو إدماج هذا المشروع فى برنامج

مستوصف دار الإصلاح الذى كان الاتحاد النسائى المصرى قد أقامه بالفعل فى القاهرة.

وفى بدايات صيف ١٩٢٥، كتبت هدى ثلاث مقالات لمجلة ليچيبسيان نُشرت فى أعداد مايو ويونيو ويوليو، حدَّدت فيها القضايا التى تأتى على رأس اهتماماتها فى هذا الوقت. وفى مقال شهر مايو، وجَّهت على خلفية مقترحات الميزانية الحكومية، انتقادات عنيفة لحكومة زيور التى أُجبرت على الموافقة على إنفاق مليون جنيه من الأموال المصرية لتمويل الجيش السوداني، رغم أن مصر اضطرت للتنازل عن كافة مطالبها الخاصة بالسودان. بما فيها تواجد جيشها هناك. وأعربت عن أسفها لانصياع الحكومة لما اعتبرته إجراءً مخزيًا، بصرف أموال مصر على إصلاح قطعة من الأراضى المصرية سرقها فى واقع الأمر البريطانيون من مصر.[١٢] وفى مقال يونيو، ندَّدت باتفاقية الحدود التى تنازلت بالفعل عن واحة جغبوب لصالح النظام الاستعمارى الإيطالى بليبيا. وكتبت تقول: "إن بريطانيا السخية دومًا فى تصرفها بممتلكات الآخرين، سمحت لنفسها بأن تمنح إيطاليا أراضى مصرية كان من المفترض أن تحميها"[١٣] وعادت فى مقال يوليو إلى مطلبها بإلغاء قوانين الامتيازات الأجنبية التى تسمح بإعفاء بعض الرعايا الأجانب من الخضوع للقانون المصري.

ويبيّن هذا المقال الأخير بوضوح تأثير محمد حسين هيكل عليها. إذ كانت تكنُّ له إعجابًا شديدًا وكان مستشارًا للاتحاد النسائى المصرى وصديقًا للعائلة ويكتب آراءه بانتظام فى جريدته السياسة الأسبوعية. كانت هدى قد بدأت تؤمن بفكرة نظام ديمقراطى تُوجِّهه نخبة من المواطنين المتعلمين والمتطورين، تكون الثقافة وسيطها الحضاري، وتقوم فيها مجموعة من النساء والرجال المُطّلعين وذوى الخبرة بقيادة سياسة البلاد على أساس من التشاور والتحاور

المستمر. وكانت تجاهد دومًا نفسها، فى نطاق عالمها النسائي، لكى تُطبِّق هذه المبادىء فى تعاملاتها مع شريكاتها ومعاونيها، وتستمع لوجهات نظر كلٍ منهم. لقد أتى بها وضعها المالى المتميز على رأس الحركة، ولكنها كانت تسمح لكل من يعملون معها بأن يكونوا مسؤولين عن أنشطتهم، ماداموا يسيرون على الطريق السليم. وقد كان كل من يعملون معها يحضرون صالونها مساء الثلاثاء. هيكل، ولطفى السيد، ومحمد على علوبة، وحافظ عفيفي، وغيره من الأحرار الدستوريين الذين كانوا يقدمون المشورة للاتحاد النسائى المصري. كما كانت معظم زوجاتهم صديقات ومعاونات لهدى بالفعل. وكان الاتحاد يعتمد أيضًا على استشارة كثيرين آخرين منهم الشيخ مصطفى عبد الرازق، ومراد سيد أحمد، وطه حسين، وأنطون الجميل، وأحمد فهمى العمروسي، ومنصور فهمي، وحبيب المصري، الذين تولى جميعهم فى وقت من الأوقات مناصب مختلفة فى مواقع المسؤولية بالحكومة المصرية. لقد خدموا فى وظائف تتصل بالتعليم والصحافة بل وحتى الوقف والضرائب. كما كان الفنانون والتشكيليون من أعضاء "أصدقاء الفن" جزءًا من تجمع مساء الثلاثاء. وكان من بينهم، إضافة إلى صديقها مختار، أعضاء "لا شيمار" (الوهم)، وهى جمعية من الفنانين والمثقفين، راغب عياد، والرسام التركى هدايت داتش، ومحمد سعيد، والكثير غيرهم. وكان صالونها يستقبل أيضًا فنانين أجانب، وصحفيين وكتابًا من المتعاطفين مع آرائها. وأخيرًا، كانت هناك العائلة بالطبع، بما فيها محمد وبُثنة، حين تتواجد بالقاهرة، وبقية أفرادها، وبصفة خاصة حواء وحورية وسيزا.

وفى بدايات ١٩٢٥، دعت كارى تشاپمان كات هدى لزيارة الولايات المتحدة. وسافرت فى يوليو من نفس العام مع ابنها محمد الذى كان سيصحبها أولاً إلى كارلسباد حيث يقضيان فترة للاسترخاء فى منتجعها الصحي، ثم يتوجهون إلى

باريس ومنها إلى أمريكا. وقد رافقتها سيزا كسكرتيرة لها مدفوعة الأجر. وكان المخطط أنهم بمجرد الوصول إلى أمريكا سيقومون بالاتصال بالمجموعات النسائية فى نيويورك ثم يزورون ابنتها بُثْنة وزوجها محمود سامى فى السفارة المصرية بواشنطون التى أصبح سامى يحظى فيها بتقدير كبير. لقد كانت بُثْنة ترسل دومًا رسائل تفيض بمشاعر الحب، ولكن هدى كانت تشتاق أن تراها ثانية وتمنحها كل ما يمكنها من حب ومساندة، على الرغم من المسافة التى باعدت بينهما. وكان قد تم ترتيب كل شيء فى مصر بقدر ما كان يمكن لهدى أن ترى. بحيث يتولى چيمس كولون ما يخص مصنع روض الفرج. بينما تم إقناع چان ماركيس بالإشراف على شؤون المجلة، بعد أن كانت متخوفة من ذلك. ووعدت بتحمل هذه المسؤولية لأربعة أشهر وتعهدت بكتابة ثلاث مقالات شهرية طيلة غياب سيزا.

وفى فرنسا، التقت هدى بالعديد من الشخصيات وتنقلت كثيرًا. ورأت كل أصدقائها القدامى، بمن فيهم چولييت آدم، وماريا ڤيرون، ودوقة أوزيس الكبيرة الأرملة، وفرانسين دورا وأوديت سيمون وغيرهن. وعقد مجد الدين حفنى ناصف، بوصفه رئيسًا لاتحاد الطلبة المصريين، حفل إستقبال على شرفها فى فندق لوتيسيا بميدان راسباى. وكان السفير المصرى فخرى باشا، متغيبًا فى عطلة خارج فرنسا، وناب عنه كل من القائم بالأعمال نيازى بك والقنصل دكتور عبد السلام الجندي. بل وحضر إمام السفارة الحفل الذى كان افتتاحه مهيبًا وتصدَّر المكان پورتريه للملك فؤاد تحيطه أعلام مصر. وعُزف السلام الملكى المصري، وعزف بعده المارسيياز (السلام الفرنسي). وكان رئيس الوزراء الفرنسى پول پانلوڤيه من بين الضيوف، بالإضافة إلى ثلاثة رؤساء وزارة سابقين هم إدوار هيريو، وريمون پوانكاريه، وأريستيد بريان. كما حضر الحفل

الأمير محمد على توفيق، أحد كبار أعضاء العائلة المالكة، وأيضًا العديد من كبار الشخصيات المصرية والمسؤولين الحكوميين وممثلون عن الجمعيات المصرية فى ليون وتولوز وادينبورج، ومندوبون عن مجموعة فرنسا- مصر والجمعية المصرية فى فرنسا. وألقى مجد الدين الكلمة الرئيسية ووجَّه فيها التحية للملك والحكومة نيابة عن جميع الحضور ورحَّب بهدى وأعرب عن أمله فى أن مصر ونسائها سوف تتحرر بالكامل فى عهد جلالة الملك فؤاد. وتمنى بشكل خاص أن يتم إلغاء تعدد الزوجات والسيطرة على الطلاق وأن يصبح التعليم إلزاميًا للفتيات وأن يُمنح قريبًا حق الاقتراع للنساء الأكثر تعليمًا على أقل تقدير.

وكانت هدى قد بدأت تهتم بالماسونية. ويُذكر أن مارى ديريم مارتان، زوجة السناتور الراحل چورج مارتان، قد أسَّست فى ١٨٩٣ محفلا ماسونيًا لتمكين النساء والرجال على حد سواء، سُمِّي "محفل حقوق الإنسان". وكان الكثيرون من المدعوين فى فندق لوتيسيا ماسونيين. وقدَّم مجد الدين هدى إلى الماسونيين الفرنسيين الذين يستطيعون المساعدة فى إقامة حوار مع المقر الماسونى الأعظم بانجلترا، الذى كان يرأسه الخبير الأعظم أمير ويلز. وكان محفلا ناطقًا بالعربية يوجد بالفعل فى مصر يطلق عليه "كوكب الشرق" تابعًا للمقر الأعظم فى انجلترا، يضم من بين أعضائه الخديوى توفيق، والشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، وبطرس باشا، وشريف باشا، وبعضًا من أعضاء البرلمان، بل والعديد من العلماء أعضاء المؤسسة الدينية الإسلامية. وكانت هدى على علم بأن والدها، سلطان باشا، وآخرين من معارفه، كانوا أعضاء فى المحفل الأعظم بالإسكندرية، وترى أن الماسونية من شأنها التأثير على القرارات السياسية وفى وسعها أن تخلق صلات بين ذوى السلطة من مختلف الأعراق والأديان وأن تسهم إسهامًا هائلا فى القضاء على العنصرية والعداوة والتفرقة.[١٤]

وتوجهت هدى وسيزا إلى الولايات المتحدة فى سبتمبر. وقابلتهما كارى شاپمان كات عند مغادرتهما للباخرة. ودُعيتا لتناول الغداء فى نادى المدينة النسائى بنيويورك، وهى جمعية نسائية حديثة العهد وذات حيثية يضم مجلس إدارتها إليينور روزفلت. وكانت هناك ضيفة ثالثة أيضًا، هى السيدة مونش، وهى أول عضوة فى البرلمان الدانماركي. لقد كانت هدى مبهورة بشاپمان كات التى تزعمت النضال الذى أسفر فى ١٩٢٠ عن إدراج التعديل التاسع عشر فى الدستور الأمريكي، والذى حصلت بموجبه المرأة الأمريكية بلا منازع على حق الاقتراع الكامل. وكانت قد أسَّست قبل وقت طويل التحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع (IWSA) منذ ١٩٠٤، بعد أن رأست التحالف الوطنى لعدة أعوام. وقد مكَّنتها قدرتها الخاصة على الإقناع من إطلاق حركات تابعة له عبر السنين فيما لا يقل عن ٣٠ دولة. كما كانت ترى أن النوادى النسائية هى أفضل سبيل لتعرف النساء على بعضهن البعض ولمناقشة ما يحتجن إليه قبل أن يقمن بتبنى أى خطة عمل. كان نادى المدينة للمرأة إذن مكانًا لالتقاء النسويات الفاعلات وكانت معظم عضواته تشاركن فى العمل العام.[١٥]

ورتَّبت تشاپمان أن تقيم هدى وسيزا فى فترة زيارتهما فى نادى الكوزموبوليتان بنيويورك، حيث يلتقى الفنانون والكتاب وغيرهم من المثقفين ليتحاوروا ويتعارفوا على بعضهم البعض وعلى أفكار بعضهم البعض. وكانتا تقضيان وقت الفراغ القليل المتاح لهما فى الفناء الصغير للنادى حيث النافورة والمصباح الضخم، اللذين جعلاهما تشعران بأنهما فى مصر. وقد أُعجبتا أيضًا بنادى كولوني، الذى يضم فى عضويته أكثر العائلات الأمريكية ثراءً فى نيويورك، وحيث تجمع قاعات الجلوس والطعام وغرف النوم والمكتبات ما بين الحداثة وبراح الأماكن المُخصَّصة لممارسة الرياضة. وكان بالنادى مسبح هائل يتميز بفخامة تشهد بالمستوى المادى لأعضائه.

وقد تولى تشارلز كرين وابنته مهمة الترفيه عن هدى وسيزا. وكان كرين مثارًا لدهشة هدى وسيزا؛ بسبب معرفته اللامحدودة بالعرب وتعاطفه مع الثقافة العربية، من المساجد إلى الخيول، ومن الأدب إلى النخيل. لقد كان شخصية مدهشة، بتعبيراته اللماحة ولحيته المُشذَّبة دومًا بأناقة. لقد كان قطبًا من أقطاب الصناعة وتحول إلى سياسى مرموق أمضى عدة سنوات فى الصين على رأس السفارة الأمريكية فى بكين. ورغم ثرائه ونفوذه، فقد كان من أنصار المساواة، وغير متكلف بالمرة فى سلوكه. كان له معارف فى القاهرة وأصدقاء مشتركون مع هدى. وكان لدى كرين جناح خاص فى منزله يزينه السجاد القوقازي، والخزف الصيني، وقطع الأثاث والمشغولات الخشبية السورية، والوسائد والأرائك الدمشقية، والأسقف الخشبية ذات الرسوم، والصناديق النحاسية. وكان حين يدلف إلى هذا الجناح فى أوقات فراغه يشعر أنه قد دلف إلى عالمه الشرقى المُحبَّب حتى دون أن يرحل إليه.

لم يسع هدى إلا أن تقارن أسلوب حياة كرين بأسلوبها الخاص. كان منزلها فى مصر مؤثثًا وفقًا للذوق الغربى السائد آنذاك. وبدأت تتشكل فى ذهنها الفكرة، وهى أنه فى إمكانها هى الأخرى أن تتبع ميولها الشرقية. وهذا ما جعلها تقرِّر تحويل منزلها الحالى إلى ما كان عليه المنزل الذى شبَّت فيه فى شارع جامع شركس. أى إلى قصر من ألف ليلة وليلة، بحيث يمثل خلفية أكثر تناغمًا مع أنشطتها السياسية ومع ضيوفها من الشرق والغرب.

وحدَّثها كرين أيضًا عن زيارته لفلسطين فى ١٩١٧ وعن التقرير الذى أعده مع دكتور هنرى كينج خلال الرحلة، وكانت هدى على دراية به بالفعل، وكان قد تساءل فى هذا التقرير عن مدى الأحقية فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين، وفق مشروع الوكالة اليهودية. وكانت هذه مشكلات جديدة بالنسبة إلى هدى. فلم

يسبق لها التساؤل حول فكرة التعايش مع اليهود. كما لم تُثر قلقها حتى حينها حقيقة أن الطائفة اليهودية فى فلسطين كانت هى وحدها المشاركة فى الفعاليات النسوية الدولية. ولكن تعايش اليهود والعرب فى نفس البلد قضية، وإقامة دولة يهودية من خلال إزالة مجتمع فلسطينى موجود بالفعل قضية أخرى تمامًا. وقد أوضح لها كرين وصديقه الفلسطينى چورچ أنطونيوس، مؤلف كتاب "اليقظة العربية" جانبًا مختلفًا لما يحدث فى فلسطين.(١٦) وهو ما لم تتعرض له مجلة ليچيبسيان إلا لاحقًا، إذ ظل اهتمام هدى حينها منصبًا على مصر.

وبعد قضائهما لعدة أيام فى نيويورك، توجهت هدى وسيزا إلى واشنطون حيث بدا أن بُثنة تعيش حياة لا تقل إثارة عن أجواء نيويورك. وقالت لأمها أن وزير الخارجية الأمريكى ذاته قد طلب مقابلتها. ولا بد أن ذلك جاء نتيجة جهودها الخاصة وأيضًا لشهرة والدتها المطردة، لأنها، كما قالت لها: "تفعل كل ما فى وسعها لكى تكون جديرة بأمها الحبيبة". لقد كانت حياتها الاجتماعية محمومة وقد عجزت حتى الآن عن قضاء عطلة على شاطيء البحر أو فى المنتجعات الجبلية لأن الخارجية المصرية لم توافق على تغطية نفقات العطلات. وكانت هدى على علم بهذه المشكلة وقد سبق أن اتصلت بزيور باشا قبيل السفر من القاهرة، ولكنه لم يكن على ما يبدو مدركًا للمسألة ولم يبذل جهدًا لتحسين الوضع. كانت هدى فى قمة السعادة لرؤية الأطفال، لقد كبرا كثيرًا. وكانت تشعر بالفخر بابنتها.

وقد سألت بُثنة إن كانت تستطيع أن تستغل وضعها، بوصفها زوجة السفير، فى بيع منتجات ورش الاتحاد النسائى المصرى فى الولايات المتحدة. وكان واضحًا أن المنسوجات المطرزة والخردوات التى تنتجها الورش، إضافة إلى القطع الخزفية الجميلة المصنوعة فى روض الفرج، يمكن أن تجد سوقًا

رائجة فى واشنطون. وقد جاءت هدى وسيزا بكل ما استطاعتا حمله من القاهرة من نماذج هذه المنتجات. وأمضت هدى بعض الوقت فى الجلوس إلى بُثنة والحديث معها حول حياتها فى واشنطون والحياة فى مصر، وفى اللعب مع الأطفال وتبادل الحديث مع محمود سامى باشا.

وقد استوعبت بُثنة كافة المعلومات التى نقلتها إليها هدى بشأن تقدم الحركة النسائية فى مصر استيعابًا شديدًا، ووعدت بنقلها إلى معارفها فى أمريكا. كما تعهدت بأن تخطر أمها بأية تطورات مهمة فى الولايات المتحدة. وتحمست بشدة لأفكار أمها الجديدة الخاصة بمنزل القاهرة ووعدت بالمساعدة فى الأعمال لدى عودتها. وواصلت هدى جولتها فى الأندية الثقافية فى واشنطون، ومنها ناد نسائى للصحافة، للصحفيين والكتاب، وناد للجامعة وفرع لنادى المدينة النسائي، حيث دُعيت هدى وسيزا وتمت استضافتهما بحرارة.



بُثنـة

غير أن نادى الحزب الوطنى للمرأة كان أهم هذه الأندية على الإطلاق. كانت أليس پول واحدة من مؤسسى الحزب الذى أنشىء فى ١٩١٣. وهى ناشطة نسوية فاعلة، وقد شرحت لهدى أدوات مشاركة المرأة فى الحياة السياسية الأمريكية وكيف أن الأحزاب الرئيسية القائمة لا تتدخل لمساعدتهم.

والتقت هدى أثناء زيارتها للنادى بإملين پاثيك- لورنس، الناشطة النسوية الإنجليزية، التى ألقت كلمة فى اجتماع كان منعقدًا هناك يومئذ. لقد كانت امرأة جميلة وممشوقة القوام، ليست بالعابثة أو اللعوب، وتنضح بالصدق والصراحة وتتحدث ببساطة شديدة. وقد قالت إن دور النساء فى دعم السلام دور جوهري، إذ بحكم أن النساء هن دومًا أولًا وقبل كل شيء أمهات، فإنهن يُدرِكْنَ قيمة حياة الفرد. وهى تؤمن بالحقوق المتساوية لكل الأفراد من كافة الأجناس فى جميع أنحاء العالم. كما قالت إن: "حياة الإنسان أغلى بكثير من جميع المصالح الاقتصادية".(١٧) وقد أجْرت سيزا حديثًا مع پاثيك- لورنس فور انتهائها من كلمتها. وكان زوجها، فريدريك بثيك- لورانس عضوًا بحزب العمال البريطانى ونائبًا فى البرلمان، وسيتولى لاحقًا حقيبة وزارية. ولم تُفلتْ هدى الفرصة للتعبير عن أسفها لعدم استطاعة رمزى ماكدونالد، رئيس الوزراء العمالى السابق، أن يحل مشكلات مصر حينما ذهب زغلول لزيارته.

وحين دُعيت هدى ذاتها للتحدث فى نادى الحزب الوطنى للمرأة، شدَّدت بعدها بأيام فى ٨ أكتوبر ١٩٢٥ على أن المرأة المصرية لا تسعى للتقليد الأعمى للغرب، وتتمسك بارتداء غطاء الرأس التقليدي.(١٨) وقالت إن الحجاب لم يعد فى مصر عائقًا للتواصل، وإن بعض النساء لا زلن يرتدينه كجزء من الزى التقليدي، وكعنصر تجميلي. وشدَّدت على أهمية أن تتعرف الأمم على أزياء وعادات بعضها البعض. وحدَّثت الحضور عن قاسم أمين وقضية تعدد الزوجات وعقد الزواج

فى الإسلام والطلاق والميراث، وعن المساواة فى الأجور بين الرجل والمرأة وغيرها من الأمور، وكانت تدلل على ذلك اعتمادًا على مصادر إسلامية، أى القرآن والحديث، لتدعم حججها. وأوضحت أن ظلم الرجل للمرأة قد جاء من عادات قَبَلية سابقة على الإسلام، ونتاج سوء تأويل الشريعة الإسلامية. وأشارت إلى أن مستوى حياة المصريات ونشاطهن ليس بأقل من نظيراتهن فى الغرب. ثم تطرَّقت بإيجاز إلى التاريخ الحديث لمصر، بدءًا من محمد على وتحدثت عن تأسيس الاتحاد النسائى المصرى وأهدافه.

وقد لقى حديثها تقدير الحضور وقبلت هدى الدعوة لأن تكون عضوًا فى اللجنة الدولية لحزب المرأة. وكانت على قناعة بأن دعم الدُولية من شأنه الإسهام فى نشر مناخ غير تمييزى وإنسانى لأفكار قادرة على إنهاء الإمبريالية. إذ يمكن من خلال توعية الرأى العام، كما عبَّر بيثك-لورانس عن ذلك ببلاغة، تقوية الأدوات اللازمة لاستئصال أى مظاهر للتمييز العنصري.[١٩]

وفور عودتها إلى القاهرة، بعد ثلاثة أشهر قضتها فى أوروبا وأمريكا، قرَّرت هدى أن تخلو بعض الوقت لمراجعة وتقييم تجربة رحلتها والاستفادة القصوى من الخبرات التى اكتسبتها خلالها. وتصادف ذلك مع وصول وافدة جديدة إلى المشهد فى القاهرة لتضاف بعد عودتها إلى سلسلة معاونى هدى المحتملين. لقد كانت هنرييت ديڤونشاير فرنسية متزوجة من إنجليزى يقيم بالقاهرة، وقد تم تعيينها فى ٢ نوفمبر ١٩٢٥ بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة.[٢٠] وكانت سيزا تتعجل بدء التعاون مع هنرييت، كما راحوا ينادونها فورًا، لدعم حماية الآثار الإسلامية بالعاصمة، انطلاقًا من تخصصها فى الفن والعمارة الإسلامية وإخلاصها الكبير للحفاظ على التراث الإسلامي.

وكانت مصر قد شهدت موجة أخيرة من الاضطرابات السياسية فى نهاية ١٩٢٥ حين قرَّر البرلمانيون الذين مُنعوا من الاجتماع منذ شهر مارس، التجمع

أمام مبنى البرلمان احتجاجًا على عدم دستورية تعطيل البرلمان. وقد حشدت الحكومة القوات والشرطة يوم ٢١ نوفمبر للحيلولة دون تجمعهم وحاصرت المبنى من كافة الجهات لإغلاق كل منافذ الدخول إليه. كما أغلقت الجسور فى المناطق الأخرى من القاهرة ونُشرت القوات فى الشوارع. وجاء رد زغلول وآخرين بالدعوة إلى اجتماع غير رسمى فى فندق كونتيننتال، وهو ما عرف بعد ذلك ببرلمان فندق الكونتيننتال. وقد اتخذ المجلس عدة قرارات من بينها سحب الثقة من الحكومة. والمضحك فى الأمر أن زيور باشا كان يقيم حينها بالفندق، وشُوهِد وهو يهرب مُسرِعًا إلى سيارته الرسمية حين رأى البرلمانيين وقد بدأوا يتجمعون. أما أهم ملمح فى الحدث ذاته، فتمثل فى أن تلك كانت هى المرة الأولى التى تتوحد فيها صفوف الوفد مع الأحزاب الرئيسية الأخري، مثل الأحرار الدستوريين والوطنيين، للمشاركة بفعالية حول قضية عامة.[٢١] ثم راح كل حزب يعقد اجتماعات وتنقلت الوفود جيئة وذهابًا من وإلى بيت زغلول، الذى مازال يُسمَّى ببيت الأمة، وتوالت الخُطب. وقد عُقدت جمعية أخرى لاحقًا فى منزل محمد محمود باشا، بمشاركة زغلول وعدلى يكن وحسين رشدى وعبد الخالق ثروت واسماعيل صدقي، وقد تقرَّر خلالها أخيرًا تشكيل التحالف الذى طال انتظاره بين الأحزاب الثلاثة.[٢٢]

وفى أعقاب برلمان فندق الكونتيننتال، دعت جمعية الطلبة المصريين فى باريس، برئاسة مجد الدين حفنى ناصف، الذى كانت هدى ترعاه، كافة جمعيات الطلبة المصريين فى أوروبا لعقد مؤتمر عام فيما بين ٢٩ و٣١ ديسمبر فى باريس، فى مقر السوسييتيه ساڤانت فى ٨ شارع دانتو. وقد جاءت وفود من جميع أنحاء فرنسا ومن بريطانيا وسويسرا وألمانيا وبلاد أخرى للمشاركة فى المنتدى. وعبَّر المجتمعون عن تأييدهم لبرلمان فندق الكونتيننتال وأعلنوا

عدة قرارات تقريبًا ثورية النبرة، إذ دعوا إلى وضع دستور جديد ومقاطعة الانتخابات ورفض حكومة زيور بوصفها غير شرعية:

"إن هذا المؤتمر يدعو العالم المتحضر وكافة ديمقراطيات وبرلمانات أوروبا وأمريكا وآسيا، إلى أن يكونوا شهودًا على انتهاك الدستور المصري، كما يرفض مرسوم زيور الانتخابى الجديد ويُعلن أن مشروع القانون الانتخابى الذى تم التصويت عليه وإقراره فى عهد حكومة زغلول باشا هو الوحيد القانونى والدستوري". [٢٣]

وكانت هدى قد اتفقت مسبقًا مع مجد الدين على فحوى البيان الصادر عن المؤتمر الذى نشرته كاملًا فى مجلة ليچيبسيان. وعلى غرار ما فعلت إبان صدامها مع زغلول، لجأت هدى للإعلام لانتقاد حكومة زيور باشا وسياساتها وأدانت ما وصفته بضعفه وما اعتبرته اتجاهًا مهينًا لاسترضاء الاحتلال البريطانى بدلًا من الدفاع عن مصالح مصر. وراحت، بالتزامن مع ممثلات الحركة النسائية الدولية فى مختلف المؤتمرات التى شاركت فيها، تناصر قضية السلام والمجتمع اليوتوبى الذى تسوده العدالة والمساواة. ولكنها تمسكت بموقفها "كامرأة دولة" حين كانت الأمور تتعلق بقضايا تمس الحكومة المصرية وسياساتها مباشرة.

وفى ديسمبر ١٩٢٥، عادت هدى مرة أخرى إلى كتابة مقالاتها فى ليچيبسيان لتستأنف الموضوع الذى كانت توقفت عنده عن مكانة مصر السياسية فى العالم. وكان العنصر المتواتر فى هذه الكتابات هو الضرر الذى يوقعه الاحتلال الأجنبى بأجزاء الإمبراطورية العثمانية المُفكَّكة. وحمّلت فى المقال الأول الذى جاء تحت عنوان "نداء إلى الغرب"، الدول الغربية مسؤولية الخراب الذى عمّ البلاد الشرقية:

"الشرق يعاني، المشرق ينزف، هو وحده يستحوذ على تعاطفى واهتمامي. إنه "الريف" الذى أضرمت فيه القوات الأسبانية والفرنسية النار وأغرقته فى الدم، إنه سوريا المنتفضة ضد المذابح فى دمشق، إنه فلسطين والعراق، حيث لم يتوقف منذ إعلان الانتداب البريطانى عمليات التحريض على الشقاق والكراهية بين أهالى الطوائف الدينية المختلفة. إنها شبه الجزيرة العربية المنقسمة، كل هذه البلاد التى تعيش فى حداد، والتى يصل إلى آذاننا نشيج أراملها وصرخات أيتامها ولعنات شيوخها الذين كانوا بالأمس فقط يكنون الاحترام للحضارة الغربية التى أودعوها آمالهم وثقتهم".(٢٤)

وقارنت بين الحديث عن السلام ونزع السلاح الذى استمعت إليه يتردد على مدار ثلاثة أشهر فى أوروبا وأمريكا وبين واقع الحياة فى البلاد المحتلة. وخصّت فى ندائها أمريكا، ذلك البلد الكبير الذى كان هو نفسه مستعمرة فى ماضٍ ليس بالبعيد، والذى أصبح لها فيه الآن الكثير من الأصدقاء من ذوى الحيثية. وكانت تتوقع، فى أعقاب تصريح الرئيس وودرو ويلسون بنقاطه الأربع عشرة، الذى ساند فيه البلاد الصغيرة فى العالم، أن يستجيب الأمريكيون لدعوتها للعدالة. وأملت أن يخلق مقالها حوارًا إيجابيا.(٢٥)

وفى هذه المرحلة، رأت هدى أن الوقت قد حان لكى يُعزِّز الاتحاد النسائى المصرى وجوده بإنشاء نادٍ. وهو ما عرف بـ "نادى الاتحاد النسائي"، وأصبح تنظيمًا ثقافيًا واجتماعيًا لأعضاء ورُعاة الاتحاد النسائى المصري. وبالفعل فى ٨ يناير ١٩٢٦ افتتح النادي. وأصبحت الأميرة سميحة رئيسته الشرفية وانتُخبت هدى رئيسة للجنته التنفيذية. وقد دعت هدى أكثر من مائتين من كبار وجوه المجتمع إلى حفل الافتتاح الذى جرى فى الڤيلا التى بناها ألكساندر جرين بمنطقة قصر الدوبارة الراقية، على مقربة من مقر إقامة المندوب السامى

البريطانى الكائن فى ١ ميدان قصر الدوبارة. وقدمت بهذه المناسبة، عرضًا عن الحركة النسائية فى الغرب، على ضوء ما شاهدته فى أوروبا والولايات المتحدة. وكان قد تم تجهيز الحديقة بالمناضد، بجانب ملعب التنس، وتولت محلات جروبى الخدمة فى حفل الشاى الذى عزف خلاله أوركسترا صغير قطعًا موسيقية تركية كانت رائجة فى هذا الوقت. وبعد تناول الشاى قدم الثلاثى الإيطالى الشهير أسكيناز- ميناسك-أورليتى مقطوعاته. وقد بدأت أنشطة النادى فى يوم الاثنين التالى بحديث للسيد لبروتون وبمسابقة فى التنس فى الخامس عشر من فبراير. وكان البرنامج يتضمن أيضًا عروضًا مسرحية وحفلات موسيقية بالإضافة إلى محاضرات فى مختلف الموضوعات. وقد شغف الأعضاء بموسيقى ماسكانى فى مسرح الكورسال واستمتعوا برؤية شارل لوبارچى وزوجته سيمون فى دار الأوبرا.

وكانت چان ماركيس قد عملت، خلال فترة غياب هدى وسيزا، بهمة ونشاط فى مجلة ليچيبسيان وحافظت على صدورها فى أرقى صورة. وفى فبراير ١٩٢٦، وبموافقة هدى بلا أدنى شك، نشرت المجلة مقالاً مطولاً، بتوقيع چان تشيد فيه بالمُستوطنات الصهيونيات فى فلسطين، على النقيض من وجهات النظر التى تبنتها هدى لاحقًا.

"لقد تابعنا عن كثب وبتعاطف كبير العمل الذى أنجزته شقيقاتنا الصهيونيات فى فلسطين، والولايات المتحدة وفى كل البلدان... لقد أظهرن قوة الشخصية وتنظيمًا عمليًا عالى المستوى فى كل مكان. فهُن يقدمن أينما تواجدن مثالاً حيًا للحيوية الهائلة التى يتميز بها شعب لم يفقد الأمل رغم عقود من الاستعباد واحتفظ باحترامه غير المنقوص للذكاء والإيمان".[٢٦]

وفى أبريل، واصلت چان هذا بالثناء على الخطاب الذى ألقته روزا آبرسون، السكرتير العام لرابطة المرأة اليهودية، فى مؤتمر عن رعاية الطفولة.[٢٧]

وكان الخطاب يدعو إلى تنفيذ قرار يتعلق بتوعية الأطفال بالسلام، ولكن أيضا بالقضاء على مناهضة السامية. وأشادت چان فى مقالها بالشقيقات اليهوديات وتصميمهن على إثبات قدرتهن على الجهد البدنى مثل الرجال، وأعربت عن أملها فى أن يؤدى ذلك إلى "عالم أكثر إنسانية وأخوة".(٢٨) وعلى الرغم من لقائها بتشارلز كرين، فلم يكن قد تنامى بعد لدى هدى، ما سيعرف لاحقا بدعمها الحماسى لأهالى فلسطين العرب.

وقد اهتمت هدى بالتبرع الذى قدمه المليونير ومحب العمل الخيرى الأمريكى چون دى روكفيللر، لمصر لإقامة معهد أبحاث ومتحف جديد للمصريات كان سيُشيَّد عند الحافة الشرقية لجزيرة الزمالك. وقد عُرض المشروع الذى وضعه عالم المصريات بجامعة شيكاجو چيمس هنرى بريستد على الحكومة المصرية فى يناير ١٩٢٦ ولكن زوير رفضه فى النهاية فى منتصف مارس(٢٩) وقد بادرت هدى بإرسال برقية شكر وأسف للمليونير الأمريكى باسم الاتحاد النسائى المصرى جاء فيها :"نأمل ألا تلقوا باللوم على الأمة المصرية لهذه السياسة الغبية التى تسير فى عكس اتجاه مصالح البلاد، والتى رفضت المشروع على أساس أن من وضعه أجانب من أجل مصالح أجانب".

لقد أدرك زوير فى حقيقة الأمر، أنه لو وافق على مشروع يضع فعليًا الآثار المصرية تحت السيطرة الأجنبية، سيستشيط الوطنيون غضبًا. أما هدى فقد رأت من جانبها أن رفض المشروع قد تم بإيعاز بريطاني، وفسَّرته على أنه دليل آخر على تجاهل بريطانيا لمصلحة مصر. كانت تعلم أن الصحراء مليئة بالكنوز التى يمكن أن يتيح استخراجها أن تستنير البشرية بمعرفة أصولها وبمعرفة حضارة مصر القديمة. وقد رد روكفيللر على برقية هدى بتصريح أعلن فيه تضامنه مع الشعب المصري. ونشرت ليچيبسيان برقية روكفيللر،

إلى جانب رباعية للشاعر الفرنسي چيرار دو نرڤال يشيد فيها بثقافة قدماء المصريين[٣٠] وتضمَّن العدد الكثير من المقالات الأخرى التى أبرزت التقاليد والعجائب الفرعونية.

ثم عُقد المؤتمر العاشر للتحالف النسائى الدولى لتساوى الحقوق فى الاقتراع (IWSA)، فى جامعة السوربون بباريس فيما بين ٣٠ مايو و٦ يونيو ١٩٢٦. وكان من أهم قراراته تغيير اسم المنظمة إلى التحالف الدولى للمرأة **IAW**، إقرارًا باتساع نطاق اهتمامات المنظمة. وفى ٢٩ أبريل من نفس العام، وخلال اجتماع عادى للاتحاد النسائى المصرى بمنزلها، أعلنت هدى أسماء الوفد المصرى إلى المؤتمر. وكانت المندوبات مرة أخرى من قيادات مظاهرات ١٩١٩. وقالت هدى إنها على ثقة بأن الوفد سيكون، "ونطقت العبارة بالفرنسية"" **'remarquable et remarquée'**، ("بارزًا ومحط أنظار الجميع"). وقد ضم الوفد المرافق لها ريچينا خياط وإستر فهمى ويصا ووجيدة خلوصى وصايبة جرزوزى وفكرية حسني، علاوة على سيزا نبراوى بالطبع. ثم واصل الاتحاد النسائى المصرى النظر فى الأنشطة اليومية للاتحاد كالمعتاد، وكذلك التقارير المالية وأعمال المستوصف وغيره.[٣١]

وبمجرد ما أن وصلن إلى باريس، ورغم الانشغال بالمؤتمر، حتى انتاب القلق السيدات بشأن الموقف فى البلاد حيث كانت تُجرى فيها الانتخابات مرة أخرى فى ٢٥ مايو، عقب سفر الوفد النسائى مباشرة من مصر. وطلبت هدى من مجد الدين أن يبذل كل ما لديه من مواهب للحصول على معلومات وإخطارهن بها. ومرة أخرى ودون أدنى مفاجأة يكتسح الوفد وحلفاؤه المشهد ويسجلون انتصارًا لم يسبق له مثيل. ومع ذلك، لم يتقدم زيور باستقالته مباشرة. وفى ٢٧ مايو ترددت أنباء عن استدعاء المندوب السامى البريطانى اللورد لويد

لزغلول إلى مقره. ويبدو أن جدالاً عنيفًا قد نشب بينهما لتمسك زغلول بأن تكون الحكومة التى يشكلها من تحالف للقوى غير- الملكية وهو الاقتراح الذى رفض البريطانيون قبوله. كان لويد يعرف أن فى إمكان زغلول إن أراد أن يأمر بحدوث احتجاجات، ولكنه طلب منه الحيلولة دون وقوع اضطرابات بسبب عدوله عن محاولات قيادة البلاد. ولكى يضفى القوة على مطلبه أمر بإرسال زورق حربى بريطانى اسمه ريزولوت اتش إم إس **HMS Resolute** كان متمركزًا بالبحر المتوسط، إلى الإسكندرية. وكان زغلول يردد منذ بعض الوقت تصريحات بأن السن قد تقدمت به وأصابه الإنهاك من تولى المنصب، وأنه يرغب فى أن يكون بالأحرى أبًا نلأمة عن أن يكون رئيسًا للوزراء. وربما هدف بذلك إلى أن يستبق أى قرار بريطانى بمنعه من المنصب، وأن يجعله يبدو بمثابة قراره الشخصى بالتنحي. وتواترات الأنباء بأن الملك قد رفض اقتراحه بأن يصبح النحاس باشا، الرجل الثانى فى قيادة الوفد، رئيس الوزراء. واقترح البريطانيون والملك عودة عدلى يكن لرئاسة حكومة يفترض أنها محايدة.

وقد أخذت الضغوط تتزايد لتصبح أثقل من قدرة زغلول على التحمل[٣٢] وفى ٣ يونيو، وخلال مأدبة عشاء فى فندق الإنتركونتيننتال، حثه العديد من المتحدثين على العدول عن طموحاته فى رئاسة الوزارة. وناشدوه بألا "ينهك صحته أكثر من ذلك بتولى مسؤوليات الحكومة".[٣٣] وفوجيء زغلول بما سمعه، وصمت لوهلة ليدرك ما يجري، ثم وقف وأكد بنبرة مترددة هشاشة حالته الصحية وتردده الشخصى فى تولى أى سلطات أو مسؤوليات جديدة. وذكر أنه يثق فى إرادة شعبه أكثر من أى وقت مضى، وأنه على أعضاء البرلمان أن يقرروا هم إذا كان عليه العودة إلى رئاسة الوزارة أم لا. وبات واضحًا أنه سينسحب من السباق على المنصب. ثم قام بزيارة أخرى لمقر المندوب السامى

وتبعتها زيارة أخيرة للملك، أكد لهما خلالهما قراره بألّا "يتولى المنصب مجددًا بأى حال من الأحوال" وبأنه سوف "يمنح عدلى يكن باشا مساندة حزبه الكاملة"(٣٤) وأخيرًا تنحى زيور باشا، الذى كان يتولى تسيير الأعمال، فى ٧ يونيو وتولى يكن باشا رئاسة الوزارء. وقد تابعت هدى ورفيقاتها جميع هذه التطورات أثناء وجودهن فى باريس.

وأبرقت هدى من باريس مقالًا بعنوان "القضية المصرية والسلام العالمي" طلبت نشره فى ليچيبسيان فى أقرب وقت. وأشارت فيه مجددًا إلى تنافر البلاغة الخطابية عن السلام فى الدوائر الدولية فى ذلك الوقت مع ما تعانيه مصر ودول محتلة أخرى من القهر. وشدّدت على التناقض القائم ما بين الجو الودى السائد فى المؤتمر من ناحية، وبين الأنباء المزعجة عن وصول الباخرة الحربية البريطانية ريزولوت اتش إم إس إلى بورسعيد وتهديد بريطانيا بوقف الدستور المصرى إذا ما أعيد تعيين زغلول. وقالت فى هذا السياق "إننا نثق فى حكمة الشعب المصرى وقدرات زعيمه".(٣٥) وانتهزت الفرصة لتوجيه الشكر إلى زغلول الذى لم يخيب فى النهاية أملها. وحرصت هدى على الإعراب عن ثقتها فى شقيقاتها الإنجليزيات وذكرت أنه لا ينبغى أن يُسمح لغدر الحكومات بتعكير صفو حسن نوايا الشعوب.

وفى يوم افتتاح المؤتمر، تجمعت رئيسات الوفود بزيهن الوطنى على المنصة التى تحدثت منها كوربيت-آشبى فى التاسعة صباحًا. وقد حضر الافتتاح أناتول دو مونزي، وزير التعليم العام وإدوارد هيريو، رئيس البرلمان الفرنسي، الذى سيصبح مجددًا رئيسًا للوزراء بعدها بوقت قصير. وجلست هدى فى مكانها، مرتدية الثوب الذى أصبح بفضلها الزى الوطنى المصري، وهو فستان من الشيفون الأزرق الداكن، يصحبه إيشارب يلتف حول وجهها

وينسدل بنعومة حتى كتفيها. وقد تعمدت هدى، بسلوكها، أن تحيط نفسها بهالة من الجدية والوقار، فى صورة سوف تظل حية فى الذاكرة الشعبية. إذ كانت تعطى الانطباع بالصلابة والكرامة وكثيرًا ما كان صوتها الأجش يضيف إلى هالة السلطة النابعة منها. وقد أقامت هدى على هامش المؤتمر مأدبة عشاء للمندوبات فى مطعم فندق لوتيسيا الذى أصبح مطعمها المفضل.

وشعرت هدى أن مارجرى كوربيت-آشبي، التى أصبحت على رأس التحالف الدولى للمرأة، شخصية يمكنها الاعتماد عليها بعد رحيل كارى تشاپمان كات. وكانت مُؤسِّسة التحالف التى تنحت بعد إصابتها بجلطة وباتت الآن رئيسة شرفية، قد قرَّرت تكريس ما تبقى لها من طاقة فى دعم السلام فى العالم.(٣٦) ولاحظت هدى أن كوربيت-آشبى بديلة ممتازة.(٣٧) ويُذكر أن الأخيرة كانت قد أعربت عن رأيها فى هدى فى رسالة كتبتها لتشاپمان كات فى ٩ نوڤمبر ١٩٢٦، قائلة عنها إنها "وطنية ومستبدة إلى أبعد الحدود".(٣٨) وكانت نقطة الاختلاف الرئيسية بينهما تكمن فى تصميم هدى الذى لا يتزعزع على إلغاء قوانين الامتيازات وغيرها من الالتزامات الدولية التى تخضع لها مصر. وكان البريطانى لورد ميلنر نفسه قد كتب فى ١٩٠٤ عن أعباء تلك القوانين على مصر ووصفها بـ "الأغلال الدولية التى لا حصر لها التى تقيِّد مصر". وقد كتب عن ورطة حكومة مصر قائلًا:

"أينما التفتَ، تجد عائقًا فى طريقك. إن أردتَ تنظيف بالوعة مسدودة أو منع بيع مواد مخدرة أو ترويج مطبوعات مثيرة للفتنة أو لا أخلاقية، تمنعك الامتيازات. ليس فى استطاعتك الحصول على سُلفة بدون موافقة تركيا، ليس فى استطاعتك السحب من الأموال الاحتياطية بدون موافقة صندوق الدين. ليس فى استطاعتك تجاوز حد الصرف بدون موافقة الدول العظمى".(٣٩)

وحين جاء الدور على هدى لإلقاء كلمتها استعرضت الخطوط العريضة للتقدم الذى أحرزته الحركة النسائية فى مصر وبقية العالم الشرقي، بما فى ذلك الجزائر وسوريا وتونس، بل والهند، حيث أعلنت النساء عن تعاطفهن وتضامنهن مع المصريين. وقالت إن نجاح الثورة التركية سوف يدعم بالتأكيد هذه الحركة. واختتمت بتحية تشاپمان كات والترحيب بكوربيت-آشبي. هذا وقد ألقت سيزا خطبتين تحدثت فى الأولى إلى الجمع فى السوربون عن الامتيازات الأجنبية وتأثيرها على الدعارة فى مصر وفى الثانية، أمام "سوسييتيه ساڤانت" فى ٢ يونيو، تناولت حقوق المرأة فى مصر وتطبيق قانون نابوليون ومطالب المصريات من الحكومة. وفى ختام كلمة سيزا، وقفت سيدة فرنسية صائحة "أريد أن أكون مصرية!".

وخلال وجودها فى باريس، تعرفت هدى على الرومانية ايلينا ڤاكارسكو، التى عُيّنت لاحقًا بين مندوبى بلادها فى عصبة الأمم، وهى شخصية مهمة ظلت هدى على اتصال بها على مدار السنين. كما التقت هدى بأوديت سيمون، المحامية الفرنسية الشابة التى أصبحت صديقة لبُثنة فى لندن، إبان محاكمة زوجة على فهمى باشا، والتى تعرفت من خلالها على سيزا ومحمد، ابن هدى. وسرعان ما أصبحت أوديت البهية الطلعة، والبسيطة فى تعاملها تنادى هدى بكلمة "طنط"، على غرار كافة الشابات المحيطات بها، تعبيرًا عن إعجابها الشديد بها. وقد راسلت أوديت هدى بانتظام وكتبت مقالات لمجلة ليچيبسان بعد انضمامها للاتحاد النسائى الفرنسى لتساوى الحقوق فى الاقتراع. وقد كانت هدى تستمتع كثيرًا بالمودة الصادقة التى تغمرها بها الشابات المحيطات بها. كان تعلق حواء وحورية، اللتين جيء بهما إليها وهما طفلتان بالقاهرة، بها لا يعرف حدودًا، تحبانها كما لو أنهما ليس لهما غيرها فى العالم لحمايتهما. كما أن سيزا لم تفارقها على الإطلاق.

وقد أصبحت هدى فى دورة ١٩٢٦ تلك عضوًا فى اللجنة التنفيذية للتحالف الدولى للمرأة IAW، أى بعد ثلاث سنوات فقط من المشاركة الأولى لمصر فى اجتماعات المنظمة. وكان ذلك بلا شك تشريفًا لمصر ولهدى شخصيًا. وقد جاءت المعارضة الوحيدة لهذا الاختيار من اثنتين من زميلاتها المصريات، وهما إستر ويصا وريچينا خياط. وقد احتجتا بأن هدى رئيسة بالفعل للاتحاد النسائى المصرى وأنه ينبغى أن يتولى غيرها تمثيل مصر فى اللجنة التنفيذية للتحالف. إلا أن المشكل فى مثل هذا الطرح هو أن هدى كانت المندوبة المصرية الوحيدة التى كان انتخابها فى اللجنة مؤكدًا، بفضل شعبيتها العامة وشهرتها، بما يعنى أن المنصب سيذهب إلى بلد آخر إن لم تكن هى المُرشَّحة، وكانت الدولة المُضيفة، فرنسا، تساندها، ووفود تسع دول أخرى. وقد حصلت على المنصب بـ ١٣١ صوتًا. وقد دُعيت مباشرة للمشاركة فى لجنتين فرعيتين، إحداهما عن السلام والأخرى عن المالية.(٤٠)

وفور اختتام المؤتمر فى ٧ يونيو، دعت هدى جميع المشاركين إلى فندق لوتيسيا مجددًا، لحفل وداع ساعدها مجد الدين فى تنظيمه. وألقى الاثنان كلمتى وداع، إضافة إلى كلمات لكوربيت-آشبى وآخرين. وكان الحفل ناجحًا بكل المقاييس. وقد قُدِّم عرض مصور عن الجمال الخالد لأرض الفراعنة حاز إعجاب الحاضرين. وكان "الهوس بالمصريات" قد بدأ يظهر، هذا الهوس بالعالم القديم الذى يتم اكتشافه عبر الحفريات والقطع الفنية الرائعة للفراعنة. وكانت هدى تدرك افتتان الغرب بمصر القديمة وقدرته الإقناعية الهائلة على كسب التعاطف مع بلادها.

-٧-

لعبة السياسة

حين عادت هدى مع سيزا من باريس فى يوليو ١٩٢٦، دعت إلى اجتماع لهيئة تحرير ليچيبسيان لبحث كيفية مواجهة نُدرة المعلومات المتوفرة عن مصر فى الخارج، والتى لاحظتها خلال رحلاتها الخارجية المتكررة. وقد أكدن أن هذا النقص يزيد من صعوبة إقناع دول أخرى بالضغط على بريطانيا للتخلى عن هيمنتها على مصر وعن الحقوق التى ادّعتها لنفسها. وتقرر أن تضاعف ليچيبسيان من جهودها لإمداد الغرب بالمعلومات عن العالم الشرقي، وأن تُكتب مقالات عن حكم أسرة محمد علي، مُؤسِّس الدولة المصرية الحالية وسلف الملك فؤاد، وأن تُنشر أيضًا ترجمات فرنسية لبعض القصائد المصرية. كما اتُفق على أن يقوم الشاعر فولاد يكن، ربيب هدى، بترجمات جديدة لكُتّاب لم يسبق نقل أعمالهم للغات الأجنبية. ووافق الأمير حيدر فاظل، ابن خال الملك، الذى كان يكتب شعرًا جميلًا بالفرنسية، على ترجمة مقاطع من القرآن الكريم إلى الفرنسية.

كما اهتمت هدى أيضًا بإدارة وتسويق منتجات ورشتى الخزف والسجاد. وكانت تعتزم إقامة مدرسة للفنون والحرف اليدوية تدعم الإبداع الفنى كأسلوب

حياة فى مصر. وقد كتب لوى مارسيرو، مدير "لا ليبريرى فرانسيز" (المكتبة الفرنسية) بعدها مقالا فى ليچيبسيان عن الفن القديم للخزف وإحيائه الحديث فى مصنع نور الهدى بروض الفرج. وقال فى هذا الصدد: "ما من شيء يموت تمامًا بحيث لا يمكن إعادته للحياة وما من شيء يكون فى قمة الحياة لن يموت قريبًا"(١) وذكّر مارسرون استعارة عمر الخيام الذى قال إن البشر أنفسهم مصنوعون من التراب، ولذا يستمتعون بأن يبدعوا أشياء من نفس المادة. وعكفت هدى حينها، بمساعدة القدير چيمس الفريد كولون، على إحياء هذا الفن القديم فى مصر بنجاح. كان حماسها لهذا المشروع هو الذى أبقى أفران الخزف التى "تُنضج" الأوانى الفخارية التى شكلتها الأيادى المصرية فى روض الفرج مشتعلة. وأخذت منتجات الورشة تُباع فى القاهرة وباريس وكذلك فى الآستانة وواشنطون ونيويورك. وقد أصبح كولون عضوًا أساسيًا فى بلاط هدى الصغير.

وكان بدراوى عاشور باشا قد أسهم لتوه فى إحياء نشاط إبداعى آخر فى مصر حين قدم ١٥٠ ألف جنيه من ماله لتمويل وإنشاء مصنع مصرى للغزل. ففى أعقاب أزمة القطن التى حدثت فى ١٩٢٧، لم تتمكن مصانع مانشستر من شراء محصول القطن المصري. وقد ساهم أيضًا بنك مصر الذى أسَّسه طلعت حرب فى تمويل مشروع المصنع، ولكن مبادرة بدراوى عاشور باشا كان لها دور محورى فى إحياء الاقتصاد المصري. وقد تحدثت عنها هدى فى ليچيبسيان قائلة: "نحن على قناعة بأن هذا الفعل الجميل من قبل هذا الوطنى العظيم سوف تتبعه مبادرات مماثلة من كافة المصريين، بلا استثناء". وأكدّت مُجددًا أن كل فرد سيرغب فى الاكتتاب فى هذا المشروع الرائع من أجل إنقاذ مصر من الوضع الاقتصادى الخطير الناجم عن التغيب التام للصناعة المحلية.

[٢] وكانت صناعة الغزل المصرية واحدة فقط من سلسلة من المشروعات التى تمكّن طلعت حرب من إطلاقها باستخدام موارد بنك مصر.

وإذا كانت التنمية تمثل أحد مجالات الاهتمام؛ فقد كان الحفاظ على الثروة الأثرية يمثل مجالاً آخر من هذه مجالات. وقد أطلقت هنربيت دوڤونسير، الفرنسية المتزوجة من بريطانى والتى كانت متخصصة فى اللغة العربية، علاوة على اتقانها الفرنسية والانجليزية، حملتها الخاصة لإنقاذ البيوت المملوكية والعثمانية فى القاهرة القديمة. وكانت المساجد وغيرها من الآثار العامة والدينية قد بقيت حتى الآن فى مأمن من التدهور، ولكن بعض المبانى الأخرى كانت معرضة للخطر. وتساءلت سيزا فى مقال استلهمته بالتأكيد من هنربيت التى كانت تحب اصطحاب أصدقائها فى جولات بأهم شوراع وأزقة القاهرة التاريخية، عن "مصير البيوت القديمة الخاصة؟". كان التطور الحديث قد بدأ بالفعل ينتشر على حساب المدينة القديمة وكانت البنايات الجديدة ذات العمارة الغربية ترتفع فى كل مكان ويتم توسيع الطرق لكى تصلح لسير السيارات ذات المحرك. وراحت الأشجار العتيقة والملامح القديمة للشوارع تختفي. وكانت حجة هنربيت تتمثل فى أن روح القاهرة تزوى تدريجياً مع فقدان بنيتها الأساسية التقليدية. لقد كانت داعية لا تكلُ لحماية الثروات المعمارية للقاهرة، رغم أن التيار كان يبدو وكأنه عصى على الإيقاف.[٣] غير أن مساندة المصريين على أوسع نطاق ممكن كانت ضرورية لإنجاز أى عمل يرمى لإنقاذ الهوية الشرقية للعاصمة.

واستحوذت الرغبة فى إنقاذ النسيج المصرى على اهتمام هدى الحماسي. لقد كانت هناك ضرورة ملحة تتمثل فى حماية مصر من عمليات النهب التى يرتكبها البريطانيون وكذلك حماية مصر من نفسها، عن طريق إقناع السلطات

بأن الواجبات المدنية ينبغى أن تكون لها الأولوية على المكاسب الخاصة. وأصبحت تلك مهمتها الجديدة. كان المطلوب هو الحفاظ على التحف المعمارية من التدمير. وبناء المستشفيات والمدارس فى الأمكنة التى تتناسب مع محيطها، وكذلك تقوية الاعتزاز بالنفس فى قلوب الشعب المصرى الذى ينبغى أن يتم إقناعه بأنه ليس كل ما هو أجنبى هو بالضرورة أفضل. لقد كانت تنمية الصناعة والفنون ذات أهمية محورية، كما كانت كذلك الكتب والمجلات التى تعزّز التواصل بين الغرب والعالم الشرقي. وهى مهام تستلزم كلها عملاً دؤوبًا وإرادة قوية من كتائب الشباب من الرجال والنساء المحيطين بهدى والمخلصين لقضيتها. وصدر عدد خاص من مجلة ليچيبسيان احتفالاً بالذكرى الثانية لصدورها.

كانت علاقة هدى بالملك فؤاد غامضة بعض الشيء. إذ منذ ١٩١٨، حين خلف شقيقه السلطان حسين كامل، شارك الملك الوطنيين رؤيتهم، على الأقل فى خطوطها العريضة، فى أن المطلوب من البريطانيين أن يرفعوا قبضتهم عن مصر. إن الدوائر العليا التى كانت تتحرك فى نطاقها عائلة هدى كانت تعنى أنها قد اعتادت منذ أيامها الأولى على التفاعل مع العائلة المالكة. وقد كانت معجبة بموقف الملك من الوطنية وكذلك بمساندته مشروع بنك مصر وقضايا خيرية كثيرة، بعضها كان قريبًا لقلبها. ومن جانب آخر، لم يكن الملك فؤاد يتمتع شخصيًا بشعبية كبيرة بين النساء بسبب عدائه المعلن للنساء. فهو لم يظهر فى العلن مع قرينته على الإطلاق. وكان يرى أن شؤون الدولة مهمة ذكورية بشكل قاطع؛ ومن المؤكد بالطبع أن الملكة لم تكن تُدعى للمشاركة فى اتخاذ القرارات.

لقد كانت هدى تواقة بالطبع إلى أن تشهد تغييرًا فى القوانين الخاصة بأوضاع المرأة فى مصر، ومن بينها ما كان يطلق عليه "بيت الطاعة"، أى حق الزوج الشرعى فى أن يسجن زوجته بالمنزل لفترة غير محدَّدة لإجبارها على

الانصياع لإرادته. وكانت هدى وصديقاتها من النسويات يضقن بشدة من لجوء الملك فؤاد نفسه مرات عديدة لهذا الحق الشرعى لمعاقبة الملكة نازلى على عدم إطاعته. وكانت الملكة تقضى الكثير من وقتها محتجزة فى القصر. وكُنّ يعتقدن أن احتجاز زوجة بمثل هذه المكانة الرفيعة بين أربعة جدران بناءً على نزوة من زوجها الغاضب أمرًا غير مقبول على الإطلاق فى ضوء أى قوانين إنسانية كما أنه كان يعطى مثالًا سيئًا فى حين أنه ينبغى على الملوك أن يلعبوا دور النموذج الذى تحتذى به شعوبهم.

وفى ١٩٢٦، أعدت لجنة العدالة بالاتحاد النسائى المصرى مشروع وثيقة تقترح إدخال تعديلات علىٰ التشريعات المصرية الخاصة بالزواج، فى ضوء الظروف الاقتصادية المتطورة للبلاد والتفكير الحديث فى حقوق المرأة. وأرسل الاتحاد النسائى المصرى مقترحاته إلى وزير الحقانية الذى رفعها من توه لعلماء الأزهر بدلًا من وضع مشروع قانون يُعرض على البرلمان. وشعرت النساء بأن الأمل ضئيل فى أن يحرز مقترحهم أى تقدم. وكان الاعتقاد السائد أن الملك شخصيًا يريد بقاء القانون المحافظ الحالى بدلًا من إدخال تعديلات تحمى النساء فى مواجهة أزواجهن. وسرت شائعة مفادها أن الملك هو الذى طلب عدم الالتفات إلى الاحتجاجات النسوية.

إلا أن النور يبرق أحيانًا من وراء الحجب. إذ حدث عام ١٩٢٦ تطور غير متوقع لقى ترحيبًا كبيرًا من الحركة النسائية فى عهد حكومة عدلى يكن باشا حين أوصت لجنة حكومية بضرورة وجود قيود على تعدد الزوجات، ووجوب أن يصدر الطلاق من المحاكم فقط، وبعد محاولات منصفة لإصلاح ذات البين بين الزوجين كما أوصت الشريعة. وأوصت اللجنة أيضًا بمد حضانة الأم للأطفال التى كانت لسن السابعة بالنسبة للذكور والتاسعة للبنات؛ بحيث تبقى البنات فى

رعاية الأم حتى سن الزواج، بينما يظل الأولاد فى رعاية الأم حتى سن البلوغ. وأخيرًا، جاء الإلغاء الذى طال انتظاره لبيت الطاعة. وقد كتب الاتحاد النسائى المصرى إلى الحكومة المصرية مؤيدًا لهذه التوصيات.(٤)

لقد كانت هدى تعرف الملكة نازلي، لأن الملكة كان يُسمح لها أحيانًا بحضور فعاليات ثقافية للنساء، رغم بقائها مكبوحة الجماح على يد الملك فؤاد. وهكذا بدأت هدى تتحدى سلوك الملك بشكل متعمد بدعوة الملكة فى كل مرة كانت تُحتجز فيها فى بيت الطاعة. وفى هذه المناسبات، كان أحد مسؤولى المراسم يستقبل هدى ويخطرها بأن الزيارات ممنوعة. غير أن الدعوة فى حد ذاتها هى ما كان يهم، لكى يصل للملك أن الآخرين فى المجتمع يرون أن فعلته غير مقبولة. إذ بغض النظر عما تكون الملكة قد فعلته ليستثير حفيظة زوجها الملكية، فقد كان السؤال هو ما الذى يمكن أن يلحق بالمصريات الأخريات إن كانت الملكة تُحتجز بهذه الطريقة. لقد كانت هدى تسأل نفسها كيف يمكن احترام النساء، وكيف يسعهن احترام أنفسهن إن كانت الملكة ذاتها تُهان بهذه القسوة وتُجْبَرعلى الطاعة بهذا الشكل؟

ثم قام الملك فؤاد، بداية من الصيف وحتى نهايات خريف ١٩٢٧، بزيارة لأوروبا بدأت فى ٢٤ يونيو وامتدت لأربعة أشهر، على متن الباخرة الملكية المحروسة. وكان الهدف المُعلن للزيارة هو تقوية علاقات مصر ومختلف دول أوروبا، علاوة على قضاء شهر فى المنتجع الصحى بڤيشى للاستشفاء. وأشارت الصحف إلى أنه سوف يسعى أثناء وجوده فى لندن إلى إيجاد حل لوضع مصر المتناقض كدولة مستقلة لم تزل من ناحية الواقع خاضعة للحماية البريطانية. وقد استاء الوطنيون لهذه المعلومات إذ يروْن أن قيامه بمثل هذه المبادرة أمر مفروغ منه من جانبه كملك دستوري، علاوة على ضرورة أن يطلع

على أحوال المجتمع الأوروبى الحديث، ومنها التعليم، وقد ذُكر تحديدًا أنه يهتم بمسألة تعليم البنات. وصرح أحمد حسنين باشا، الناطق الرسمى باسم الملك، أن لدى الملك إيمانًا راسخًا أنه مادام أن من يُعلِّم الأطفالَ هُنَّ أمهاتُهم؛ فإن أى إصلاح ينبغى أن يركِّز على الارتقاء بتعليم المرأة. ولذا كان الملك يعتزم زيارة مؤسسات تعليمية للمرأة فى أوروبا لكى يكوّن فكرة أكثر وضوحًا عن الإجراءات اللازمة لتحسين تعليم نصف المجتمع المصرى هذا.

وقد انتشت هدى حين أشار فؤاد إلى أنه يساند الارتقاء بتعليم المرأة. وطلبت نشر سلسلة من المقالات فى مجلة ليجيبسيان تأييدًا لخطته. وفى إشارة إلى الهوس بمصر القديمة الذى عزَّزه تعزيزًا شديدًا الاكتشاف الحديث لمقبرة توت عنخ آمون، تم تشبيه الملك فؤاد بالملك المصرى القديم المستنير. ورأت هدى أن المهمة التى يسعى إليها مهمة تنم عن حسن نواياه، وأنها إن أسفرت بالفعل عن الارتقاء بتعليم المرأة فى مصر فسوف تعظم بالتأكيد من إمكانيات اعتماد مصر على نفسها وتحقيق استقلالها الحقيقي. وكان الملك قد أظهر بالفعل اهتمامه بالتعليم بدعمه لجامعة القاهرة التى تبرعت لها شقيقته الأميرة فاطمة اسماعيل بمجوهراتها وأراضيها. وشعرت هدى أن الملك مؤهل على الأقل للتعامل مع قضية التعليم.

وفى الوقت الذى أبحر فيه الملك على متن المحروسة، كان وزراؤه قد استقلوا سفينة أخرى، مارييت باشا، التى غادرت الإسكندرية فى أواخر يونيو. وقد سافرت عليها أيضًا جابرييل روسو، متوجهة إلى فرنسا برفقة جياردو بيك، الذى كان عضوًا بمعهد مصر وأمينًا للجمعية الجغرافية. وكان قد أنشأ لتوه متحف بونابارت وأصدر مجلة سُمِّيت مصر، وقد كانت سعادة جابى بصحبته غامرة. كما كانت مبتهجة بوجودها على نفس الباخرة مع عدلى عبد الخالق ثروت

باشا، الذى أصبح منذ ١٦ أبريل رئيسًا للوزراء مُجدَّدًا، خلفًا ليكن باشا. وقد ضم وفد الحكومة أيضًا كلًا من سرى باشا ومدحت يكن باشا.(٥) وكان البريطانيون مازالوا على تصميمهم بعدم السماح بتشكيل حكومة وفدية أخري، وتفاديًا لأزمة أخرى قال زغلول إن الوفد سيقبل تعيين ثروت باشا رئيسًا للوزراء.

وفى ٤ يوليو، وصل الملك إلى لندن، أولى موانيء التوقف فى برنامج الرحلة. وكان فى استقباله الملك چورج الخامس، ورئيس الوزراء ستانلى بالدوين ووزير الخارجية سير أوستن تشامبرلين. وأقيمت فى نفس الليلة مأدبة عشاء فى قصر باكينجهام على شرف الملك، خرج فيها العاهل البريطانى عن قواعد البروتوكول احتفاءً بضيفه المصري.(٦)

وقد ذهب الملك أثناء زيارته إلى لندن إلى المسرح وقام بجولة فى بعض المدارس والكليات، منها ايتون، حيث كان فى استقباله لورد لويد، المفوض السامى البريطانى فى مصر، الذى كان من قدامى طلبة ايتون ومتواجدًا فى العاصمة فى عطلة. كما تفقد الجمعية الجغرافية الملكية ومستشفى الأطفال الملكى وسافر شمالًا إلى مانشستر للتعرف على جوانب متعددة لصناعة القطن. وفى ١٨ يوليو ١٩٢٧، أثناء وجوده بلندن، تم توقيع مشروع معاهدة بريطانية- مصرية تتعهد بإنهاء الاحتلال البريطانى العسكرى لمصر خلال السنوات العشر القادمة وتحويل الحماية إلى معاهدة "صداقة وتحالف". إلا أنه لم يتم الترحيب بهذه المعاهدة من قبل الوفد والوطنيين الآخرين لأنهم خشوا أن تكون مازالت هناك تحفظات بريطانية بارزة وارتابوا أيضًا فى أن تفضى المعاهدة إلى التشريع لأساس دائم لهيمنة بريطانيا القائمة فعلا على مصر. وقد غادر الملك فؤاد لندن فى ٢٦ يوليو مُبْحرًا إلى إيطاليا.

وكانت روما محطة توقفه الثانية حيث وصل إليها فى ٢ أغسطس وسط حماس جماهيرى واحتفاء شعبي. وقد لقى استقبالاً مَهيبًا من الملك ڤيكتور إيمانويل الثالث الذى أعد له برنامجًا حافلاً. واستقبله بابا الڤاتيكان يوم ٧ أغسطس. وكان الملك قد درس فى شبابه فى الأكاديمية العسكرية بتورينو، فشعر بالألفة فى إيطاليا التى كان يجيد الحديث بلغتها. وقد تناولت مباحثاته ووزرائه هناك مسألة التجارة عبر البحر المتوسط، حيث كانت إيطاليا تهتم بالسوق المصرية وكانت مصر ترغب فى تنويع شركائها التجاريين. وقام فى الأسبوع التالى بزيارة مدينة ڤينيسيا الرائعة التى أقيم فيها حفل استقبال فخم آخر على شرفه. وغادر الملك إيطاليا فى ٢٠ أغسطس للاسترخاء فى منتجع ڤيشى الصحي، فى الجزء المخصص من الرحلة لشؤونه الصحية.

ثم وصل إلى باريس بالقطار فى ٢٠ أكتوبر حيث تلقى التحية بإطلاق ٢١ طلقة من المدفعية فى مقر الرئاسة، استقبله بعدها الرئيس الفرنسى دوميرج فى اجتماع منفرد. ثم كان ضيف الشرف فى مأدبة بقصر الأليزيه. وكان هيكل باشا، الذى كان يقضى عطلة الصيف فى فرنسا بصحبة زوجته عزيزة، مدعوًا فى الحفل الكبير. وطلب هيكل من زوجته الذهاب إلى المأدبة بدون نقاب. ورغم أنها امتثلت إلا أنها كانت تشعر بالحرج ولكن الملك حيَّاها بنفسه بحفاوة عند مدخل القاعة وأوضح بذلك للعالم أن المرأة المصرية قد كسبت أخيرًا معركتها. وقد زف مجد الدين وجابى هذه الأخبار إلى هدى التى كانت مرة أخرى فى الولايات المتحدة آنذاك. وظنت حينئذٍ أن لجوء الملك إلى بيت الطاعة ربما يتم إلغاؤه قريبًا.

ولم تكن الملكة نازلى قد أبحرت مع الملك فى يونيو، ولكنها لحقت به أخيرًا فى فرنسا عقب زيارته لبريطانيا وإيطاليا. وكانت قد تلقت تعليمها فى المدارس

الفرنسية بمصر، كما كان أحد جدودها جنديًا فرنسيًا، چوزيف آنثيلم ساڤ، الذى عُرف لاحقًا باسم سليمان باشا الفرنساوي، وخدم فى جيش نابوليون وبقى بعدها فى مصر حيث ترقّى إلى رتبة الچنرال ثم رئيس الأركان. وقد نشرت الصحافة هذه المعلومات وأدى ذلك إلى الاحتفاء بها فى فرنسا حيث عمرت الصحف بمقالات تتغنى بجمالها وذكائها.

وقد قام الملك بعدة زيارات فى فرنسا من بينها إلى دار العمودية التى رافقه فيها الرئيس دوميرج ومُنح خلالها القلادة الذهبية لمدينة باريس. وقد لاحظ من قابلوه حينها أنه يتحدث الفرنسية بطلاقة بلكنة إيطالية طفيفة. وفى ٢٤ أكتوبر، حلّ الملك ضيف شرف على مأدبة عشاء أقامها رجل أعمال فرنسى له اهتمامات مصرية. وفيما بين ٢٦ و٢٨ أكتوبر قام بزيارة قصيرة إلى بلچيكا. وحينما وصل الملك إلى مصر عائدًا من رحلته فى ١٤ نوڤمبر أقيمت أقواس النصر ولقى استقبالا رائعًا.

وجرت فى وقت لاحق أحداث أخرى أثارت قلق هدى. ففى يونيو ١٩٢٧، قام الأسطول البريطانى بعمليات تدريب فى المياه المصرية بعرض الإسكندرية. وقد بعثت هدى، بصفتها رئيسة للاتحاد النسائى المصري، ببرقية احتجاج إلى التحالف الدولى للمرأة وطالبت بتدخل من عضواته فى وجه ما وصفته بعملية ترهيب لمصر بوجود الأسطول البريطانى فى مياه الإسكندرية، واعتبرته تهديدًا للسلام.[٧] غير أن التحالف صمّ أذنيه إزاء فحوى البرقية التى ربما رآها لا تدخل فى مجال اختصاصه. ونشرت هدى مقالا فى مجلة ليچيبسيان أعربت فيه عن أسفها للحلف المزعوم الذى تم إقراره سرًا فى بداية القرن بين فرنسا وانجلترا، والذى أطلقت فرنسا بمقتضاه يد انجلترا فى مصر مقابل منحها سيادة حرة فى سوريا وأماكن أخرى.[٨] وحتى ذلك الحين كانت هدى تميل إلى أن تتخذ من

فرنسا نموذجًا للدفاع عن الحرية، إلا أن هذه السمعة أصبحت تراها الآن وقد تلطخت.

وإدراكًا منه لوضعه كعضو فى عائلة شعراوي، واصل محمد القيام بواجباته العامة. وقد أصبح أصغر الأعضاء المنتخبين فى مجلس الشيوخ سنًا، وكانت هدى تعتمد دومًا على مساندته فى البرلمان وكعضو فى الاتحاد البرلمانى الدولي. لقد كان أمينًا وصريحًا وشديد الإخلاص لوطنه، ويؤمن بأن خدمته بأقصى ما يستطيع مسؤولية تقع على عاتقه، حتى وإن تطلبت الحاجة منه أن يبذل ثروته لذلك. وكان يتبرع بانتظام بمبالغ ضخمة لقضايا التعليم والصحة ويُعتبر من المساهمين الرئيسيين فى تمويل الصناعات الناشئة فى مصر من خلال استثماره فى بنك مصر.[٩] وحين كانت تنشب الحاجة للدفاع عن مصالح مصر، كان يعبر عن رأيه بلا هوادة. وكلها كانت أسباب تدعو هدى إلى الفخر بهذا الابن. ولكنها كانت تهفو بشدة لأن تراه وقد أصبح أكثر استقرارًا فى حياته الخاصة.

وفى هذه الأيام، كانت تتجادل يوميًا مع محمد عن الأسباب الداعية إلى ضرورة أن يستقر. لقد كانت تحدوها لهفة شديدة أن ترى ابنها قد تزوج ويعيش حياة هادئة ومستقرة. وقد بدا أن الحل لا زال يكمن فى اتفاقها القديم والمسكوت عنه مع فاطمة فهمى عاصم، ابنة منيرة صبري، على أن يتزوج محمد من كبرى بناتها، منيرة، حينما يبلغان سن الزواج. وكانت "ميمي"، كما كان يناديها الكل، والتى سُميت على اسم جدتها، قد كبرت وأصبحت شابة فى قمة الجمال. وكان والدها، حسين عاصم، مهندسًا تدرب فى انجلترا، وهو وسيم ولطيف، ويعمل فى تطوير مشروعات الرى التى بدأها المهندسون الأوروبيون. وكان عند زواجه من فاطمة، قد تولى إدارة أملاكها الشاسعة وكذلك أراضى شقيقها وأخواتها. وقد أصبح، عقب وفاة على فهمى باشا، وصيًا عليهم.

لقد كان الزواج من ميمى هو تحديدًا ما تنشده هدى لابنها. لم يكن مطلوبًا أن تكون العلاقة رومانسية. إنها هى ذاتها لم تعش قصة حب مع زوجها. لقد كان زواجها مسألة عملية أكثر منه أى شيء آخر، ولم يعد لديها إلا ابناها. وكانت منيرة شابة ممتلئة بالصحة ولها العديد من الإخوة، وسوف تُرزق بالتأكيد بالعديد من الأطفال، منهم ذكور يصبحون ورثة لمحمد ولثروته الهائلة. وكانت الفتاة إضافة إلى ذلك عذبة الطبع، بسيطة وغير مدّعية، وهذا ما يحقق توازنًا مع شخصية محمد المتقلبة. ولكن ما لم تكن تدركه هدى هو أن محمدًا ليس مستعدًا لحياة هادئة فى كنف زوجة والعديد من الأطفال حوله. وحتى إن استشعرت هذا؛ فإنها لم تكن مستعدة لتقبل عزوف ابنها عن الاقتران بقريبة أمه الجميلة. إلا أن الجانب التراجيدى فى الأمر هو أنها قد أخفقت أيضًا فى أن تدرك أن ميمى كانت مستعدة لفعل أى شيء فى العالم لئلا تتزوج بمحمد، وأنها كانت تتوسل لأمها ليل نهار أن تُنَحى الفكرة جانبًا وتتركها لحالها.

وانتصرت هدى بعدها بقليل. وتزوج الاثنان رغم ممانعة الطرفين، وعدم التفات هدى إلى أن موافقة محمد لم تأت فى نهاية المطاف إلا فى أعقاب مواجهة هادرة مع نفسه ومع أمه، تركته مهزوزًا ومنزعجًا. ومع ذلك، فقد قرّرت أنه من مصلحته قضاء عامين بالخارج قبل الزواج. وبمعاونة محمود سامي، المُكلف بتشكيل الفريق الدبلوماسى فى السفارة المصرية بلندن، تم ضمه إلى طاقم البعثة هناك. وكانت هدى على ثقة بأن هذا المنصب سوف يصوغ شخصية محمد ويجعله أقوى. علاوة على أنها قد لاحظت ما كان يجنيه الشباب الذين أرسلتهم للدراسة بالخارج من فوائد، وكيف أكسبتهم سنوات الدراسة بعيدًا عن الوطن المزيد من النضج. واعتقدت أن الحياة بمفرده لبعض الوقت سوف تمنح محمد ثقة بالنفس ويصبح بعدها مثل أبيه رجلًا قويًا قادرًا على أن يكون رب عائلة.

وراحت بينها وبين نفسها تقارن بين محمد وبناتها، "المتطوعات"، وهى تراهن بكل فخر يتركن المنزل كل أسبوع حاملات حقائبهن الصغيرة لتوزيع السكر والأرز والصابون ومنتجات أخرى على الفقراء، وتنتظر عودتهن كل مرة بلهفة لمعرفة الأخبار التى يحملنها عن الحالة الصحية للناس وتقاريرهن عن نقص المياه الصالحة للشرب وعن الشوارع المغطاة بالطين وغيرها من المشكلات. وبناء على تلك المعلومات كان يتم إعداد قوائم بأعمال الإصلاح المطلوبة والخطط التى تُقدم للحكومة. لقد كانت البنات تتمتعن بالجدية وقوة الإرادة لأنهن كن على اتصال بواقع الحياة.

وفى أثناء وجود هدى فى الولايات المتحدة فى ١٩٢٧، وقعت مأساة وطنية هزت مصر بأسرها، تمثلت فى الوفاة المفاجئة لسعد زغلول فى ٢٣ أغسطس. كانت هدى آنذاك فى واشنطون تُعد لمعرض للخزف هناك وفى نيويورك. وألمحت الصحافة المصرية إلى أن الملك فؤاد، الذى مازال يستمتع بحمامات المياه فى منتجع ڤيشي، لم ينزعج بالمرة من الخبر. وبحكم أن محمود سامى باشا كان السفير المصرى فى الولايات المتحدة فقد علم على الفور، وبدوره نقل الأخبار إلى هدي، التى علمت بأن زغلول أصيب بارتفاع حاد فى الحرارة، بسبب نوبة التهاب وحُمرة بالأذن، لم يتمكن من مقاومتها.[١٠] ويبدو أنه شعر منذ لحظة مرضه بعدم جدوى المقاومة فاستسلم للرحيل دون أدنى إشارة تدل على الجزع. وقد أخذ يُردِّد وهو يحتضر، أمام كل محاولات مداواته "مفيش فايدة". وقد عم الحداد البلاد على رحيل زغلول. وراحت هدى تحاول الاعتياد على فكرة أن زغلول لم يعد موجودًا. إلا أن ذلك كان صعبًا عليها. بل بدا كما لو أنه كان موجودًا طول حياتها، مُشْرفًا على المشهد السياسى المصري. لقد جعلته هيئته الصلبة وأسلوبه الخشن وصوته القوى يبدو، رغم كبر السن، وكأنه

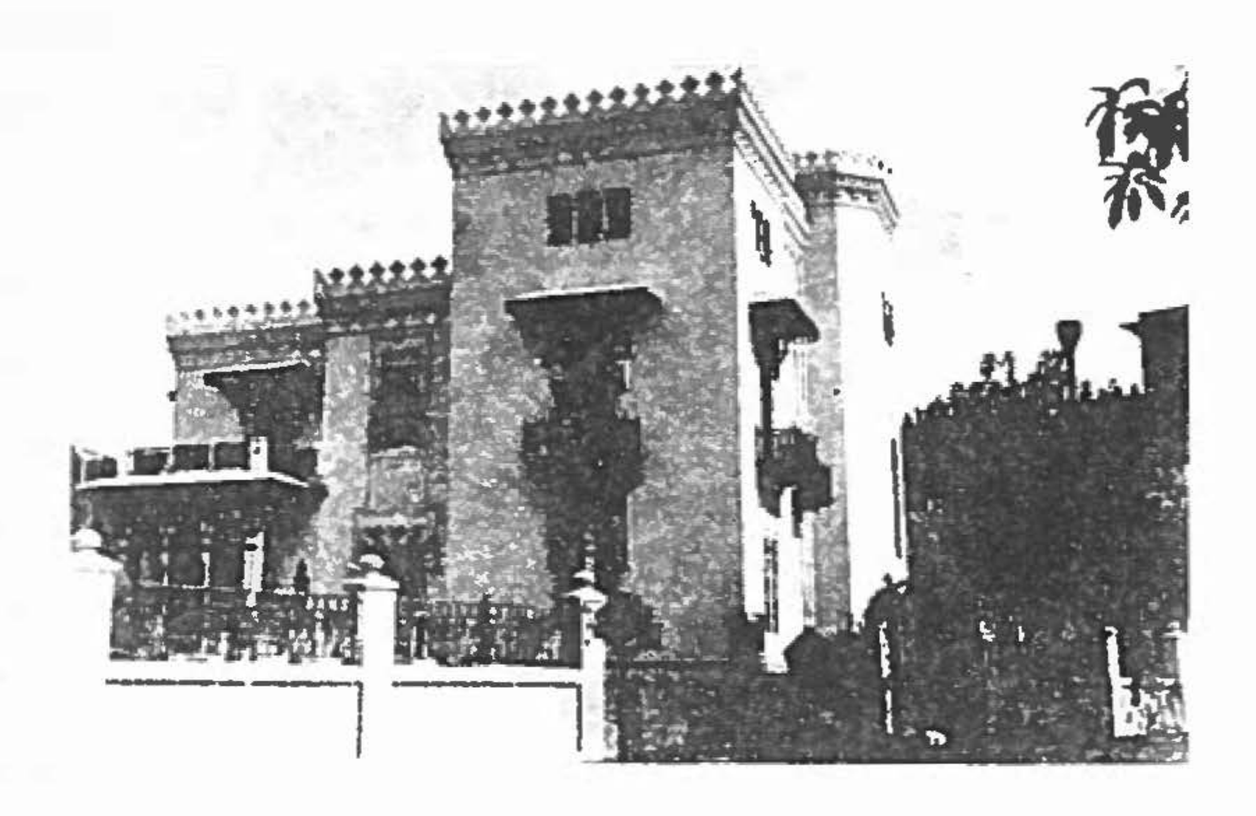
أبدي. بل إن حكمته السياسية التى أثبتها مؤخرًا بقبوله بمبدأ تشكيل ائتلاف جامع للأحزاب زادت من وقع صدمة فقده. لقد برهن على قوة الشكيمة كرئيس للوزراء، بل إن صلابته وقوته قد عظُمت مع رئاسته للبرلمان وتحوّلت إلى قدرة غير عادية على التحاور مع المسؤولين البريطانيين. وفى غيابه، فى هذه اللحظة من تاريخ مصر، ربما تنجرف سفينة البلاد الهشة، إلى مياه خطرة. ها هو ، بعد كل الجهد الذى بذله، وبعد كل هذه الصراعات، وبعد أن وجد زغلول فى النهاية الدور الذى يناسبه واكتسب النضج اللازم لتأديته، ها هو يُفتقد بقسوة.

وفى القاهرة، واصلت سيزا فى غياب هدى إصدار المجلة ومارست بلاغتها وحسها اللاذع وأعلنت أن أقواس النصر قد أقيمت انتظارًا لعودة الملك، الذى أطلقت عليه "فؤاد الفاتح"، الذى سيرجع بأفكار مبتكرة لتلبية احتياجات بلاده. وأضافت بكلمات ملؤها التساؤل "إن الزمن كفيل ببيان صحة ذلك".

ومرة أخرى تشابكت السياسة والحياة الخاصة لهدى بقوة. فهى تعتقد أن السياسة تجعل الحياة أكثر إثارة وتقضى على ملل وسخف الحياة اليومية. لقد أصبح منزلها الواقع فى ٢ شارع قصر النيل مركز تنسيق للكثير من الأنشطة التى تشغل الوقت، وكان المجتمع الصغير الذى يتحرك فيه وحوله منشغلاً تمامًا فى مهامه المتعددة.

لقد حقق معرض الخزف فى واشنطون ونيويورك نجاحًا ساحقًا. وبيعت منتجاته على نطاق واسع وتم جمع أموال وفيرة لأنشطة هدى الخيرية. والتقت مجددًا بكارى تشابمان كات وبحثت عن تشارلز كرين. وأرجأت عودتها من الولايات المتحدة حتى نهاية الخريف لاعتزامها حضور اجتماعات لجنة السلام التابعة للتحالف الدولى للمرأة التى كانت مقررة فى المعهد الكولونيالى بأمستردام فيما بين ١٧ و١٩ نوفمبر ١٩٢٧، بالتزامن مع انعقاد عصبة الأمم.

وكان المزاج العام مواتيًا للحديث عن السلام فى هذه السنوات المتوترة ما بين الحربين. ففى ١٩ سبتمبر على سبيل المثال، تظاهر ٨٠.٠٠٠ شخص فى شوارع مدينة لاهاى الهولندية، مقر البرلمان الهولندي، داعين للسلام. وقد تمسكت هدى بحضور مؤتمر أمستردام لكونها المصرية الوحيدة المشاركة فيه.



بيت المرأة المصرية

كانت تحرص على انتهاز فرصة أى ملتقى دولى لتذكير الكثيرين بالظلم الفريد الذى لا زال واقعًا على مصر فى شكل قوانين الامتيازات الأجنبية. وكانت المحامية أوديت سيمون قد وعدتها بالمساعدة، كما أكدت لها عضوة الرايخستاج (البرلمان) الألمانى آديل شرايبر كريجر مساندتها. ولم يثبط البرد الهولندى فى نوفمبر من عزيمتها على خدمة قضايا العدل والسلام ونزع السلاح. وكانت أيضًا تشابمان كات عازمة على الحضور رغم صحتها المتردية، مما زاد من تمسك هدى بالمشاركة، خاصة أنه كان لا بد لها من أن تتوقف فى أوروبا على أية حال

للراحة عدة أيام، فى طريق عودتها إلى مصر. وبالتالى كان المؤتمر فرصة لقطع الرحلة الطويلة بشيء مفيد. علاوة على أن ذلك سيمنحها الفرصة للتعرف بشكل أكبر على روزا مانوس، الناشطة الهولندية التى كانت قد انتُخبت حديثًا لمنصب الأمين العام للجنة السلام التابعة للتحالف الدولى للمرأة.(١١)

وقد أثبت المؤتمر فعالية ضخمة فى التركيز على مساندة المرأة للسلام ونزع السلاح. إلا أنه حين أرادت هدى الدعوة إلى إلغاء قوانين الامتيازات الأجنبية فى مصر، لم تلق استجابة كبيرة.(١٢) وطُلب منها أن تقدم عوضًا عن ذلك تقريرًا عما وُصف بالـ"قضية غير واضحة المعالم" إلى لجنة خاصة لمزيد من المعلومات. وقد استولت القضية على عقل هدى، إلا أنها قد تكون عجزت عن رؤية أن القضية ليست بالموضوع المحورى بالنسبة لنساء مشغولات بالسلام بشكل رئيسي. إلا أن هذا لم يحُل دون نشر سيزا تنديدًا فى لجيبسيان بموقف التحالف الدولى للمرأة. وكتبت سيزا تقول: "فى الوقت الذى لا تأنف فيه لجنة التحالف الدولى للمرأة من مطالبة هدى وزميلاتها المساعدة فى جمع التبرعات، يتضح أنها ليست على استعداد لمساندة صديقاتها المصريات فى قضية مصيرية مثل إلغاء المعاهدات الظالمة التى تُبقى على هذه الامتيازات. وتابعت أن هذا الموقف غير عادل وغير متسق. وأُعْجبت هدى بجهود سيزا ولكنها أدركت أن عليها توخى الحذر وانتظار اللحظة الملائمة لإنهاء تلك القوانين.

وفى تطور آخر فى ١٩٢٧، منح محمد محمود باشا، وزير المالية المصري، ثلاث قطع من الأرض فى شارع القصر العينى للاتحاد النسائى المصرى من أجل توسيع مقره.(١٣) وقد مكنت المواقع الجديدة من بناء حضانة أطفال وناد دائم. وبالمصادفة قرَّرت أيضًا الحكومة إنشاء كونسرڤاتوار للموسيقى فى مصر. وقد كان لهذا الخبر وقع مثير على هدى، العاشقة للموسيقي. فقد كان

رأيها أن الموسيقى من شأنها بلا أدنى شك استكمال الجهود المبذولة فى مجال الفنون الأخرى والإسهام فى تطوير روح الثقافة الإنسانية فى البلاد وفى العالم.

وكانت هدى قبل الإبحار فى رحلتها للولايات المتحدة فى صيف ١٩٢٧ قد قامت بزيارة لقبر عديلة نبراوي، أم سيزا بالتبني. إذ كانت عديلة إحدى أقرب صديقتين لهدى منذ أيام شبابها العجيبة، خلال فترة زواجها المعلق من على شعراوي، حين تمكنت من تكريس سنوات مراهقتها للتحول إلى شابة ناضجة بدلًا من لعب دور الزوجة الطفلة. وفى خريف ١٩٢٧، ذكرتها سيزا بتلك الزيارة عندما أرسلت لها الأخبار القادمة من سوريا تعلن وفاة صبحى النبراوي، زوج عديلة السابق. وقد وصفته جريدة الأهرام المصرية حينها بالعالم المصرى الكبير الذى كان أيضًا عضوًا بلجنة التعليم العام اللبنانية. وقد حضر جنازته وزير التعليم اللبنانى وشخصيات أخرى بارزة. وقد انزعجت سيزا لهذه المعلومات[١٤] فقد كان النبراوى بالنسبة لها رجلًا اتصف بعدم الأمانة طيلة حياته، وقد عاش ما يقرب من ربع قرن بعد وفاة عديلة. ورأت أنه شخص لا قيمة له ولا يستحق موجة الثناء والإشادة التى انطلقت بعد وفاته. كان حزن سيزا وهدى على رحيل عديلة لا زال حيًا ومتجددًا فى استرجاعهما للماضي.

بعد وفاة زغلول، كان من الضرورى اختيار زعيم آخر لحزب الوفد. وفى ٢٦ سبتمبر انتخب أعضاء الحزب مصطفى النحاس الذى كان ذراع زغلول اليمنى وسكرتيرًا للحزب. وقد أعلن النحاس فورًا معارضته الراسخة لرئيس الوزراء الحالي، ثروت، رغم تعهد زغلول، باسم الوفد ألا يكونوا معادين له. وهاجم النحاس ثروت بعنف بسبب مباحثاته مع أوستن تشامبرلين، وزير الخارجية البريطاني، أثناء زيارته إلى لندن بصحبة الملك فؤاد، والتى أسفرت عن مشروع اتفاقية تتحول الحماية البريطانية بموجبها خلال عشر سنوات إلى معاهدة

تحالف وصداقة. وكان الوفد ووطنيون آخرون قد ذكروا آنذاك أنهم ينظرون إلى هذه الاتفاقية بوصفها ستفضى إلى الاستمرار القانونى للحماية البريطانية. وقد قادت هذه المواجهة إلى استقالة ثروت فى ٢٨ مارس ١٩٢٨. وكان ناتج هذا أن أصبح النحاس باشا رئيس الوزراء، وعاد الوفد للسلطة، مما أغضب اللورد لويد. إلا أنه لم يكن لدى البريطانيين الكثير ليفعلوه لمنع ذلك؛ إذ بدت الإدارة السياسية المصرية، التى كانت تساير فى الماضى أهواء البريطانيين، غير قادرة أو راغبة فى الوصول إلى أى بديل قابل للبقاء هذه المرة.

ومع ذلك، فما كان لهذا أن يستمر طويلاً. إذ قد وجد الملك فى ٢٥ يونيو ١٩٢٨ ذريعة لإقصاء النحاس الذى خلفه محمد محمود. وفى ١٩ يوليو، قام بحل البرلمان ووقف الانتخابات لثلاث سنوات. وحُكمت البلاد بالمراسيم الملكية. ثم جاء الأسوأ فى أكتوبر مع وقف العمل بدستور ١٩٢٣، واقتراح ترتيبات أخرى تُستأنف بها الإجراءات الانتخابية الغريبة بتصويت غير مباشر يتولى فيه انتخاب الأعضاء أفراد يتم انتقائهم بعناية من بين قاعدة الناخبين ككل.

كان اليأس قد تملك من هدى ازاء هذه الاعتداءات على المسيرة الديمقراطية. ولذلك بدلاً من الاستغراق فى السياسة، ركّزت اهتمامها على أعمالها الخيرية، وزاد ذلك من انشغالها. وكانت التبرعات تُجْمَع فى السوق السنوية للاتحاد النسائى المصرى لبدء بناء مدرسة البنات الجديدة المخطط لها. وحضر أكثر من ثلاثة آلاف شخص سوقاً أقيمت فى منزل قدّمه لهذه المناسبة أمراء الشام من آل لطف الله. وعُرضت منتجات كافة الورش للبيع، إلى جانب خزف روض الفرج وسجاد ورش الاتحاد النسائى المصرى وأشغال النسيج اليدوي. كما بيعت لوحات تبرع بها "أصدقاء الفن" وجمعية "لا شيمار"، وشدا عبد الوهاب وأم كلثوم بأغنياتهما الأخيرة. وقدّمت فتيات هدى كالعادة اسكتشاتهن الحية

الجميلة. وحققت السوق مثل المعتاد عوائد كبيرة وُجِّهت للإنفاق على المدارس وغيرها من المشروعات الأخرى.[١٢]

وكان منزل هدى الذى بناه على والواقع فى ٢ شارع قصر النيل قد أصبح له دوره الخاص فى حياة هدى الاجتماعية والسياسية. وقد قرَّرت إعطائه وجهًا جديدًا، مستلهمة فى ذلك صالون تشارلز كرين الشرقي، لكى يكون متوائمًا مع الغرض منه على أفضل نحو. كان مطلوبًا أن يتناسب مع كونه مقرًا لجريدة هدى والحركة الاجتماعية التى تمثلها وأن يكون جديرًا باسم "بيت المصرية" الذى كان يطلقه عليه الكثيرون بالفعل. وكان المطلوب أن يصبح شرقيًا فى مظهره بينما تتصالح الطرز الغربية والشرقية معًا. فى حين أنه كان حتى ذلك الوقت محتفظًا بطراز الليبرتى الذى كان سائدًا فى مصر فى هذه الحقبة. وخطر لهدى أن الزوار الأجانب لا بد وأنهم ينتظرون رؤية ديكور ذى طابع مصري. واختارت المعمارى الإيطالى الشهير انتونيو لاشياك الذى كان شقيقها عمر قد كلفه ببناء "سلاملك"، مكان إقامته فى حديقة البيت العائلى لسلطان باشا بشارع جامع شركس. وكان قد صمم العديد من المبانى فى القاهرة وبدا أنه الشخص الأنسب لهذه المهمة.

وقد شجعها على الشروع فى هذا التحويل وعد محمود سامى باشا وبُثنة بمساعدتها لدى العودة من واشنطون فى نهاية انتدابه هناك. وقد كان عونهما فى الإشراف على العمل لا يقدر بثمن، نظرًا لما كان دومًا لدى هدى لتفعله. وقد كان المطلوب أن يصبح المنزل رمزًا لحرية التعبير والعدالة، ليس فقط فى مصر، وإنما فى العالم أجمع، وشعارًا للتفاهم بين الشرق والغرب. لقد كانت تسعى لاستخدامه من أجل تعزيز العلاقات بين أصحاب النوايا الطيبة من الأشخاص فى الشرق والغرب. وكان لاشياك مُكلفًا بتحويل المنزل من الطراز

الليبرتى إلى العربى التراثي، من خلال التجديد الكامل للواجهة وكذلك الشرفة والبلكونات باستخدام عناصر العمارة العربية القاهرية، والإفادة من الأشغال الخشبية المنحوتة والحصون والأعمدة الصغيرة والمقرنصات، الحاضرة فى منزل مشيل دو زغيب الشهير الملاصق. وسوف يشبه كثيرًا منزل عائلة سلطان فى شارع جامع شركس، بحيث يشعر الزوار الذين سيتوافدون مساء كل ثلاثاء على هذا المكان الغنى بالإيحاءات أنهم قد غاصوا فى عوالم "ألف ليلة وليلة". لقد كانت هدى تأمل أن يصبح المنزل المجدّد مصدر إلهام وباعثًا على الإبداع والفكر.

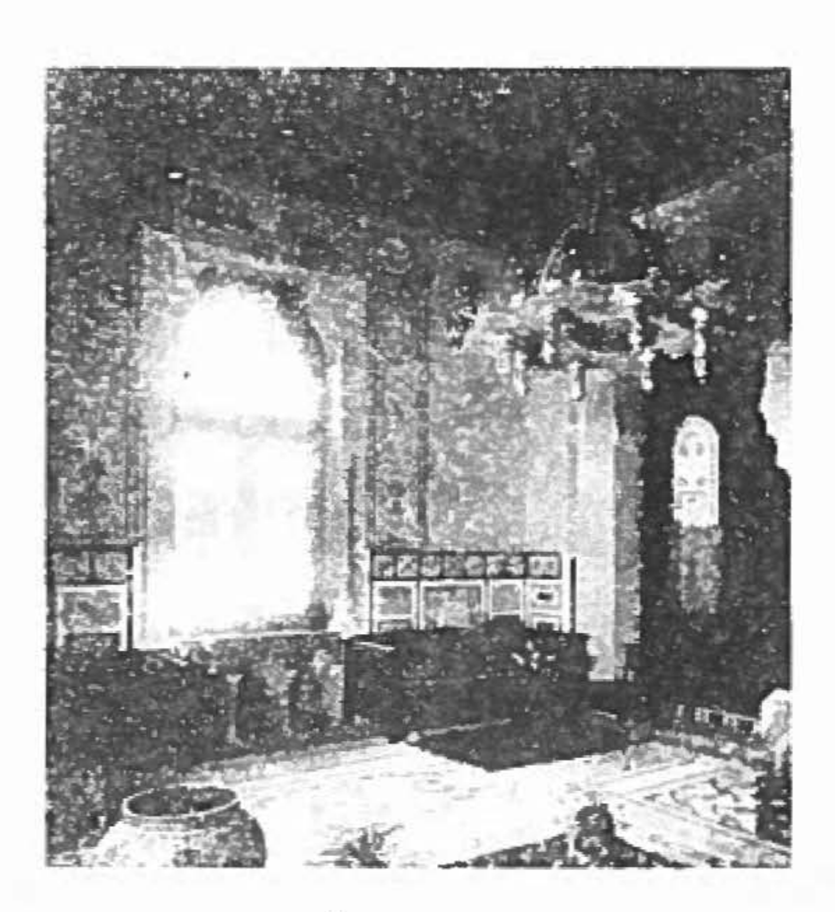
وتم اختيار مشغولات الخشب للأسقف والأبواب وسواتر النوافذ. وقد عثرت هدى على أسقف خشبية سورية مرسومة فى إبدع الصور التقليدية، وأيضًا على أبواب خشبية منحوتة بالعاج وأرضيات خشبية بالإضافة إلى شمعدانات ضخمة من النحاس وأعمدة وأرضيات ونوافير من الرخام والسيراميك التركي. وكانت هذه نقطة البداية لطراز شرقى شخصى الطابع. وقد أضيف إلى ذلك صالون جديد كامل فى الدور الأرضي، مُلاصقًا لقاعة الطعام ومفتوحًا عليها. وقد اتصل الصالون الشرقى الشهير، كما أصبح معروفًا، بصالون آخر صُمّم على الطراز الغربي. وكانا يرمزان سويًا إلى مجلة ليجيبسيان وهدفها لأن تكون جسرًا للسلام بين الشرق والغرب، مثل قناة السويس: "حلقة وصل بين الشرق والغرب". وسوف تعقد هدى فى هذا المكان العديد من الاجتماعات المحورية.

وكانت هناك نافورة فى وسط الصالون الشرقي، حيث يتدفق الماء من حجر قديم منحوت فى وسطها وبه أربع عيون تلتقى بأربع عيون أخرى قادمة من الأركان من أفواه تماثيل صغيرة لضفادع وحيوانات أسطورية. وقد صُنعت أرضية قاعة الجلوس من الفُسيْفساء الرخامية الملونة. وكانت الأرائك والوسائد

تمتد أسفل الجدران. وهناك نافذتان من الزجاج الملون وأربعة أعمدة وردية من المرمر تُقسِّم البهو إلى ثلاثة أركان بدون التأثير على فضائه المفتوح. وكان أحد الجانبين تؤطره نوافذ واسعة تطل على الحديقة فى الخارج. فى حين ينفصل الجانب الآخر عما أصبح الصالون الأوروبى الملاصق بباب مصنوع من أربعة ألواح مغطاة بالمرايا المثبتة إلى الخشب بمسامير ضخمة من النحاس ويمكن رؤيتها من داخل الصالون الغربي، وكذلك باب الجانب العربى المصنوع من الخشب الفارسى المشغول والمزين بالأرابيسك العاجى والمُنمْنَمَات الصَّدفية المفحوتة. وقد تدلت ثُريا ضخمة من النحاس من منتصف السقف الخشبى المشغول على شكل خلية نحل مُطعَّمة بالمصابيح الصغيرة.

وكان تباين الأرضية الخشبية الأنيقة للصالون الأوروبى واضحًا مع الأرابيسك الدقيق للبلاط الرخامى فى الصالون الشرقي. كان ديكور الأول مصنوعًا وفق الطراز الغربى الأصيل، مع الأرائك والمقاعد المُزْخَرَفة من حقبة لويس الخامس عشر، إضافة إلى جهاز بيانو بديع من الخشب الخفيف وسجاد كبير نُسج خصيصًا لملائمة الفضاءات الواسعة فى قاعة الجلوس المزدوجة، والتى قُسِّمت بالعواميد، على غرار الصالون الآخر، إلى جناحين منفصلين. وقد عُلقت اللوحات والمُطرّزات على الجدران. كان الصالونان يُكمِّلان أحدهما الآخر، والغرض من كليهما هو توفير محيط لطيف لاحتياجات اليوم والحالة المزاجية السائدة. وكان الانتقال بينهما شاهدًا على بساطة التجول بين ثقافة وأخري، وكيف يمكنه إثراء الروح وتغذيتها. كان انتقالا يحمل إحساسًا بالمغامرة، كما لو أن المرء قد انتقل من عالم إلى آخر، ويبرهن على كيفية التوفيق بين الاختلافات وخلق تناغم بين العالمين.

وقد قسّم لاشياك بقية المنزل بين الطرازين الشرقى والغربي. وساد الطراز الشرقى فى المدخل والبهو الفسيح، بما فى ذلك الألواح المرسومة والمُعلّقة فى السقف، وقطع السجاد الممتدة والصناديق النحاسية الضخمة والأرائك المغطاة بالمُطرّزات والوسائد التى تكاد تفوح منها رائحة "ألف ليلة وليلة". وعلى الجانب الآخر، كان بقاعة الطعام منضدة طويلة وكراسى ودواليب من أجمل طراز إيطالى للقرن السادس عشر، بما فى ذلك الخزائن المغلقة والزجاجية لعرض الخزفيات والمزينة بالخشب المنحوت. حتى غرف النوم تم تأثيثها بشكل مختلف، حسب الذوق الأوروبى فى الطابق الأول والشرقى فى الثاني، وشملت الأسقف الخشبية والمدفآت المغطاة بالسيراميك وقطع الأثاث الخشبية والأسرة المُطعمة بالصدف والعاج، على غرار جميع الأبواب بالمنزل. وكانت سواتر النوافذ جميعها من المشربيات المصنوعة يدويًا للتماشى مع واجهة المنزل الشرقية الطراز.



الصالون الشرقي

واستمر ضيوف هدى يتوافدون على المنزل كل ثلاثاء بانتظام. لقد ظل الجميع على صلة وثيقة بها، من الأحرار الدستوريين والشعراء والفنانين المحيطين بها، إلى الزوار الأجانب وعائلتها الممتدة وأصدقائها. وكان الأمير محمد على توفيق، شقيق الملك فؤاد، الذى كان يحيطها باهتمام كبير ضيفًا دؤوبًا، وكثيرًا ما يحضر أمسياتها. إضافة إلى الشاعر خليل مطران الذى وصف لاحقًا منزلها فى قصيدة أهداها إليها وإلى زميلاتها النسويات.

وواصلت هدى كتابة فيض من المقالات لمجلة ليچيبسيان حتى وهى بعيدة عن الوطن. وفى ٢٧ أغسطس ١٩٢٨، تم توقيع اتفاقية دولية مهمة للسلام فى باريس، تمثلت فى معاهدة كيللوج- بريان التى وقعت عليها ١٥ دولة وألزمت أطرافها بالتخلى التام عن الحرب، على أمل أن تحذو كافة الدول حذوهم.[١٦] وكان أريستيد بريان، وزير خارجية فرنسا حينها، صاحب فكرة المعاهدة التى تبناها ودعا إليها فرانك كيللوج نائب وزير الخارجية الأمريكي. وحين كتبت هدى عن المعاهدة فى المجلة، انتهزت الفرصة لطرح طلب مصر الانضمام إلى عصبة الأمم وقالت فى هذا الصدد إن مصر نقطة التقاء ثلاث قارات وهى بالتالى بلد محورى ينبغى احترام حيادها لأسباب ليس أقلها دورها فى تاريخ الحضارة الذى يشهد على قدرتها على دعم السلام.

وفى ٢٥ سبتمبر ١٩٢٨، توفى ثروت باشا فى باريس، بعد وقت قصير من تركه منصبه، وشُيِّعت جنازته هناك. وقد كتبت هدى فى رثائه الذى نشر فى لجيبسيان ما يعنى أنه بعد أن تخلص من هموم المنصب، قد عاد إلى محبوبته فرنسا. وقد استدعت صورة لثروت وهو يسير بهمة على شاطيء نهر السين، يتطلع إلى الكتب المعروضة فى الأكشاك ويتحدث ويتضاحك مع من يرافقه[١٧] وقد تولى سى قدور بن غبريت، الكاتب المغربى والمسؤول الكبير الذى كان

عميدًا لمسجد باريس، تنظيم موكب الجنازة الذى انطلق من المسجد وحضره مصريون جاءوا من كافة أنحاء فرنسا وأوروبا لمرافقة ثروت باشا فى جولته الأخيرة بشوارع العاصمة الفرنسية. كما رافق الموكب أفراد عائلة عبد الخالق باشا ثروت وممثلون للحكومة الفرنسية وسفير بريطانيا فى باريس والعديد من أصدقاء ثروت وقدامى رفاقه السياسيين. وفى مقال آخر، بكت هدى وفاة ثروت المفاجئة وتذكرت أعماله الشجاعة وإنجازاته فى الحكم قائلة: "كان رجلًا عمل بقوة لإعادة السلام". ولم تشارك بنفسها فى الجنازة لأن تواجد النساء بها كان غير مألوف، ولكنها أمضت وقتًا طويلاً فى صحبة أرملته ساعية للتخفيف عنها. لقد كانت معجبة بثروت وتقدر إنجازاته فى مباحثات السلام مع البريطانيين وأملت أن يحصل بعد وفاته على التقدير الذى كان يستحقه كرجل دولة فى حياته.

- ٨ -

قضية سوريا الكبرى

كانت هدى أقل حماسًا فى نضالها فيما يتعلق ببعض قضايا المساواة بين الجنسين مما هى بالنسبة لقضايا أخرى. وكان الكاتب سلامة موسى قد حثها، عام ١٩٢٨، على الدعوة إلى المطالبة بالمساواة فى الميراث بين النوعين. إلا أنها ردًا على ذلك نشرت مقالاً فى ليچيبسيان قالت فيه إن العضوات الأخريات فى الاتحاد النسائى المصرى لم يكلفنها بطرح هذه القضية وإن هذه القضية، فى رأيها، لا ينبغى لها أصلاً أن تُثار.[١] وقد كان السبب فى اعتراضها على الفكرة هو أن النساء المصريات غير قادرات على كسب قوتهن وقوت أولادهن بأنفسهن، وهو ما ينتج عنه احتياجهن للاعتماد على رجالهن فى الضرورات المادية للحياة. ولهذا السبب، فإنها لم تعترض قط على حكمة الشريعة فى منحها الرجال ضعف نصيب النساء فى الميراث. يضاف إلى ذلك أنها كانت ترى أن آيات القرآن الخاصة بقضية الحجاب وتعدد الزوجات تفتح الباب لتفسيرات بديلة وأن ذلك لا ينطبق على مسألة الميراث التى جاءت قواعدها واضحة.

وفى ١٩٢٩، دعا سلامة موسي، وهو مسيحى قبطي، هدى إلى إلقاء محاضرة عن الإسلام والمرأة فى جمعية الشبان المسيحيين بالقاهرة. وأكدت

خلالها هدى مجددًا إيمانها بالقيم الأساسية للإسلام وذكرت أنه إذا ما تم الاعتراض على قواعد الميراث فقد يكون ناتج هذا هو أن يتخلى الأزواج عن التزاماتهم حيال زوجاتهم وأبنائهم. وأن هذا بدوره ربما يؤدى بالنساء الأكثر فقرًا من المحرومات من أى ثروة أو ميراث إلى مصير أكثر سوءً. وأشارت من ناحية أخرى إلى أنه لا ينبغى أن نغفل أن النساء فى البلاد الإسلامية أفضل حالًا فى بعض الجوانب من شقيقاتهن فى الغرب. إذ على الرغم من أن النساء المسلمات لا يجوز لهن أن يمنحن إلا نصف ما يمنح لإخوانهم الذكور فحسب، فإن الكثيرات من النساء الغربيات كُنّ حتى ١٨٨٣، مجبرات بحكم القانون على تسليم ممتلكاتهن وأموالهن إلى أزواجهن. وقد نشرت هذه الآراء فى مقال بـ لجيبسيان.[٢]

لقد كانت هدى تتبنى منظورًا يرى أنه يمكن توسيع نطاق الحقوق المدنية داخل سياق إسلامى من خلال مناقشة القضايا مع العلماء والمُشرِّعين الإسلاميين. فإذا تناولنا قضية تعدد الزوجات على سبيل المثال، نلاحظ أن الآية التى أجازت التعدد تشترط أن يحب الزوج زوجاته الأربع بالقدر ذاته وأن يعاملهن معاملة متساوية، مضيفة "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة" (النساء: ٣). ويمكن أن يفهم هذا على أنه تعبير عن رغبة الله فى تحجيم الحقوق التى منحتها الجملة السابقة فى الآية أو نفيها تمامًا. وكانت تؤمن بإمكانية تعديل تفسير آيات تبدو وكأنها تصرح باستخدام ثروات الوقف للحيلولة دون حصول البنات على حقهن فى الميراث، وكذلك فى إيجاد مبرر شرعى لمنح النساء الحق فى التعليم والعمل والمشاركة فى الحياة السياسية. وفى الوقت الذى يتعسر فيه إعادة التفسير فى بعض المجالات، فان إعادة صياغة القانون الخاص بالزواج والطلاق وحضانة الأطفال واستخدام بيت الطاعة جائزة ويمكن كما قالت "أن ترتقى بسعادة ورفاهة العائلة ككل".

وقد كان كل هذا متوافقًا مع آرائها بالنسبة للنقاب. لقد بادرت بكشف وجهها فى حركة درامية ذاعت شهرتها لأنه لم تكن هناك ولو آية قرآنية واحدة تنص على وجوب تغطية النساء لوجوههن، رغم تأكيد البعض أن هذا التقليد ينطبق تحديدًا على زوجات النبى محمد. بينما لم يكن هناك مجال يسمح بحرية تحرك مماثلة فى الآيات الخاصة بالميراث، وبالتالى فإن العلماء سوف يرون أى محاولة لإعادة تفسير قوانين الشريعة فى هذا الصدد غير مقبولة وتمثل تحديًا للإسلام.

كان الأمير عمر طوسون رجلاً ذا ثقافة وعلم ووطنيًا متحمسًا، ولكنه كان محافظًا للغاية فيما يتصل بالمسائل الدينية. وقد بعث برسالة إلى هدى تعقيبًا على مقالها فى "ليجيبسيان" عن هذه القضايا:

"قرأنا المقال الحكيم المنشور فى جريدة الأهرام الغراء تحت عنوان "نصيب المرأة فى الميراث"، فسرنا أن تكون الحكمة رائد عصمتك فيما توخيته من نهضة المرأة المصرية والعمل على رقيها مع الاحتفاظ بالشرائع الإلهية والصالح من عاداتنا وأخلاقنا ومميزاتنا القومية كأمة لها كيان بمقوماتها ومشخصاتها. فهذه هى طريق الإصلاح النافع وسبيل النهضة الصحيحة.

أما الدعوة إلى إطراح قوميتنا والانفصال شيئًا فشيئًا عن أصول ديانتنا، تلك الدعوة التى يدعو إليها الآن نفر منا رأوا الشقة بيننا وبين الغربيين بعيدة، فأرادوا بحسن قصد فيما نظن أن يعلوا بنا إليهم من طريق الطفرة، وحسبوا من استحكام حلقات التأخر وتغلغله فينا أن ليس لنا نجاة إلا بتحطيم ما نحن عليه من خلق وعادات ودين، فتلك دعوة خطرة المغبة، سيرون بأعينهم قريبًا من عملوا بها قد ضلوا الطريق وأصبحوا حيارى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء."[٣]

وقد أكدت هذه الرسالة قناعة هدى بأن الطريق الوحيد للتغيير فى مصر يكمن فى الإصلاح التدريجى وليس الثورة، وأن مصر سوف تجد فى تقاليد وعادات العالم الإسلامى ما يلهمها. وأنه ينبغى الاعتزاز بالفن والعمارة الإسلامية والمقاربة الصوفية للدين وكل خواص الحضارة الإسلامية الثرية والعريقة واستغلالها والارتقاء بها. وانطلاقًا من ذلك طلبت من سيزا كتابة مقال عن قصر الأمير محمد على توفيق بجزيرة الروضة، بقلب القاهرة، يدعو المصرين إلى "بناء البيوت الأنيقة والمبتكرة على طراز البلاد الأصلي، عوضًا عن المبانى العديمة الشخصية التى تتبع الذوق الحديث...". وأصبح الحفاظ على روح القاهرة كمدينة شرقية واجبًا على نساء مصر.[4]

وبحلول عام ١٩٢٩، بدأت صحة هدى فى التدهور بشكل ملحوظ، مع مشكلات فى الدورة الدموية علاوة على الدوالى التى أصبحت مزمنة لديها. ولم تعد طاقتها، على نحو ما كانت، بلا حدود وأصبح يصعب عليها إدخال أى أنشطة جديدة على برامجها، هذا على الرغم من أن التزاماتها القائمة بالفعل كانت كبيرة بما يكفي. كانت جهودها فى القطاع الخيرى ووجودها السياسى على الساحة الدولية من خلال عضويتها الفاعلة فى التحالف الدولي للمرأة تترك لها وقت فراغ محدودًا للغاية. كانت سيزا وچان عامودين من العطاء ولكن حواء وحورية وغيرهن كُنّ صغيرات على أن يتم الاعتماد عليهن، ولا زلن يدرسن كطالبات داخلية فى الكلية الأمريكية للبنات بالقاهرة. غير أنهن كُن قد بدأن فى المشاركة فى الفعاليات السنوية للاتحاد النسائى المصري. وكانت هدى تتيه إعجابًا بجمالهن الشركسى الذى كان بالنسبة لها رمزًا للجمال الأنثوى منذ كانت طفلة.

ومع مطلع عام ١٩٢٩، فرضت هدى على نفسها أيضًا القيام بمهمة هى الأكثر إيلامًا. إذ قرَّرت بناء مسجد وضريح لعلى فى مسقط رأسه بالمنيا. ومن

ثم؛ كان عليها أن تشهد نقل رفاته من القاهرة إلى المسجد المذكور.[٥] وقد كان إخراج جثمانه من قبره محنة مؤلمة لهدى ومحمد الذى كان حاضرًا هو الآخر لهذا الموقف الدرامي. وتدافعت الأحزان القديمة إلى السطح وتمنت لو أنها كانت قد قالت له إنها قد تفهمت أخيرًا دوافعه حين ترك حزب الوفد. وشعرت أنها كانت تتصرف بحدة وعدم نضج حين كانت تتشاجر معه، وأنها جرحت مشاعره فى حين كان يمكنهما مناقشة الأمور معًا بشكل أكثر انكشافًا. ولكنها، مثل كل شخص آخر فى ذلك الزمن، كانت أسيرة لكاريزما زغلول. وفى حين لم يكن على قط بالشخص الذى يميل إلى الإفصاح عن مشاعره، كانت هى تطلب دومًا من محادثيها الوضوح، خصوصًا الأشخاص الأقرب إلى قلبها.

وقد كانت هذه هى الصفة التى أخذ محمد يوبّخها عليها مؤخرًا. لقد دأب دومًا على أن يفتح قلبه لها، ولكنه فجأة امتنع عن الإفضاء لها بما فى أعماقه. وقال لها فى خضم مجادلة غاضبة إنه يعرف أنها ليس لديها وقت من أجله، وإنها لا تُصغى أبدًا لما يقوله وإنه لا جدوى من محاولة التواصل معها. ولكنه ظل يساهم مساهمات سخية فى الاتحاد النسائى المصري؛ إذ أعطاها خمسمائة جنيه بمناسبة السوق السنوية فى ١٩٢٩ لبناء مدرسة البنات الحرفية الجديدة التى كان يعتزم الاتحاد النسائى المصرى إنشاءها فى شارع القصر العيني.[٦] كما تبرعت بُثنة أيضًا بمائة جنيه لبنات الورشة بمناسبة إعادة دفن والدها.

لقد حققت نساء كثيرات من معارف هدى فى مصر العديد من النجاحات فى أواخر العشرينيات. وقد شعرت هدى بفخر شديد لتعيين مى زيادة فى بداية ١٩٢٩ عضوًا باللجنة المُكلَّفة باختيار المسرحيات الفائزة بالجوائز الحكومية[٧] وقد كان كل أعضاء هذه اللجنة الآخرين من الكتاب الرجال والمسؤولين الكبار، وقد كان ضم مى زيادة إليهم بمثابة الفأل الحسن للنسويات. وكتبت هدى عشية

مؤتمر الاتحاد الدولى للمرأة فى برلين فى يونيو ١٩٢٩ مقالا عن تصويت النساء فى انجلترا. وكانت نساء انجلترا قد حصلن لتوهن على هذا الحق أسوة بالرجال فيما اعتبرته هدى انتصارًا لكافة نساء العالم. ولكنها أعربت عن أسفها من أنه على الرغم من هذا التقدم مازال الطريق مسدودًا أمام التغيير فى البلاد الرازحة تحت الاحتلال البريطاني. وأضافت أنه حيثما لا يكون الرجال أحرارًا، ليس فى استطاعتهم أن يضمنوا لنسائهم حقوقًا هم أنفسهم لا يمارسونها. إذ لم يكن من المسموح به لرجال مصر بالتأكيد، فى ظل السيطرة البريطانية، أن يملكوا زمام مصائرهم.

وفى الوقت الذى بدأت فيه الاستعدادات للمؤتمر، طُلب من هدى، بوصفها عضوًا فى اللجنة، أن تتوجه إلى برلين مبكرًا للمشاركة فى التخطيط التمهيدى للأعمال. وكان موضوع المؤتمر هو مساندة معاهدة كيللوج- بريان والدعوة إلى قضية السلام العالمي. وقد ركزت غالبية الخطب فى الاجتماع التحضيرى على دور المرأة فى دعم إجراءات السلام. وقالت هدى إن الأمهات، وغيرهن من النساء معاديات للحروب بالفطرة، وإن تعزيز العدل هو أفضل السبل لتحقيق السلام. كما أعربت عن اقتناعها بأن النساء أكثر قدرة على إدراك الظلم؛ ومن ثم فإنهن أقدر على هداية الرجال إلى سبل السلام. وأوضحت أنه من المنطقى ألا يقتصر المؤتمر فقط على مناقشة قضايا النساء، بل إنه ينبغى له أيضًا أن يتطرق لقضايا السلام، حيث إنه يمثل قضية حيوية للنساء. وكانت أصداء الحرب العالمية لا تزال تتردد بقوة مع ازدياد المخاوف من وقوع حرب أخرى.

وافْتُتِنَت هدى بالعاصمة الألمانية التى كانت تزورها للمرة الأولى. فقد كانت برلين مدينة أنيقة ذات طرق واسعة ومبانٍ راقية ومساحات خضراء مفتوحة، إضافة إلى دروبها الشهيرة المحفوفة بأشجار الزيزفون. كما كانت المدينة

تُحْسن ضيافة الزائرين. وكانت البارونة كاثارينا ڤون كاردوف، زوجة نائب رئيس الرايخستاج، والتى كانت عضوًا سابقًا ببرلمانها، قد زارت مؤخرًا مصر حيث التقت بالناشطات النسويات المصريات ونشرت عدة مقالات عن مصر. وقد وضح أن أواصر الصداقة قد انعقدت بين البارونة وهدى خلال الزيارة. كما أتيحت لهدى الفرصة للتعرف على الروح الألمانية والإعجاب بالشعراء والكُتاب الألمان.(٨)

وفى مسار آخر للاستعداد للمؤتمر، شكَّل الاتحاد النسائى المصرى لجنة استشارية من الرجال المتعاطفين للمعاونة فى التأهيل السياسى لهدى وزميلاتها قبيل المؤتمر. وقد دأب الاتحاد على طلب المشورة غير الرسمية من رجال مؤيدين له، أمثال أصدقاء هدى من قدامى الأحرار الدستوريين الذين كانوا يشاركون فى تخطيط مختلف مشروعات الاتحاد ويساهمون بخبراتهم فى هذا الصدد. وقد أيدت هدى وسيزا تشكيل لجنة استشارية رسمية يقدم رجالها المساندة المعنوية القوية للاتحاد مقابل أن يحصلوا على منبر غير مباشر لعرض أفكارهم الخاصة فى المحافل الدولية التى كانت تشارك فيها هدى وسيزا. وقد كانت اللجنة تضم بعضًا من أقرب أصدقاء علي. فكان من بينهم محمد حسين هيكل، وأحمد لطفى السيد، ومحمد على علّوبة، والشيخ مصطفى عبد الرازق، والدكتور محمد شاهين، ومنصور فهمي، وعلى عمر، وطه حسين باشا، ومراد بك سيد أحمد، ومحمد فتحى العمروسي، وأنطون چميل، وذكى على بك. وقد كانوا رجالًا يتمتعون بقدرات كبيرة وموضع ثقة هدى الشديدة. كما أن غالبيتهم قد تولوا، أو سبق لهم أن تولوا، مناصب عليا فى الحكومة أو فى سواها. كانوا رجالًا ذوى حنكة يساندون تمكين المرأة.

وفى ١٧ يونيو ١٩٢٩، افتُتح المؤتمر الحادى عشر للتحالف الدولى للمرأة فى مقر الرايخستاج ببرلين. وألقت مارچيرى كوربيت-آشبى خطبة الافتتاح حول المرأة والسلام. وركزت خلالها على الانتصارات الماضية التى حققتها المرأة حين كان يُقابَل نضالها بما وُصف بالاضطهاد والتهكم والسخرية، وأن النساء أول مجموعة من الفئات المحرومة التى كافحت من أجل نيل حقوقها وكسبت، رغم أن المعركة كانت طويلة. وشدّدت كوربيت-آشبى على قيمة الخبرة التى اكتسبتها المرأة. وبعد أن رحبت بمندوبات اليابان والصين وجزر الهند الهولندية، اللائى يحضرن المؤتمر للمرة الأولى، أشارت إلى وجود طيارتين قدمتا جوًا عبر القارة الأفريقية وهما صوفى هيث، التى طارت من لندن إلى جنوب أفريقيا ذهابًا وإيابًا فى طائرة تايجر موث، ومارى بايلى التى لا تقل عنها جسارة. واختتمت كلمتها بنبرة مفعمة بالأمل قائلة إن العمل الجاد ربما يبدو مثيرًا للملل لمن ينظر إليه من الخارج ولكنه مليء بالإثارة لمن هم بداخله. وبدلا من مقولة "النبيذ والنساء والغناء"، فلندْع إلى "السلام والنساء والإنسانية".[٩]

وحين أتى دور هدى فى الحديث قالت إن النساء، بوصفهن أمهات، معاديات بالفطرة للحرب، وأن السلام سيقوى لو ساد العدل العالم. وفى تلك الآونة، كانت هدى قد طوّرت موهبة متميزة فى الخطابة واستخدمت صوتها العميق ذا البحة لمزيد من التأثير فى الحضور. وأعربت عن قناعتها بأن النساء أقدر على إدراك الظلم وأنه فى وسعهن مساعدة رجالهن الأقوياء على تمهيد الطريق لتسويات سلمية حيث يتفجر العنف أو الظلم. واستطردت أنه ينبغى أيضًا إلغاء التمييز؛ إذ إنه: "لن يكون هناك سلام ما لم توجد ثقة أخوية متبادلة بين كافة الشعوب".[١٠]

وقد أخذت هدى خلال وجودها فى برلين تستكشف المزيد عن كفاح الهند من أجل الاستقلال، وعن إمكانية أن تكون مثلًا تحذو مصر حذوه. فحين تحدثت

ساروچينى نايدو ممثلة الهند، شعرت هدى بتعاطف فطرى فورى معها. ورأت أن هناك الكثير من المشترك بين مصر والهند. فالهنديات، مثلهن فى ذلك مثل المصريات، تشاركن فى النضال ضد الاستعمار. وكانت نايدو مناضلة وطنية مخلصة من المُقرَّبين للماهتما غاندى وچواهر لال نهرو وقد قُدِّر لها أن تصبح بعد نيل الاستقلال حاكمة لولاية أولترا برادش الهندية. لقد كان العالم الشرقى يقدم، من خلال نايدو وهدى، ممثلتين بارزتين له. وكانت نايدو، مثلها مثل هدى، ذات صوت قوى ودافئ، وقد عبَّرت السيدتان عن رسالتهما بلباقة وأناقة. لقد كانت كل منهما تتميز بمزية حاسمة هى الصدق التام. كما كانتا تؤمنان إيمانًا عميقًا بالقضايا التى تدافعان عنها وتقفان على أهبة الاستعداد لدفع ثمن هذا الإيمان. وكانت وجهات نظر السيدتين متطابقة.[١١] إذ ألحت كلٌّ منهما على عدم صحة مقولة روديارد كيبلنج بأن الشرق والغرب لن يلتقيا أبدًا. ذلك أن الأفراد الأقوياء والمخلصين يمكنهم تحقيق التواصل فى مواجهة كافة المعوقات. ويمكن لنساء جئن من مشارق الأرض ومغاربها، مثل هؤلاء المُجتمعات فى المؤتمر، أن يقفن وجهًا لوجه ويتحاورن. وبدأت هدى فى قراءة المزيد عن الهند وخاصة فى دراسة أفكار غاندي، هذا الذى يُطلق عليه "الروح الأعظم".

وكان من أسباب سعادة هدى الشخصية فى ذلك الوقت أنها قد عرفت قبل السفر إلى برلين بأن بُثنة عائدة للقاهرة بعد أن اختتم سامى باشا خدمته فى السفارة المصرية بواشنطن. لقد كانت معرفتها بأن ابنتها وزوج ابنتها سيعودان قريبًا إلى مصر مصدرًا استثنائيًا للفرح. كان محمود باشا سامى ضخم الجثة لدرجة ربما تكون خطرًا على صحته. ولكنه كان مرحًا واجتماعيًا وزوجًا مُتفاهمًا. كانت بُثنة تزدهر فى حضرة عملاقها الحبيب مثل الوردة التى يرعاها بعناية بستانى متمرس. وكان الزوجان قد عقدا صداقات قوية

فى الولايات المتحدة التى اكتسب فيها سامى باشا كسفير لمصر ثقة واسعة واحترامًا كبيرًا. وغادرت هدى برلين إلى القاهرة وهى فى غاية الابتهاج، حيث تعلم أن حب ودعم ابنتها وزوجها فى انتظارها هناك. ولتُصدِّق أو لا تُصدِّق، لقد كانت هدى فى حاجة إلى الحب.

كانت مكاتب ليچيبسيان تضج فى ذلك الوقت بمناقشات ساخنة بين حوا وسيزا بشأن روسيا، حيث تشكلت الدولة الشيوعية. ولم تكن سيزا قادرة على إخفاء حماسها للثورة الروسية، فى الوقت الذى كانت فيه حوا، التى وُلدت فى القوقاز وشبَّت على قصص المذابح التى ارتكبها الجيش الروسى ضد شعبها، تكن كراهية شديدة لروسيا والروس بكل أشكالهم بسبب التاريخ الماضى لعائلتها. وكانت ترى أن الإطاحة بالقيصر لم تغير شيئًا مادامت البلاد قد بقيت بلا تغيير. وفيما يتعلق بالشيوعية، لم يكن بمقدور حوا أن تتخيل كيف يمكن لنظام مثل هذا أن ينجح. كان رأيها أنها فلسفة يوتوبية لا يمكن للبشر قط أن يحققوها. وكانت هدى تواصل عملها وهى تستمع إلى مناقشاتهما العاصفة. وكانت أحيانًا تلعب دور محامى الشيطان دعمًا لسيزا ضد حوا وتؤكد أنه لا مانع لديها أن تنتزع منها حكومة شيوعية ثروتها وأنها ستسعد بالحياة فى قطعة صغيرة من الأرض مساحتها خمسة فدادين إذا اقتضت الحاجة ذلك. لترد عليها حواء التى لم تكن تستطيع أن تكبح لسانها بحدة: "هل تظنين حقًا يا طنط هدى أنك كنت ستتمكنين من تمويل كافة أنشطتك من بضعة فدادين من الأرض؟". وقد كانت هدى تعلم بالطبع أنه ينبغى لها، على الرغم مما تقوله لإغاظة حواء، أن تحافظ على ثروتها الضخمة لأنها هى المصدر الذى يمكنها من القيام بأنشطتها.

كانت هدى تشعر بكل خلجاتها أن عليها أن تفعل شيئًا لتحسين الوضع السياسى فى مصر، إلا أنها مع الوقت، ومع رحيل على ومع اختفاء زغلول أيضًا

من المشهد، تقلص نفوذها السياسي. ولذا أدارت ظهرها للسياسة، وتوجهت بدلاً من ذلك إلى عملها الخيري. لقد أمضت فى السنوات الأخيرة الكثير من الوقت فى السفر والانشغال بالحركة النسوية الدولية، بحيث شعرت أنها قد أهملت هذا الجانب من واجبها الذى أخذته على عاتقها. وقد حان الوقت مجدداً لتجميع الأموال واتخاذ الخطوات اللازمة لكى يتم أخيراً بناء المدرسة الحرفية للبنات. كما كان عليها متابعة الفنانين وأعمال الخزف.

لقد كانت تشعر دوماً إنها ملزمة أن تنمى المواهب أينما رأتها. وقد وجدت فى شاب واعد اسمه عبد البديع عبد الحى كان يعمل طباخاً لديها فناناً محتملاً. إذ رأته ينحت قطع الخشب بعد أن ينتهى من عمله فى المطبخ وأدركت أنه يمتلك مهارات النحات. وتحدثت معه عن هوايته وكيف يمكن أن تصبح مهنته ولكنها نجحت فى إغضابه فقط فى البداية، إذ إنه أساء فهم نبرتها. إلا أنها أوضحت له، وقد تداعت إلى ذهنها أفكار غاندى عن كرامة العمل، أنه ليس هناك ما يعيب فى أن يكون الشخص طباخاً، وأن الطباخ الجيد يمكن أن يكون فناناً جيداً فى عمله. فرد عليها بحدة "نعم، ولكن بعد أن يتم هضم مُنتَج فنه، لا يبقى منه شيئاً فى العقل".[١٢] ربما غفل عنها أن قيمة العمل لا تكون واضحة تماماً فى عيون من يقوم به.

لقد اسْتُفز عبد البديع بشدة إلى حد جعل هدى تشعر بالأسف على حديثها الصريح معه. فقد كانت بصراحة عاجزة عن تخيل ما يعنيه أن يكون المرء فقيراً. وأدركت أنه من الخطأ محاضرة الناس نظرياً دون مراعاة الجوانب العملية. وتصحيحاً للأمور، وجدت أنه يتوجب عليها أن تقدِّم تعويضاً عملياً عن قلة حساسيتها معه. وبما أنه لم يكن فى مقدور الشاب أن يلتحق بمعهد الفنون نظراً لنقص مؤهلاته، فقد أرسلته ليتعلم على يد بوريس فريدمان كلوزيل، الفنان

السويدى الذى حقَّق نجاحًا فى مصر. ولم يُخيِّب عبد البديع توقعاتها وبدأ فى إظهار موهبة حقيقية. وكانت هدى سعيدة بربيبها الجديد.

وبدا الزمن وكأنه يمضى أسرع مما كان عليه، والموت كعادته يختطف أشخاصًا من معارف هدى. ففى ٢٥ نوفمبر ١٩٢٩، توفى الأمير حيدر فاضل، وهو واحد من قدامى معارفها، وقد وصفه رونالد ستورز بـ"الشجاعة ودماثة الخلق" لقد رحل فى سن صغيرة نسبيًا حيث كان فى الواحدة والخمسين. وأثار هذا الرحيل مرة أخرى ذكريات هدى عن رحلتها إلى صعيد مصر مع شقيقها عمر الذى لا تزال تبكيه، وقد كان يرافقهم الأمير وچولييت آدم ومصطفى كامل على متن ذهبية عمر النيلية، وكانوا يتحدثون عن طموحات كامل الوطنية فى وقت بدا فيه الأخير هو أكثر آمال مصر سطوعًا. كان الأمير حيدر من بين معارف هدى العائلية، وقد أصبح صوفيًا يتردد على تكية الدراويش البكتاشية الواقعة على حافة مرتفعات المقطم بالقرب من القاهرة. وتواتر فى العائلة أنه كان يتناول النبيذ مع الدراويش ويعود عصبى المزاج إلى المنزل بحيث انفصلت عنه زينب فهمى هانم منذ وقت طويل فى ١٩٠٩. وربما كانت القصة للتشهير به. وأيًا كان فقد كانت هدى تسعد دومًا بتعاونه مع لجيبسيان، وأسفت كثيرًا لرحيله.

ولكنها كانت، كما هى دومًا، منهمكة فى أعمالها الكثيرة ولم يكن لديها سوى القليل من الوقت للحزن. كانت تعد لمحاضرة وعدت بإلقائها فى قاعة إيوارت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى ١٢ نوفمبر ١٩٢٩. وقد كانت هدى من المتبرعين لإنشاء الجامعة الأمريكية بالقاهرة وهو ما لم تغفل المؤسسة العرفان به فى أرشيفها.(١٣) وفى كلمتها تحدثت هدى عن تحرير المرأة فى الولايات المتحدة، وعن كبار النسويات فى فرنسا والحركة النسائية فى مصر، ومسائل أخرى تتصل بتمكين النوع والتعليم. ولم تفُتها الإشارة إلى فلسفة السان- سيمونيين،

تلك الحركة الاجتماعية التى نشأت فى فرنسا وتُقدِّر دور المرأة فى التنمية الاجتماعية. لم تكن هدى قد نست صديقة طفولتها السيدة ريشار وأقرباءها وأصدقاءها السان- سيمونيين.(١٤)

وفى ١٩٢٩، أظلم الأفق بسحابة قاتمة فى أعين هدى حين بدأت تجذب انتباهها أحداث فلسطين. وسمعت من زوارها فى القاهرة ومعارفها فى فلسطين أن الفلسطينيين العرب قد غشيهم الذعر من تداعيات الهجرة الكثيفة لليهود الأشكيناز القادمين من خارج الشرق الأوسط إلى الإقليم. لقد كانوا عنصرًا غريبًا عليه، جاءوا من روسيا وألمانيا وشرق أوروبا وليست لديهم معرفة بالتقاليد والظروف المحلية. وهم يختلفون عن يهود المزراحى القادمين من العالم العربي. كما كان الفلسطينيون يتابعون بريبة كبيرة سياسات الغرب فى توطين اليهود فى بلد صغير مثل فلسطين كان حتى ذلك الحين غير منقسم ويعيش فى سلام. وأخذت تتابع مجلة ليچيبسيان تطورات الأحداث بدقة واندلاع القلاقل فى فلسطين حيث توجهت الفلسطينيات العرب من المسلمات والمسيحيات سافرات إلى المندوب السامى البريطانى تطالبنه بالعدل. وركّزت سيزا كثيرًا على هذا التطور، وقالت "لقد أظهرن بهذه التفصيلة الدالة على التحرر بأن ما من أحد، ولا حتى النساء، ينبغى أن يختبئ حينما يتعلق الأمر بحق كل رجل أو كل شعب، بل واجبه، فى المطالبة بعدم الانحياز والعدالة"(١٥)

وتابعت هدى الأحداث المُفجعة التى كانت فى سبيلها إلى تقسيم سوريا الكبرى. ولم يتوقف الملك حسين المُسن، الذى اشتهر باسم الشريف حسين بسبب نسبه للنبى محمد، عن إعلان جزءه من الوعد الكاذب الذى أعطته الحكومة البريطانية لعائلته. وساد الحنق والغضب فى كل أنحاء ما كان يعرف بسوريا الكبرى عندما اتضح أن الاحتلال الفرنسى والبريطانى كانا أكثر قهرًا من

حكم الأتراك العثمانيين. وكان المجتمع الدولى قد بارك الحماية البريطانية على المنطقة رغم وعود الدول الغربية بتحريرها من الحكم العثماني. وأخذت هدى تُكوِّن تدريجيًا، من خلال أصدقاء فلسطينيين، مثل عمدة القدس عونى عبد الهادى وزوجته طرب، فكرة أكثر وضوحًا عن التطورات التى تجرى فى الأراضى الخاضعة حديثًا للحماية والتى أصبحت فيها سوريا والعراق ملكًا لفرنسا وبريطانيا، علاوة على فرض الحماية البريطانية على فلسطين أيضًا. وظل تدفق موجات المهاجرين اليهود إلى فلسطين يثير المزيد من القلق العميق.

وكان من ضمن من يعلمون هدى بما يجرى فى فلسطين المحامية الفلسطينية صابية جرزوزي، المُقيمة فى مصر، وقد كانت تعمل فى المحاكم المختلطة بالقاهرة التى كانت قوانين الامتيازات مطبقة فيها. وكانت تتردد بانتظام على أمسيات الثلاثاء عند هدى وتسافر فى بعض الأحيان إلى الولايات المتحدة حيث كانت تحاضر فى جامعة نيويورك وجامعة ويليامز بماساتشوستس مع الناشطة النسائية التركية هيلدا أديب. وقد قابلت الاثنتان بعضًا من أهم الشخصيات الأمريكية مثل كيرتس چيمس ومورجان برنتس وبالطبع تشارلز كرين، وناقشتا معهم كافة القضايا الحيوية الخاصة بالشرق الأوسط.[١٦] وقد كانت صابية هى التى أخبرت هدى مصادفة بتدهور صحة كارى شابمان، مما أحزن هدى كثيرًا.

وتلاشى إعجاب هدى السابق بطاقة وحيوية المستوطنين الصهاينة فى فلسطين ليفسح المجال لمخاوف عميقة. فما ظنته هدى وزميلاتها فى المجلة بسذاجة خطوات عملية من قبل المهاجرين اليهود لتنمية فلسطين لصالح الجميع، بدا الآن يتخذ باطراد شكل مخطط صهيونى منظم لاستقدام اليهود ليحلوا محل الأهالى العرب، من مسلمين ومسيحيين. وتمثلت المرحلة الأولى من المخطط الصهيونى فى تعزيز وتدعيم الطائفة اليهودية من خلال الهجرة

المُمَنْهجة. وبدا أن الخطوة الثانية ستكون فى اقتلاع الأهالى العرب من قراهم وانتزاع أراضيهم منهم واستبدال عناصر جديدة ومختلفة بهم. ورغم حالة الذهول مما يحدث حقًا، قرَّرت هدى أن تورد المجلة بصدق تام مجريات الأمور والمحنة التى تتهدَّد الأهالى العرب فى فلسطين.

وبناءً عليه، رأت هدى أنه يجب على الاتحاد النسائى المصرى منذ ذلك الحين أن يتخذ فى كل المحافل الدولية المتاحة له موقفًا جليًا داعمًا للفلسطينيين المسلمين والمسيحيين المحاصرين. لقد كان من أهداف الاتحاد النسائى المصرى بشكل عام أن يطرح تعبيرات عن الرغبة فى إنقاذ العالم من كراهيته وجنونه ذاتهما. ولم يكنْ بوسع هدى أن ترى بديلاً عن مساندة الفلسطينيين والسوريين والعراقيين فى كفاحهم ضد استمرار احتلال القوات العسكرية الغربية لبلادهم. وقد بدا لها أن هذه الدول المُنشأة حديثًا فى الشرق الأوسط تعانى من نفس القهر الذى يرزح تحت وطأته المصريون منذ سنوات طويلة. وقد كانت النتيجة التى لا مفر منها فيما يتعلق بفلسطين هى استخدام القوة لتغيير واقع البلاد من خلال عمليات عنيفة ضد إرادة السكان المحليين.

وأدركت هدى بأسى أن الصراع هذه المرة سيكون ضد الفرنسيين كما هو ضد البريطانيين. فقد برهنت فرنسا للأسف على أنها ليست هذا الصديق الذى يُعوَّل عليه كما تمثله شخصيات مثل چولييت آدم، وڤيكتور هوجو، وبيير لوتي، وغيرهم من المفكرين الجمهوريين. وخلصت هدى بكل أسف إلى أن مثل هذه الشخصيات تخفى النوايا الحقيقية للحكومة الفرنسية مثل سحابة دخان تخبيء الواقع القبيح وتحجب نوايا الحكومة الفرنسية عن أعين الوطنيين المصريين الذين وثقوا دومًا فى فرنسا. لقد كانت هناك دروس مستفادة من هذه التطورات، إلا أنه كانت هناك حاجة فى الوقت ذاته للحفاظ على التواصل مع الأصدقاء

الفرنسيين والانجليز والرفاق النسويين والسياسيين المتعاطفين ليظل باب الحوار مفتوحًا. كانت هدى التى تتحدث الفرنسية وتحب الفرنسيين، تمتلىء حزنًا وهى تشاهد الحماية الفرنسية فى سوريا الكبرى، مثلما فى شمال أفريقيا، وقد أخذت فى بداية الثلاثينات طابعًا تدميريًا أكثر بشاعة من الحماية البريطانية فى العراق. ففى سوريا، كان يتم تمزيق أوصال البلاد وتقليص فرص تعليم الجيل الصاعد أو التلاعب به وتجاهل الحدود الطبيعية وإثارة الطوائف الدينية ضد بعضها البعض. وقابلت هدى فى افتتاح الملك فؤاد للأكاديمية العربية فى ديسمبر ١٩٢٩، محمد جميل بيهوم، رئيس الأكاديمية اللبنانية الذى كان حينئذ رئيسًا لجامعة بيروت وعلى دراية وافرة بالموقف الإقليمي. ووافق على كتابة مقالات للمجلة عن الحماية الفرنسية فى سوريا والحماية البريطانية فى العراق. وقد ظل تأثيره عليها كبيرًا لسنوات طويلة لاحقة.[١٧]

وخلال هذه الفترة، بدأت هدى تشعر بشكل مبهم أن حياتها لم تعد تخصها وحدها. أحست بأنها تنتمى إلى شيء أكبر من الفرد بذاته. وقد زارها بعد شهر من ذلك الكاتب الفرنسى أندريه ليشتنبيرجر ليُجرى معها حديثًا علق عليه بالقول أن ابتسامتها الحزينة يظللها الغموض وأن سلوكها يشى بالكثير من ضبط النفس. وجلس معها فى الصالون الشرقى وذكر أنه جاهد لكى يتمكن من قراءة ما يدور بخلدها وأنه خشى أن تسخر منه لمحاولته ذلك. وقد نُشر مقاله عن ابتسامة هدى في" ليجيبسيان" وحينما قرأته قالت إنه محض هراء. واختلفت معها سيزا التى رأت أن المقال سوف يساعد على الدعاية لمصر فى فرنسا وسوف يأسر الكثير من القلوب فى الغرب.[١٨] وقد قال الكاتب فيه" ابتسامتها غير قابلة للاختراق، مثل ابتسامة الموناليزا، أو أبى الهول".

لقد كانت الأنشطة اليومية فى الاتحاد النسائى المصرى تمضى كما هى بشكل اعتيادي. وبدأ عام ١٩٣٠ الجديد كالعادة بالسوق السنوية التى أقيمت هذه المرة فى مسرح الكورسال وكانت العوائد مُخصَّصة مُجدَّدًا لبناء مدرسة الاتحاد النسائى المصرى الذى كان يمتلك حينها الموقع الذى خُصِّص لها فى شارع القصر العيني. وتم التعاقد مع المعمارى مصطفى فهمى ليتولى التصميم، فى حين تقوم بالتنفيذ شركة ميزرز سانتو وبيانكى الإيطالية. وقد خطَّطت هدى لوضع حجر أساس المبنى فى ٢ أبريل من العام ذاته.

كان الطبيب الخاص للملك فؤاد، الدكتور محمد شاهين باشا، الذى كان يشغل أيضًا منصب نائب وزير الصحة، يشارك الملك فى معتقداته المحافظة المعروفة عنه. وقد افتتح فى ١٩٣٠ المتحف المصرى للصحة، الذى احتضنه قصر السكاكينى الرائع المُقام على طراز الروكوكو الرائع، والمجاور لجامع بيبرس بالعباسية.[١٩] وكانت عائلة حبيب سكاكينى باشا، التاجر السورى الذى بناه فى ١٨٩٧ قد أهدت القصر لوزارة الصحة. وقد اعتبر شاهين المتحف مشروعًا تعليميًا ورغم عدائه للحركة النسوية، طلب من هدى الدعاية له. وقد كلفت سيزا بكتابة مقال عن المتحف.[٢٠] وحينما توجَّهت الأخيرة لزيارة المتحف، قام الدكتور شاهين بنفسه بمرافقتها عبر قاعات القصر. ويبدو أن سيزا قد تركت عنده انطباعًا طيبًا وربما كان ذلك وراء قبوله لدعوة لاحقة من هدى ليكون مستشارًا للاتحاد، رغم عدائه للمرأة. وقد اتخذ فى السنوات التالية مجموعة من الإجراءات التى حازت على رضا هدي.

كانت قد مضت أكثر من عشر سنوات على مسيرة النساء فى مارس ١٩١٩، وقد أصبحت هدى أكثر هدوءً وميلًا لفلسفة الأمور. لقد أصبحت أقل اندفاعًا فى الهجوم على من لا يوافقونها الرأى تمامًا، و أكثر استعدادًا للتعاون معهم على

أسس عملية. بل إنها أنهت خلافاتها مع راسل باشا، قائد الشرطة الذى كان قد أهانها هى وصديقاتها. وذلك لأنه خاض حملة فى ذلك الوقت ضد تجارة الأفيون فى مصر، ووافقته فى ذلك، وانضم لموقف النساء المطالب بضرورة إلغاء البغاء للقضاء على انتشار الزهرى وغيره من الأمراض التناسلية فى البلاد. ولهذا أصبح راسل باشا وزوجته على قائمة ضيوف هدى، ليس بالضرورة بصفته قائدًا لقوات الشرطة المصرية، وإنما كحليف فى الدعوة لحملات حيوية.

وعلى جانب آخر، فإن بُثنة وزوجها محمود سامى باشا، اللذين استقرا بعد عودتهما فى القاهرة، كانا كثيرًا ما يساعدان هدى فى استضافة فعالياتها الاجتماعية، وهو ما كان يمثل لها عونًا عظيمًا. فقد كانت صحة هدى تعانى المزيد من المشكلات. إذ كانت تشعر أحيانًا بأنها مُجْهدة بشكل غريب. كما كانت ساقاها، اللتان كانت تعانى دومًا منهما، تتورمان وتؤلمانها حال وقوفها لفترة طويلة، وكثيرًا ما كانت تعانى من ضيق التنفس، خاصة فى الليل وهى راقدة فى انتظار النوم. ولكنها كانت تقول لنفسها إنه لا وقت لديها أثناء النهار للقلق من هذه الأمور، حيث كانت تُكرِّس وقتها دون كلل لهؤلاء الذين يحتاجون إليها وإلى عملها الاجتماعى والسياسي. لقد كانت هدى تقول أحيانًا إنها لم تفكر قط بشكل واع أن لها حياة "خاصة". وكانت تقلب هذه الجملة مرارًا فى ذهنها متسائلة عما قد تعنيه. ألم تكن حياتها حياة خاصة؟ هل هناك طريقة خاصة لكى نحيا حياة خاصة؟ إنها لم تعرف سوى حياتها النشطة الدائبة الحركة. لقد كانت تقْبل الناس والأحداث كيفما جاءت وتؤدى الخدمات الواجبة للآخرين بإخلاص دون التساؤل عن ضرورة الخدمة المقدمة. ولم يخطر لها أبدًا أن هذه طريقة حياة غير طبيعية أو أن أنشطتها ربما تكون مصدر إزعاج لآخرين من محيطها المباشر. فقد كانت مصر فوق الجميع، وكانت هى خادمتها المخلصة.

وبحلول ١٩٣٠، كانت النساء فى مصر وفى أماكن أخرى من العالم قد بدأن يشاركن فى ممارسة مهن وأنشطة كانت مُغلقة فى وجوههن حتى ذلك الحين. وقد سعت هدى دومًا إلى تشجيع مثل هذه المشاركة لبنات نوعها. وقد نظَّمت فى فبراير ١٩٣٠ حفل استقبال لضابطتى شرطة بريطانيتين، الحكمدار مارى آلن، واحدة من أولى النساء فى العالم تشغل منصبًا قياديًا فى الشرطة، التى زارت القاهرة بصحبة زميلتها مفتش المباحث هيلين تجارت. كما انتشرت ظاهرة أخرى هى ظاهرة تدرّب النساء على قيادة الطائرات فى بلدان كثيرة، ومنهن لطفية النادى فى مصر، التى رعاها ودعمها الاتحاد النسائى المصري. بالإضافة إلى مشاركة سائقات فى سباقات السيارات. وقد نُظم سباق سيارات للنساء فى مصر انطلق من فندق مينا هاوس وقامت بُثنة وسامى باشا بمساعدة هدى فى استضافة هؤلاء السيدات الجريئات وغيرهن فى مقر الاتحاد الكائن فى ٢- بالقصر العينى وأماكن أخري.[٢١]

هدى الآن فى الخمسين من عمرها. لقد كانت امرأة منضبطة ذاتيًا وإن كان يمكن القول إنها لا تعرف الكثير عن إغراءات الحياة ومباهجها. كانت تعيش حياة منتظمة للغاية حيث تبدأ يومها فى السادسة والنصف صباحًا بإفطار دسم. وعادة ما كانت تشعر بالجوع لدى استيقاظها وتتوق لفنجان الشاي، الذى تتناول بعده بيضيتين مقليتين وشرائح التوست والمربى. وكان مبروك، كلبها الوفى من نوع الشبرد الألماني، يأتى لها بالجرائد كل صباح ويبقى بجانبها بعض الوقت. وبعد الانتهاء من الإفطار وقراءة الصحف ترتدى ملابسها. كانت ملابسها المعتادة رصينة جدًا وتفضل اللونين الرمادى والكحلي. وكثيرًا ما كانت ترتدى جلباب الفلاحات التقليدى عندما تذهب لحفلات عشاء وتشعر بأنه أكثر أناقة من أية ملابس أخرى. وكانت تدير المنزل بنفسها مع رئيس السُفرجية.

وكان نظام يومها، فى غير أوقات السفر، يبدأ باستقبال صديقاتها فى الصباح، ثم الجلوس للعمل على المجلة أو الخروج إذا دعت الحاجة لذلك. كما كانت تزور الورش أو المصنع وأحيانًا تذهب للتسوق إن سنحت لها الفرصة. وكثيرًا ما كانت تستقبل ضيوفًا على الغذاء، ومنهم مساعداتها وصديقاتها المقربات اللائى كُن لديها يوميًا، بما فيهن سيزا وحوا وحورية وصالح هاشم، الذى كان مدرس اللغة العربية لابنها محمد، وجابي، وأحيانًا ڤالنتين وغيرها. وبالطبع كانت بُثنة ومحمد يأتيان حين يحلو لهما ذلك. كما كانت تستقبل ضيوفًا فى موعد الشاى أو على العشاء. وحين يستدعى الأمر كانت تسافر إلى المنيا لترى بنفسها أن شئون ممتلكاتها تسير على ما يرام وإنجاز أى أعمال تستدعى انتباهها الشخصي.

وقد شهدت تلك السنة تطورًا مهمًا فى حياة هدى الخاصة؛ إذ وافق محمد أخيرًا على الاقتران بمنيرة. وكان قد قابلها مصادفة فى أحد الأيام حين أتت بها فاطمة عاصم إلى منزل شارع قصر النيل، ولاحظ كيف كبرت وأصبحت شابة جميلة. لقد وافق فى النهاية على الزيجة التى لطالما رغبت فيها والدته. وكان التخطيط أن يعيش الزوجان مع هدى فى جناح خاص بالمنزل الكائن فى شارع قصر النيل. وقد استدعى ذلك إعادة تنظيم كاملة لمنطقة المعيشة. وقرَّرت هدى نقل مقرها إلى الطابق العلوي، حيث كان المكان يسمح بمتابعة عمل سيزا والبنات من حولها ومهام إصدار لجيبسيان. كما قرَّرت تغيير مكان إقامتها الخاص، وإضافة غرفة مكتب لها. وكان النظام الجديد يتيح لها ولمعاوناتها الشابات جوًا يساعد على توجيه الجهود اللازمة للحركة النسوية والسياسية، دون التداخل مع حياة الزوجين الشابين فى الطابق الأسفل.

وقد ظل ديكور الطابق العلوى محافظًا على طرازه الشرقي، كما صممه لاشياك، بحيث يمكنها أن تستمتع بالراحة التى تتيحها الوسائد والأرائك

والسجاد والمُطرَّزات والخشب المشغول، وكلها تُذكِّرها، كما تمنت، بمنزل شارع جامع شركس. وصُمِّمَت بعض الغرف على مستويين بدَرَج خشبى بحيث تكون منطقة النوم فى الأعلى، وأخرى للمعيشة فى الأسفل. وقد اختارت إحدى الغرف لنفسها وكانت مليئة بالوسائد الحريرية والمُطرَّزات الثمينة، وأغطية الفراش والستائر والسجاد ذى الألوان الجميلة فوق الأرضية الخشبية. واتخذت من إحدى الغرف الأخرى مكتبة لها تعج بالكتب، تمامًا كما كانت مكتبة والدها الراحل. وكان الغرض هو ضمان وجود سيزا وحوا وحورية على مقربة منها، فى حين ينفرد محمد ومنيرة بالطابق الأول مع أولادهما وطاقم العاملين.

وعلى صعيد المشهد السياسى المصري، استُدعى عدلى يكن باشا مرة أخرى فى أكتوبر ١٩٢٩، لكى يرأس حكومة تسيير أعمال تشرف مرة أخرى على انتخابات ديمقراطية. وفى ديسمبر فاز الوفد مُجددًا بالأغلبية المعتادة وعاد النحاس باشا للحكم. غير أن الحكومة الوفدية لم تستمر طويلا فقد كان الملك يرغب فى حكومة موالية للقصر يرأسها اسماعيل باشا صدقى الذى تولى فى ١٩ يونيو ١٩٣٠ واستمر فى الحكم حتى ١٩٣٣. وسرعان ما شعرت هدى بالانزعاج من الاتجاه الذى سلكته حكومته. كان اسماعيل باشا من أوائل الوفديين الذين تم نفيهم إلى مالطا مع سعد زغلول، ولكنه ترك الحزب بعد الحرب وانسحب من السياسة تمامًا فى ١٩٢٥ وهو فى الخمسين من عمره. إلا أن الملك قد أعاده، بتحريض من البريطانيين، لمجرد محاولة تعديل الدستور بحيث يضمن عدم رجوع الوفد للسلطة. وقام بتعطيل الدستور فى ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ وجاء بقواعد جديدة للانتخابات لتكون غير مباشرة ووضع شروطا تستلزم من الناخب أن يكون صاحب أملاك معينة وحاملا لمؤهلات دراسية، أفضت إلى إقصاء أربعة أخماس الناخبين. وأصبح الوزراء مسؤولين أمام الملك وليس البرلمان وأُدخلت

قيود غريبة على إمكانية الترشح له أدت إلى استبعاد كل الوفديين. وقد عادته هدى معاداة شديدة وشنّت سيزا حملة شعواء ضده فى لجبشيان. وكان اسماعيل باشا شخصية غريبة، وإن كان لامعًا، وكان شديد التأنق ويهتم كثيرًا بكونه شخصية عامة. كما كان أيضًا رجلًا حداثيًا تقدمى الأفكار واقتصاديًا قديرًا. ولكنه صدم الحركة النسائية بتحجر قلبه وقسوته كرئيس للوزراء.[٢٢]

لقد بدأت هدى تشعر أنها قد أصبحت الآن تواجه عدُوين فى مصر. إذ لم يعد هناك فقط الوجود البريطاني، بل إن التطورات الجارية داخل الحكومة المصرية كانت تقودها أكثر وأكثر إلى أن تصبح ديكتاتورية. وذكر المعلقون أن السبب وراء نظام "القبضة الحديدية" الذى يتبعه صدقى هو إتاحة المجال أمام الحكومة لتحسين الظروف المعيشية والبنية التحتية حتى فى المناطق الريفية النائية فى وقت سادت فيه أزمة اقتصادية عالمية. وكان يمكن لهدى أن تتفهم ذلك ولكنها ظلت تعارض صدقى لعدد من الأسباب المختلفة. إذ إنه بدا وكأنه أداة للبريطانيين واقترح تغييرات لا رجعة فيها على الدستور ولم يكن يتوانى عن استخدام القوة ضد الشعب. ورأت أنه لم يكن سوى أداة فى يد الملك فؤاد وأنه أُعيد للسياسة لتنفيذ مهمة مُحدَّدة. وإذا كان صدقى هو رجل الملك فؤاد، فإن عار وحشية أسلوب حكومته يقع على كليهما.[٢٣]

وأسفرت المعارضة العامة لحكم صدقى عن جانب إيجابى تمثل فى إعادة تقارب هدى وصفية زغلول، أرملة سعد، التى كانت قد اتسمت علاقاتها بها بالبرود منذ أمد بعيد. وأدى تجدد صداقتهما إلى تعبير هدى عن مساندتها لها من خلال لجبشيان ووسائل أخرى، حيث كانت صفية تواصل نضالها الوفدي. كما أفضت هذه المعارضة إلى انفراجة جديدة بين الأحرار الدستوريين والوفديين، الذين أصبح من مصلحتهم المشتركة معارضة صدقي. وقد تأثرت شخصيات عديدة

ممن تعرفهم هدى بشكل شخصي. إذ كان طه حسين يتعرض لاضطهاد النظام لأنه كان ينتقد صدقى ومُنعت صفية نفسها من ممارسة النشاط السياسي.(٢٤)

وفى خريف ١٩٣٠، قادت المواجهة بين صدقى والمعارضة بشكل غير مباشر إلى خيبة أمل هدى. ففى السادس من سبتمبر، عبرت باخرة المهاتما غاندي، الذى كانت هدى تكن له إعجابًا شديدًا، قناة السويس فى طريقها إلى لندن. وقدم التحية للمهاتما على ظهر الباخرة وفد يمثل الوطنيين المصريين. ودعاه النحاس باشا إلى زيارة القاهرة فى طريق عودته إلى الهند لاحقًا فى هذا العام. وقد أثار ذلك حنق صدقي؛ ذلك أن زيارة شخصية لها كل هذه الشهرة الهائلة يمكنها إذا ما استغلها الوطنيون أن تشعل شرارة العداء الشعبى لحكومته. ووصلت باخرة غاندى فى رحلة العودة إلى الهند إلى ميناء بور سعيد مُجددًا فى ١٨ ديسمبر؛ ولكن القبطان منعه من مغادرتها بحجة أنه لا يستطيع تأجيل برنامج الرحلة. ولم يكن هناك شك فى أن حكومة صدقى كانت ضالعة فى ذلك. وكان النحاس باشا يعتزم استضافة غاندى بالقاهرة، واستعدت صفية لحفل استقبال على شرفه فى منزلها كانت ستدعو هدى إليه. وهكذا تم وأد الاحتفال المخطط بغاندى وهو فى مهده وفقدت هدى فرصة مقابلة واحد من أبطالها وجهًا لوجه. وبدلًا من ذلك، ذهب فقط القادة الوفديون من الرجال إلى السويس للترحيب بغاندى على متن الباخرة.

ولكن من جهة أخرى، استطاعت سيزا أن تكون ضمن الفريق الصحفى المصرى الذى رافقهم إلى السويس. وعادت لتصفه وتحكى وهى فى حالة من الطرب عن عظمة هذا الرجل وسلوكه ومظاهر زهده، بما فيها ملابسه القطنية الضيقة، وكيف كان ينام على سطح الباخرة. وجاءت معها برسالة مُوجَّهة من المهاتما إلى نساء مصر قال فيها: "آمل أن تلعب شقيقاتنا المصريات الدور

ذاته الذى لعبته شقيقاتنا فى الهند فى حركة تحرير أراضيهن. ذلك أنى أومن أن اللاعنف هو المزية الخاصة التى تنفرد بها النساء".[٢٥]

وفى ١١ يونيو ١٩٣١، عُقدت الانتخابات وفق الدستور المعدّل لصدقي، حيث قلص النظام غير المباشر من فرص الوفد فى الفوز. وانضم الاتحاد النسائى المصرى إلى مجموعات أخرى للاحتجاج على الانتخابات. غير أن صدقى تعامل بلا رحمة مع كل من بادر بالتظاهر. وأصبح الزج فى السجون والضرب العنيف ممارسات معتادة. وقد نشر الاتحاد النسائى للمرأة احتجاجًا شديد اللهجة ضد القيود المفروضة على الصحافة بمقتضى الدستور الجديد وكتبت سيزا مقالاً غاضبًا يضج بالسخرية اللاذعة بعنوان "الحرية فى ظل الدستور الجديد".[٢٦] وقاطعت المعارضة صناديق الاقتراع بل وتحدث بعض أعضاء العائلة المالكة ضد النظام الانتخابى المستحدث. وخرجت النساء للشوارع تأييدًا للمقاطعة الانتخابية وتدخل البوليس بعنف وهاجم المتظاهرين والمارة بما فيهم الأطفال.[٢٧] وتم الاعتداء على زوار فى منزل صفية، الذى لم يزل معروفًا باسم بيت الأمة، وأُلقى القبض على العديد منهم وخضعوا للاستجواب. وقد أتاح ذلك فرصة ذهبية لسيزا لمهاجمة النظام فى المجلة ولم تحاول التخفيف من حدة كلماتها ووصفت نظام صدقى بـ"الديكتاتورية" مرارًا فى مقالاتها. وقد فاز بالانتخابات صدقى الذى كان قد قسّم الدوائر الانتخابية بحيث يضمن إقصاء الوفد.

وفى ١٨ يونيو ١٩٣١، فقد الاتحاد النسائى المصرى شخصية من أقوى داعميه برحيل رئيسته الدائمة الأميرة أمينة إلهامي، والدة الخديوى عباس الثاني، التى كانت تُلقَّب بـ"أم عباس". لقد مثلت وفاتها خسارة فادحة ليس فقط للاتحاد النسائى المصرى وإنما للبلاد بأسرها لروحها السخية والعطوفة.

وقد تم إهداء قصرها الأنيق المطل على البحر فى بيبك باسطنبول إلى الحكومة المصرية لاستخدامه كمقر لبعثتها الدبلوماسية فى تركيا. وكانت هدى تعرف والدة الخديوى معرفة وثيقة. لقد كانت منخرطة فى العديد من الأنشطة الخيرية؛ وتمنت هدى أن يخلفها فى رعاية الاتحاد النسائى المصرى ابنها الأمير محمد على توفيق، الذى كانت تعرفه جيدًا، رغم أنه لم يكن مؤيدًا للنسوية وعُرف بمعارضته للتعليم الجامعى للفتيات. وكانت هذه مناسبة أخرى وجدت هدى فيها نفسها تلجأ لدعم رجل من أجل أنشطة نسوية. وكتبت هدى مرثية لوالدة الخديوى نشرتها ليچيبسيان.

"يا أم اليتامى، يا ملكة فعل الخير،

عهدك بيننا كان عهد قديسة

نشكو لها فى ملماتنا

ووحدها تخفف آلامنا.

ملكة مباركة، بلا جُند ولا سلاح،

تأسر القلوب والأرواح

ملأ سحرها بالمجد والمُنن

أيامها الأخيرة فى المنفى والمِحن

قلبها النبيل، وليس فقط دمها،

أتاها بقدرة من عند الله

تنهل بها فى أزمان التعصب العصيب

من حبنا طاقة أبدًا لا تغيب

أينما هدَّد الموت بالجوع والجهل

القوى قبل الضعيف

زرعت الحياة، فى صمت تام،

بنظرة، بلفتة جميلة أو بسمة وديعة

ولكن السر الكريم المحيط بزيْن أعمالها

كان يخرج مع أنفاس النفوس التى تصليّ

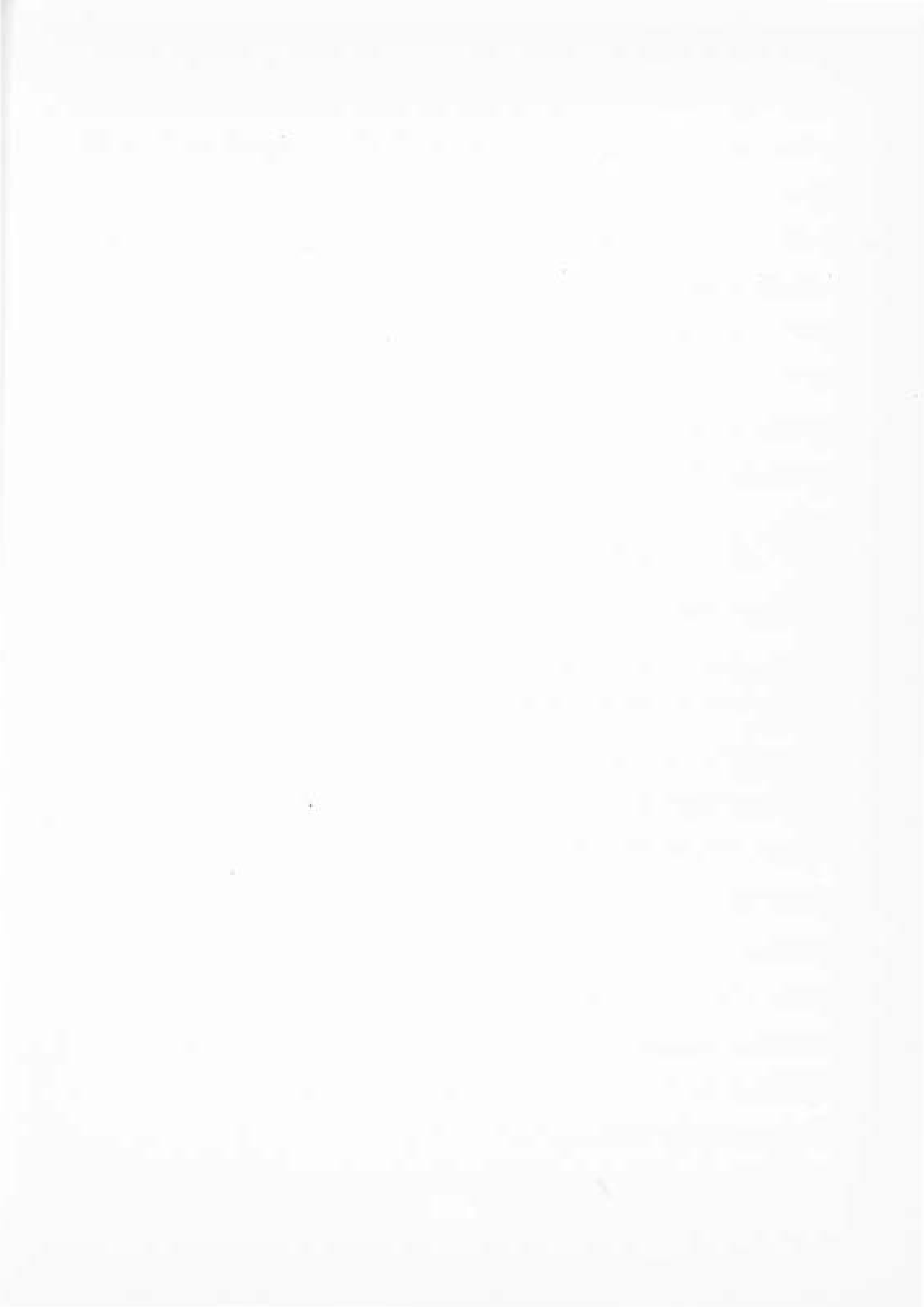
لكى يأتى لها بما يسعدها ويرضيها

فى ملكوت السماوات الخالد ذى الكمالِ.

(رثاء من هدى شعراوي).

وفى ١٩٣١، نشرت ليچيبشيان النداء الذى وجهته العصبة النسائية العالمية من أجل السلام والحرية (**WILPF**) والتحالف الدولى للمرأة **IAW** وعدد من العلماء والمثقفين مثل ألبرت أينشتاين والكاتب الفرنسى رومان رولان، والداعى إلى السلام ونزع السلاح فى العالم.[٢٨] وراح نطاق الصراع الاجتماعى والاضطراب السياسى يتسع على خلفية الكساد الاقتصادى فيما بين ١٩٢٩-١٩٣٢، وتصاعدت كراهية الأجانب حول العالم. وعلى غرار النسويات الأخريات، أصبحت هدى داعية أشد حماسًا للسلام ونزع السلاح مما قبل. وأصبح صعود هتلر والنازى فى ألمانيا بسرعة مصدرًا آخر للقلق الكبير.

وفى الوقت الذى راحت فيه هدى تستعد لصياغة رد ملائم على الوضع الدولى المثير للانزعاج وكذلك مواصلة معارضتها لصدقى فى الداخل، وقعت بلا سبب مشكلة غير متوقعة فى حياتها العائلية وضعتها فى موقف صعب. فقد وافقت حورية التى كانت قد أصبحت مقربة جدًا لهدى، على عرض للزواج من شاب يُدعى ابراهيم حلمي، كان قريبًا لزوجة صدقي. وكان حلمى مسؤولًا فى إدارة التخطيط الحضرى فى الإسكندرية عن زراعة المسطحات الخضراء والحدائق. وكانت فكرة ارتباطه بحورية قد أزعجت مجموعة النساء لأنها تخلق رباطًا عائليا بصدقي. ولكن حورية بدت مهتمة بعريسها فى حين كان حلمى هائمًا بها بشكل واضح. ولم يسع هدى سوى التعاطف مع قصة حبهما مع تمنياتها لهما بالتوفيق.(٢٩)



-٩-

أعداء للحرب بالفطرة

شهد ربيع ١٩٣٢ تطورًا محوريًا فى الاتحاد النسائى المصرى حين انتقلت المنظمة أخيرًا إلى مقرها الجديد والفسيح فى شارع القصر العيني. إذ بدا وكأن الاتحاد يزداد قوة باطراد. وجرت احتفالات الافتتاح الرسمى على مدار يومى ٢٨ و٢٩ أبريل. وأصبح المبنى يُعرف من الآن فصاعدًا باسم "دار المرأة". غير أن الخوف من خدش الحياء العام الزائف حال دون كتابة كلمة "المرأة" على الواجهة، وأثار ذلك اندهاش سيزا وسخريتها.(١) وقد سبقت ذلك الحدث سنوات من الجهود الدائبة فى جمع التبرعات بعد أن تبخَّرت الآمال فى الحصول على دعم من الحكومة بسبب العداء القائم بين الاتحاد وإسماعيل صدقي. ويجب أن يُقال إن هدى تعد مسؤولة شخصيًا إلى حد ما عن هذا الوضع لعدم إخفاء عدائها تجاهه. وقد أشادت فى كلمتها الافتتاحية بوالدة الخديوى وتوجهت بالشكر إلى الوالدة باشا وابنها الأمير محمد على توفيق لرعايته الحفل بعد رحيلها. ونُظِّم بالمناسبة حفل خيرى إضافة إلى عرض مسرحية "ليلة عند سفح الأهرام" لتوفيق (تيو) عقاد. وقدمت البنات الاستعراض المعتاد، هذه المرة عن موضوع القوقاز، بمشاركة حواء وحورية وسعاد راشد الجميلة، شقيقة فاطمة نعمت

راشد، وزينب شقيقة منيرة عاصم، إضافة إلى عرض للرقص الشركسي. وغنّت أم كلثوم كما كانت تفعل فى مناسبات الاتحاد النسائى المصرى السابقة. وكانت مدرسة الاتحاد النسائى المصرى للتدبير المنزلى والمهنى قد افتُتحت بالفعل فى المبنى الجديد فى السابع من أبريل عام ١٩٣٢.

وفى الوقت ذاته، انصب اهتمام هدى على زواج محمد ومنيرة الوشيك. وتم الزفاف فى صيف ١٩٣٢ فى احتفال خاص ضم عددًا محدودًا من الضيوف فى منزل حسين وفاطمة عاصم بالزمالك. ثم اصطُحبت منيرة إلى المنزل الكبير فى ٢ شارع القصر العيني. وكانت وصيفات الشرف المرافقات شقيقتيها زينب وعائشة إلى جانب حوا وحورية. أما الصغيرات اللائى سرن خلف العروسين تُمْسكن بذيل الفستان أثناء هبوط الدَّرَج فقد كُن أخت منيرة الصغيرة هدى عاصم وابنة عمها قدرية رفعت، ابنة عزيزة فهمي. وكانت لدى هدى قناعة بأن هذا الزواج فاتحة لعهد جديد أكثر سعادة للعائلة.



حفل زفاف محمد ومنيرة.

وبقدر ما كان يشغل هدى، فقد استقر أخيرًا ابنها مع قريبته، وسيصبح دون شك عما قريب أبًا. واصطُحبت منيرة إلى القصر فور انتهاء الاحتفال. لم تكن هدى لتقبل أن تذهب إلى منزل خاص بها وتريدها أن تعتبر القصر منزلها الخاص إلى الأبد.

واستمر برنامج أعمال وسفرات هدى كما هو بلا هوادة. وذهبت كالعادة إلى أوروبا فى صيف ١٩٣٢ وأمضت شهر يوليو فى لندن وأغسطس فى منتجع إيڤيان بفرنسا لتلقى العلاج السنوى لساقيها. وظلت سيزا مع بقية عائلة هدى التى توجَّهت جميعها إلى المنزل الذى اقتنته فى حى لوران بمحطة الرمل بالإسكندرية، حيث ترددوا على جميع أماكن الترفيه. فقد رافق تطوير مشروع الكورنيش المُحاذى للبحر إنشاء مستمر لشواطيء ومنتجعات جديدة، أضافت الكثير للطابع الكوزموبوليتانى العصرى للمدينة. وبدا محمد ومنيرة سعيدين فى هذه الفترة الباكرة من زواجهما. وكانت سيزا تخطر هدى بانتظام عن أنشطتهم والأماكن الكثيرة التى يرتادانها، والحالة المعنوية الطيبة لمحمد التى أصبحت بادية للعيان.

"إننا نقضى عطلاتنا فى ارتياد مكان جديد كل يوم، من ستانلى بك إلى سيدى بشر بالـ "برى فلوري" (الحقل المُزهر)، ودار السينما بالكازينو. لقد أصبحت الإسكندرية مكانًا عصريًا واسعًا عامرًا بالمتنزهات. كما يحفل شاطئ ستانلى بك بمرتاديه من القاهرة والإسكندرية. وتضفى عليه الشماسى الجميلة الملونة المزيد من البهجة والأناقة. ويمكن للجالس على المقهى الملاصق للكبائن أن يشاهدهم فى أزياء الشاطيء بأنواعها وكذلك المايوهات الكاشفة للكثير".

وكتبت سيزا فى نفس الرسالة عن الدعوة لتناول الغداء فى منزل أهل منيرة بزيزينيا. وحكت فى نبرة مداعبة "أن دادى كان فى قمة اللطف وأنه بدا فى

الواقع وكأنه ربة المنزل.[٢] وكان حسين عاصم، والد منيرة الوسيم والأنيق والممشوق القامة، يحيط ضيوفه بعناية ودودة فائقة.

وقد اضطرت سيزا إلى أن تُحيط هدى علمًا فى نفس الصيف ببعض الأنباء السيئة. فقد توفيت أخت هدى غير الشقيقة لوزة التى كانت تكبُرها كثيرًا والتى جعل مرضها الطويل وفاتها متوقعة بعض الشيء. ولم ترجع هدى إلى مصر لحضور الجنازة. فقد كانت تعانى هى نفسها من متاعب صحية مختلفة وإن لم تسْعَ إلى الحصول على تشخيص حقيقى لها. وكانت تجاهد قدر المستطاع لتجاهل هذه المشكلات بدلًا من مواجهتها، لرغبتها فى عدم وجود ما يعوق عملها. وبعيدًا عن وفاة لوزة، كانت الأوضاع تتطور فى مصر كما توقعت هدى وتثير المزيد من القلق، وأرادت هى التركيز على مشاغلها فى أوروبا.

وقد تلقت هدى، خلال الصيف، رسالة من مارچيرى كوربيت-آشبى جعلتها تشعر ببعض التقصير. فقد كتبت إليها رئيسة التحالف الدولى للمرأة، لتُذكّرها بواجباتها كعضو فى اللجنة التنفيذية للتحالف الدولى للمرأة، والتى أهملتها هدى منذ بعض الوقت. وسألت كوربيت-آشبى هدى إن كانت تجد صعوبة فى أن توفر وقتًا للتحالف الدولى للمرأة، وإذا ما كانت ترغب فى أن يتم استبدالها. وقد جاء هذا السؤال المباشر كالصفعة لهدى على نسيانها. لقد كانت كوربيت-آشبى مُحقة تمامًا. فقد شتَّتها مشاغل عائلتها وحياتها الخاصة ومسؤوليات المجلة وتضاعف الأنشطة الخيرية فى مصر، علاوة على تركيزها مجددًا على التطورات السياسية فى عهد صدقي، بعيدًا عن الاهتمام بدورها فى التحالف الدولى للمرأة، مما أتاح له أن يتراجع إلى خلفية اهتماماتها. وأثناء وجودها بانجلترا، ذهبت هدى لزيارة كوربيت-آشبى فى منزلها الصيفى بمقاطعة ساسكس الغربية للتحدث فى الموضوع. ولم تكن هدى قد فكّرت فى ترك اللجنة

التنفيذية. وقد أدركت أنه يجب عليها الآن إما أن تتخلى عن مسئولياتها بالتحالف الدولى للمرأة أو أن تستأنفها بالجدية اللازمة. وقد اختارت البقاء فى التحالف الدولى للمرأة وألقت بنفسها مرة أخري، وكأنها تثأر من تقصيرها السابق، فى خضم الشؤون الدولية للمرأة.

وحين عادت إلى القاهرة، قرّرت بوضوح أن سيزا ستتولى من الآن فصاعدًا المسؤولية الكاملة عن لجيبسيان وكلفت حوا وكتيبتها من "الشابات" بتولى ما يخص أسواق الاتحاد النسائى المصرى وغيرها من الأنشطة المشابهة، لتعاود مرة أخرى الغوص فى غمار النضال الدولى من أجل السلام والعدل. وقد كانت "الشابات" مُفعمات بالحماس ولاحظت هدى أنهن سيُبلين بلاءً حسنًا دون الكثير من التوجيه. وكانت هناك دومًا فتيات جدد ينجذبن إليها. فقد كانت الأختان أمينة وكريمة السعيد تثبتان قوة الإرادة، بخاصة أمينة، التى قرّرت أن تصبح صحفية. بالإضافة إلى سهير القلماوى التى كانت تتميز بالمهارة والتصميم، والتى ستحقق حياة عملية حافلة بالنجاح، وكذلك شريفة لطفي. أما درية شفيق، التى أنجزت بتفوق لامع دراساتها فى السوربون، فقد كان يملؤها الطموح وتود تحطيم القيود من حولها. ولذا؛ فقد رفضت البقاء فى ظلال سيزا بالمجلة، فى الوقت الذى لم تكن الأخيرة لتوافق على مشاركة أحد فيما أصبح فى نظرها "مجلتها". ولكن درية، التى كانت قريبة من قلب هدى، كانت متطلعة، وقد كانت بوضوح كاتبة متميزة. وأخيرًا، ذهبت للعمل فى مكان آخر لتهرب من سيزا التى كانت تشعر أنها تقيِّد حركتها. وإن كان هذا يعنى أيضًا أن تفقد إلى حد ما التواصل مع هدى. إلا أن وجود فتيات بهذه القدرات فى الجيل الجديد كان يملأ هدى ثقة فى المستقبل.

وفى تطور آخر عام ١٩٣٣، اتصلت الناشطة الفرنسية كاميى دروڤيه، الأمين العام للرابطة الدولية للنساء من أجل السلام والحرية، بهدى وسيزا وطلبت أن يقوم الاتحاد النسائى المصرى بجمع توقيعات فى مصر تأييدًا لمناشدة دولية أطلقتها تدعو لنزع السلاح. إلا أن المفارقة تمثلت فى أن السبيل الوحيد للحصول على توقيعات لمثل هذه القضية هو الحصول أولاً على توقيع صدقى باشا بوصفه رئيسًا للوزراء، بحيث يمكن لمسؤولى الحكومة وسواهم أن يشعروا أن بوسعهم هم أيضًا التوقيع. وقرّرت هدى عدم التحدث إليه؛ ولذا اتصلت سيزا بمكتبه لطلب مقابلته، وقد قبل بكياسة ووافق على التوقيع على المناشدة وسألها والقلم فى يده، بابتسامة ساخرة بعض الشيء: "هل من شيء آخر يمكننى عمله لك؟". لا شك أنه كان رجلًا يتمتع بالجاذبية، وقد كسب تعاطف سيزا فى التو واللحظة. وتمكن موظفو الحكومة بعدها من التوقيع على المناشدة دون التخوف من أى عواقب قد تطول عملهم. كما وقّعت العديد من النساء وأعربت دروڤيه عن سعادتها لمساهمة مصر وعن أملها فى أن يفضى ذلك إلى فتح فرع جديد للرابطة بها.

وبمرور الوقت، راحت الأنباء الواردة من ألمانيا تثير قلقًا متزايدًا. وكانت الضغوط السياسية قد أصابت الحركة النسائية بالشلل. وقال أحد مخاطبى هدى الألمان، والذى لم يتم الكشف عن اسمه لأسباب مفهومة: "يمكن لأى فرد يُعمل العقل أن يتصور طبيعة حركة نسائية تضطر للخضوع بلا شروط لديكتاتوريين مثل هتلر وجورينج وجوبلز".[٢] لا يمكن لأحد أن يفوته مصير اليهود فى أوروبا وألا يتأثر بسببه، وقد كانت هدى واعية لذلك بالتاكيد. وقد نشرت "ليچيبسيان" مقالات تدين عدوان الفاشية الإيطالية ضد أثيوبيا والعنف المتصاعد داخل إيطاليا ذاتها. وأصبح النضال ضد الحرب فى هذه الحقبة المتأزمة فى العالم،

هو القوة المحركة للحركة النسائية. وازدادت الاضطرابات فى فلسطين فى نفس الوقت وواصلت هدى التنديد بقمع بريطانيا للاحتجاجات الفلسطينية. وأرسلت برقيات إلى التحالف الدولى للمرأة باسم الاتحاد المصرى جاء فيها: "إن الاتحاد النسائى المصري، الذى ينتابه القلق البالغ إزاء الأحداث الفلسطينية الأخيرة يعرب عن أسفه للهجمات المسلحة التى ترتكبها السلطات ضد الأهالى العُزَّل الذين يطالبون بسلمية بحق الوجود. إننا ندعو إلى تدخل فوري".(٤)

كانت هدى تثق بقوة فى إمكان فرض العدل فى العالم أجمع من خلال جهود عدد كاف من الناس ذوى الفكر السديد. إلا أن الأحداث تآمرت فى الثلاثينيات لتثبت لها أنها مخطئة. بل إن تعلقها المتنامى بفطرتها الإصلاحية قادها إلى أسوأ إحباطاتها على الإطلاق. وأدركت كم كان التضليل البريطانى للهاشميين حول مستقبل سوريا الكبرى مُقزِّزًا. وكانت مراسلات حسين - ماكماهون التى كشف عنها الثوار الروس فى ١٩١٧ قد أخرجت إلى النور المفاوضات بأسرها، التى كان يُراد لها أن تظل سرية أبد الأبدين. لقد قسَّم الفرنسيون والبريطانيون المنطقة بينهم بخبثٍ شديد، وبعدها قام الفرنسيون بتفتيت سوريا تحقيقًا لمصالحهم. وفى فلسطين، كانت الحكومة البريطانية تبرم اتفاقيات مزعجة للغاية مع القيادة الصهيونية. وبعثت الحركات النسائية فى فلسطين برسائل طلبًا لمساعدة هدى التى كانت قد أصبحت شخصية دولية مرموقة. لقد كان خوف الفلسطينيين من الصهاينة يثير الانزعاج الشديد بالقدر ذاته الذى كانت تثير به النازية خوف اليهود فى أوروبا، وهو ما ستتضح مبرراته بشكل مرعب لاحقًا.

وبدأت لجيبسيان تغطى الأحداث الجارية فى فلسطين وتأسى لها. وقد أفضت طرب عبد الهادي، زوجة عمدة القدس، إلى هدى بما دار بين زوجها

وداڤيد بن جوريون، الزعيم اليهودى فى فلسطين. إذ سأله العمدة عونى عبد الهادى عن عدد اليهود الذين يُخطِّط الصهاينة لاستجلابهم إلى فلسطين. وأجابه بن جوريون صراحة بأنهم: "يتوقون إلى دولة داخل حدود اسرائيل التوراتية، تأوى أربعة ملايين من السكان"، بما يعنى أن الهدف الحقيقى للقادة الصهاينة يتمثل، إذا ما وضعت المساحة المحدودة لفلسطين فى الاعتبار، فى ترحيل الفلسطينيين واستبدال اليهود بهم.[٥]

وكان الهدف من مؤتمر التحالف الدولى للمرأة المزمع عقده فى مرسيليا فى أبريل ١٩٣٣، هو الدعوة للسلام.[٦] وقرَّرت هدى أن تنتهز الفرصة للإفصاح عن قلقها للوضع فى فلسطين أمام التحالف الدولى للمرأة مباشرة. وكانت الهيئة الأم المُسمَّاة "المنظمات الدولية للمرأة" والتى يتبعها التحالف، قد شكلت لجنة دائمة لنزع السلاح، وأصبحت روزا مانوس أمينتها. وفى فبراير ١٩٣٢، توجَّهت مارچورى كوربيت-آشبى كمندوبة لبريطانيا إلى مؤتمر حول نزع السلاح فى چنيڤ عقدته اللجنة المذكورة. وقدمت إليها هدى، بوصفها عضوًا فى اللجنة التنفيذية للتحالف، اقتراحًا مفاده أنه يتعين على لجنة نزع السلاح أن تدعم المطلب العربى بإيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين.[٧] ولا شك أن ذلك كان اقتراحًا يصعب على الجماعات النسائية الدولية قبوله فى هذا الوقت، غير أن هدى لم تكن قادرة على استيعاب كيف يمكن لاضطهاد اليهود فى أوروبا أن يبرِّر العدوان على سكان آخرين لا حيلة لهم فى فلسطين، فى الوقت الذى كانت المجموعات الدولية للمرأة تركِّز على محنة اليهود فى مواجهة تيار النازية المتصاعد.

وحين أنشأت الهيئة الأم للمنظمات النسائية الدولية لجنة للبحث فى سبل معاونة اللاجئين من ألمانيا، "بدون تمييز على أساس الجنس أو الرأى"، أعلن

الاتحاد النسائى المصرى مساندته للاقتراح. إذ أرادت هدى أن تقيم توازيًا بين الاضطهاد فى ألمانيا ومحنة الفلسطينيين.[٨] وتلقت فى الوقت ذاته تقريبًا رسالة من كوربيت-آشبى التى نمى إلى علمها أن النازيين ألقوا القبض على الناشطة التشيكية فرنتيسكا بلامينكوڤا، عضو اللجنة التنفيذية للتحالف الدولى للمرأة. وكانت كوربيت-آشبى تعرف أن لهدى معارف جيدة فى ألمانيا يمكنهم معرفة ما حدث لفرانتيسكا. وقد بعثت لها هدى بالرسالة التى تلقتها من السفير الألمانى فى مصر، يؤكد فيها أن بلامينكوڤا لم تتعرض للاعتقال.[٩] ولكنه ثبت للأسف أن هذا التأكيد ليس صحيحًا، وأن بلامينكوڤا فى النهاية لقيت حتفها على أيدى النازيين.

وفى خضم انشغالات هدى وأنشطتها الكثيرة، كانت تجد فى الفن سلواها بشكل متزايد. إذ كانت تحب أن تتجاوز توتراتها وهمومها إلى ممارسات أهدأ وأبعث على التأمل. وقد شهدت هدى فى مارس ١٩٣٣، معرضًا للرسم الشرقي، ضم بعض أعمال كيس فان دونجن أثار شديد إعجابها.[١٠] ومع ذلك فقد كانت تشعر أن الفنانين المصريين يبدعون الآن أعمالًا لا تقل جودة عن الغربيين. وقرَّرت اقتناء بعضها من إبداع يوسف كامل وراغب عياد ومحمود سعيد. كما أنها ساعدت الرسام التركى هدايت داتش الذى أثبت جدارته فى مصر واعتبر نفسه جزءًا من المدرسة المصرية. وقد كانت وطنيتها المصرية تتحكم فى اختياراتها الفنية. ورغم إعجابها البالغ بالفن الغربي، فقد تركت مهمة اقتنائه لمحمد محمود خليل، الذى كان من كبار هواة جمع التحف الفنية، ولم يكن معجبًا بالتشكيليين المصريين، فكان يقتنى فقط أعمال الفنانين الغربيين. وقد نجح خليل فى تكوين مجموعة راقية سوف يخلفها لاحقًا للدولة المصرية.

وقرب نهاية مارس ١٩٣٣ سافرت هدى وسيزا إلى فرنسا للمشاركة فى مؤتمر التحالف الدولى للمرأة. وكانتا قد نظمتا قبل بدء أعمال المؤتمر القيام بجولة لإلقاء مجموعة من المحاضرات فى المدن الفرنسية للساحل المتوسطي، ضمت نيس وطولون وهيير وكان وجراس ومنتون، حيث تحدثتا إلى الحضور المحلى عن السلام والنسوية. وتحدثت هدى عن الحاجة إلى السلام فى حين تحدثت سيزا عن الخطوات الهائلة التى أنجزت فى مصر على طريق التطور وتمكين المرأة. وفى محاضرتها فى دار أوبرا طولون، أشارت هدى إلى زعم الرجال أن لديهم ما يبرر رفض منح النساء حق التصويت لأنهن لن تقاتلن فى ميادين الحرب. وقلبت هدى هذه الحجة رأسًا على عقب بالقول إن "النساء اللائى عانين من ويلات الحرب ولا تستطعن نسيان البشاعات التى شهدنها، تمنحن اليوم أنفسهن حق العمل من أجل دعم السلام والتفاهم بين الشعوب".(١١)

وفى مرسيليا، بدأ المؤتمر فى أبريل حول العمل والجنسية وعلاقتهما بدور المرأة. وقد تحدثت خلاله سيزا عن دور الأمومة فى النضال الذى يشنه النساء ضد عنف وأنانية الرجال. وقالت فى هذا الصدد "إن من واجب النساء أن تستلهمن من قلوبهن كأمهات كنوز الطاقة والحب التى ستهزم قوى الأنانية الذكورية المدمرة".(١٢) وقد ساندت هدى ماريا ڤيرون حين حثت على اتخاذ قرار يدعو نساء العالم إلى رفض العمل فى "مصانع الحرب"، التى تُنتج فيها الأسلحة، حتى وإن تعرّضن لعقوبات قانونية من جراء ذلك. ولم تكن كوربيت- آشبى قد أُخطرت مسبقًا بتقديم هذه الدعوة، وشعرت أنها ذات تبعات بعيدة المدى وغير واقعية. وكانت روزا ماريا ترأس حينها لجنة السلام فقامت بصياغة قرار واضح وحازم يدعم نزع السلاح والسلام ويدين إنتاج الأسلحة فى المصانع الخاصة غير الخاضعة للدول، بما فيها الطائرات العسكرية والأسلحة

الكيماوية.[١٣] واختُتم المؤتمر بحفل استقبال فخم فى مقر عمودية مرسيليا، ألقى خلاله العمدة الذى كان متعاطفًا مع القضايا النسوية خطابًا.

وفى مثل هذه الفعاليات، كانت هدى وسيزا تقسّمان بينهما الموضوعات التى ستتحدثان فيها. وعادة ما كانت هدى تتولى القضايا السياسية، بينما كانت سيزا تركّز على الحركات النسوية فى مصر، ومنها الحديث عن "الشابات المتطوعات". وبهذه المناسبة كانت قد جاءت معها بصور لهن لإعطائها للصحافة الفرنسية، حيث نشرتها جريدة "لافرانسيز". وتحدثت سيزا عن الاتحاد النسائى المصرى وإنجازاته، بداية من خلع الحجاب وفرض حد أدنى لسن الزواج ثم إقامة مدارس ثانوية وحرفية للبنات، وانتهاءً بالتحاق الفتيات بالجامعات.[١٤]

وقد بدا آنذاك أن صعود النازية فى ألمانيا عصيًا على الإيقاف ووجدت الجمعيات النسوية أنه قد أصبح من الأصعب أن تستمر فى عملها. وحملت الألمانيات اللائى جئن إلى مرسيليا معهن، كتاب سيجموند فرويد "قلق فى الحضارة"، كواحد من أعمال التعبير الحر الأخيرة. كما أحضرن قائمة بالجمعيات النسائية التى تم حلها، بما فيها فرع التحالف الدولى للمرأة. إضافة إلى قائمة بأسماء النساء اللائى طُردن من عملهن لمجرد كونهن نساء.[١٥]

وعودة إلى مصر، فقد تمت، خلال عام ١٩٣٣، ترجمة عدد آخر من المبادرات التى تقدم بها الاتحاد النسائى المصرى إلى تغييرات تشريعية. إذ أقنعت هدى ورفيقاتها الحكومة بإجازة قوانين عمل تحمى النساء العاملات من ساعات العمل الشاق اللاتى كنّ يخضعن لها حتى الآن. وسُمح لهن بحد أدنى من الراحة قدره إحدى عشرة ساعة يوميًا، سبع منهن أثناء الليل، من العاشرة مساءً حتى الخامسة صباحًا. وإضافة إلى ذلك، فقد ارتفعت معنويات هدى

وزميلاتها حين أبدى الدكتور شاهين باشا، وزير الصحة، الذى كان أبعد ما يكون عن التعاطف مع النسوية، تصميمه على إلغاء الدعارة وشرع فى اتخاذ خطوات ضدها. وأُغلقت بيوت الدعارة فى يونيو من نفس العام فى ثلاث مدن هى دمنهور وأسيوط والمنصورة.[١٦] كما ألقى خطبة عن الأمراض التناسلية فى الجمعية العامة للاتحاد الطبى الدولي، أعلن فيها اتخاذه لخطوات محاربة هذه الآفة فى مصر. وأخيرًا، أقنعت هدى وزير الحقانية بأن يعلن عن تغليظ العقوبات القانونية ضد الزواج المبكر. وكان سن الزواج يبلغ من الناحية النظرية ١٨ عامًا للذكور و١٦ للإناث، ولكنه كثيرًا ما كان يتم تجاهله.

وفى المقر الجديد للاتحاد النسائى المصري، كانت بعض الشخصيات البارزة من الدائرة المتعاطفة مع قضايا المرأة تلقى بعض المحاضرات، منهم هيكل باشا وطه حسين، الذى جرى وقفه عن ممارسة مهام منصبه فى جامعة القاهرة عقب خلاف مع السلطات. ودعت نساء فلسطين، بعد أن سمعن بمصنع روض الفرج الذى عُرضت منتجاته بنجاح فى معرض دولى بفندق كونتيننتال القاهرة، هدى بإحضار حرفييها لعرض منتجاتهم فى معرض دولى بيافا فى مايو ١٩٣٣. كما بدأت الحركات النسوية التى اتخذت ولو جزئيًا الاتحاد النسائى المصرى نموذجًا لها، فى الانتشار فى المشرق وعُقدت مؤتمرات نسائية فى دمشق وبغداد.

وفى ٢٠ مايو ١٩٣٣، رُزق محمد ومنيرة بطفلتهما الأولى، حيث ولدتْ ملك، حفيدة هدى. إلا أن حماس هدى قد فتر لأنها كانت تأمل فى أن يكون المولود ذكرًا، ليكون الوريث الذى كانت الأسرة تحتاجه. كما شعر محمد أيضًا بخيبة الأمل. لقد قوبل مولد البنت بعدم فرح مما سبَّب جرحًا غائرًا لمنيرة التى كانت تكن حبًا عظيمًا لابنتها. لقد شعرت أن الدور الوحيد المناط بها لا يعدو أن تكون

منجبة للأبناء الذكور لمحمد، وأنها قد فشلت حتى فى ذلك. كما أن زوجها قد منعها من المشاركة فى الأنشطة الكثيرة الجارية حولها، مما جعلها تشعر أنها مُهمَّشة داخل هذا المنزل الكبير، بين خلية نساء تشاركن بلا انقطاع فى العديد من الأنشطة المهمة والمثيرة.

وبينما كانت هدى تؤكد أنها سعيدة بالطبع بانضمام طفلة جديدة للعائلة، كانت تُشدِّد أيضًا على الحاجة لمجيء ذكر فى الوقت المناسب، وبلا روية منها، طلبت من منيرة أن تأتى بطفل آخر بأسرع ما يمكن. وقد عانى محمد من خيبة أمل أسرته بعد مولد ابنته ورغبتهم الواضحة فى أن يكون له ابن لمجرد أن يرث أموال العائلة. وبدأ فى الخروج بمفرده، تاركا زوجته الشابة فى المنزل. وكان يقنع نفسه بأن لديها صحبة وافرة فى هذا المنزل الذى يعج بالنساء. وكان لاثنين من أصدقائه تأثير سيئ عليه. إذ يستفيدان من متعة مرافقته كل ليلة إلى أوبرج الأهرام وغيره من الأماكن المماثلة، حيث كان يحاسب على طعام وشراب كل فرد معه بينما يحيط بهم راقصات ومغنيات من كافة أرجاء العالم، جاءوا يرفهون عن الحضور الكوزموبوليتاني.

وإذا كان زواج محمد ومنيرة قد استمر حتى هذه اللحظة فلأن منيرة بذلت جهودًا مضنية للحفاظ على زوجها وامتنعت عن الإفصاح عما يدور بخلدها. غير أن حالها كان شديد الصعوبة. فهى لم تكن فقط متوترة بسبب إهمال زوجها لها، ولكنها كانت تشعر بالحرج من عزلتها وسط سيدات مستقلات مثل هدى وسيزا، لا تحملن هموم الحمل ولا يضايقهن أزواج يصعب إرضائهم. وكانت سيزا تدرك وضع منيرة البائس ولكنها كانت دائمًا منشغلة ولا تستطيع أن تمد لها يد العون. وقد واجهت منيرة مشكلة أخرى فى موقف هدى التى بدت وكأنها تلومها على فشلها فى إنجاب ذكر وكذلك على عجزها عن السيطرة على زوجها.

وكان تطور الأوضاع الداخلية فى مصر فى خريف ١٩٣٤ يثير قلقًا كبيرًا فى قلب هدى ومساعداتها. وراح عدائهن تجاه صدقى باشا يتنامى يومًا بعد يوم. كنّ مقتنعات بأنه لا يعمل من أجل مصلحة مصر. فحالة التعليم كارثية، علاوة على بطالة قطاع كبير من الخريجين، والسيطرة غير المقبولة للحكومة على الجامعة وكذلك المشكلات التى ظلت بلا حل فى مجال التعليم الثانوى والعالى للفتيات. وكان وزير المعارف، مراد باشا سيد أحمد، قد رفض تنفيذ خطة طه حسين لإنشاء مدارس ثانوية للبنات. ورُفض كذلك تعيين خريجات جامعيات فى قامة سهير القلماوى وفاطمة فهمى فى مناصب حكومية وحيل دون انضمام نعيمة الأيوبى التى درست المحاماة فى باريس، لنقابة المحامين المصرية.

بل وأصبحت أناقة صدقي، وحتى القرنفلة التى يضعها دائمًا فى عروة سترته، مادة لسخرية النساء اللائى رأين فى سلوكه العابث شيئا جارحًا فى الوقت الذى تحتاج فيه مسائل جادة لوضع حلول لها. لقد كان فى تجاهل صدقى الواضح للطموحات والكرامة الوطنية ما يثير حنقهن بشدة. فالحاجة ماسة لتشريعات جديدة فى مجالات عدة، ولكن رئيسَ الوزراء لم يكن يرى غير احتياجات قطاع الأعمال، وانتشرت مقولة أن "مصر تحيا فى عهد حكومة البيزنس" ووُصف صدقى بأنه "عكس الوطني". ورغمَ هذا التركيز على قطاع الأعمال، لم تكن هناك وظائف. وبدا علاوة على ذلك أن نزاهة صدقى موضع شبهات. فقد اتُهم بتعاملات فاسدة مع المقاول، حتى فى سياق أكثر مشروعاته نجاحًا، وهو بناء كورنيش الإسكندرية.(١٧)

ووجدت هدى أن هذا التوجه غير مقبول. فقد كبرت فى عائلة كانت تبذل دومًا كل ما فى طاقتها لدعم المسيرة الديمقراطية فى البلاد، وكافحت من أجل تحرير مصر من الاحتلال البريطاني. لقد شاهدت والدها وشقيقها وزوجها وهم

يدفعون من مالهم الخاص، بل وكانوا مستعدين فى النهاية أن يدفعوا حيواتهم ذاتها إن استدعى الأمر، من أجل تأسيس حكم القانون وتحقيق الديمقراطية فى كافة جوانب الحياة المدنية فى مصر. وقد أمضت هى شخصيًا حياتها وهى تحاول أن تحذو حذوهم. ولذا فقد قرَّرت أن تحارب صدقى من خلال مجلتها وأن تلقى بثقلها خلف مستشاريها وأصدقائها من الأحرار الدستوريين، حتى وإن بدوا أحيانًا وكأنهم يفتقدون القوة الكافية للقبض على مقاليد الحياة السياسية فى البلاد.

وبعد ثلاث سنوات من الحكم غير الدستوري، اتُهم صدقي، حتى من قبل الملك ذاته، بأنه قد أقام ديكتاتورية. وأن مقترحاته الدستورية خَلت من محاولة الحد من سلطات البريطانيين فى التدخل فى مصر، وخاب أمل البلاد فى شخصه. وقد أقر البعض بمحاولاته التى لا شك قام بها للتخفيف من تداعيات الكساد العالمى على مصر، وعلى وجه الخصوص فى معالجة التبعات الكارثية لانهيار أسعار القطن. وفى ٢٧ سبتمبر من عام ١٩٣٣ قبل الملك فؤاد استقالته، بعدما شعر بالحاجة إلى تعيين شخصية أقل إثارة للجدل. وقد ارتاحت هدى وسيزا ورفيقاتهما كثيرًا لذلك. كان اعتقاد هدى أنه لا يمكن للحياة السياسية فى مصر أن تتحسن فى وجود صدقى فى منصبه. وتم تعيين عبد الفتاح يحيى باشا، هذا الرجل الأنيق والدمث القادم من الإسكندرية، رئيسًا للوزراء، وقد بقى لمدة عام وبعض عام فحسب. كانت الأجواء غريبة فى مصر، حيث بدأت صحة الملك فى التدهور وراجت التوقعات بحدوث تغيير.

وفى ديسمبر ١٩٣٣، دعى محمد على علّوبة باشا، وكان مالكًا لواحدة من أقوى الشركات القانونية، نعيمة الأيوبى للعمل كمتدربة فى مكتبه، لكى يبرهن على أنه لن يكون للحكومة الكلمة الأخيرة فى قضية النوع. وفى الوقت ذاته، عقد

الاتحاد النسائى المصرى احتفالاً رسميًا على شرف أوائل خريجات الجامعة، احتفالاً بإنجازهن. وقدَّم علَوبة باشا نعيمة بكلمات حماسية جدًا وتحدث عن شغفها بمساعدة الضعفاء والمقهورين فى بلادها. وقال عن السيدة الشابة وهى ترتدى الدثار الأسود الذى يرتديه المحامون فى المحاكم إنها "هدية من اتحاد المحامين"(١٨)

ثم قدَّم طه حسين خريجاته الأربع من جامعة القاهرة، ومن بينهن سهير القلماوى التى أتمت دراستها فى قسم اللغة العربية، فى حين تخرجت الثلاث الأخريات، فاطمة فهمي، وزهيرة عبد العزيز، وفاطمة سالم فى قسم الفلسفة واللغات اليونانية واللاتينية. وقال طه حسين إن هؤلاء الشابات تتمتعن بقدرات لا تقل عن أى رجل تخرج من السوربون، وأعلن أنه يقف كتفًا بكتف مع النسويات من أجل ضمان إتاحة أعلى درجات التعليم للفتيات كما هو للفتيان. ثم تلاه الدكتور سامى كامل، أحد المستشارين الطبيين للاتحاد النسائى المصرى ليقدِّم الشابات اللائى أتممن لتوهن دراساتهن الطبية فى انجلترا، ومنهن كوكب حفنى ناصف، التى أنهت الدراسات العليا لتصبح طبيبة أمراض نساء متميزة وتُحقق بذلك واحدًا من أحلام باحثة البادية.(١٩) وضمَّت الخريجات أيضًا لطفية النادي، التى قدَّمها فؤاد بك أباظة، مدير الجمعية الملكية للزراعة. وألقى الشاعر المعروف خليل مطران أنشودة كتبها بهذه المناسبة. وذكرت هدى، فى كلمتها الختامية بالدور الذى اضطلع به قاسم أمين فى نهضة المرأة وكذلك باحثة البادية التى كان لصوتها القوى فى الأيام الأولى للنضال من أجل تقدم المرأة أعظم التأثير.

وبلغت إنجازات النساء المصريات أوجها فى ١٩٣٣ بصورة رائعة مع انتصار لطفية النادى التى فازت فى سباق جوى على كافة المشاركين. وكان

الاتحاد النسائى المصرى قد تولى رعايتها والإنفاق على تدريبها. ويُذكر أن مصر للطيران كانت قد بدأت العمل فى ١٩٣٢ وأُنشئت "أعمال مصر للطيران" لتعليم الشباب قيادة طائرة چيبسى موث. وقام وزير الطيران البريطانى لورد لندنديرى بتهنئة لطفية على أدائها.[٢١] وقرَّرت هدى تشجيع السيدة الشابة بأن اشترت لها طائرة خاصة وفتحت لها حسابًا فى بنك مصر. كانت سياسة هدى الشخصية تتمثل فى تزويد الشباب بإمكانيات تعليمهم وأمنيتها أن تُطبق هذه القاعدة على جميع المستويات فى كافة أنحاء البلاد، بغض النظر عن النوع.

وفى بدايات ١٩٣٣، وقعت مأساة فى المحيط الثقافى لهدى حين أصيب النحات مختار صاحب تمثال نهضة مصر بمرض عضال. وقرَّرت هدى أن تواظب على زيارته يوميًا طول فترة مرضه، فقد كان مختار شيخ الفنانين المصريين ويتساوى مع الفنان الفرنسى رودان فى قامته الفنية على المستوى القومي. وقد كان ما أنجزه عظيمًا بكل المقاييس، ويستحق التقدير. وشعرت هدى بأن من واجبها الحفاظ على اسمه وجعله يكتسب الشهرة التى يستحقها. وبفضل جهودها، تم لاحقًا بناء متحف لعرض أعماله وتنظيم مسابقة منتظمة تُمنح فيها جائزة تحمل اسمه إلى واحد من شباب النحاتين. وكان أملها أن يحظى بها ربيبها عبد البديع فى يوم من الأيام.[٢٢]

وقد أخذت تدرك داخلها، وهى تزور مختارًا يومًا بعد يوم، أن روحه تنسحب تدريجيًا من جسده الهزيل. لقد أخمدت المعاناة حسه الساخر وضعضعته. ابتسامته الدافئة مازالت تقابلها لدى دخولها غرفته بالمستشفى كل يوم حاملة الزهور إليه. نادرًا ما كان ينام، ويسترجع طول الوقت أعماله الماضية فى خياله. ما زال يوجد الكثير ينبغى إنجازه! ويظل يُردِّد "حين أُشفي..."، وكان أصدقاؤه يقولون له بابتسامة "سوف تُشفى بالطبع".[٢٣] وتعبيرًا عن عرفانه

بزياراتها اليومية، كان مختار يردد لهدى بأنها تجسد له الآلهة إيزيس. وكانت تستحى من هذه التأكيدات وتشعر بالحرج. وبشكل تراجيدى تغيّبت هدى عن لحظاته الأخيرة حيث اضطرت للسفر فجأة إلى الإسكندرية مع حورية، التى مرض أيضًا خطيبها حلمى فجأة ولم يكن ممكنًا ترك الشابة الصغيرة تراعيه وحدها. وتُوفى مختار فى ٢٨ مارس ١٩٣٤. كما تُوفى أيضًا حلمي.

كانت عصبة الأمم واحدة من اهتمامات هدى الدولية فى ذلك الحين. لقد تأسَّست العصبة فى ١٩١٩ إلا أن مصر لم تصبح بعد عضوًا فيها. وفى بدايات الثلاثينيات، شعر الوطنيون والأحرار الدستوريون أن عضوية مصر يمكن أن تساعد على التخلص من السيطرة البريطانية وقوانين الامتيازات الأجنبية. وفى ١٩٣٤، بدا أن الصلة بين عصبة الأمم والعصبة النسائية العالمية من أجل السلام والحرية، التى كانت سيزا تولى أنشطتها اهتمامًا متزايدًا، تتيح مجالاً يمكن استغلاله فى حملة هدى ضد قوانين الامتيازات. وكان أغلب المصريين يشعرون بالغضب لعدم عضوية مصر فى عصبة الأمم فى الوقت الذى أصبحت دول شرقية أخرى مثل أفغانستان والعراق وفارس وتركيا أعضاءً بها. وآلت هدى على نفسها أن تسعى للحصول على العضوية المصرية، رغم ما قد بدأ يثبت من عدم فعالية العصبة كأداة لحفظ السلام.(٢٤)

وفى ١٥ نوفمبر ١٩٣٤، كان لتولىّ محمد توفيق نسيم باشا رئاسة الوزراء مُجددًا عقب بداية مرض الملك فؤاد الأخير آثار فورية. وشعرت هدى حينها بالثقة فى أن يكون رئيس الوزراء الجديد دعمًا وليس عائقًا، رغم اختلافها معه فيما سبق (حينما لم يُبْق على عبارة "ملك مصر والسودان" فى دستور ١٩٢٣)، واعتقدت أنه ربما ينقذ البلاد من مزيد من التدهور. وفى تطور كان له تأثير على محيطها الخاص، أحسَّت بارتياح حقيقى حينما قام وزير المعارف الجديد نجيب

بك الهلالي، بإعادة تعيين طه حسين فى ديسمبر ١٩٣٤ وطُلب من لطفى السيد أن يعود إلى منصبه السابق كمدير لجامعة القاهرة فى أبريل من نفس العام. وكان حسين قد تم إيقافه عن العمل بالجامعة فى ٣ مارس من العام السابق بسبب رفضه الانصياع لأوامر الحكومة فى حين استقال لطفى السيد فى ٩ مارس احتجاجًا على العقاب العنيف لصديق لم يفعل سوى الإفصاح عن رأيه. وأصبح الاثنان حينها ضحية للسلطات الضيقة الأفق.[٢٥]

واستطاع نسيم باشا تقريبًا فور توليه إقناع الملك بإلغاء دستور ١٩٣٠ الذى تم تعديله على نحو كارثى وكان مصدرًا لقلاقل شعبية كبيرة. وأشار نسيم باشا إلى أنه سيتم إعادة تفعيل دستور ١٩٢٣ مع عودة الانتخابات المباشرة، وكسب دعم الوفديين وغيرهم من الأحزاب المعارضة فى البلاد. وفى ١٨ أبريل ١٩٣٥، كتب الملك بنفسه إلى نسيم باشا مُعربًا عن رغبته فى إعادة صياغة الحكم الدستورى على أساس دستور ١٩٢٣. وقد علمت هدى بهذه التطورات لدى عودتها من مؤتمر التحالف الدولى للمرأة فى اسطنبول. وكانت رسالة الملك إلى نسيم باشا قد نُشرت فى الصحف. وكتبت بنفسها رسالة إلى نسيم باشا تخطره فيها بثلاثة قرارات اتخذها مؤتمر اسطنبول تدعو إلى إلغاء تعدد الزوجات والإقرار بالحقوق السياسية للمرأة واتباع معايير أخلاقية واحدة للجميع.

وفى ديسمبر ١٩٣٤ كانت هدى قد علمت بالأخبار المفرحة عن اعتزام مارچيرى كوربيت-آشبى وعضوات مكتب التحالف الدولى للمرأة التوقف فى مصر بعض الوقت فى إطار جولة بالشرق الوسط قبيل التوجه للمؤتمر الثانى عشر للتحالف فى اسطنبول. وكانت آشبى قد أصبحت مندوبة انجلترا فى مؤتمر نزع السلاح بعصبة الأمم، وكان ذلك خبرًا سعيدًا آخر رغم استقالتها اللاحقة من المنصب فى ١٩٣٥ بسبب عدم تحقيق تقدم فعلي. وكانت هدى وكوربيت-آشبى

قد أصبحتا، على مدار السنين، صديقتين وثيقتى الصلة وسوف تتيح زيارة القاهرة الفرصة لتعزيز هذه الصداقة. كما كانت دكتور كريستين باكر - فان بوص، نائبة رئيسة لجنة التحالف للسلام وشؤون عصبة الأمم تعتزم المجيء إلى مصر مع عضوات اللجنة التنفيذية الأخريات.

ثم بدأ الإعداد للسوق السنوية للاتحاد النسائى المصرى فى يناير ١٩٣٥. وفى هذا العام، أخرجت حوا عرضًا لمسرحية "بنات بلدي"، التى كتبها خصيصًا للمناسبة المسرحى الشهير توفيق الحكيم الذى كان حينها فى السابعة والثلاثين. وكانت بطلة العمل، فى استلهام واضح لانتصارات لطفية النادي، قائدة طائرات يرفض زوجها مرافقتها فى رحلاتها بالطائرة. وأخيرًا تم إقناع الزوج الخائف بمرافقتها بعد إلحاح منها، وبعد أن سخرت منه أقرب صديقتين لها، إحداهما محامية قديرة والأخرى صحفية لامعة. وقد حقّقت المسرحية نجاحًا مدويًا بأبطالها شريفة لطفي، قائدة الطائرة، وأمينة السعيد فى دور الصحفية، والممثل المرموق سليمان نجيب فى شخصية الزوج. وقد طُبع برنامج الحفل مجانًا فى مطابع بول باربى الذى كانت لا تزال مجلة ليچيبسيان تُطبع فيها. وقدم محمد شعراوى وابنة خاله نائلة سلطان، ابنة عمر سلطان، ورودًا من حديقتيهما لوضعها فى عراوى سترات الضيوف.[٢٦]

وبعد انتهاء السوق، كانت هدى مستعدة للاحتفاء بضيوفها من التحالف الدولى للمرأة اللاتى كانت مسرورة أنه قد أتيحت لها الفرصة لاستضافتهن، ولذا راحت تنظم إقامتهن لكى تضمن لهن قضاء أجمل الأوقات فى مصر. وكانت چيرمين مالاتير-سيلييه، مندوبة فرنسا المعروفة بأنها مغامرة بالفطرة قد أعلنت من قبل عن رغبتها فى زيارة صعيد مصر، قبل أن تحول دون ذلك الحرب التى بدت الآن حتمية. وكان هتلر قد أصبح قائد ألمانيا بلا منازع بعد وفاة

هيندنبورج فى أغسطس ١٩٣٤. وكان هذا منصبًا جديدًا جبّ منصبى المستشار والرئيس السابقين، وكان نذيرًا لما سيأتى لاحقًا. وعلى أية حال، لم يكن هناك ما هو أبسط حينذاك من تنظيم رحلة فى صعيد مصر.

وحين وصلت سيدات التحالف سعدت هدى مثلما توقعت بصحبتهن. واستمتعت بذكاء كوربيت-آشبى وجاذبيتها، وببلاغة مالاتير-سيلييه وتأثرت كثيرًا بتفاؤل روز مانوس من هولندا، وصدقها وطاقتها، وبكفاءة الهولندية الأخرى باكر ڤان- بوص. وأخطرت كوربيت-آشبى هدى بقبولها دعوة من أمينة جمعية يهوديات فلسطين للحقوق المتساوية بالقدس وبأنها سوف تزور القدس وسوريا قبل التوجه إلى تركيا، برفقة روزا مانوس، وكانت بالطبع أيضًا يهودية.[٢٧]

هذا وقد استقبلت السيدة استر ويصا فهمى وعضوات أخريات من الاتحاد النسائى المصرى سيدات التحالف لدى وصولهن إلى الإسكندرية فى ١٥ يناير ١٩٣٥، وتوجّهن سويًا بالقطار إلى القاهرة. وقد تم اصطحابهن من المحطة رأسًا إلى منزل هدى الفخم. وكانت كوربيت-آشبى ستصل بمفردها قادمة من الهند فى ١٩ يناير. وقد استضافت هدى بعض السيدات فى منزلها، فى حين أقامت كاترين بومباس، أمينة التحالف الدولى للمرأة، فى مقر الاتحاد النسائى المصرى حيث توجد غرفتان جميلتان للضيوف تطلان على الحديقة والنيل. ونزلت أخريات فى إحدى العوامات على الشاطئ الآخر من مبنى الاتحاد. وكان برنامج الأنشطة مُعدًا بعناية فائقة.

وفى ١٦ يناير، استقبل منصور فهمي، مدير مدرسة الأميرة فوزية الثانوية للبنات السيدات فى جولة بالمدرسة. وقد التقين فى حفل شاى بعد الظهر ممثلات عن المنظمات النسائية المصرية وكذلك الأجنبية الممثلة فى القاهرة

وأقمن مؤتمرًا صحفيًا. وفى اليوم التالي، قمن بجولة فى البازارات والأسواق والأماكن الجميلة فى المدينة. وقد اصطُحبن بعد الظهر إلى سقارة حيث دُعين إلى تناول الشاى فى منزل السيدة زوجة بيير لاكو، زوجة مدير قسم الآثار المصرية. وفى ١٨ يناير، نظِّمت لهن هدى رحلة نيلية إلى حدائق القناطر الخيرية، حيث استمتعن بمشاهدة النيل من زوايا متميزة. وحين وصلت كوربيت-آشبى فى اليوم التالى توجَّهت المجموعة إلى متحف القاهرة، كما زُرن حفرًا أثريًا يتم تحت إشراف البروفيسور سليم حسن بالقرب من الأهرامات. وفى المساء حضرن حفل استقبال فخيم أقيم فى ٢ شارع قصر النيل ضم قائمة طويلة من الشخصيات المصرية والأجنبية.

وفى ٢٠ يناير، زارت السيدات المتحف القبطى والكنائس القبطية، وتناولن الشاى مكتب المحامية صائبة جرزوزي، وحضرن أخيرًا اجتماعًا فى مقر اتحاد العمال رأسه الأمير عباس حليم. وقد وُزعت عليهن نسخ مقلدة صغيرة لتمثال مختار "الفلاحة"، التى تمثل الواقع الأبدى لمصر، بمناسبة العيد العاشر لمجلة ليچيبسيان. ثم تفقدن فى ٢١ يناير مصنع نور الهدى للفخار بروض الفرج ومدرسة الاتحاد النسائى قبل التوجه لفندق سميراميس حيث أقام لهن الاتحاد النسائى المصرى بالاشتراك مع لجنة السلام بالتحالف الدولى للمرأة مأدبة غداء فاخرة. وقد حضر المأدبة نحو سبعين ضيفًا من بينهم عدد من رؤساء الوزراء السابقين والوزراء والسفراء وكبار الوجوه السياسية والصحفيين، إلى جانب بعض من أصدقاء الاتحاد النسائى المصرى المخلصين.

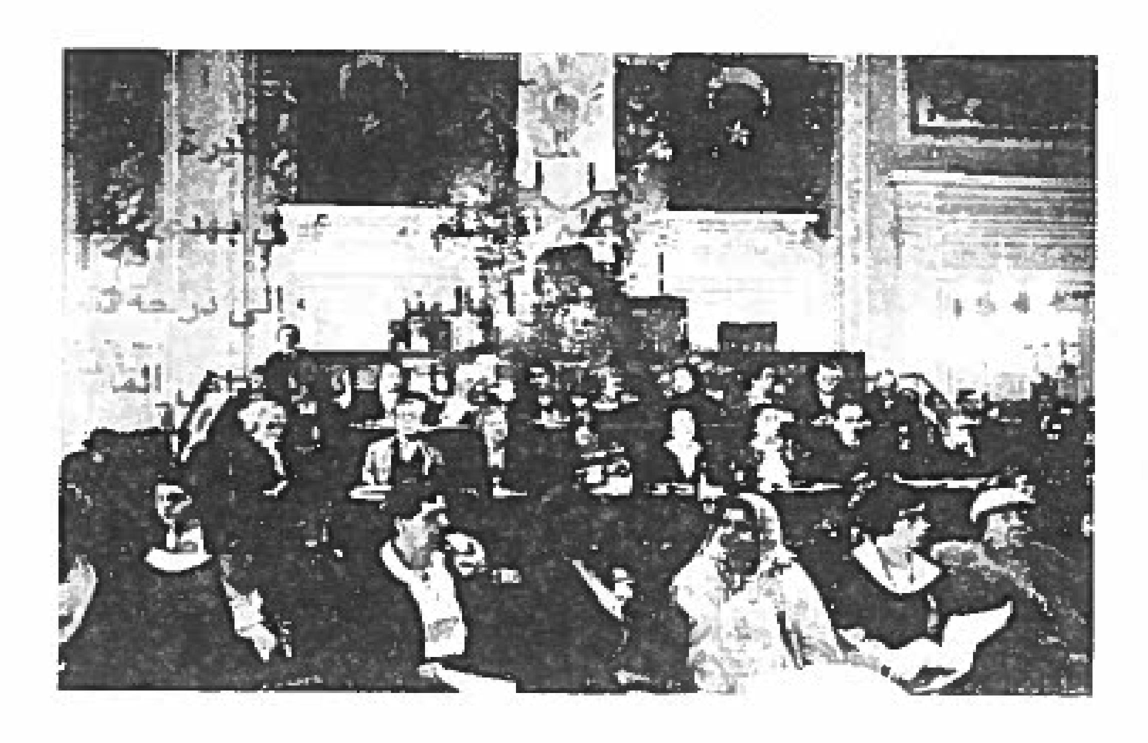
وتمثلت الفعالية الأكثر رسمية من برنامج الزيارة فى الاجتماع الكثيف الحضور الذى عقد فى قاعة المؤتمرات بمقر الاتحاد النسائى المصري، حيث ألقت روزا مانوس الكلمة الرئيسية تحدثت فيها عن تاريخ التحالف الدولى للمرأة منذ إنشائه فى ١٩٠٤. ولكنها أرادت الحديث بالذات عن أهمية المؤتمر القادم فى اسطنبول وتركيزه على قضية السلام. ثم تكلمت باكر - ڤان بوص عن

السلام ودور عصبة الأمم، فى حين تناولت جيرمين مالاتير سيلييه الموضوع الذى يحظى بالاهتمام الأكبر للحضور، وهو آفاق قبول عضوية مصر فى عصبة الأمم. وفى اليوم التالي، غادرت مارجيرى كوربيت ـ آشبى ومانوس إلى فلسطين وسوريا، فى حين بدأت مالاتير سيلييه وباكر ـ ڤان بوص رحلتهما إلى صعيد مصر التى نظّمتها هدى. وقد شعرت هدى أنه قد نتج عن الزيارة تعضيد أواصر العلاقات بين التحالف الدولى للمرأة والاتحاد النسائى المصري، وكذلك العلاقات بين العضوات الأجنبيات ومُضيفاتهن المصريات.

وفى بدايات ١٩٣٥، وبعد قليل من رحيل الضيوف، حدث أن أمضى تشارلز كرين عدة أيام فى القاهرة، كما كان يفعل كثيرًا وهو فى طريقه إلى بلاد عربية أخرى. وكان حينئذٍ عجوزًا فى الـ ٧٧، إلا أنه كان لا يزال يسافر بلا كلل بين نيويورك ومزرعته فى كاليفورنيا وكذلك بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط. وقد اتصل بهدى كما تعود عامة وأمضى بعض الوقت وهو يدردش فى الصالون الشرقى الذى كان يحبه كثيرًا. وقد أهدته بهذه المناسبة "الهودج"، وهو السرج المُزين الذى يوضع فوق الجمال، حتى يحتفظ فى مزرعته بتذكار من مصر. وقد تأثر كرين بتذكار الصداقة هذا وأراد أن يترك لهدى بدوره تذكارًا. وكان يعلم بمشكلة ساقيها وبصعوبة السير التى تعانى منها، فكان أن بعث إليها ببرقية بعد سفره قال فيها: "اسمحى لى بإقامة مصعد فى منزلك لمساعدتك فى الحفاظ على طاقتك الغالية".[٢٨]

وحين افتتح مؤتمر التحالف الدولى للمرأة فى اسطنبول فى أبريل ١٩٣٥، كان السؤال الساخن المسيطر هو كيفية الحفاظ على السلام. وكانت تركيا قد منحت النساء حق التصويت فى ١٩٣٠، وبدت المُشاركات مقتنعات بأن النساء المسلحات بالحب سوف يقُدن الطريق إلى عالم أفضل. وكان هدفهن فى لقاء تركيا هو وضع خطة عمل لإنقاذ البشرية وإيقاف الاتجاه الذى يبدو حتميًا

تجاه الحرب. وقد ضم الوفد المصرى ١٢ عضوة بينهن بعض "الشابات". كُن جميعًا من صديقات وعائلة هدى، ومضت الرحلة على ظهر الباخرة أزمير عبر البحر المتوسط ممتعة ومريحة نفسيًا. وقد ضم الوفد المصرى إضافة إلى هدى، نفيسة، زوجة محمد على علوبة باشا، وأمينة، زوجة فؤاد سلطان، واستر فهمى ويصا وفاطمة نعمت راشد وبالطبع سيزا. وقد مثلت "الشقيقات" هيلين صروف ونيللى دى شديد وليلى ثابت وبالطبع حوا وحورية. وقد جاء اختيار هذا العدد الكبير منهن مقصودًا للبرهنة على أن الجيل الأصغر مؤهل جيدًا ويمكن الاعتماد عليه فى تولى المسؤولية وأنه يجرى تدريبهن للمشاركة فيها مستقبلًا. وقد حظى الوفد المصرى بشعبية كبيرة فى اسطنبول وتميزت المندوبات المصريات بالنشاط والحماس والفعالية ولقيت "الشقيقات" استحسان المُشاركات الأخريات بجمالهن وفصاحتهن.



المؤتمر فى دورته باسطنبول. السيدة مارچيرى كوربيت - آشبى تقرأ خطبة الافتتاح، نائبتا التحالف الدولى لتصويت المرأة، عضوات الأمانة وممثلات مصر فى الصف الأول، وسيزا من بينهن.

وقد لقيت هدى ووفدها استقبالا حارًا لدى وصولهن فى ١٢ أبريل. وقد جاءت المندوبات التركيات وعضوات لجنة كادين بيرليجى للترحيب بهن فى الميناء. وكان عدد من المصريات يتحدثن التركية، بما فيهن هدى نفسها، علاوة على حوا وحورية، مما يسَّر من تواصلهن مع المُضيفات التركيات. وسرعان ما ربطت بين المجموعتين صداقة قوية واستمر التعاطف خلال جلسات العمل والفعاليات الاجتماعية التى تلتها. وقادت هدى الوفد بعد ثلاثة أيام فى زيارة النُصُب التذكارى القومى لذكرى تأسيس الجمهورية التركية، ووجَّهت إليه التحية بوصفه رمزًا للحرية والمساواة. كما وجَّهت هدى بضع كلمات بالتركية إلى مصطفى كمال أتاتورك، وقالت إنه ليس فقط أبًا لكافة الأتراك مثلما يعنى اسمه، وإنما هو بالأحرى أب للشرق كله. إنه، كما قالت "أتا شرق"، أبو الشرق بكامله. وكانت روابطها التركية هى التى ألهمتها هذا التصريح. كانت هدى مقتنعة بصدق، على غرار مصطفى كامل وشقيقها فى الماضي، أن الإمبراطورية العثمانية مثَّلت فى أيام مجدها أعظم حماية للمنطقة برمتها. ثم هنأت أتاتورك أيضًا على منحه المرأة فى تركيا الجديدة نفس حقوق الرجال. ثم عقدت كوربيت-آشبي، بوصفها رئيسة للتحالف الدولى للمرأة، مؤتمرًا صحفيًا للصحافة التركية فى فندق بيرا بالاس، حيث تحدثت الكثير من العضوات، وهن يتناولن الشاي، عن اهتماماتهن وما تأملن أن تسفر عنه أعمال المؤتمر. وتلت ذلك جلسات تحضيرية استغرقت يومين وأضيفت العديد من المسائل على جدول الأعمال تعبر عن الاهتمامات الخاصة بالوفود المشاركة. غير أن الموضوعات الرئيسية الستة بقيت كما هى، أى: السلام، والأحوال المدنية للمرأة، وشروط العمل المتساوية للمرأة والرجل، وإلغاء ازدواجية المعايير الأخلاقية، وحق الاقتراع، والجنسية للمرأة المتزوجة من أجنبي.

وفى ١٨ أبريل ١٩٣٥، جرت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر فى القاعة الكبرى لقصر يلدز، التى امتلأت عن آخرها بالحضور إلى حد اضطر معه البعض للوقوف فى الممر خارج القاعة لمتابعة الخطب عبر مُكبِّرات الصوت. ولم تُرفع

أعلام فى القاعة سوى علم الدولة المُضيفة، إضافة إلى علم التحالف الدولى للمرأة، الذى كُتبت عليه كلمة "عدالة" على خلفية بيضاء " كرمز للوحدة والعدل بين الأعراق والجنسيات والديانات".(٢٩) ثم ألقى محافظ اسطنبول بضع كلمات الترحيب، أعطيت بعدها الكلمة إلى لطيفة بكير، الناشطة النسوية الكبيرة والبطلة القومية التركية، لإلقاء خطبة الافتتاح. وقدَّمت بعدها كوربيت-آشبى اقتراحًا بتوجيه الشكر للرئيس أتاتورك من أجل مساندته للحركة النسوية. وقد جاءت إعادة انتخاب كوربيت-آشبى كرئيسة للتحالف الدولى للمرأة، رغم كونها مجرد مسألة إجرائية، بفرصة أخرى للاحتفال. وقد ألقت أخيرًا خطبتها التى أبرزت فيها الوضع الحالى للتحالف الدولى للمرأة والإنجازات التى حققها.

وكان السلام هو الموضوع الرئيسى للمؤتمر. وقد ذكرت مالاتير-سيلييه أن ثلاثًا من عضوات اللجنة التنفيذية، وهن روزا مانوس، وكريستينا باكر-ڤان بوص، وهي، قد قمن بزيارة إلى مصر وسوريا وفلسطين للتعرف على الأوضاع على الأرض هناك، ونشر ثقافة السلام. وأنها لاحظت أن "الناس فى البلاد العربية، رغم أنهم يعانون من الأزمة كما يعانى الجميع، فإنهم يشكون أقل مما يشكو الأوروبيون. كما أن المسائل الأخلاقية أكثر وضوحًا لهم. فالحديث أقل عن المطالب وأكثر عن العدل والسلام".

كما قالت إنها تعتقد أن العالم الغربى لديه الكثير ليتعلمه من الشرق حول قوة القيم الروحانية، وإنه على أساس تلك القيم وحدها يمكن بلوغ السلام".(٣٠)

بينما تحدثت هدى عن التعاون بين الشرق والغرب. وأشارت إلى أن مدينة اسطنبول ذاتها مثال حى على تلك الإمكانية. ففى اسطنبول "تعكس القارتان الأوروبية والآسيوية كل يوم جمالهما الهادىء فى مياه البوسفور الصافية، فيما يرمز ببراعة إلى أخوة هذين العالمين". وذكرت أسماء المنظمات الأربع التى انضمت إلى التحالف الدولى للمرأة منذ آخر مؤتمر. كما أشادت بأتاتورك مُخلص بلاده وقالت إنها تعلق آمالها على قدرة تركيا على أن تكون حلقة وصل

بين الشرق والغرب "حتى يتسنى تحقيق التعاون الصادق والأخوى الذى ننشده جميعًا فى وقت قصير، من أجل صالح البشرية". (٣١) وفى الأيام التالية، سعدت هدى خاصة بمشاركة المنظمات العربية التى انضمت حديثًا للتحالف الدولى للمرأة والتى تستطيع فى ظنها المساعدة فى إيجاد حل للوضع الذى يزداد إيلامًا والناجم عن وصول المزيد من المهاجرين اليهود إلى فلسطين. وفى الوقت ذاته فقد كانت واعية بمدى الحاجة إلى إنقاذ يهود أوروبا من خلال وضع نهاية للوحشية السائدة هناك.



الإبحار من اسطنبول. فى الصورة فاطمة رشيد وليلى ثابت وسيزا نبراوى ونفيسة علوبة وحوا إدريس وهدى وحورية إدريس شفيق واستر فهمى وحسن شفيق.

وكانت عظمة الحديقة التى أقيم فيها قصر يلديز مصدر إبهار وسعادة للحاضرين، إضافة إلى أهمية تاريخ الإمبراطورية العثمانية التى تشهد عليها قصورها وأروقتها. وقد استمتعت المندوبات للغاية بالتواصل مع الطبيعة بجمالها الفاتن وشعرن أنهن يكدن يلمسن بأصابعهن التاريخ فى وقت أحاط فيه الغموض بمصير العالم الذى لا تلوح فيه أية آفاق للأمان.



- ١٠ -

نقــاط تحــول

كانت هدى تجد دائمًا سعادة جمة فى الاهتمام بشؤون ابنتى خالها الشركسيتين. وخلال انعقاد مؤتمر التحالف الدولى للمرأة فى اسطنبول، حدث شيء مثير بشكل خاص. إذ ابتهجت أن تكتشف، حين جاءت حورية لتعترف لها، أن الفتاة قد وجدت الوقت لكى تقع فى حب دبلوماسى مصرى شاب جريء قابلته فى العاصمة التركية، وقالت إنها على يقين بأنه حب حياتها. وقد كان هذا الشاب هو حسن شفيق، أحد أبناء أحمد شفيق باشا، ونائب القنصل فى السفارة المصرية. وقد جاء الخبر ليزيح همًا كبيرًا لدى هدى عقب النهاية المأساوية لعلاقة حورية القصيرة بالمسكين ابراهيم حلمى التى تركتها مُحطَّمة. وكانت حورية تريد أن يتم الزواج فى الإسكندرية بأسرع ما يمكن، لأن حسن لم يكن فى وسعه البقاء طويلًا بعيدًا عن منصبه فى تركيا. ووافقت هدى على اتخاذ الترتيبات اللازمة لهذا. وما لم تكن تعرفه هو أن حسن قد أقنع حورية بقضاء شهر العسل على يخته الخاص الذى يمكنه قيادته بنفسه من الإسكندرية إلى اسطنبول بمساعدة بحار واحد يتناوب معه فى قيادة اليخت. وكان هذا سرًا بين الحبيبين احتفظت به حورية بشجاعة لنفسها رغم خوفها من فكرة الضياع

فى البحر التى كانت تصيبها بالرعب كلما فكرت فيها. ولكنها كانت، من الناحية النظرية على الأقل، تحب المغامرة وكانت تشعر بالإثارة لهذه الفكرة. ولو كانت هدى قد علمت بها لأنزعجت كثيرًا، إلا أن رحلة العودة إلى اسطنبول قد مرّت بسلام وقتها.

وأقيم حفل الزفاف فى مايو ١٩٣٥ فى منزل هدى بالإسكندرية. وقد امتلأ البيت بالورود لهذه المناسبة. وكان الحفل بسيطًا ولكنه أنيق. فقد كان العريس شابًا متطورًا ينبغى عليه العودة بسرعة لمكان عمله ولم تكن هناك فرصة للاستعدادات والاحتفالات الطويلة. ولو كان لأحد أن يعلم بنوايا حسن شفيق البحرية لاعترض، ولكن ظل السر طى الكتمان للحيلولة دون أية اعتراضات. وحضرت حواء لحفل زواج أختها، كما حضرت سيزا، مع خطيبها الجديد، النحات الشاب مصطفى نجيب الذى كان قد تخرج لتوه من أكاديمية الفنون الجميلة بروما. كما شارك فى الحفل كافة شباب الاتحاد النسائى المصرى وفريق ليچيبسيان وأصدقاء هدى من الدستوريين الأحرار وزوجاتهم، إضافة طبعًا إلى أفراد عائلة هدى. وقد افتقد الجميع وجود محمود مختار فى هذه المناسبة وراحوا يتكهنون بما كان يمكن أن يقوله ويفعله لو كان موجودًا.

وحين حان وقت عودة الزوجين إلى اسطنبول، لم يستطع العروسان تحميل حوائجهما جميعها على اليخت، وبقيت عدة حقائب فى القاهرة فى انتظار إرسالها إلى اسطنبول. وقد وافقت هدى على تولى هذه المهمة. وكانت ملكة رومانيا ماري، والدة ملك رومانيا كارول الثاني، تستعد للعودة إلى تركيا بعدها بقليل عقب إقامة قصيرة فى مصر. وكانت هدى قد التقت سابقًا بالملكة، ووصفتها فى ليچيبسيان بـ "ملكة الزهور" " "، ومن خلال دوائرها النسائية، سألت هدى الملكة إن كانت تمكنها المساعدة فى ذلك. وكانت الأميرة الكسندرينا

كانتاكوتزينو، وهى إحدى أنصار التحالف الدولى للمرأة، قد قدَّمت هدى من قبل إلى الملكة، التى كانت أيضًا حفيدة الملكة فيكتوريا. وقد رحَّبت الملكة بكل لطف بذلك وأرسلت أمتعة الزوجين ضمن أمتعتها الخاصة. وهكذا وجد حسن شفيق وحورية نفسيهما وقد صحبهما السفير المصرى أمين أبو سابا باشا، الذى كانت زوجته عطية صديقة للملكة ماري، فى استقبال الملكة لدى وصولها إلى اسطنبول. وقد اكتشفا حينئذٍ كم أنها سيدة ساحرة. وقد بدا للعروسين الشابين أن تدخل هدى وما أسفر عنه بدا وكأنه فصل من فصول حكاية خرافية.

وقد أتاح زواج حورية وحسن فرصة للقيام بتحرك ما فى اتجاه الإصلاح الاجتماعي. وكانت هدى ترى أن هناك حاجة إلى تعديل بعض جوانب عقد الزواج المصرى ليتوافق مع المباديء النسوية. وكان العريس يدفع، حسب التقاليد، مهرًا يصل إلى ألف جنيه مصري، وهو مبلغ كثيرًا ما كان يمثل عائقًا أمام إتمام الزواج ذاته. وكانت حورية توافق هدى هذا الرأى وقبلت ألا تطلب من حسن سوى ٢٥ قرشًا وقام هو بدوره بتحديد مبلغ ٣٠٠ جنيه كمؤخر صداق. وكان الغرض من اختيار هذه الأرقام الرمزية هو بيان أنه ينبغى لعقد الزواج أن يكون مُيسَّرًا وللطلاق أن يُعاقَب. وقد وافق شباب آخرون من محيط هدى يعتزمون الزواج بعدها على أن يحذوا هذا الحذو فى عقود زواجهم.

هذا وقد تغيبت منيرة أيضًا عن حفل الزواج الذى لم تستطع حضوره بسبب مولد طفلتها الثانية فى ٢ مايو ١٩٣٥، والتى سُميت منى. ولم يغير هذا الميلاد من شيء فيما أصبحت منيرة والمحيطون بها ينظرون إليه على أنه "ورطتها". إذ انحصر دورها فى إنجاب وريث، وهو ما أخفقت فيه، ووجدت نفسها فى عزلة. ولم يكن فى مقدورها الانغماس فى مُتع الشباب من عمرها لأنها امرأة متزوجة. كما كان يتم استبعادها من حياة زوجها الاجتماعية بشكل متزايد، إذ أصبح

معتادًا الآن أن يخرج وحده كل ليلة مع أصدقائه وتبقى هى بالمنزل مع الطفلتين. بل إنه حتى لم يترك لها شأن العناية بالبنتين الصغيرتين؛ إذ كانت تواجه التدخل المستمر من جيش من المربيات الأجنبيات والمرضعات المحترفات المصريات. وكانت هدى منشغلة تمامًا فى أنشطتها السياسية والاجتماعية لكى تلحظ أن الأمور فى حياة ابنها لا تمضى على ما يرام، رغم أنهما يعيشان تحت سقف واحد. وظلت منيرة تشعر بأن هدى تلومها على وضع ليس لها يد فيه.

وكانت هدى، كما هى دومًا، مشغولة بالأوضاع الاجتماعية فى بلاد بعيدة. ففى صيف ١٩٣٥، انتابها القلق على مصير إثيوبيا، وهى فى الواقع بلد مهم لمصر لأنها واقعة ضمن دول وادى النيل ومجاورة للسودان. ومع تصاعد طموحات الزعيم الإيطالى موسولينى فى مايو ويونيو من هذا العام، وجَّهت نداءً مباشرًا إلى الشعب الإيطالى تحثه فيه على مطالبة حكومته بوقف هجومها على إثيوبيا. كما وجَّهت نداءً آخر إلى عصبة الأمم تدعوها فيه إلى التدخل لحماية استقلال إثيوبيا. وكانت ليچبسيان هى كالمعتاد منبر توجيه هدى لنداءاتها من أجل السلام. ونشرت مقالات عن ملكتى سبأ ومنن الإثيوبيتين لدعم تعاطف الغرب مع محنة إثيوبيا. وراسلت أيضًا الكاتبين الفرنسيين هانرى باربوز ورومان رولون حيث أعربتْ لهما عن تأييدها القوى للجنة الدولية لمناهضة الحرب والفاشية التى أسَّساها ومساندتها لإدانتهما للعدوان الإيطالى على شرق أفريقيا. واحتجت بأنه لا ينبغى أن يُنسى أن إثيوبيا هى البلد الأفريقى الوحيد المستقل حقًا وإنها عضو بعصبة الأمم، وبالتالى يتعين حمايتها من الاحتلال. وكانت هدى تسعى بكل طاقتها، بوصفها عضوًا فى اللجنة التنفيذية للتحالف الدولى للمرأة، إلى محاكاة زميلاتها الدوليات فى حملتهن من أجل السلام.[١]

واستمرت صحة هدى فى التدهور. وأصبحت أنشطتها محدودة بسبب وعكات تهاجمها كثيرًا بلا مقدمات. وتراجعت طاقتها وأصابها ثقل كبير فى الأطراف بل وتعرضت لآلام مبرحة فى الصدر مصحوبة بالاختناق وأحيانًا يبدو أنها تصيبها بالشلل. واقتنعت أن كل ذلك ينذر بأوقات عصيبة تنتظرها. وكانت لا تزال تطالب نفسها بالكثير، ولكنها فى مواجهة عجزها بدأت أحيانًا تشعر بالهزيمة. هل ستستطيع يومًا أن تحقق كل طموحاتها أم أن الفشل هو المآل الوحيد؟ وكثيرًا ما كانت تجد فى الشعر صمام أمانها فى أوقات الشدة، فكتبت قصيدة بعنوان "تشاؤم" عن حالتها النفسية.

"نود تزيين الحياة بالورود

وفى أعماق القلب نحبس الدموع

بيْد أن الورود كثيرًا ما تخفى تحت سحرها

أشواكًا تجعل الدموع تسيل

نود أن نغفر كل الأخطاء

بالبحث عن عذر لكلٍ منها

ونفتح بيوتنا لأعدائنا

وفيها يحلّ مهاجمونا ضيوفًا

ولكننا فى دعوتنا للسلام الجميل

وتنديدنا الصاخب بالحرب الكريهة

نجد الإنسان المرتبط بكيانه يدين

لأرضه بدمه، فهى التى صنعته

نود السمو بأرواحنا

فوق مآسى البشر

لكى نسلك من بين الطرق

ذلك المستقيم الذى ينأى عن اللوم

ولكن وا أسفاه ! فمسالك الحياة كافة

ملتوية كانت أم مستقيمة

شقتها كلها الكراهية أو الشرَهْ

فى قلوب الطغاة ـ أو الفشلة

هل هذه الأرض التى نتمسك بها

شلال للدموع لا غير

وهل يخفى الإنسان شيطانًا

خلف سمات الرقة والوداعة؟

"تشاؤم"، مجلة ليچيبسيان، سبتمبر ١٩٣٥

وعلى الرغم من متاعبها، رفضت هدى الاستسلام للاكتئاب الذى كان يُصيبها أحيانًا حين كانت أصغر كثيرًا. فهناك الكثير من القضايا لتدافع عنها، والكثير من الأخطاء لتصحِّحها، باختصار يوجد الكثير جدًا المطلوب منها أن تفعله، لا أن تُضيِّع الوقت فى الخضوع لحالتها النفسية.

كانت هذه الفترة فترة اضطراب سياسي. وفي عام ١٩٣٥، كان الوفد الذي كان لديه الحق في أن يعد نفسه الحزب الحاكم الطبيعي لمصر، قد عانى بما يكفي من حكومة نسيم باشا المداهنة؛ وهو ما دفع النحاس باشا إلى أن يطالبه بالاستقالة في ١٢ نوفمبر. وترددت الدعوات للمصالحة بين كافة الأحزاب كوسيلة لتشكيل حكومة جديدة. وتصاعدت المظاهرات التي نظمها الوفد وقُتل طالب في الاحتجاجات التي تلت وأصيب الكثيرون.[٢] وفي ١٢ ديسمبر ١٩٣٥، صدر أخيرًا مرسوم ملكي يعيد العمل بدستور ١٩٢٣. ومع ذلك فقد راجت شائعة أن السير صمويل هور (وزير الخارجية البريطاني) قد صرَّح في بيان عام أن بريطانيا تعارض في الواقع عودة الدستور.[٣] وسارعت ليجيبسيان، الناطقة باسم هدى بتناول الموضوع. وقامت المجلة بتغطية أزمة نوفمبر عن كثب، وصمَّمت هدى على الكشف عن شخصية ضحية الأمن العام الطالب العشريني، عبد الحكيم الجراحي. وكان قد كتب بيانًا تركه على فراش موته قال فيه إنه ضحى بحياته بملء إرادته للدفاع عن حرية بلاده. ونشرت المجلة رسالته.[٤] وأرسلت هدى خطاباتها المفتوحة المعتادة إلى المندوب السامي البريطاني ورئيس وزراء مصر تفضح فيها نفاقهم وسياساتهم الظالمة. وواصل الطلبة احتجاجهم مُطالبين بإنهاء التدخل البريطاني حتى أغلقت الشرطة جامعة القاهرة في النهاية. وقد أدى الغليان إلى نتيجة إيجابية من وجهة النظر النسوية. ففي ٣٠ يناير ١٩٣٦، قام الملك بتعيين رئيس الديوان الملكي علي ماهر باشا على رأس الوزارة. وكانت هذه مرة أخرى وزارة يُفترض حياديتها، ولكن بتفويض مُحدَّد هو التفاوض على حل ناجح مع البريطانيين.

واضطرت الحكومة البريطانية أخيرًا إلى الإقرار بأن تدهور الموقف في مصر بات عصيًا على الإصلاح، وأن السعي إلى الإبقاء على الوجود البريطاني

فى مصر حسب الأسس القائمة يبدو أنه سيحمل مستقبلاً المزيد من العواقب السلبية وليس الإيجابية على البريطانيين أنفسهم. وفى ٤ فبراير، حدث تطور تاريخى فى لندن. فقد أخطر أنتونى إيدن، وزير الخارجية الجديد، مجلس العموم بأن السير مايلز لامبسون، المندوب السامى الجديد فى مصر قد:

"كُلِّف بإعلان أن حكومة جلالته مستعدة للدخول فورًا فى مباحثات مع الحكومة المصرية بغرض التوصل إلى معاهدة تسوية بريطانية– مصرية. وأن حكومة جلالته تعتقد أنه من المفضل البدء بالموضوعات التى تسبَّبت بالقدر الأكبر من المشكلات فى ١٩٣٠، من أجل دعم آفاق تسوية شاملة. وأنها ترى أنه إذا أمكن تجاوز هذه المشكلات، فإن آفاق التوصل إلى تسوية ستكون مواتية بوضوح."(٥)

وكانت الإشارة إلى "الموضوعات التى أثارت القدر الأكبر من المشكلات"، تعنى إدارة السودان والشروط البريطانية الأخرى.

وحين تولى على ماهر رئاسة الوزراء، رأى فيه الكثير من المصريين أنه المُنقذ. وكان هناك إجماع، من كافة الطبقات الاجتماعية من أعلاها إلى أدناها، على ضرورة التخلص من التدخل البريطاني. ومن ناحية أخري، كانت غالبية الناس قد سئمت من الاحتجاجات والاضطرابات، وما تسبِّبه من قطع وفقد الدخول المالية. وكان على ماهر مشهورًا بأناقته الهادئة، ولونه الخمري، وحبه للعطور، وكذلك بثقافته وفعاليته وانضباطه الشديد.(٦) لم يحظ دائمًا بالشعبية، بسبب كونه ملكيًا مُخلصًا. وقد شغل وزارة المعارف فى ١٩٢٥، ثم وزارة المالية فى عهد الدستوريين الأحرار فى ١٩٢٨، ووزارة الحقانية فى حكومة صدقى باشا فيما بين ١٩٣٠ و١٩٣٢. وكان ذا خلفية قانونية وخدم طويلاً كقاض فى المحاكم الوطنية والمختلطة. وكان واقعيًا، ويدرك بالفطرة والخبرة أن الحكومة لا يمكنها

أن تمضى من خلال محاولة سحق مصالح طرف من الأطراف المختلفة القائمة، سواء كانت مصالح الشعب، أو التاج أو البريطانيين، وإنما من خلال البحث عن تسويات. وكان الأمل كبيرًا فى أن يجد طريقة للمضى قُدمًا مع البريطانيين.

وفى ٢٨ أبريل عام ١٩٣٦، رحل أخيرًا الملك فؤاد الذى كانت صحته تتداعى بشكل منتظم. وكان ابنه ووريثه فاروق فى السادسة عشر فحسب، أى أنه مازال بعد قاصرًا. وقد استدعى على عجل ليعود إلى مصر من الأكاديمية العسكرية الملكية بوولويتش بلندن التى كان يدرس بها. وقد استقل القطار إلى مرسيليا ثم أبحر من هناك إلى الإسكندرية. وفى ٩ مايو، دعى على ماهر مجلسى النواب والشيوخ لاجتماعٍ مشترك لإخطارهما بالرغبات الأخيرة للملك الراحل فيما يخص من يريده وصيًا على العرش. وهو تحديدًا شقيقه الأمير محمد على توفيق الذى كان سيرأس مجلس الوصاية المكون من ثلاثة أعضاء هم عزيز عزت باشا، وشريف صبرى باشا، فضلاً عنه. وقد أثارت جنازة الملك فؤاد مشاعر متناقضة. فالبعض قد نعاه حفاظًا على الشكل، فى حين حزن آخرون من قلوبهم. ولكن الشعور الأعم لدى الشعب تمثل فى القلق على النتائج المحتملة لهذا الرحيل على حياته المضطربة أساسًا. إلا أن الأمور سرعان ما عادت إلى حالتها الطبيعية واسْتُوئْنفت المفاوضات مع البريطانيين. وأجريت الانتخابات، رغم وفاة الملك، فى ٢ مايو وأسفرت عن فوز كاسح للوفد الذى حصد أكثر من ١٦٦ مقعدًا، مقابل ٦٦ فقط لكافة الأحزاب الأخرى. واستقال على ماهر فى ٩ مايو وأصبح النحاس باشا رئيسًا للوزراء مُجدَّدًا فى حكومة وفدية بالكامل.

وفى هذه الأثناء، كانت فلسطين ومحنة المرأة العربية فيها تستولى بشكل متزايد على اهتمام هدى. وقد نشرت سيزا فى ليچيبسيان مقالا يحوى نص البيان الأخير للجنة المرأة العربية بالقدس الصادر فى ٢ يونيو. وقد صيغ

فى صورة نداء مُوجَّه إلى كل النساء البريطانيات، أينما كُنَّ. وجاء فى البيان "إن الوضع الحرج الحالي... لا يعكس روح تمرد ضد السلطات البريطانية ولا حركة تدعمها وكالات أجنبية، وإنما هو نضال من الأمة من أجل الحصول على حقوقها الطبيعية..."[٧] وفى ٩ يونيو ١٩٣٦، عقدت هدى اجتماعًا مع زميلاتها فى الاتحاد النسائى المصرى قرَّرن فيه أنه ينبغى أن تصبح فلسطين من الآن فصاعدًا الأولوية الأولى لهن. وكانت هذه لحظة صعبة على الكثيرات منهن، إذ كُنَّ قد أُعجبن فى الماضى بشجاعة وتصميم المهاجرين اليهود فى فلسطين. كما أبدت الكثيرات أيضًا مساندتهن العفوية لليهود فى مواجهة من يقهرونهم فى الغرب. كما أصررن على أن اليهود كانوا يلقون كل الترحيب فى الدولة العثمانية ومختلف أقاليمها وأنهم سيظلون موضع ترحيب فى دول ما بعد الإمبراطورية. إلا أن الأنباء الواردة من فلسطين كانت مزعجة، فى ظل تصاعد العنف ضد الأهالى المحليين.

لقد استبد الجزع بالسيدات. وتنازعت الكثير منهن مشاعر متضاربة. ومع ذلك، فقد قرّرن اتخاذ عدد من الخطوات العملية. أُولاها جمع الأموال لمساعدة ضحايا الاضطرابات الأخيرة فى فلسطين، وثانيها إرسال برقيات إلى وزير شؤون المستعمرات البريطانية،، ورئيس مجلس العموم وثالثها توجيه نداء ملائم إلى كافة نساء العالم.[٨] ونشرت المجلة فى ١٧ يونيو البرقية التى كُتبت بالإنجليزية، بمعاونة استر ويصا التى كانت تتقنها، وتحمل توقيع هدى، بوصفها رئيسة للاتحاد النسائى المصري.

"تعرب نساء مصر عن تعاطفهن الصادق مع أصدقائهم وجيرانهم من عرب فلسطين، فى هذه المحنة القاسية التى يخوضونها. وتشعرن فى هذا الوقت بالجزع من الموقف المتخاذل والمتراوح لبريطانيا الذى يقضى على ثقة

كافة شعوب الشرق الأدنى فى إنصاف بريطانيا واستعدادها للاستجابة للحق والعدل. وانطلاقًا من رغبته المخلصة فى تحقيق السلم العالمي، يحث الاتحاد النسائى المصرى الحكومة البريطانية على الالتزام بما تزعمه من مناصرتها للضعيف، بوضع حد للهجرة اليهودية إلى فلسطين. فإن فعلت، تكون قد نأت بنفسها عن سياسة التردد والغموض التى لا تزال سبب كافة المشكلات فى الشرق الأدنى"(٩)

وفى ١٢ أغسطس ١٩٣٦، تم التوقيع فى قصر انطونياديس بالإسكندرية على مشروع اتفاقية مؤقتة بين بريطانيا ومصر، صيغت على أساس المفاوضات التى أجراها على ماهر. وكانت الاتفاقية تحد بقوة من حقوق بريطانيا فى التدخل فى شؤون مصر. ثم وُقعت أخيرًا فى ٢٧ يونيو المعاهدة الإنجليزية-المصرية التى طال انتظارها، حاملة معها آفاق الاستقلال الحقيقى لمصر. غير أن الحل الكامل ظل مع ذلك بعيد المنال، على نحو مستفز. فقد تم تفادى القضية الحاسمة الخاصة بالسودان، إضافة إلى أن المعاهدة قد تضمنت ما يعنى أن السودان قد ضاعت بالفعل من مصر، مما أثار سخط الوطنيين المصريين. كما بقيت أيضًا قوانين الامتيازات الأجنبية سارية، وهى واحدة من كبرى هموم هدى.

وفى المنزل رقم ٢ بشارع قصر النيل، ظلت هدى تتعامل مع مشكلات محمد ومنيرة المتصاعدة باستخفاف شديد. وكانت منيرة قد وضعت لتوها طفلة ثالثة أسمتها هدى، ربما فى محاولة منها لاسترضاء حماتها. ورغم عدم وجود الوريث الذكر، كانت هدى تود لهذا الزواج أن ينجح وتأمل فى أن تتمكن زوجة ابنها إن آجلًا أو عاجلًا من تقويم زوجها. وفى بدايات صيف ١٩٣٦، انضمت منيرة إلى الفعاليات الثقافية لأهل المنزل. فقد دُعى محمد للمشاركة فى مؤتمر اتحاد البرلمانات فى بودابست فيما بين ٣ إلى ٨ يونيو وشغلت منيرة نفسها

بتجميع قصاصات الصحف الخاصة بموضوع المؤتمر، المُخصَّص لمسألة الهجرة الجماعية. وتأثر محمد باهتمام زوجته بهذا العمل وأصبح مراعيًا لمشاعرها أكثر من المعتاد. وأخفقت هدى حين فسّرت ذلك التحسن على أنه ينم عن السعادة.

كانت هدى مهتمة بموضوع مؤتمر اتحاد البرلمانات الذى سيشارك فيه محمد، أى الهجرة الجماعية، وارتباطه بما يحدث فى فلسطين. ولذا قرَّرت الذهاب إلى بودابست وحضور المؤتمر كمستمعة، بدلًا من البقاء فى القاهرة لحضور مؤتمر الاتحاد النسائى المصرى حول السلم وعصبة الأمم، الذى كان مُقرَّرًا له الانعقاد فى الوقت ذاته فى مقره بالقصر العيني. وكانت دورة الاتحاد النسائى تحضيرًا لمؤتمر ستعقده الحملة الدولية من أجل السلام التى أسَّسها روبير سيسيل وبيير كوت فيما بين ٣ و٦ سبتمبر فى بروكسيل، والذى قبل الاتحاد الدعوة لحضوره.[١٠] وكانت الدؤوبة روزا مانوس التى لا تعرف الكلل، العضو الهولندى فى الحملة إضافة إلى منصبها فى التحالف الدولى للمرأة، هى صاحبة الدعوة للاتحاد النسائى المصري. ويذكر أن مؤتمر بروكسيل كان سيناقش أربع مسائل هى حرمة التزامات المعاهدات، واتفاقية حول تقييد إنتاج السلاح، وتدعيم عصبة الأمم وأخيرًا تشكيل آلية فعالة تتيح لها الحل السلمى للأوضاع التى من شأنها إثارة النزاعات.[١١] ولم تكن هذه النقاط ستخضع للمناقشة، بل كان هدف المؤتمر هو إيجاد أكثر الوسائل فعالية من أجل تنفيذها.

وسافرت هدى مع محمد إلى بودابست فى نهاية يونيو. وفى مصر، فازت المنتجات الزراعية لأراضيها بالمنيا بجوائز فى المعرض الزراعى والصناعى الذى جرى فى ١٥ أبريل. كما فازت قطع خزف روض الفرج بميداليات تشهد على جودة صناعتها.[١٢] وشعرت هدى أنها قد أنجزت ما تستحق عليه أن تنال

عطلة صيفية. وكانت هدى على أية حال تذهب دائمًا إلى أوروبا فى الصيف حين تتاح لها الفرصة لأسباب طبية، وترحِّب بقضاء فترة فى جو أقل حرارة. وكان المُخطَّط أن تبقى لبعض الوقت فى بودابست بعد نهاية المؤتمر.

إلا أنه بدلًا من الاستمتاع بصيف هادئ، أراد لها القدر أن تواجه مأساة عائلية كبرى. إذ بينما كان محمد وهدى لا يزالان فى بودابست وردت إليهما الأنباء بأن محمود سامى باشا فجأة وبشكل غير متوقع قد توفى فى ١٦ يوليو. وكان قد عانى من مشكلات صحية طفيفة وتلقى علاجًا لاضطرابات فى الكلى. ولم يكن هناك أى شيء يدعو أى شخص إلى أن يتوقع وفاته. وقد كان يعد أحد الركائز التى تعتمد عليها العائلة كلها وليس فقط بُثنة. كان الجميع يُعوِّل على مشورته ومساندته المعنوية. وكان دعمه للنضال النسوى غير مشروط منذ البداية، حين وقف، وهو ما لا ينبغى أن يُنسى، إلى جانب هدى بشجاعة أمام الجميع وهى تزيح الغطاء عن وجهها فى ١٩٢٣.

وعانت هدى الأمرّين فى رحلة العودة إلى مصر. بداية من الساعات الطويلة بالقطار عبر أوروبا، ثم بالباخرة من اسطنبول فى رحلة لم تكن قط أبطأ من هذا. لقد شعرتْ بالذنب لأنها تركت القاهرة فى وقت لم تكن فيه صحة محمود على ما يرام، حتى وإن كانت وفاته غير متوقعة تمامًا. وأخيرًا غادرت الباخرة فى الإسكندرية وأسرعت للقاء بُثنة، التى كانت فى انتظارها. كانت تتوق إلى أن تحتضن ابنتها بين ذراعيها وتطمئنها بأنها ستكون معها دومًا، وأنها ستفعل كل ما فى طاقتها لمساعدتها. كانت تريد أن تعرف بُثنة أنها لن تكون وحدها. وراحت تركض على درجات السلم حيث كانت تنتظرها بُثنة أعلاه. ولكنها حين حاولت أن تعانقها، تراجعت بُثنة إلى الوراء ودفعت أمها بعيدًا. وإذا بهدى تتعثر وتسقط على الدَّرج. لم تستطع أن تصدِّق ما يحدث ثم بدأت أخيرًا تُدرك حجم

غضب ابنتها. وتفهمت أن بُثنة شعرت بخيانة أمها التى كان يُفترض أن تكون بجانبها وليس خارج مصر. وبدت حرارة العلاقة بين هدى وابنتها وقد تبخَّرت فجأة ولم تعرف هدى كيف سيسعها التعامل مع هذا الوضع الجديد والمزعج.

ولحسن الحظ، كانت منيرة وبناتها الثلاث قد قدمن أيضًا إلى الإسكندرية. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أدركت فيها هدى كم كانت زوجة ابنها رحيمة وحنونة. ربما لم تكن حتى الآن قد رأت منيرة كما هى بالفعل، أو حاولت أن تتواصل معها كما ينبغي. لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تواتى فيها منيرة الفرصة لتظهر إلى مدى يمكن أن يكون حضورها مُعينًا، وإلى أى مدى يمكنها أن تلطف الأجواء، حين وقع ما لا يمكن تخيله، وانهارت هذه المرأة الأسطورية، عمود الصلابة والرصانة هذه. بل إن هدى نفسها كانت تعتقد أنها رابطة الجأش تمامًا، إلا أنها لم تستطع، فى لحظة الأزمة غير المتوقعة، التحكم فى مشاعرها. لقد كانت مرتبكة ومضطربة ولم تعرف ماذا تقول أو تفعل للاعتذار لبُثنة عن غيابها. وتدخلت منيرة وساعدت الأم وابنتها على الحديث وتوسطت محاولة شرح مشاعر كل منهما للأخرى.

لقد كان لوفاة سامى باشا عواقب كثيرة، إلا أن أكثرها إزعاجًا تمثل فى التوترات الجديدة وغير المتوقعة التى أحدثتها داخل العائلة. إذ جاءت بُثنة للإقامة مع والدتها وبدأت فجأة تشعر بالاستفزاز من الحضور الدائم لسيزا وحوا وغيرهما من النساء فى مجموعة هدى الصغيرة. بينما كانت معتادة على خصوصيتها فى منزلها الخاص الذى كانت سيدته الأولى. وقد ملأها ما رأته انتهاكا دائمًا للخصوصية فى منزل هدى بالحنق. وتحدثت بُثنة عن ذلك مع محمد واكتشفت أنه منذ زمن طويل وهو يشعر هذا الشعور. ومع ذلك، فقد وجدوا أنفسهم جميعًا محاصرين فى الشبكة التى أقامتها هدى حولها فى إطار

أنشطتها الاجتماعية والسياسية، ولم يكن أمامهم فرصة كبيرة للتوقف والتفكير فى حيواتهم الخاصة وآمالهم واحتياجاتهم. فقد كان هناك الكثير الذى ينبغى عمله وكانت مواصلة النضال هى طريق هدى الذى لا يعرف المرونة.

وحين أهلَّ سبتمبر، لم تستطع هدى الذهاب إلى بروكسيل بسبب مأساة بُثنة واحتياجها الخاص إلى أن تركِّز اهتمامها ولو لمرة على أوضاع عائلتها. كما أنها قد عاشت أيضًا لحظة حزن خاصة فى سبتمبر عندما سمعت بوفاة صديقتها القديمة چولييت آدم. وهناك سبب آخر لعدم ذهاب هدى للمؤتمر فى بروكسل لو لم تكن وفاة زوج ابنتها ستمنعها فى جميع الأحوال من الذهاب، وهو أنها قد عرفت بالصدفة أن اللورد روبرت سيسيل يتعاطف مع الصهيونية. إذ بدأت تتزايد لديها الصعوبة فى التواصل مع من يتبنون هذه الرؤية. ورغم أنه كان من الموجع لها التغيب عن هذا التجمع الدولى الرئيسي، كانت على يقين أن زميلاتها سوف تحافظن على علم مصر خفاقًا وتُقدِّمن إسهامًا قيمًا فى المؤتمر. لقد كان هؤلاء النسوة متحمسات للمشاركة. وقد أصبحن الآن معتادات على المشاركة فى المؤتمرات، ولم يعدن يشعرن بالخجل من مواجهة الجماهير. وكانت فاطمة نعمت راشد، واستر فهمي ويصا، ودرية شفيق، وأخريات سواهن على استعداد دائم للتحدث عند الحاجة لذلك سواء بالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية، لمساندة عصبة الأمم وطرح قضية عضوية مصر فيها، وإبراز دعم مصر للعدل والسلام.

وفى أكتوبر، بلغت مخاوف هدى بشأن فلسطين آمادًا غير مسبوقة حين بعثت لجنة الفلسطينيات العرب أخبار التطورات الأخيرة ومحنة الأهالى المحليين. إذ ارتفع تعداد اليهود من ١٧٤٠٠٠، فى عام ١٩٣١ إلى ٣٨٤٠٠٠، فى عام ١٩٣٦. وكان موقفهم من السكان الأصليين، فى أفضل أحواله، غير ديمقراطي، ويصل

إلى حد التهديد فى أسوأ حالاته، إذ كانوا يحتقرون الفقراء والعاجزين من الفلسطينيين العرب، وكانوا مستعدين لاتخاذ أية خطوات للاستيلاء على المزيد من الأراضي. وبدا أنهم نجحوا بفضل فعالية اللوبى الصهيونى فى الغرب فى اكتساب دعم الحكومة البريطانية فى فلسطين، على حساب العرب، رغم الزعم فى الوثيقة البيضاء الصادرة فى ١٩٣٠، بأن عدد المهاجرين اليهود سيكون محدودًا.

لقد صدَّق البرلمان المصرى بمجلسيه، النواب والشيوخ، على المعاهدة البريطانية-المصرية فى ١٨ نوفمبر. وقد كانت هدى من بين من ظلوا حانقين على القبول المتخاذل للشروط البريطانية من قبل المفاوضين المصريين لدى التوقيع التمهيدى على المعاهدة فى ٢٦ أغسطس. وأعربت هى وسيزا عن خيبة أملهما بوضوح وقالتا إنه إذا كان الرجال ليسوا بقادرين على ضمان مستقبل مصر، فإن مهمة حل مشكلاتها ينبغى أن تُسند للنساء. وقالت هدى إنه على النساء أن ينتفضن لحماية أطفالهن والمطالبة باستفتاء يشارك فيه جميع المواطنين المصريين، رجالاً ونساءً، حول قبول أو رفض مواد المعاهدة. ولكنها أرادت ربط المسألة باهتماماتها الأخرى بشأن السلام وفلسطين.

"يا نساء مصر، إذا كنتُ أتوجه إلى ضمائركن، فذلك لكى نحمى بلادنا، قبل أن ينفد الوقت، من مواجهة المصير المحزن لفلسطين وإسبانيا، ضحايا التدخل الأجنبى والحرب الأهلية. لأنه للأسف مع أننا قد حصلنا على الحكم الدستورى الذى دفعنا ثمنه من دمائنا، فإنى أشاهد فى الأفق صعود علامات التعصب السياسى الذى يُعد العدو الأبشع لحرية الأفراد". [١٣]

وفى تلك الأثناء، استمر التركيز على قضية السلام. وكانت آديل ايدنشنك- باتان، المربية الفرنسية المرموقة التى أسَّست الرابطة الدولية

للأمهات والمربيات من أجل السلام (LIMEP) فى فرنسا، من بين المراسلات المنتظمات لهدى. وكانت تكتب كثيرًا فى ليچيبسيان عن الحاجة لضبط تجارة السلاح الأوروبية. وكتبت فى ديسمبر ١٩٣٦ تقول: "إن مهمة النساء هى أن يكبحن وحش الحرب، بمعاونة الرجال ذوى النوايا الحسنة وأن تستعدن الروح الإنسانية للبشرية".[١٤]

وفى نوفمبر عام ١٩٣٦ راحت هدى تُخطِّط لإصدار مطبوعة أخرى لتقف إلى جانب ليچيبسيان. وكانت تفكر فى إصدار مجلة باللغة العربية تبرز تضامن حركة المرأة المصرية مع العالم العربي. وكانت مجلة المصرية تستهدف جمهورًا جديدًا يتحدث العربية ويُمكِّن هدى من الوصول إلى النساء العرب فى البلاد التى لا تتقن الفرنسية وكذلك توسيع نطاق متلقيها فى مصر ليتجاوز الطبقة الوسطى التى كان توزيع ليچيبسيان الفرنسية ينحصر داخلها.

وحاولت هدى بقوة إقناع حوا بتولى رئاسة تحرير المجلة. وقد رجتها أن تقبل، إلا أن حوا لم تستجب لها. إذ كانت ترى أنها غير مؤهلة لمثل هذا المنصب لعدم حصولها على شهادة جامعية. وكان رد هدى أنها هى الأخرى غير حاصلة على مثل هذه الشهادة؛ ومع ذلك فإنها واثقة من قدراتها الفكرية. إلا أن حوا لم تتراجع، فقد كانت تحب عملها مع " الشابات"، وتنظيم العروض والحفلات للسوق السنوية للاتحاد النسائى المصري، والإشراف على حضانة الأطفال، وأحيانًا على إنتاج المشغولات فى الورشة. كانت تخشى أى مسؤولية تحس أنها تتجاوز قدراتها. ورأت أن إيمان هدى بها شيء جميل ولكنه فى غير موضعه هنا. وفى النهاية تولت المنصب فاطمة نعمت راشد.

وشهد يناير ١٩٣٧ الاحتفال بالعيد الثانى عشر لصدور ليچيبسيان، تزامنًا مع مولد المصرية التى تقرَّر صدورها مرتين فى الشهر. وقد افتقدت المجلة

الجديدة فى بداياتها مهارة سيزا ولكنها حققت الغرض منها؛ وهو تعريف المتحدثين بالعربية فى مصر وبقية العالم بأنشطة الاتحاد النسائى المصرى وإمدادهم بمعلومات متنوعة ومقالات تربوية كتبها أفضل الكتاب والشعراء. وكانت السياسة تحتل جانبًا مهمًا من المجلة. وفى الحفل، تم توزيع المزيد من التماثيل الخزفية لتمثال مختار "الفلاحة المصرية" على جميع الضيوف على سبيل التذكار. وكان واضحًا من البداية أن المصرية ستكون مجلة ذات اتجاه دستورى حر، وقد شارك محمد على علوبة وحافظ عفيفى ومحمد حسين هيكل فى عددها الأول الذى حوى أيضًا مقالاً لايدنشنك باتان عن السلام ونزع السلاح، كان قد سبق نشره فى ليچيبسيان وتمت ترجمته إلى اللغة العربية لـ المصرية.

ومع مرور الوقت بدأت هدى تقبل أن شروط المعاهدة البريطانية – المصرية ربما كانت أفضل ما يمكن لمصر الحصول عليه فى الظروف القائمة. كان للكثير من المصريين صلات مع مؤسسات الأعمال البريطانية. حتى الوفدى النحاس باشا كان يرى مميزات فى الحفاظ على علاقة ما مع بريطانيا. وكان محمد محمود من أبرز وجوه الأحرار الدستوريين وقد تخرج من كلية باليول الإنجليزية بأوكسفورد، وهو ما كان يحمله على الشعور بالقرب من البريطانيين. أما حافظ عفيفي، صهر محمود سامى باشا، فلم يكن يخفى يقينه فى أهمية العلاقات التجارية مع بريطانيا. وقد بدأت هدى علاوة على ذلك، تشعر بأنه ربما تكون هناك حاجة فعلية للحماية البريطانية فى مواجهة اعتداء خارجى يأتى من جهات أخرى. وأدركت فى النهاية أنه ليس من الواقعى الافتراض أن أعضاء لجنة التفاوض كان أمامهم اختيار آخر بالنسبة لشروط المعاهدة.

وكانت قوانين الامتيازات الأجنبية هى القضية الأخيرة التى سيتم تناولها أمام المؤتمر المقترح عقده فى مونترو بسويسرا، بمشاركة الدول الاثنتى

عشرة التى كانت تربطها اتفاقيات مماثلة مع مصر. ولم يكن هناك خلاف فى المؤتمر حول إلغاء القوانين، وإنما فقط حول الجدول الزمنى ومدة الفترة الانتقالية.[١٥] وقد تمكنت المحاكم المصرية بسرعة من التعامل مع المسؤوليات الإضافية التى ستقع على عاتقها فى المحاكم المختلطة. ودخلت اتفاقية مونترو حيز التنفيذ بعد ثمانية عشر شهرًا من ذلك. وبذا استعادت مصر أخيرًا، من حيث المبدأ، سيادتها القضائية والتشريعية الكاملة رغم بقاء فترة انتقالية طويلة أمام ذلك. وانضمت مصر إلى عضوية عصبة الأمم فى ٢٦ مايو ١٩٣٧. وبعثت إميلى جورد، التى كانت آنذاك الأمينة العامة للتحالف الدولى للمرأة ببرقية تهنئة لهدى، أعربت فيها عن أملها بوجود نساء فى الوفد المصرى بالعصبة. وقد أرسلت هدى البرقية إلى رئيس الوزراء.

وجرت احتفالات فخيمة بمناسبة عودة ملك البلاد الجديد إلى مصر، الملك فاروق، الذى بلغ أخيرًا سن الرشد حسب التقويم الإسلامى وأصبح يمكنه اعتلاء العرش بعد وراثته بخمسة عشر شهرًا. ووصل فاروق إلى مصر فى ٢٥ يوليو ١٩٣٧ وتُوِّج ملكًا فى ٢٩ منه. وقد بلغت الاحتفالات والزينات والأنوار الرائعة والأبهة نطاقًا مبهرًا. واحتشدت الجموع من جميع أنحاء البلاد مثل مد بشرى متدفق، لتفيض بهم شوارع القاهرة ليشاهدوا الملك الشاب الوسيم والساحر، والبريء، والمُؤمن، والكامل. كان الجميع يتوقون لإلقاء نظرة عليه أو سماع صوته عبر الإذاعة لكى يمكنهم تكوين صورة لأملهم الذى وضعوه فى هذا الصبى المراهق. وقد حضرت الملكة نازلى الأم، وبناتها، شقيقات فاروق، جلسة حلف اليمين فى البرلمان.

وقد وجد الملك الشاب لنفسه مكانًا فى قلوب شعبه لم يجده أبدًا والده. كان يجيد التحدث إلى العامة. وحين انتهت الاحتفالات التى استمرت ثلاثة أيام فى

القاهرة، انتقلت إلى الإسكندرية حيث كانت الطوائف الأجنبية قد أعدت المدينة للمزيد من المهرجانات. لقد كان الجميع معجبين بالملك ليس فقط لأنه كان وسيمًا وأنيقًا، وهو ما لم يكن أبوه يحظى به بالتأكيد. بل لأنه كان مسلمًا صالحًا، يستطيع أن يؤم الصلاة باللغة العربية، وهو ما لم يكن فؤاد بقادر على أن يفعله. وقد منحه ذلك منزلة ("الملك الصالح"). وسيساعده يومًا ما أن يصبح زعيمًا ليس فقط لمصر بل وأيضًا للعالم الإسلامى المتفكك بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، حيث كانت الحاجة تتعاظم للوقوف ضد التدخل والتلاعب الأجنبي"[١٦]

وسعدت هدى لمعرفة أن الملكة نازلى لم تعد سجينة تتنقل بلا هدف من قصر إلى آخر ومن حرملك خاضع للحراسة الصارمة إلى آخر، لا صحبة فيه إلا الأزياء الفاخرة والمجوهرات الثمينة. كان الملك فاروق قد شبَّ هو نفسه فى عزلة دون أصدقاء، باستثناء شقيقاته. وكان لا يلتقى بأمه سوى وفق برنامج مُحدَّد بدقة، وكان الملك فؤاد قد ظل متباعدًا عنه وحادًا معه على امتداد طفولته. وصار واضحًا أن الملك اليافع قد أخذ يكتسب النضج فى ظل حريته المفاجأة وفى رفقة عائلته.[١٧] وقد ارتاحت هدى لما بدا وكأنه عودة العائلة الملكية إلى حياة تكاد تكون طبيعية. كان ذلك مظهرًا آخر لحرية ستسود بالتدريج حياة المجتمع المصري.

وجاء قرار سيزا ومصطفى نجيب أن يتزوجا أخيرًا ليسعد هدى كثيرًا. وكانت سيزا آنذاك تقريبًا فى الأربعين وبدأت هدى تشعر بالذنب لعدم تمتعها بحياة خاصة، وألقت باللوم على نفسها، بسبب كثرة مطالبها المتواصلة منها، ورأت أن هذا كان نتاج إنكار سيزا للذات وتفانيها فى دعم قضايا هدى المختلفة. وتذكرت هدى، وهى تشعر بالذنب، قصة حب سيزا الماضية وهى فى مقتبل العمر مع محمد السقاف وكيف منعتها من السفر إلى الخارج معه بسبب انتقاد

على سعد الدين للسلوك المستهتر للشاب. إلا أنه يمكنها الآن أن تعوِّضها عن الماضي، وأن تكون الأم الروحية لابنتها فى لحظة زواجها.[١٨] لقد كان مصطفى نجيب شابًا ذكيًا ووسيمًا ومفعمًا بالحيوية ومرحًا. وكان طبعه يتفق وطبع سيزا، ببصيرتها الحادة فى إدراك البشر وخفة ظلها. إلا أن سيزا كانت أكثر جدية من مصطفى، حيث كانت تنظر إلى العمل على أنه بالأحرى رسالة وليس مجرد مهنة. كانت تعشق ما تفعله فى حين كان هو غريب الأطوار ويندفع وراء كل ما يجلب له المتعة. وقد تزوجا فى منزل هدى كما يليق، إلا أنه لم يكن مقدَّرًا لهما البقاء معًا على المدى الطويل.

وفى ١٩٣٧، بدأت الهواجس تنتاب هدى مُجدَّدًا حول المعاهدة البريطانية–المصرية حيث انتشرت فى مصر تكهنات مفادها أنه يمكن حسب نصوص المعاهدة أن تُسحَب البلاد رغمًا عنها، كحليف لبريطانيا، إلى ما يبدو أنه حرب عالمية وشيكة. واكتأبت هدى لهذا الاحتمال وشعرت أن البريطانيين قد خدعوا المصريين فى نهاية الأمر. إن مصر ستدفع ثمنًا غاليًا إن تم جرها إلى كابوس الصراع العالمي. وكانت قد تلقت برقية من حملة السلام الدولية التى يشرف عليها بيير كوت وروبرت سيسيل، تطلب منها الانضمام إلى حملة تدعو عصبة الأمم إلى التحرك بمزيد من الفعالية، بعد عدم إدانتها لغزو إثيوبيا والحرب الأهلية الإسبانية وحرب اليابان ضد الصين. ومنحتهم هدى مساندتها فورًا. وفى ١٢ سبتمبر ١٩٣٧، بعثت ببرقية إلى واصف غالى باشا، وزير الخارجية المصري، جاء فيها "إن نساء مصر، وقد جزعن للانتهاكات المتواصلة للقانون الدولى وتهديدات الحرب، تطالبن عصبة الأمم بالقيام بتحرك فعَّال من أجل تحقيق الالتزام الكامل بالمعاهدة فى أبيسينيا وإسبانيا والشرق الأدنى والأقصى". وقد أضافت هدى فلسطين إلى قائمة همومها. وحين صعد واصف غالى باشا

إلى المنصة ليتحدث للمرة الأولى أمام عصبة الأمم، انتقد بشدة نوايا بريطانيا الواضحة فى تقسيم فلسطين.(١٩)

كانت هدى تعى بشكل متزايد قيمة تدخلاتها وإمكانية استخدام مجلاتها للدعاية لما تريده. وواصلت إبراز الحاجة إلى الإصلاح الاجتماعى فى مصر، وكثيرًا ما فضحت الحكومة بالكتابة عن المبادرات الخاصة التى تعجز عن تنفيذها، مثل معهد الصم والبكم الذى زارته فى الإسكندرية والذى أقامته جمعية خيرية يونانية. لم يكن أداء الوفد فى السلطة قد ارتقى إلى توقعاتها واكتسبت معركتها ضد ما رأته فسادًا متعاظمًا لحكومة النحاس باشا حدة شديدة لدرجة اتخذت معها بعض مقالات ليچيبسيان نبرة تهديد. وقد أدى سجن صحفيين فى عنابر واحدة مع الجنائيين، والإهمال العام للنساء والتجاهل الواضح لقطاعات الشعب الأكثر احتياجًا، أدوا بها للتصريح باستعدادها لسحب دعمها لحكومة النحاس ونشر ذلك فى مجلاتها بما سيكون له من تأثير كبير على الرأى العام.

كانت هذه فترة بلغ فيها نشاط هدى السياسى ذروته. ولم تكتف بتدخلاتها الدولية، ودفاعها عن القضية الفلسطينية وانشغالها بالمعاهدة البريطانية-المصرية ودورها العام على الساحة السياسية. واختارت هدى أن تطلق فى هذه اللحظة حملتها الخاصة ضد الفساد الرسمي، وهى قضية مبدئية واصلت كفاحها من أجلها بقية حياتها.وعلى سبيل المثال، عند إخطارها بخطة إنتاج الكهرباء من سد أسوان، نشرت مقالات فى المصرية وليچيبسيان تبرز ما يتردد من وجود شبهة فساد فى إرساء المناقصة. وبعثت فى رسالة إلى رئيس الوزراء تطالبه فيها بوقف موجة الفساد، قائلة إنه فى وسعه الحد من مدفوعات الدولة عن طريق خفض المصروفات الحكومية. ورغم ترحيبها العام بفاروق كخليفة للملك فؤاد، إلا أنها استشعرت أن المصروفات التى أُنفقت لدى وصوله كان مبالغًا فيها فى وقت تأزم مالي.

كان الملك فاروق شابًا عصريًا. وفور جلوسه على العرش، احتاج إلى زوجة وعرض بشكل غير رسمى الزواج على صافيناز، ابنة سعيد ذو الفقار باشا ، ووالدتها زينب، أقرب رفيقات الملكة نازلى وصديقة شقيقاته. وسألها، بشكل غير رسمي، إن كانت توافق على أن تكون ملكته. وقد خفضت عينيها وقالت لفاروق إنه يتعين عليه أن يسأل والدها. ولم يشعر فاروق بالإساءة لمعاملته مثل أى شاب عادى، وتقدم بعدها بطلبه إلى والدها بالشكل المطلوب، كما طلبت منه[٢٠].

وحكت سيزا قصة الخطوبة الملكية بعبارات رومانسية فى المجلة. ووصفت الملك الشاب بأنه فاتن ومحبوب. وحينما غيرت صافيناز اسمها التركى الى اسم فريدة المصري، حتى يكون حرفه الأول بالفاء مثل اسم زوجها، أسرت قلوب المصريين. كان الاثنان فى زهرة الشباب ويتمتعان بجاذبية كبيرة وقد تم عن قصد إعداد حفل زفافهما بحيث يعيد إلى الأذهان فخامة الاحتفالات بملوك وملكات مصر القدماء. كان الاثنان يلبسان التاج، وكانا هما، كما قالت سيزا، جوهرتى هذا التاج. وقد أضافا إلى البلاد مزيدًا من الجمال والأناقة وأسبغا عليها صورة شبابية كانت تعوزها بشدة.



- ١١ -

الســـلام والعــدل

وفى ١٩٣٨ لم يأت لمصر ملكٌ جديدٌ فقط، بل وحكومة جديدة أيضًا. فقد تلقى النحاس باشا، أول رئيس وزراء فى عهد فاروق الأول، أوامر بترك الخدمة حين تم حل حكومته بمرسوم ملكى فى نهاية ديسمبر من عام ١٩٣٧. لقد كانت هناك مواجهة مستمرة بين الملك والوفد منذ اعتلاء فاروق للعرش، وفى اللحظة التى بدا فيها أن شعبية الوفد تنحسر مؤقتًا استغل الملك الفرصة. وفى ٢٩ ديسمبر من عام ١٩٣٧ تولى محمد محمود رئاسة الوزراء مرة أخرى. وقد نجح كواحد من الأحرار الدستوريين المؤمنين بالديمقراطية فى تشكيل حكومة تضم ممثلين من كافة الأحزاب، إضافة إلى عناصر من المستقلين، من بينهم بهى الدين بركات باشا، أحد أعضاء البرلمان المستقلين. وعيّن عبد الفتاح يحيى باشا، الذى رأس الوزارة فيما سبق، وزيرًا للخارجية، وقد كان مطلوبًا منه إدارة العلاقات مع السفارة البريطانية بكياسة. وأصبحت مصر مرة أخرى فى أيدى مجموعة سياسية تحظى برضا هدى.

وحاول محمد محمود من جانبه مغازلة الشعب لكسب رضاه. وبوصفه من مالكى الأراضي، فقد سعى إلى أن يظهر للشعب اهتمامه بالمناطق الريفية. إذ

كان يُمضى وقتًا فى صعيد البلاد، متنقلاً بعوامته من أعلى الصعيد إلى أدناه ليقابل العامة ويشجعهم على التصويت وممارسة حقهم فى الحرية والمساواة. وقد تم بالفعل تنفيذ إصلاحات لتحسين حياة الفلاحين الذين يشكلون السواد الأعظم من أهالى مصر. وقام البندارى باشا، وزير الصحة العامة، بشق آبار ارتوازية فى القرى لإمداد المناطق الريفية بمياه الشرب. كما تم تجهيز مائتى مركبة كمدارس ومستوصفات متنقلة فى المناطق النائية، إضافة إلى إقامة وحدات صحية دائمة يديرها طبيب وقابلة وممرضة. غير أن ذلك لم يحظ بحفاوة النسويات حيث إنه لم يقم بتحرك فى اتجاه منح المرأة الحق فى التصويت والتمثيل فى البرلمان الذى طالبن به.(١)

وكان الانتقاد المستمر لأسلوب حياة هدى من جانب ابنتها وابنها قد بدا واضحًا بشكل مزعج، وظهر عدم رضاهما عن أنشطتها أكثر وأكثر. ولكنها كانت لا زالت تستمتع بصحبة أحفادها. إذ كانت كلما واتاها الوقت تلعب مع بنات محمد الصغيرات وتصُفُّهنَ فى شكل دائرة وتغنى لهن أغنية فيكتور هوجو "دائرة الأطفال" وهى تصفق بيديها: "ارقصن يا صغيرات / ارقصن فى دائرة / سوف تضحك الغابات / حين تراكن لطيفات". كانت تحفظ اللحن عن ظهر قلب وسرعان ما حفظته البنات أيضًا اللائى كن يُحببن صوت هدى الأجش وقوته الباعثة على الراحة والاطمئنان. وكان معروفًا فى محيط مجتمع المنزل الكبير أن التواجد فى حضرة هدى يُعد شرفًا. وإذا حدث وجاء أبوهن وبدأ يحتد النقاش، كنّ يرتعبن ويركضن بعيدًا. وكانت الأحاديث بين هدى ومحمد، أو هدى وبُثنة، كثيرًا ما تتصاعد فى مجادلات غاضبة. وكان الأحفاد يدركون أن جدتهم رغم طيبتها الدائمة فى تعاملها معهم، فإنها صارمة وحازمة ويعلمون أنها يمكن أن تصبح مفترسة حين تستثار. وقد كانت دائمة الحذر ألا يُجرَح أحد

ممن يعملون معها أو يحتاجون لمساعدتها، ولكن الغضب الضارى يمكن أن يجتاحها أحيانًا حين تشعر أن ذلك يحق لها.

وفى هذا الوقت لم يعد فى إمكان هدى أن ترفض أكثر من ذلك مواجهة حقيقة مشكلاتها الصحية. إذ بدأت تنتابها آلام متكررة فى الصدر. وأفاد التشخيص بوجود ذبحة صدرية وألح الأطباء على ضرورة أن تخلد للراحة.



هدى فى منتصف العمر

وقد بدأت فى هذا الوقت تتأمل بجدية موتها الخاص، وقد كانت قادرة على أن تتخذ موقفًا فلسفيًا وهادئًا منه. وبالنسبة للعمل، فقد استطاع معاونوها المساعدة فى مجالات كثيرة، وإن كان جليًا أن الإحساس بالتوجه السياسى يغيب حين لا تتمكن هدى من أن تكون على رأس الفريق. ومع ذلك، فقد استمر

العمل كالمعتاد، واستطاعت سيزا إدارة ليچيبسيان وحافظت إيڤا حبيب، التى أصبحت رئيسة تحرير "المصرية"، على مستوى المجلة العربية. وأشرفت حواء على الأنشطة العملية للاتحاد النسائى المصرى بمعاونة مجموعة "الشابات" الأخريات **the other Cadettes**. وشكّل الفريق المُكوّن من شريفة لطفي، وكريمة وأمينة السعيد وفاطمة فهمى بل وأحيانًا زوجة ابنها ميمي، حين كان يسمح لها محمد بذلك، طاقمًا متميزًا قادرًا تمامًا على إدارة العمل فى ٢ شارع قصر النيل وكذلك فى مقر الاتحاد النسائى المصري، بدون مساعدة. ومُنِح محمد، الملتزم دومًا بواجباته فى المجال العام جائزة "مختار".[٢]

وفى بدايات عام ١٩٣٨، زارت لجنة من مسلمى الصين القاهرة سعيًا للحصول على المساندة فى مواجهة العدوان الذى يشنه اليابانيون على بلادهم. وكانت هذه واحدة من البؤر الدولية الساخنة التى تعمل حركة السلام الدولية على جذب الانتباه إليها، رغم عدم المعرفة الكافية بها فى الغرب. وقد مثلت بالنسبة للنسويات المصريات بدون شك قضية غريبة ومثيرة للاهتمام. وقامت ليچيبسيان بتغطية الزيارة، ومع تعاظم اهتمام المحيطين بهدى بالقضية، ازداد تسليط الضوء عليها. بل وصل اهتمامهم بالهندوسية إلى درجة تقديمها للوحة استعراضية عن كريشنا فى السوق السنوى للاتحاد النسائى المصري.[٣] وقد رأت هدى فى المسألة نمطًا منبثقًا من الأمم المستعمرة الرامية إلى السلام، فى الوقت الذى كان فيه الشغل الشاغل للغرب يكمن دومًا ببساطة فى الحفاظ على ممتلكاته ونفوذه عبر المحيطات.[٤]

وفى المنطقة، اتضح منذ الانتدابات التى قسّمت الشرق الأوسط بشكل مصطنع أن سوريا الكبرى، كما كانت المنطقة الشرق- أوسطية تُسمى آنذاك، سوف تعانى لا محالة من عدم الاستقرار الذى تشهده مناطق أخرى مُستعمَرة

فى العالم. وكانت الشروط التى نالت بها سوريا مؤخرًا استقلالها تثير القلق حول مُخطَّطات فرنسا فى المنطقة. وطلبت هدى من محمد جميل بيهوم كتابة سلسلة مقالات عن المعاهدات الفرنسية-السورية والفرنسية- اللبنانية التى لم تكن تختلف عن المعاهدتين البريطانية-العراقية أو البريطانية-المصرية. وبعد أن قسَّموا أراضى المنطقة وفقًا لمصالحهم، كانت فرنسا تستعد لترك السوريين، من الناحية النظرية، يحكمون أنفسهم بعد استقلال البلاد فى ١٩٣٧، لكنها تعمَّدت ترك قوة عسكرية إلى جانب اتفاقية تبقى سوريا بمقتضاها حليفة دائمة لفرنسا. كما كان واضحًا أنه ستكون للخطة الفرنسية بفصل لبنان عن سوريا نتائج لا يمكن التنبؤ بها فى المستقبل. وكانت هدى وزميلاتها يجادلن بأنه يتعين على الفرنسيين، مثلما يتعين على البريطانيين، أن يدركوا أنه لا يمكن فرض الحدود السياسية بالأسلوب الغربى وفرض الأولويات الغربية على العالم أجمع بدون إثارة الغضب.

وفى أبريل ١٩٣٨، قام إدوارد هيريو، رئيس وزراء فرنسى سابق وأحد الدعاة الأقوياء لعصبة الأمم والنظام العالمي، بزيارة للقاهرة. ودُعيت هدى وسيزا وفاطمة نعمت راشد وچان ماركيس إلى مؤتمره الصحفي. وقد ترك حديثه السمح والمطمئن شعورًا بالسكينة لدى الصحفيين الذين التقوا به.[٣] فقد نجح هذا الداعى العظيم إلى السلام فى تصويره أنه لا يزال ممكنًا ودعى إلى تفاهم أفضل بين الشرق وبلاد الغرب. وشعر المصريون بأن هناك ما يبرر عدم فقدانهم الثقة بالكامل فى فرنسا.

وكان الملك فاروق يبدو وكأنه لا يزال يحمل بعض الأمل فى مستقبل أفضل لمصر. ونشرت مجلات هدى صورًا لزوجته الملكة فريدة وهى ترتدى عقدها وقرطها وتاجها الماسي. كان الزوجان الملكيان يُصدِران لمن يشاهدهما صورة

من السعادة. كانت الملكة ذكية وجميلة فى آن واحد وتبدو فى صورها الرسمية كروح معطاءة جاءت لتحمى بلدها وملكها من خلال ذاتها المُشعَّة. وكانت النسويات سعيدات لسماح الملك لملكته وأمه بالتحرك بحرية وأنه لا يحذو حذو أبيه فى سجن بيت الطاعة داخل الحرملك. وشعرت هدى بأن هناك تحسنًا كبيرًا فى سلوكيات القصر.

وكانت هدى لا تزال تقضى الكثير من الوقت فى مناقشة الشؤون السياسية مع مجموعة مستشاريها. وكان الكثيرون منهم قد تقلدوا مناصب مرموقة فى حكومة محمد محمود. وفى عام ١٩٣٨، أصبح هيكل باشا وزيرًا للمعارف فى حين تولى مصطفى عبد الرازق وزارة الأوقاف. وكان صديقها القديم لطفى السيد لا يزال مديرًا لجامعة القاهرة، فى حين ظل طه حسين مستقرًا بقوة على رأس كلية الآداب. وكانت هدى تواصل استشارة محمد على علوبة، صديق العمر والصديق الوفى لزوجها الراحل على إبان الأيام المجيدة لـ الوفد وأفضل مستشاريها القانونيين والسياسيين. كانت مشكلات مصر الداخلية أعسر من أى وقت مضى، وظلت هدى توجه جُلَّ اهتمامها لقضايا تعليم المرأة وتطوير التعليم بصفة عامة فى مصر، علاوة على قضية تحقيق العدالة الاجتماعية. وكان محمد حسين هيكل باشا قد أجرى لتوه مسحًا فى المدارس المصرية كشف أن الكثير من تلاميذ المدارس الابتدائية مرضى أو يعانون من سوء التغذية. ورأت هدى أنه يمكن معالجة المسألة من خلال تقديم وجبات طعام فى المدارس، مع زيادة عدد المدارس الابتدائية تدريجيًا فى القاهرة وغيرها من المدن، وبذا يتم أخيرًا تنفيذ مادة دستور ١٩٢٣ التى جعلت التعليم إلزاميًا. فالأهالى لم يكونوا مُجبرين على إرسال أبنائهم للمدارس بسبب قلة عددها، وسوف يُلزمون بذلك فى حالة نجاح هذا الإصلاح.

وفى مايو عام ١٩٣٨ تعود هدى إلى فلسطين مرة أخرى وتستخدم صفحات ليچيبسيان لتطلق نداء إلى بلاد الشرق الأوسط من أجل مساعدة الفلسطينيين العرب:

"تُعرب كافة البلاد العربية التى يؤلمها كثيرًا عذابات أشقائها الفلسطينيين الذين يدافعون ببسالة عن وطنهم وحقوقهم المشروعة، للعالم كله عن سخطها لما يحدث. ولكن مصر مدعوة، أكثر من أيٍّ بلد منها، إلى الانتفاض فى وجه هذا الظلم والمسارعة إلى نجدة جيرانها. ألم يصبها نفس السلاح الذى تغرسه الآن بريطانيا فى قلب فلسطين المقدسة؟ ألم تُعانِ بالأمس مما يعانى منه اليوم هذا البلد البائس؟ وإضافة إلى ذلك، فحين ثارت مصر كان عليها الدفاع عن استقلالها فى مواجهة مغتصب واحد، فى حين تدافع فلسطين المنكوبة عن حياتها فى مواجهة مغتصبينِ اثنينِ شرسينِ حشدا القوى لإبادة أطفالها والحلول مكانهم".[٦]

لقد ظلت هدى وفية لمبادئها وهى تخطو فى المرحلة الأخيرة من رحلتها فى الحياة. لم يكن هناك ما هو أقبح فى عينيها من العنف والرغبة الظالمة فى السيطرة على الآخرين لمجرد أنهم ضعفاء سياسيًا واقتصاديًا أو عسكريًا. وقد كان هذا هو ما حاربته بأقصى درجة من الضراوة. وكان التصميم يملؤها لمواصلة معركتها حتى الرمق الأخير بأسلحتها التقليدية، العقل والمعلومة. كانت ترى فى قضية فلسطين مأساة إقليمية، إن لم تكن عالمية، تزداد بشاعة، وظلت تؤمن بأن اليهود غير الصهاينة سوف يصطفون إلى جانب الفلسطينيين حين يعرفون الوضع الحقيقى فى فلسطين. إذ لا يمكن لهم بالتأكيد أن يرضوا عن استخدام العنف فى الأراضى المقدسة.

وحانت لحظة فارقة بالنسبة لهدى، فى سبتمبر ١٩٣٨، حين كاتبتها منظمات المرأة الفلسطينية والسورية واللبنانية والعراقية تدعوها إلى تمثيلها فى عرض القضية الفلسطينية فى المنظمات الدولية وغيرها من المحافل الملائمة.[٧] وتجاوبًا مع هذا، وضع الاتحاد النسائى المصرى على الفور خطة لعقد مؤتمر دولى عن فلسطين بالقاهرة فى أكتوبر ١٩٣٨. ونشرت هدى فى مجلتيها، بوصفها رئيسة للاتحاد النسائى المصرى ولمؤتمر نساء المشرق، نداءً إلى كافة نساء العالم تدعوهن فيه إلى مساندة فكرة المؤتمر.

"قررنا نحن نساء المشرق، بدافع من ضميرنا لإنقاذ الإنسانية المعذبة فى الأراضى المقدسة، عقد مؤتمر بالقاهرة لنتدارس الوضع المؤلم الذى ترزح فلسطين تحت وطئته منذ عدة سنوات.

إن ما يكابده الفلسطينيون يثير انزعاجًا متزايدًا. فكل صباح يشهد أيتامًا وآرامل جددًا، وموت الضحايا العجائز من الجنسين الذين يناضلون فى الشوارع والأسواق. إن الهمجية الوحشية تكشف كل يوم باختصار عن وجهها فى قتل الأطفال الأبرياء وتدمير البيوت والهجوم على الأماكن المقدسة أثناء الصلوات.

إنني، باسم العدالة والإنسانية، أناشد كافة المنظمات النسوية، بغض النظر عن اختلاف الدين أو الجنسية، أن تنضم إلينا وتعرب عن تضامنها بإرسال مندوبات إلى هذا المؤتمر المزمع عقده فى القاهرة فى منتصف شهر أكتوبر.

وسوف نبحث سويًا القضية الفلسطينية وكيفية حلها. ثم نرسل بقراراتنا إلى السلطات البريطانية المختصة، لأننا واثقون من أننا نستطيع إقناعها بالحاجة إلى وقف سفك الدماء البريئة فى بلد انتُدبت لحماية أهله ويُعتبر توفير الأمن فيه من مسؤولياتها.

وسوف نبذل قصارى جهودنا لضمان راحة الوفود وتسهيل انتقالاتها.

إننا مقتنعون أن كل أصحاب القلوب النبيلة والعادلين من البشر سيشاركوننا المعاناة التى نستشعرها تجاه ما يقع فى فلسطين من استشهاد وسفك للدماء، ولن يترددوا فى الاستجابة لدعوتنا بمد يد المساعدة لإنجاز هذا الواجب الإنساني.

هكذا فقط يمكننا أن نحول دون امتداد الثورة التى تندلع فى كل مكان إلى بلاد عربية أخرى تنتفض غضبًا للظلم الذى يعانى منه البلد المنكوب.

فليساعدنا الله بنُصرة قضيتنا العادلة.(٨)

وقد عُقد المؤتمر فى أكتوبر ١٩٣٨. وقد وصل الوفد السوري-اللبنانى إلى محطة قطار القاهرة فى الحادى عشر من أكتوبر، حيث استقبله بالهتاف والتصفيق وفد مصرى ضخم علاوة على الأجانب المشاركين والمارة فى المنطقة. وقد تم اصطحابه إلى منزل هدى مباشرة حيث نُظم حفل استقبال مسائي.(٩) ووصل الوفد الفلسطينى ليلاً. وكان من المشاركات فيه زوجة حسن صدقى الدجاني، الذى اغتالته جماعة صهيونية إرهابية مباشرة عقب سفر الوفد النسائي؛ مما اضطر زوجته للعودة في الحال إلى القدس فى رحلة طيران خاصة تكفلت بها الحكومة المصرية.(١٠) ولذلك حظى وفد النساء الفلسطينيات باستقبال حار وترحيب مفعم بالتعاطف فى اليوم التالى بمقر الاتحاد النسائى المصري. ثم شُكلت لجنة فى ١٢ أكتوبر لإدارة المؤتمر ونظَّمت هدى زيارة للأهرامات وحفل استقبال فى ستوديو الممثلين بالجيزة القريب منها، بهدف منح السيدات بعض الترفيه قبل أن تبدأ وقائع المؤتمر. ووصل الوفد العراقى الذى كانت رحلته أطول فى هذه الليلة.

وفى ١٥ أكتوبر افْتُتِح المؤتمر. وحضر الافتتاح شخصيات سياسية مصرية وبعض الضيوف الرجال من ذوى النفوذ. وألقت هدى خطبة الافتتاح.[١١] وتحدثت النساء الفلسطينيات ببلاغة كبيرة ولمسن شغاف القلوب. وتكلمت عقيلة شكرى ديب عن عشرين عامًا من المعاناة كابدها شعبها. وقدمت بهيرة نبيه العظمة تقريرًا عن اعتقال البريطانيين للفلسطينيين وتعذيبهم، واضطهاد الصهاينة لهم. وطالبت أن تعرف لماذا يجب على الفلسطينيين ترك منازلهم لإفساح المكان للمهاجرين اليهود الغربيين الذين يمكن بالتأكيد منحهم مساكن فى بلدان أخرى ليس بها ما يبرر ترحيل السكان الأصليين منها. وأضافت زُليخة الشلبي، أمينة جمعية سيدات القدس العرب، أن معاداة البريطانيين للأهالى المحليين غير مقبولة. كما اتهمت هؤلاء المهاجرين اليهود بأنهم يحملون معهم عقيدة الشيوعية الدخيلة على بلاد المنطقة .[١٢] وتحدثت معظمهن عن جمال بلادهن الحبيبة، فلسطين. وامتدت الكلمات ليوم ثان. ثم خُصِّص ١٧ أكتوبر للراحة والقيام بزيارات وحضور حفلات استقبال. وتضامنًا من الحكومة المصرية مع روح المؤتمر، دعت زوجة رئيس الوزراء رئيسات الوفود على مأدبة غداء بمنزلها.[١٣]

وفى ١٨ أكتوبر، عقد المؤتمر جلسته الثالثة والختامية، وقد افتتحت هدى مرة أخرى وقائعها. وكانت قد لزمت الصمت حتى ذلك الوقت، مكتفية بالاستماع لمداخلات الوفود الزائرة. إلا أنها قامت حينذاك وألقت خطبة نارية دعت فيها إلى اتخاذ إجراءات قوية لمقاومة الصهيونية وأچندتها وحماية فلسطين والمنطقة من توغلها بمبادئها الشيوعية. وتساءلت "هل يوجد ما هو أخطر وأفظع تهديدًا من الصهيونية البلشفية على المنطقة بأسرها؟" وانتهزت أيضًا الفرصة للإشارة إلى المعاهدة البريطانية-المصرية وأعباء بنودها على مصر،

داعية إلى تدعيم المساندة العربية لجهود مصر من أجل التخلص من هذا القيد المتبقي.[١٤] وبعد ختام المؤتمر، حاولت هدى أخيرًا أن تخلد للراحة لفترة قليلة كما نصحها أطباؤها، إلا أنها كانت تشعر بوضوح أن الموقف السياسى لا يتيح سوى القليل إذا سمح أصلاً بمثل تلك الراحة.

وفى أول أكتوبر من عام ١٩٣٧، ألقت السلطات البريطانية فى فلسطين القبض على عدد من أعضاء اللجنة الفلسطينية- العربية العليا التى كان قد أسَّسها بعض الأعيان الفلسطينيين فى أبريل من عام ١٩٣٦ للدفاع عن المصالح الفلسطينية، ونفتهم إلى جزر سيشل. وكان من بينهم أحمد حلمى ويعقوب الغاسن وفؤاد سابا، وحُسين الخالدى ورشيد الحاج ابراهيم. وقرب نهاية ١٩٣٨، بعد أن نجحت مصر فى الإفراج عن الزعماء الفلسطينيين، انتهزت هدى فرصة مرورهم بالقاهرة لدعوتهم إلى منزلها الذى كان الكثيرون يطلقون عليه "بيت الشرق".[١٥] وتحدثوا إليها عن المعاملة السيئة التى لقوها وكيف كانوا خاضعين للإقامة الجبرية فى المنزل أثناء وجودهم فى سيشل.[١٦]

كما عادت هدى إلى إلقاء محاضراتها فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة بمحاضرة عن السلام العالمى وصلاته بقضايا المرأة. ونددت بشدة بعصبة الأمم وفشلها المتكرر فى التعامل مع قضايا صارخة.[١٧] ونشرت ليجيبسيان محاضرتها إلى جانب رسالة وجهتها هدى إلى نيفيل تشامبرلين، رئيس وزراء انجلترا، ذكرت فيها أن المطالب التى تقدم بها الفلسطينيون العرب فى المباحثات التى عقدت آنذاك فى لندن، اتسمت بالاعتدال بما تناقض مع موقف ممثلى الوكالة اليهودية الذين ذهبوا إلى لندن وهم على غير استعداد للاستماع إلى أى شيء بخلاف أجندتهم الخاصة، وتجاهلوا استعداد العرب للحلول الوسط.[١٨]

وقد كان لوصول تشارلز كرين للقاهرة مرة أخرى فى أكتوبر ١٩٣٨ تأثير طيب. كان هارون الرشيد، كما كان يطلق عليه صديقه المقرب العربى القومى چورج أنطونيوس، صديقًا وفيًا وقد اعتاد عند وجوده بالقاهرة زيارة هدى وفريقها بمنزلها كل يوم. كان يحب الجلوس فى صالونها الشرقى لمدة ساعة يوميًا على الأقل، يراقب المياه وهى تتدفق من النافورة الرخامية، التى يقول إنها تساعده على الاسترخاء والتأمل. وحاول طمأنة هدى بأن الرئيس روزفلت قد عكف على دراسة مستقبل فلسطين وإنه يدرك الفخاخ التى يحويها التقسيم. وكان على يقين من أن الزعيم الأمريكى سوف يجد حلًا عادلًا. ولأن كرين كان يعرف روزفلت معرفة شخصية، فقد خففت كلماته من كرب هدى حيال الأوضاع. وأعطاها نسخة من كتاب چورج أنطونيوس الأخير "يقظة العرب"، عن المعضلة الفلسطينية. وقد أرسلت له هدى بعد رحيله ألبوم صور من مصر فى غلاف أنيق، تعبيرًا عن احترامها ومودتها. كما بعثت له أيضًا صورة شخصية لها وهى جالسة إلى مكتبها وفى يدها القلم، كتبت عليها إهداء يقول "إلى الصديق الكبير لمصرنا الغالية".

وفى ومضة أمل أخرى لهدى، فى عالم بدت فيه الحرب هى مصيره الحتمي، وصلت دعوة لحضور المؤتمر الثالث عشر للتحالف الدولى للمرأة المقرَّر عقده فيما بين ٨ و١٣ يوليو ١٩٣٩ بكوبنهاجن. وقد وجدت هدى فيه فرصة أخرى تتيح لها عرض قضاياها أمام محفل دولي.[١٩] وقد عقدت العزم على الذهاب على الرغم من صحتها المتداعية، والنذر المتصاعدة لحرب وشيكة، والخوف المصاحب من أن تَعْلق فى أوروبا. وقد تعرضت من قبل لهذه التجربة عشية الحرب العالمية الأولى وتعرف ما يستتبعها. إلا أنها شعرت أن الواجب يحتِّم عليها المشاركة فى المؤتمر. وكانت فكرة لقاء صديقاتها تغريها، وخاصة

مارچيرى كوربيت- آشبى وچرمان مالاتير- سيلييه. وأعلنت سيزا فورًا أنها تريد هى أيضًا الذهاب وطلبا من منيرة ثابت مرافقتهما. وإلى أن يحين موعد السفر، أخذت هدى فسحة من الوقت للاهتمام بعائلتها والأنشطة الثقافية الأهم بالنسبة إليها.

وكانت لا تزال تولى اهتمامها بالشأن الفنى لمصر والفنانين الشبان. وتولت رعاية معرض للرسام حسين بدوي[٢٠] الذى كانت لوحاته الضبابية لمشاهد فرعونية للعالم الآخر مُلهِمة. وقد اقتنت لنفسها بعضًا من لوحاته. وإضافة إلى ذلك، فقد عرض حسنى البنانى فى المتحف الزراعى بورتريه لنهاد خلوصي، مدير المتحف وابن وجيدة خلوصي، صديقة هدى التركية. والبنانى هو زوج ابنة يوسف كامل، الرسام الذى تُقدِّر هدى أعماله كثيرًا، وكان هو نفسه فنانًا وشابًا واعدًا. وقد أعربت سيزا عن حماسها للبورتريه فى ليچيبسيان، إذ كان يعد مؤشرًا على أن الرسامين المصريين قد أصبحوا واثقين من أنه يمكنهم أن يرسموا بورتريهات وينحتوا أشكالاً بشرية وحيوانية دون أن يتعرضوا للاتهام بالردة الدينية. وقد صرح الشيخ محمد عبده بنفسه أن الفن والوثنية شيئان مختلفان. وطبقًا للشيخ مصطفى عبد الرازق، فإن محمد عبده قد كتب فى مرحلة متأخرة من حياته عن الفن وأشاد بالرسم والنحت بوصفهما "أوعية لمواقف بشرية" و"شعرًا صامتًا".[٢١]

وبعد ثلاثة أشهر من رحيله الذى ما كان أحد يتوقع أنه سيكون الرحيل الأخير لتشارلز كرين عن مصر تقع ضربة حزينة أخرى من ضربات القدر. فقد تلقت هدى برقية من سكرتيرة كرين الخاصة تُعلمها بأنه قد فارق الحياة. وأعادت قراءة البرقية مرات وهى عاجزة عن التصديق:

"ڤيلا كورنيليا، بالم سبرنجز، كاليفورنيا، ٢٤ فبراير ١٩٣٩. سيدتى العزيزة هدى شعراوي. كم يؤسفنى أن يصل كتابك الجميل "كتاب مصر الذهبي" بعد وفاة السيد كرين، وإننى لأعلم كم كان سيسعد ويتأثر بتلقى هذه الهدية منك. مع صادق مودتي. سكرتيرة: هيلين ك. باول".

وكانت قد تلقت بطاقته البريدية الأخيرة من اليابان فى ٢٢ نوفمبر والتى يقول فيها "رجاء أن تكتبى لى قليلًا على عنوانى بأمريكا وابعثى لى ببعض الأخبار. فإننى افتقدها كثيرًا مؤخرًا. سأسافر قريبًا إلى سان فرانسيسكو. صادق مودتي. ت.ك.

وحين دعت الإذاعة المصرية هدى للحديث فى الذكرى الواحدة والثلاثين لوفاة قاسم أمين، أول من كتب عن تحرير المرأة، تكلمت ليس فقط عن حياته وإنما أيضًا عن الحاجة إلى مشاركة النساء فى الأنشطة الرسمية وكذلك فى الحكومة. ورغم يقينها بأنها أنجزت الكثير فى دوائر النساء، إلا أنها كانت واعية بقدرتها على العمل جنبًا إلى جنب مع الرجال على قدم المساواة. بل كانت تشعر أن حماستها للقضايا المهمة إنما تؤهلها أن تكون أكثر فعالية من غالبية الرجال. وكان الرفض المتعنت من قِبل أغلب الرجال لإفساح الحياة السياسية أمام النساء، رغم درجة تعليمهن وذكائهن ولباقتهن، مُثبطًا للعزيمة.

وفى ٢٣ مايو ١٩٣٩، وافق البرلمان فى لندن على الوثيقة البيضاء الثانية حول فلسطين التى تقدم بها نيڤيل تشامبرلين. وتمثل اقتراحها الأساسى فى الحد من عدد المهاجرين اليهود إليها إلى ٧٥٠٠٠ مهاجر فى مدة خمس سنوات تنتهى فى ١٩٤٤. ورغم أن العدد كان لا يزال كبيرًا إلا أن هذا التقييد أثار غضب اليهود. كما منعت الوثيقة نقل الملكية. وقد بدا أن السلطات البريطانية قد أقرت بمحدودية قدرة فلسطين على استيعاب المزيد من المهاجرين، إلا أن دوافعها

كانت غير أمينة لأنها ربما أقامت حساباتها على أنه من الحكمة عدم استعداء الدول العربية التى يمكن أن تكون مساعداتها ذات قيمة فى الحرب.[٢٢] وقد تلقت هدى فى الشهر ذاته دعوات عديدة للمساعدة من فلسطينيين أصابهم اليأس ويريدون أن يعرف العالم بمصيرهم. كانت قرى بأكملها تتعرض للهجوم إضافة إلى عمليات القتل الإرهابية الكثيرة. وقد أُجْبِر مفتى فلسطين أمين الحسيني، الذى كان البريطانيون يلاحقونه منذ احتجاجات ١٩٣٣، على الرحيل من البلاد[٢٣] وكان المعتقلون يقبعون فى السجون البريطانية وواجه الثوار العرب المتهمون أحكامًا بالإعدام.[٢٤]

واحتجت هدى، باسم كافة النساء العرب على ما أسمته "ظلم الوثيقة البيضاء" التى "لم تفعل سوى دعم حكم الإعدام الذى نطق به لورد بلفور فى حق الفلسطينيين العرب". وكان رأيها أنه رغم أن موادها ليست فى صالح الصهاينة ظاهريًا، فإن الوثيقة البيضاء سوف تنقلب على المدى الأبعد لتكون على حساب العرب. وكتبت لوزير شؤون المستعمرات البريطانى تقول:

"إن العرب والمسلمين فى العالم أجمع تُوحدهم روابط الدين والأصل واللغة التى لا يمكن فصم عراها. إنهم يشكلون أمة واحدة لن تقبل على الإطلاق بالاستعباد أو الخضوع لمثل هذه المعاناة ودفع ثمن نمو كيان، يتم تحت حمايتكم، وهى ترفضه بسبب مكائده وسوء نواياه وخداعه.

لقد كانت فلسطين دومًا عربية يا سيدي. والعرب يحتاجونها بالتالى أكثر من حاجتكم فى أى وقت للشعب اليهودي. وستظل إذًا عربية رغمًا عن وعد بلفور أو عن أى شخص يتمنى أن تصبح أوهامه واقعًا.

إن هذه السياسة المخادعة والمنافقة لا يمكنها أن تُشرِّف بريطانيا بأى حال. ويجب على رجال دولتكم الذين تبنوها أن يدركوا هذه الحقيقة. فهى لن تفشل فقط فى أن تكسب صداقة الشعب العربى للشعب البريطاني، بل وسوف تقضى على كل ما يمكن أن يكون قد تبقى من إيمانه بصدق أو إخلاص بريطانيا. فى الواقع، إن هذه السياسة تتناقض مع المبادىء الديمقراطية التى تدعيها بريطانيا فى حضور الحكومات الديكتاتورية والتى تأسَّست عليها الوشائج التى حثت العرب على مساعدتكم فى أوقات الشدة.

وأوضح دليل على هذا هو الصمت البليغ للبلاد العربية حول وثيقتكم البيضاء والحملة المثيرة للسخرية والمتعمدة التى شنها الصهاينة لتضليل العالم وجعله يعتقد أن شروطها تُحابى العرب على حسابهم.

وإذا كنتَ غير قادر على فهم وجدان العرب وعزتهم وشجاعتهم وكذلك تصميمهم على حماية وحدتهم، اسمح لى يا سيدى إذًا أن ألفت انتباهك إلى الصمت الذى قوبلت به الوثيقة البيضاء". [٢٥]

وواصلت هدى من جانب آخر اهتمامها بالشؤون المصرية. وفى جلسة من جلسات مجلس النواب المصرى فى مايو ١٩٣٩، ناقش البرلمانيون المصريون القضية الشائكة الخاصة بتعليم المرأة مناقشة غير متوقعة بالمرة إلى حد جعل هدى ورفيقاتها يرونها مهينة لكل ما حققته المرأة من إنجازات حتى الآن. وبدا أن الخطوات الصعبة التى خطونها إلى الأمام لن تترك قط دون أن يتم تحديها من قبل الرجال الرجعيين. وكان عبد الرحمن فهمي، عضو البرلمان الذى افتتح هذا النقاش قد انتقد بقوة سياسة الحكومة فى توفير تعليم البنات وتمسك برأيه فى أنها لا تؤدى إلا إلى إفسادهن. وأعرب فكرى أباظة وعباس العقاد عن تأييدهما لسياسة الحكومة. وقد رد المتحدث باسم الحكومة على النقاش ودافع

بشدة عن تعليم البنات الذى تقدمه الحكومة على أساس أن ما من دليل واضح قد أثبت أن التعليم يهدد الثوابت الأخلاقية، فى الوقت الذى يستحيل فيه التشكيك فى مميزاته الأخرى.[٢٦] واجتاح هدى غضب عارم إزاء محاولات إجهاض التقدم الذى تم تحقيقه فى مجال تعليم البنات؛ ولكن مرضها كان يكسب أرضًا للأسف وحال دون أن تعد بنفسها ردًا إلا أنها وجدت ما كتبته سيزا وإيفا أكثر من أن يكون مُرضيًا. وقد تساءلت سيزا عن ضرورة هذا الجدل بعدما بات تعليم البنات واقعًا فى مصر منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. وتساءلت فى مقال آخر لماذا يفكرون أن التعليم يمكن أن يفسد المرأة وليس الرجل. وأضافت أنه من المؤكد أن الفساد ليس مقصورًا على نوع اجتماعى دون الآخر.

وبداية من مايو ١٩٣٩، حاولت هدى جديًا، ولم يعد باقيًا على موعد مؤتمر التحالف الدولى للمرأة فى كوبنهاجن إلا شهران فقط، أن تخلد إلى الراحة وتستعيد قوتها. وكانت آلام الصدر تعاودها وهى منكبة على تحضير خطبتها وتسعى إلى مواصلة أداء واجباتها والتزاماتها. إلا أنها تصالحت مع معاناتها وأدركت أن عليها الآن أن تتقبل الذبحة. وقد ارتاحت لفكرة أنها على الأقل تعنى وفاة سريعة حين يحين الأجل.[٢٧] أما الآن، فإن لديها أمورًا أخرى تشغلها.

وقد أرادت أن تبرهن بذهابها إلى كوبنهاجن فى حالة صحية معتلة وفى مثل هذه الأوقات المضطربة، على شجاعتها وإرادتها القوية، رغم أنها تأتى على حساب راحتها الخاصة. وقد أغضب ذلك محمدًا وبُثنة اللذين كانا يشعران بالقلق عليها. وضايقهما عدم الالتفات لرأيهما فى طريقة حياتها وقراراتها وأنها تبدو وكأنها تبذل جهدًا خاصًا لإقلاقهما بلا داع. وكان رأيهما أنه من الكافى تمامًا لتحقيق أغراض هدى إرسال سيزا ومنيرة ثابت اللتين كانا أصغر سنًا وأكثر قدرة على التحمل. وأن على هدى ألا تتخيل أنه لا يمكن الاستغناء عنها،

ولكنهما فشلا فى إقناعها. وفى غضون هذا، علمت هدى أن السلطات الفلسطينية والسورية لن تسمح للنساء الفلسطينيات والسوريات بالسفر، وهو ما زادها تصميمًا على الذهاب بنفسها. وقد ناشدتها جماعات المرأة العربية بالحديث نيابة عنها، لأن ما تحظى به من هيبة وكاريزما سيحمل الناس على الاستماع لما تدلى به. وكانت هدى تعلم أن المستضيفين الدانمركيين قد ألحوا على أنه لا حديث فى السياسة فى هذه الأوقات الحساسة. ولذا فقد انتوت هدى أن تتحدث فى خطبتها يوم ١٢ يوليو عن موضوع أصبحت تجسده فى التحالف الدولى للمرأة، أى تحديدًا التعاون بين الشرق والغرب.

وقد عُقدت الجلسة الافتتاحية فى مقر مجلس مدينة كوبنهاجن. وكان المؤتمر تحت رعاية ملكة الدانمارك وافتتحه رئيس الوزراء الدانمركي. وكادت ليدى آستور، مندوبة انجلترا، أن تخرق الأوامر بتحاشى الحديث فى السياسة حين تكلمت عن الدول الشمولية التى تمثل تهديدًا للسلام الدولي. كما انتقدت الليدى آستور أيضًا عصبة الأمم لفشلها فى بلوغ الآمال التى عُلقت عليها. واختتمت بالقول إن المُعوَّل على النساء فى أن يوجدن من خلال تأثيرهن الروحى الوسائل لتوحيد الساسة الرجال وجعل السلام هو المثل الأعلى للبشرية جمعاء[٢٨] وكالعادة تحدثت سيزا عن التقدم الذى أحرزته عضوات الحركة النسائية المصريات عبر السنين فى حين تكلمت منيرة بجرأة عن الشباب والنسوية، وهو ما نال إعجاب هدى. وحين دُعيت هدى للحديث، ألقت كلمة موجزة وفى الصميم وقالت "لقد اعتقدت دومًا فى إمكانية حدوث تعاون خلاق بين نساء كافة القارات- حيث إننا نتشارك فى المُثل ذاتها: من أجل بناء عالم أفضل، يقوم على العدل والمساواة والتفاهم الأخوى بين كافة الشعوب".

غير أن هدى، التى شجعها المحتوى السياسى لكلمة ليدى آستور، قد قررت أن تطالب بإضافة رسالة تضامن مع النساء العرب فى فلسطين إلى القرارات المقترحة.(٢٩) وكان الهدف من هذا، وفق صياغة هدى، هو التنديد بترحيل الفلسطينيين العرب والتعبير عن الأسف لهجرة اليهود الأوروبيين إلى فلسطين. إلا أن الوفد اليهودى الحاضر من فلسطين اعترض بعناد على الرسالة وكذلك على كل الإشارات الأخرى إلى هذه القضية أو القضايا المشابهة التى قدمها الوفد المصري. وألحت المندوبات اليهوديات على أن يقر المؤتمر حق اليهود فى الهجرة إلى فلسطين. وأدركت هدى أن كوربيت- آشبى والعضوات الأخريات باللجنة التنفيذية تعتزمن التضامن مع موقف المندوبات اليهوديات، ولذلك قرّرت أن تستقيل من اللجنة التنفيذية على أثر ذلك، وأن تتنحى عن منصبها الفخرى كنائبة لرئيسة التحالف الدولى للمرأة، وأن تغادر كوبنهاجن هى وزميلاتها المصريات.(٣٠) إلا أن كوربيت-آشبى دعتها إلى اجتماع خاص بشكل عاجل، حيث قالت إنها سترفض قبول استقالة هدى، وناشدتها الاستمرار فى مشاركتها بالمؤتمر بهدف تفادى إحراج التحالف الدولى للمرأة وما يترتب عليه من إثارة ضوضاء إعلامية لا داعى لها.

وقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تختلف فيها الاثنتان. وكانت كل واحدة منهما تدرك أسباب موقف الأخرى ولكن أيًا منهما لم تكن على استعداد للتراجع. وبقيت كل واحدة منهما وهى تشعر بالاستياء والتعاسة لصدامهما. إلا أنهما لم ترغبا فى أن يصبح الخلاف شخصيًا. وفى نهاية الأمر كانت هدى هى من أقرت أنه لا يسعها أن تفرض قرارها على جدول الأعمال. وقد كانت هذه هى هزيمتها الفعلية الأولى. لقد قرّرت أن تنحنى أمام كوربيت-آشبى وتبقى فى المؤتمر، ولكن مع القتال حتى النهاية من أجل مبادئها. ورغم أن آلام الصدر

كانت تتحكم آنذاك فى أيامها، فإنها سوف تتحمل مسؤولياتها. ومع أنها لم تستطع أن تفرض قرارها، فإنه لا ينبغى لها أن تظهر بأى حال وكأنها تصالحت مع الموقف المعارض. إنها لن تُوقف قط دفاعها عن نساء فلسطين. وقد تمثلت قوة شخصيتها فى أن تترك انطباعًا يدوم لدى الحُضور، حتى وإن لم تستطع تغيير عقولهم.[٣١]

وشعرت كوربيت-آشبى وغيرها من أهم المندوبات بالامتنان لموافقة هدى على البقاء. وقد أعرب المؤتمر عن تقديره بإعادة انتخابها عضوًا فى اللجنة التنفيذية، ضد رغبتها. وقد شعرت بالقلق أيضًا على المندوبات اليهوديات اللائى عرفت أن الكثير منهن سوف تعُدْن إلى أوضاع غير آمنة فى بلادهن حيث ربما تواجهن عنفًا قاتلًا. لقد كانت نذر الشؤم المُعتمة التى تُهدِّد العالم تُخيِّم معظم الوقت على أجواء المؤتمر. إلا أن هدى ظلت تسأل نفسها كيف يمكن لشعب تعذَّب مثل اليهود أن يفرض معاناة مماثلة على آخرين. وبقيت متمسكة بالدفاع عن الفلسطينيين الذين كانوا يدفعون ظلمًا ثمن تضليل دول الغرب الشمولية.

-١٢-

الحرب العالمية الثانية

وأخيرًا، أعلنت انجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩. وكان الغزو الألمانى لبولندا قد بدأ قبل ذلك بيومين. ومع ذلك، فإن خبرة الحرب كانت مختلفة تمامًا فى مصر عما كانت عليه فى أوروبا. إذ كانت الحرب بالنسبة للمصريين ظاهرة بعيدة، ينظرون إليها مثلما ينظر حراس الفنارات إلى عاصفة نائية. كانوا ينظرون إلى هذه الكارثة البعيدة وهم يتمنون ألّا يكون لهم دخل بها. لقد كانوا يخشون، بالطبع، أن تجر بريطانيا مصر إلى الحرب. وكانت أكثر تداعيات اضطراب أوروبا هو التصاعد المتزايد للعنف فى فلسطين. ومع تدهور الأوضاع بسرعة استمرت هدى فى إرسال البرقيات، مثل البرقية التالية، إلى التحالف الدولى للمرأة: "إن الاتحاد النسائى المصري، وقد تأثر بعمق من الأحداث الفلسطينية الأخيرة، يُعرب عن أسفه إزاء الهجمات المسلحة التى تشنها السلطات على الأهالى العُزل الذين يطالبون بسلمية بالحق فى الوجود، ويدعون إلى التدخل الفوري".[١]

ورغم شروط المعاهدة البريطانية– المصرية، فقد سعت الحكومة المصرية بقدر ما يمكنها إلى إبقاء البلاد بعيدة عن الحرب.[٢] وفى نوفمبر ١٩٤٠، تم

تعيين حسين سرى باشا، كوجه جديد، فى منصب رئيس الوزراء، خلفًا لحسن صبرى الذى توفى، وهو رئيس للوزراء، بعد أن خلف على ماهر باشا. وقد كان هذا وقتًا عصيبًا بالنسبة لمصر. إذ كان الملك لا يزال صغيرًا فى السن، وشعرت هدى بالقلق على استقرار البلاد ودفة الأمور فى أيدى رئيس حكومة غير مُدرَّب، وملك جديد. لقد كانت تتمنى الخير للعائلة المالكة وتحدوها آمال كبيرة فى الملك الشاب الذى كان يبدو أن عوده مازال غضًا. وفى الوقت ذاته، فقد كان من الصعب ألا تكون مدركة أن الملكة الأم، الملكة نازلي، قد بدأت تمثل تهديدًا لاستقرار العائلة الملكية. ولذا فقد انتاب هدى ضيق شديد من سلوكها، وهى التى كانت تساندها إبان معاناتها من سوء معاملة الملك فؤاد. لقد أفسدت ابنها الذى كانت فى واقع الأمر تُشجِّعه على الحياة العابثة. كما كانت هدى غير قادرة على استيعاب السلوك الشخصى للملكة نازلي. إذ بدت متناسية لمكانتها وما يلزم عنها من مسؤوليات. والمؤكد أن هذا كان، كما كانت تقول هدى أحيانًا، نتاجًا لسنوات العزلة التى أمضتها فى الحرملك وبيت الطاعة. وراحت الشائعات المستمرة تسرى حول أصدقائها وأساليب لهوها غير اللائقين.

وفى ١٩٤٠ حدثت أزمة فى بنك مصر وطلبت الحكومة من رئيسه الخبير المالى طلعت حرب الذى تقدم به السن الاستقالة بعد عقدين قضاهما على رأس البنك. وقد استقال منه أيضًا فؤاد سلطان مرزوق، الذى كان أقرب أبناء لوزة سلطان لعمر وطُلب من الدكتور حافظ عفيفى باشا، زوج شقيقة الراحل محمود سامى باشا، تولى المنصب. وقد تذكر حافظ عفيفى الدور الذى لعبته هدى عند إنشاء البنك ودعاها لأن تكون عضوة بمجلس مدرائه. وقد أسعدها ذلك كثيرًا ولكن آلامها الصدرية كانت قد أصبحت لا تفارقها وشعرت بأنها غير قادرة على تولى مثل هذه المسؤولية. ولكنها قبلت المنصب على المستوى الفخرى وحضرت الاجتماع الافتتاحى للمجلس.

وفى ١٩ أكتوبر ١٩٤٠، توفيت مى زيادة، فى مستشفى المعادى بعد مرض استمر لسنوات عديدة. ونظَّمت هدى فى ٤ ديسمبر حفل تأبين لها بعد انقضاء فترة الحداد التى تدوم ٤٠ يومًا.(٣) وألقت كلمة حيّت فيها روح وذكاء مى زيادة حين كانت واحدة من أولى المحاضرات النسويات فى جامعة القاهرة، وأعربت عن حزنها لرحيل مثل هذا الرمز. ويقول المقربون من هدى أن تفكيرها ازداد فى ذلك الحين فى موتها الشخصي. ورغم أنها قد فقدت أباها وهى لم تزل طفلة، فإن رحيل أمها كان أول خبرة فقد عنيفة تعيشها فى حياتها كبالغة. ومنذ ذلك الحين، دأبت على أن تفكر فى قضية الموت بشكل فلسفي. وفى عقدها السابع، بدأت تشعر أن المأساة الحقيقية تكمن فى فراق الأحباب.

واقتربت الحرب. وفى يونيو ١٩٤٢، وقعت غارات جوية، بوجود القوات الألمانية على بعد مائة كيلومتر فقط من الإسكندرية، أدت لسقوط ٦٥٠ من القتلى وإلى رحيل مؤقت للسكان من المدينة. وترك حوالى ثلاثمائة ألف من الأهالي، أى نحو نصف السكان، بيوتهم. وبدأ نقص المواد الغذائية يضرب حياة الناس. وتردّدت مطالبات باستخدام البحرية البريطانية لإجلاء سكان الإسكندرية.(٤) وأدى نقص الطعام إلى حدوث مظاهرات وشغب، واستقال حسين سرى حين راح المتظاهرون يردِّدون هتافات تقول "تقدم يا روميل إلى الأمام يا روميل!" و" كلنا جنود روميل!". فمع الانسحاب الواضح للقوات البريطانية، قرَّر الكثيرون فى مصر أنه من الأفضل الرهان على الألمان. كان اضطراب السلطات البريطانية كبيرًا وعجز سرى باشا عن وقف القلاقل.(٥)

وأخبر السفير البريطاني، سير مايلز لامبسون، الملك أن الحكومة البريطانية تود عودة مصطفى النحاس باشا على رأس ائتلاف وزارى من أجل عودة الاستقرار. كان البريطانيون يعلمون، أيًا كان رأيهم الخاص فى الوفد،

أن النحاس فى حال قبوله التعاون هو أفضل من يستطيع أن يكسب المساندة الشعبية ويخمد القلاقل. وفى ٤ فبراير ١٩٤٢، طلب الملك من النحاس تولى الحكومة، وكان مُخططًا أن تضم الحكومة زعماء أحزاب أخرى لضمان اعتدالها. كان الملك يعلم أن الشعب يريد النحاس، وهذا يعنى أنه سيحقق بسرعة قدرًا من الاستقرار ولكن الزعيم الوفدى كان قد رفض دائمًا فكرة الائتلاف وتمسك بأن تقتصر الحكومة على الوفديين فقط.(٦) وبدأ الملك فاروق فى دراسة اختيارات أخرى، ولكن البريطانيين تمسكوا بأنه لا بد له من تعيين النحاس وإلّا فعليه هو نفسه أن يتنحى.

وأصبح الموقف حرجًا حين اتخذت الدبابات البريطانية مواقعها حول القصر الملكى بعابدين، وفوهاتها موجهة إلى المبنى. وتقدم السفير البريطانى ومعه عدد من كبار الضباط وطلب التوجه إلى مكتب الملك. وكان فاروق قد اجتمع لتوه مع مدير مكتبه والملكة نازلى اللذين نصحاه بالإذعان للإنذار البريطاني. ولم يكن الملك قد وافق بعد، ولكنه حين رأى وثيقة التنحى فى يد السير لامبسون، سرعان ما زعم أنه قد دعى بالفعل النحاس باشا إلى تشكيل حكومة جديدة. وقد كانت خبرة مريرة لكل المصريين حين شاهدوا ملكهم الذى يبلغ من العمر ٢٢ عامًا والذين وضعوا فيه آمالًا كبيرة، يتعرض لمثل هذه المهانة والإذلال على يد البريطانيين. وعرف الجميع أن السير لامبسون أشهر مسدسه فى وجه الملك مُهددًا بإجباره على التنحي.

لقد صُدمت هدى من سلوك السفير البريطاني. وأرسلت فى ٩ فبراير برقية احتجاج إلى رئيس الوزراء البريطانى سير ونستون تشيرشل بالإضافة إلى رسالة مفتوحة لسير مايلز لامبسون ندّدت فيهما بالتدخل البريطانى فى الشؤون المصرية.(٧) وبعثت فى اليوم ذاته بخطاب رسمى إلى رئيس الديوان

الملكى أعربت فيه عن مساندة نساء مصر للملك. وقد نقل الخطاب حزن الشعب وطلبت فيه زيارة نسائية للقصر للإعراب عن احترامهن. وقالت "إن ما حدث هو باختصار بمثابة عنف فعلى ضد مصر ويعتبر أسوأ انتهاك لاتفاقية الصداقة البريطانية – المصرية".

وفى ٥ سبتمبر ١٩٤٢، أصبح محمد أخيرًا أبًا لطفل ذكر، بحيث بات ميراثه فى مأمن من أى منافسين محتملين. وكان لا يزال غير سعيد فى علاقته مع منيرة، ومع ذلك فقد قال لها إنه ينتظر الآن أن تأتيه بصبى آخر حتى يكون وضع العائلة أكثر أمانًا. وكانت منيرة قد رحلت بناءً على اقتراح هدى إلى أرض العائلة فى المنيا مع بداية الحرب حيث نظمت حياة خاصة لها. وأقامت هناك عيادة للقرويين لضمان إطعامهم وحصولهم على العناية اللازمة. ووفّرت لهم الملابس وجعلت تنصت بلا كلل لشكاواهم ومطالبهم. وقد قرّبتها الحياة فى الريف من الفقراء ومكّنتها من تفهم احتياجاتهم. وهكذا كرّست الكثير من وقتها ومالها للمحتاجين. وعاشت حياة يحيط بها بخلاف الصغيرات الخمس والصبى الذى تمناه محمد طويلًا مربيتها الكرواتية أنجيلينا، والمربية اليونانية فيليسى وحائكتها الإيطالية جورجيت، وكذلك خادمها النوبى الوفى صالح، وقد كرّستها كلها لفعل الخير فى عائلة طغت عليها النساء. لم يكن هذا الوضع لتقبله أى سيدة أخرى من علية المجتمع، وكان محمد نادر التواجد هناك. وقد اندهشت هدى من أسلوب حياتها ولكنها احتفظت برأيها لنفسها. فقد شعرت أنها شريكة فى المسؤولية عن العزلة التى تحيا فيها منيرة.

وفى ١٩٤٢، منح الملك فاروق هدى وسام الكمال، أعلى القلادات المصرية، فى احتفال أقيم فى مقر الاتحاد النسائى المصري. وقد أراد الملك أن يُعبِّر بذلك عن امتنانه لمساندتها عقب محاصرة قصر عابدين فى فبراير من العام

ذاته. وقد اعترضت السلطات البريطانية على منحها هذا الوسام، نظرًا لضيقها من انتقاد هدى العنيف للسياسات البريطانية وشكهم فى أنها تكن عداءً كاملاً لبريطانيا وليست مجرد وطنية وناشطة كما كانت فى الواقع.

وتولى النحاس رئاسة الوزراء خلال الجزء الأكبر من الحرب ولكنه رحل عنها فى أكتوبر ١٩٤٤، عقب الانشقاق الذى وقع فى صفوف الوفد بتشكل مجموعة من الوفديين السابقين أطلقوا على أنفسهم الحزب السعدي. وطلب الملك من أحمد ماهر باشا تشكيل حكومة ائتلافية جديدة تضم أربعة من السعديين ومثلهم من الوزراء الليبراليين، فى الوقت الذى أُطلق فيه فجأة سراح مكرم عبيد، زعيم مجموعة وفدية جديدة أطلقت على نفسها اسم "الكتلة"، وتم تعيينه وزيرًا للمالية.(٨) وقد سعدت هدى لمساندة محمد، الذى كان لا يزال أصغر أعضاء مجلس الشيوخ سنًا، لأحمد ماهر باشا.

وقد استمرت هدى أثناء الحرب، ورغم صحتها المتداعية، فى السفر إلى البلاد العربية المجاورة كلما أمكنها ذلك، حيث تسلَّمت عددًا من القلادات والأوسمة. وقد حصلت على القلادة الذهبية الفخرية للاستحقاق من الدرجة الأولى من الرئيس اللبنانى بشارة الخورى فى صيف ١٩٤٤، ووشاح الجدارة الخاص من الدرجة الأولى من الرئيس السورى شكرى القوتلي، وأخيرًا وسام التحرير من الملك عبد الله، ملك إمارة شرق الأردن، وكان ذلك تكريمًا يُمنح لأول مرة لسيدة. وقد حصلت هدى على هذه الأوسمة تقديرًا للمساندة المعنوية التى قدَّمتها للزعماء العرب فى هذه البلاد فى نضالهم من أجل تحرير بلادهم من النفوذ الأجنبي. كما قامت هدى بالحج إلى بيت الله فى مكة المكرمة.



هدى فى مدخل بيتها

وفى كلمة التأبين التى تلاها حبيب المصرى باشا عقب وفاتها، قال إن هدى قد أصبحت فى أواخر أيامها فكرة أكثر منها شخصًا وأنها تمثل بالنسبة للكثيرين تجسيدًا لقيم الشجاعة والكرامة والنزاهة والرحمة.[٩] لقد أصبحت هدى جزءًا من المشهد الأيديولوچى لمصر والعالم العربي. لم تكن تستطيع أن تتحمل فكرة أن يُحرم الأطفال الفقراء من الغذاء والراحة وأن يستغل الرجال سلطتهم على المرأة بانتهاك حقوقها وأن تستخدم الدول القوية قوتها ضد الدول الأكثر ضعفًا خدمة لمصالحها الخاصة. لقد كانت فكرة الظلم والقمع فكرة لا تُطاق وكانت تواجهها بإطعام الجوعى وحماية الضعفاء بكافة الوسائل المتاحة لها وتحتج على الظلم السياسى والاجتماعى بكل ما أوتيت من سلطة. وخلال رحلاتها إلى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، بذلت هدى كل ما فى وسعها

لدعم الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية فى المنطقة. وكان الساسة يناقشون مسألة إنشاء جامعة للدول العربية وخطرت لهدى فكرة أن تحذو الحركة النسائية حذوهم. وخطّطت لعقد مؤتمر ثان بالقاهرة تشارك فيه كافة الاتحادات النسائية فى دول سوريا الكبرى السابقة بهدف تأسيس اتحاد نسائى عربى دولي.

وفى ١٥ مارس ١٩٤٤، وأثناء زيارة الرئيس اللبنانى للقاهرة، دعت هدى لور الخوري، سيدة لبنان الأولى، إلى حفل استقبال. إلا أن هدى عشية الحفل، وخلال الإعداد لليوم التالي، أصيبت بإغماءة ولكنها قرَّرت تجاهلها. وكان التغيير الوحيد الذى أدخلته على خططها هو أن يلقى شخص آخر كلمتها نيابة عنها.(١٠) وفى صيف عام ١٩٤٤، دعاها الرئيس وزوجته إلى منزلهما فى عاليه بلبنان وقد تم خلال هذه الزيارة منحها قلادة الجمهورية اللبنانية الذهبية للجدارة. وقد حضرت المناسبة ممثلات عن منظمات عربية للمرأة، وتقرَّر حينها عقد مؤتمر القاهرة فى ١٢ ديسمبر ١٩٤٤. وقد كان الهدف هو تعزيز التضامن الإقليمى رغم الحدود المفروضة من الخارج بين الدول وأن يُستعاد شيء من وحدة سوريا الكبرى تحت الدولة العثمانية. وكان الغرض من إقامة منظمة عربية جامعة هو المساعدة فى إعادة بناء أمة عربية تتجاوز الحدود التى رسمتها القوى الاستعمارية. وقد كان هذا المؤتمر بالنسبة لهدى خطوة أخيرة للأمام، حيث ستتولى قيادة منظمة نسائية تمتد إلى خارج حدود مصر. وبمجرد عودتها إلى القاهرة، عكفت هدى على تنظيم المؤتمر ودعوة الوفود. لقد كان المؤتمر يمثل انتصارًا، إذ حظى بالرعاية الملكية ومصادقة الحكومة. وجاء ديسمبر ووضعت اللمسات النهائية على الخطة من قبل هدى وفريقها.

وبدأت الوفود فى الوصول من الأردن وسوريا بالقطار فى ٨ ديسمبر. ولما كان المؤتمر ينعقد تحت رعاية الملكة فريدة، فقد تم دعوة كافة المندوبات إلى قصر عابدين حيث كان الملك فى استقبالهن بنفسه وصافحهن جميعًا مما أسعدهن كثيرًا. ثم كانت وجبة الغداء فى ٢ شارع قصر النيل. وقد وصل الوفد العراقى فى اليوم التالي، وانعقد حينها مؤتمر صحفي. وبقيت بعض المندوبات فى منزل هدى وتم استضافة أخريات فى مقر الاتحاد النسائى المصرى وفى عوامات وفَّرتها الحكومة. كما نزلت بعض المندوبات فى فنادق القاهرة الكبرى. وفى ١١ ديسمبر قمن بزيارة الملكة فريدة فى قصر عابدين، حيث قدَّمت هدى رئيسات الوفد لها.

وبدأ المؤتمر فى دار الأوبرا الملكية بعد ظهر الثانى عشر من ديسمبر. وألقت أمينة السعيد كلمة هدى الافتتاحية ورحَّبت برئيسات وعضوات الوفود الممثلة لدول سوريا الكبرى السابقة. ورأست نظيمة العسكرى وفودًا من أربع جمعيات نسائية عراقية، فى حين قادت زوجة الأمير مختار عبد القدير ثمانى منظمات سورية ورأست لولى أبو الهدى منظمتين من شرق الأردن. كما كانت هناك ٢٥ منظمة فلسطينية برئاسة زليخة الشهابى و٢٧ لبنانية بقيادة روز شهفى. كما كان هناك أيضًا العديد من المندوبات المصريات.

وجاء فى كلمة هدى، أن القضيتين اللتين سيناقشهما المؤتمر "تتسمان بقدر واحد من الأهمية. وهما حقوق المرأة وقضية فلسطين وتتصلان معًا بانتهاكات للحقوق يتعين إصلاحها". وقد شارك فى الجلسة الافتتاحية وفد كبير من الحكومة المصرية يضم رئيس الوزراء أحمد ماهر باشا وعديد من الوزراء، بالإضافة إلى الكثير من كبار الشخصيات المصرية الأخرى.

وقد تشكلت الوفود من سيدات متميزات منهن اللبنانية نجلاء كوفري، الكاتبة الشهيرة والناشطة النسائية اللبنانية التى تعمل فى جمعية الصحوة النسائية والاتحاد العربى النسائى ببيروت. وكانت عادلة عبد القادر، رئيسة الوفد السوري، ابنة عبد الرحيم بيهوم بك وزوجة الأمير مختار عبد القدير. هذا ومثّلت شرق الأردن لولى أبو الهدى، التى كانت قد شاركت فى مؤتمر ١٩٣٨ وهى ابنة أبو الهدى الصيادى باشا، رئيس وزراء شرق الأردن وقد درست العلوم السياسية والفلسفة والاقتصاد فى جامعة أوكسفورد. وكانت نظيمة العسكري، رئيسة الوفد العراقى رابع المتحدثات فى الجلسة الافتتاحية. أما الناشطة الفلسطينية سازج نصار، التى تعرفها هدى منذ وقت طويل، فقد كانت حفيدة البهاء، مُؤسِّس الديانة البهائية، ومتزوجة من نجيب نصار، صاحب جريدة الكرمل التى كانت تعمل أيضا بها. وكانت الحكومة البريطانية قد اعتقلتهما لمدة عام كامل، تعرضا خلاله للتعذيب، فيما بين ٢٣ مارس ١٩٣٩ و٢٢ فبراير ١٩٤٠. وكانت وقت انعقاد مؤتمر النساء العرب أمينة للاتحاد النسائى فى حيفا. أما روز شهفا، فقد كانت رئيسة للاتحاد النسائى اللبنانى الذى انضم لعضوية التحالف الدولى للمرأة منذ ١٩٣٥. وقد أقيمت مأدبة عشاء فى ختام اليوم الأول للمؤتمر فى منزل أبو الهدى باشا بالقاهرة، وكانت زوجته وبناته هن من قمن بواجبات الضيافة. ثم دُعى الجميع إلى مسرحية بدار الأوبرا بدعوة من هيكل باشا الذى كان وقتها وزيرًا للمعارف.

وأثناء جلسات المؤتمر، تناولت كل متحدثة من المتحدثات قضية تتصل بنشاطها. وهكذا تحدثت ناهد سري، بوصفها رئيسة للهلال الأحمر، عن الهزة الأرضية التى أصابت تركيا قبل الحرب مباشرة. كما عرّجت أيضًا على دور الهلال الأحمر فى مساعدة الحكومة المصرية فى إصلاح الخسائر الناجمة

عن الغارات الجوية على المدن المصرية، خصوصًا الإسكندرية. وقالت إنهم يوفرون العمل للعاطلين، ويساعدون الجرحى والمرضى، ويوفرون خدمات الإيواء للمشردين واللاجئين. وأشادت بمعونات الصليب الأحمر الأمريكى الذى يساهم فى القضاء على أسباب الفقر. وركزت سعاد رياض، رئيسة مستوصف الملكة فريال، على الحاجة إلى التضامن الاجتماعى وأوصت بتعاون المرأة والرجل من أجل المضى قدمًا بالتنمية الاجتماعية وتوفير التعليم للأطفال. وتحدثت نور مرزى من مصر عن الرعاية للمرأة الحامل قبل الوضع. هذا وقد أثارت نعمت عرفان مسألة الدعارة التى أصبحت مرة أخرى تشكل كارثة بسبب الظروف الاجتماعية الناجمة عن الحرب. كما تحدثت ثريا الخوجا من العراق وزاهية دوغان من لبنان عن تحسين تعليم النساء. كما تناولت زاهية سليمان من لبنان موضوع التعليم، فى حين طرحت إميلى بشارات من شرق الأردن قضية وضع المرأة البدوية. وقد أعيد بحث كافة القضايا التى كانت قد أثيرت إبان مؤتمر ١٩٣٨؛ ومنها الفقر والأمية والتعليم والتضامن والمساواة الاجتماعية وقوانين تعدد الزوجات والطلاق ونفقة المطلقة ورعاية الطفل والحضانة وبيت الطاعة وجنسية المرأة المتزوجة من أجنبي. وأكدت نظيمة العسكر من جديد تصميم العراق على مساعدة نساء فلسطين وقالت الفلسطينية سازج نصار إن فلسطين، بوصفها أرضًا مقدسة، لا ينبغى أن تكون مسرحًا للصراع. وفى ختام المؤتمر، وجَّهت جميع المندوبات الشكر لهدى على تنظيمها للحدث وأعربن أيضًا عن امتنانهن لملك وملكة مصر على رعايتيهما له.

وفى ١٥ ديسمبر، دعت صفية زغلول كافة المشاركات إلى بيتها، بيت الأمة. كما تلقت المشاركات دعوات أخرى كثيرة وقمن بزيارات عديدة. وفى ١٧ ديسمبر١٩٤٤، اصطحبهن الملك شخصيًا فى رحلة بالقطار إلى مزرعته

بأنشاص، حيث أتيحت لهن فرصة الاستمتاع بالطبيعة الغَنَّاء للريف المصري. ودعتْهن هدى في مساء نفس اليوم لحضور عرض كوميدي، في أحد مسارح القاهرة. وقد مثلت هذه الأنشطة الترفيهية فرصة ملائمة للراحة بعد عناء المؤتمر. وكُنّ قد ذهبن أثناء المؤتمر إلى قصر الزعفران في حفل استقبال رسمي علاوة على زيارات تعريفية بجمعيات خيرية. فقد زرن مستوصف الأميرة فريال في هليوبلس حيث كان في استقبالهن مديره وكذلك الهلال الأحمر ورافقتهن ناهد سري في جولة بالمستشفى وعيادته الخارجية. وتفقدن أخيرًا مبرة محمد علي حيث استقبلتهن الأميرة شويكار. كما قمن بزيارات لنادي القاهرة للمرأة والاتحاد العربي الذي كان يرأسه فؤاد أباظة باشا. كما زارت المندوبات ضريح الملك فؤاد في جامع الرفاعي. لقد قضين أيامًا مليئة بالأنشطة وسرعان ما أزف وقت الرحيل.

وفي ٢٠ ديسمبر ١٩٤٤، أقيم حفل وداع في النادي الاجتماعي للاتحاد النسائي المصري. إلا أن هدى للأسف لم تتمكن من حضوره نظرًا لمرضها الشديد، وقرأت أمينة السعيد مرة أخرى الكلمة نيابة عنها. وقد ألقت ناجلا كفوري من لبنان بيانًا سياسيًا شديدًا في الجلسة الختامية. وقد ذكرت فيه أن العرب قد قرَّروا بفروسية شديدة تعليق أنشطتهم الثورية ضد البريطانيين بعد نشوب الحرب العالمية الثانية لكي لا تضطر القوات البريطانية إلى المحاربة على جبهتين في آن واحد. كما أضافت أن مساعدتهم للبريطانيين لم تفض إلا إلى انتصار الصهاينة. وشدَّدت على أن فلسطين لم تكن أرضًا غير مأهولة بالسكان قبيل وصول الصهاينة وأن الأهالي العرب يتعرضون لظلم بيِّن.

وبذلت هدى جهدًا خارقًا لكي تتمكن من حضور قراءة القرارات الختامية، بعد أسبوع كامل من المرض لم تكد تجد فيه وقتًا للراحة. فقد رفض المؤتمر تمامًا

اتخاذ قراراته فى غيابها وانتظرتها السيدات حتى تتعافى. لقد كُنّ متمسكات بوجودها لدى الموافقة على القرارات ليقينهن أن وجودها هو الضمان الحقيقى لنجاح المؤتمر. وتمت قراءة البرقيات المُوجَّهة إلى المؤتمر قبل إلقاء هدى لكلمتها الختامية، وتضمنت بين رسائل أخرى برقية تهنئة من اليينور روزفلت للنساء التى حثتهن على المضى قدمًا فى جهودهن. كما كانت هناك أيضًا برقيات كثيرة تحمل أمنيات العديد من المنظمات العربية.

وفى كلمتها الختامية وجَّهت هدى الشكر للصديقات والزميلات، وبصفة خاصة مارچيرى كوربيت–آشبى التى كانت قد أرسلت برقيات مساندة منذ بدء التخطيط للمؤتمر، وشجَّعتها على مواصلة القيام بدور حلقة الوصل بين نساء الشرق والغرب.[١١] ثم أعربت عن شكرها لاليمنور روزفلت لرسالتها الرقيقة للمؤتمر التي، كما قالت "خففت من أثر بعض التصريحات الصادرة عن بعض الأمريكيين والسلطات الأمريكية بشأن فلسطين" . ووعدتها بأن النساء العربيات سوف يبذلن قصارى جهودهن لدعم السلام فى العالم. وأنهت هدى كلمتها بدعوة كل قادة الدول العربية إلى "أن ينظروا بعين الجد والاعتبار إلى المطالب التى يتبناها هذا المؤتمر، نظرًا لدور النساء فى إحراز التقدم الذى أتى مؤخرًا فى المنطقة وفى حياة جميع الأمم" .

ثم تلت هدى القرارات المُوصى بها على المشاركات لإقرارها. وكان هناك بعض الاختلاف بين تلك التى صدرت عن مؤتمر ١٩٣٨ وبين الأخيرة التى أقرها مؤتمر ١٩٤٤. ففى مؤتمر ١٩٣٨، ركزت غالبية القرارات على فلسطين ومشكلاتها. فى حين جاءت قرارات ١٩٤٤ فى معظمها متوافقة مع توصيات التحالف الدولى للمرأة. فقد تناولت كافة القضايا النسوية الواحدة تلو الأخرى فى إطار إمكانيات الإصلاح وخاصة حقوق المرأة السياسية والقانونية وكذلك

فى مجال التعليم والثقافة. ورافقتها توصيات حول حقوق الأمهات والأطفال، بما فيها قضايا الصحة والحماية. علاوة على توصيات عامة بشأن الحفاظ على القيم الأخلاقية والتعاون الاقتصادى وأخيرًا قرار يحث الدول العربية ككل على الاهتمام بصوت المرأة وقضاياها.

وبعد شهر من ذلك، وفى يناير ١٩٤٥، تم التوقيع على اللائحة التأسيسية للاتحاد النسائى العربى التى تولى صياغتها القانونية محمد على علوبة باشا وعلى ذكى باشا.(١٢) وقد تم إقرار رئاسة هدى للاتحاد، وهو ما كان بمثابة تتويج لمسارها المهنى كناشطة نسوية عربية. وقد نالت بصفتها هذه شرف تمثيل الاتحاد النسائى العربى عند افتتاح جامعة الدول العربية فى مارس ١٩٤٥.

وفى عام ١٩٤٥، كانت مصر تقترب من لحظة دقيقة تتمثل فى القبول أخيرًا، على الأقل من الناحية الرسمية، بالمشاركة فى الحرب، لكيما تصبح عضوًا كاملا فى مجموعة دول ما بعد الحرب، بما يؤهلها أن تصبح عضوًا فى الأمم المتحدة. وكان الملك الذى أعفى النحاس باشا من منصبه فى أكتوبر ١٩٤٤، قد عُيّن أحمد ماهر رئيسًا للوزراء، والذى آلت إليه بذلك مهمة صعبة هى الإعلان أمام البرلمان قرار إعلان الحرب على دول المحور. ولم يكن هذا مستساغًا بالنسبة للشعب المصرى الذى كان يرفض وجود الجيش البريطانى فى مصر لأسباب عديدة. فقد تعرض طوال الحرب لملاحقات الجنود البريطانيين الذين كان سلوكهم كريهًا وكثيرًا ما كانوا يعترضون الناس فى الطرقات ليأخذوا ما يحملونه من نقود أو ببساطة يتحرشون بهم لمجرد السخرية والتضاحك. كما سرت شائعة مفادها أنه سيتم تجنيد المصريين للقتال على الجبهة الآسيوية.

وفى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ عقد أحمد ماهر جلسة مغلقة للبرلمان لكى يشرح أنه لن يُطلب من مصر القتال وأنه لن يتم تجنيد المصريين، وأن قرار إعلان الحرب،

الذى وصفه بالقرار الدفاعي، كان تكتيكيًا، بما أن الحرب سوف تنتهى فى كل الأحوال. وكانت النقطة الرئيسية فى حديثه هى أن قرار إعلان الحرب كان ضروريًا لتأهيل مصر لكى تصبح عضوًا مُؤسِّسًا فى الأمم المتحدة، وتقف فى صف الدول الحرة فى العالم وتناضل من أجل حق الفلسطينيين فى الاستقلال وتقرير المصير. وبعد أن ألقى ماهر كلمته أمام مجلس النواب، وسار عبر القاعة الفرعونية فى اتجاه مجلس الشيوخ، أخرج شاب يُدعى محمد العيسوى مسدسًا من جيبه وأطلق عليه النار. وتُوُفى ماهر وكانت كلماته الأخيرة هى "هذه هى نهايتي!".

لقد كانت هدى تصارع مرضها، محاولة أن تكسب بعض الوقت من أجل المعارك التى لم يزل عليها أن تخوضها. وقد أحزنها اغتيال أحمد ماهر وكان قد حاول تهدئة الطلبة أثناء مظاهراتهم ضد الوجود المكثف للجنود الأجانب الذى يُعرِّض المصريين للخطر.(١٣) وكانت هدى تقدِّر له تفهمه لعامة الشعب الذين كان يجلس معهم ويُحدِّثهم بلا خوف. لقد تم اغتياله بسبب سوء الفهم، على يد متهور مجنون. ومن المفارقات أنه كان قد تمكن لتوه من إقناع البرلمانيين من كافة الأحزاب، بمن فيهم هؤلاء المعارضون بقوة لتدخل مصر فى الحرب، بأن الإعلان الذى سيصدر عن مصر ليس فقط مجرد مسألة شكلية، بل وأيضًا ضرورية فى آن واحد. ومن المفارقات أيضًا أن محمود النقراشى باشا الذى عينه الملك لخلافته على رأس الوزارة هو الذى أصدر الإعلان مكانه. وكان النقراشى مُعارضًا بشدة للتدخل فى الحرب وعانى بقوة من هذه المهمة التى فرضت عليه.

وفى ٢٥ فبراير ١٩٤٥، أعلنت مصر غداة اغتيال أحمد ماهر "حربها الدفاعية" ضد ألمانيا والحلفاء، وتم فى ٧ مارس تعيين عبد الحميد بدوى

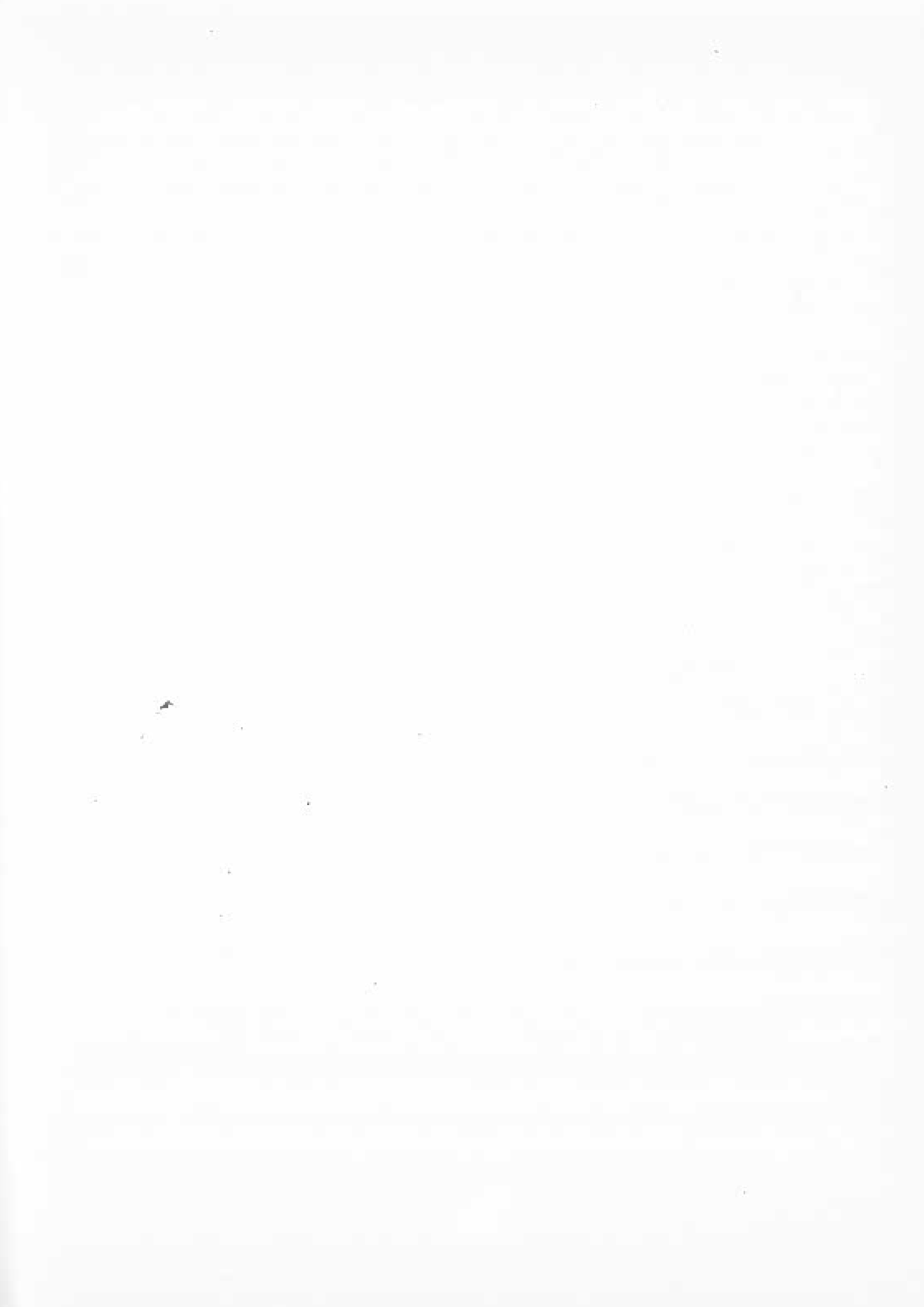
باشا، وهو واحد من ألمع المفكرين والمُشرِّعين والدبلوماسيين المصريين، وزيرًا للخارجية. وقد ترأس فى ٢٦ يونيو ١٩٤٥ الوفد المصرى الذى ساهم فى سان فرانسيسكو فى إقرار ميثاق الأمم المتحدة والتوقيع عليه من قبل الدول المُؤسِّسة للكيان العالمى الجديد.[١٤] وقد أحيا ذلك الأمل فى قلب هدى ولكنها، مثلها مثل العالم أجمع، قد فزعت فى ٦ أغسطس حين سمعت بأخبار إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما فى ذلك اليوم، وما تبعها من إلقاء قنبلة أخرى على نجازاكى فى ٩ أغسطس. وقد برَّرت الأمم المتحدة بأن القنابل سوف تختصر أمد الحرب المكلِّفة والدموية فى اليابان. وقد كتب چورج حنين، الشاعر المصرى الموهوب الذى يتقن الفرنسية، والذى كان قد هاجم فى ١٩٣٥ ببلاغة رصينة هجوم موسولينى على أثيوبيا، كتب منشورًا مفعمًا بالحماس تحت عنوان "هيبة الرعب" عبّر فيه عن الهلع الذى أثارته فى العالم أجمع التفجيرات المروعة وكيف أنها جعلت من المذابح الجماعية السابقة التى ظُنت بشعة مجرد أحداث تافهة:

"سوف يظل الثامن من أغسطس ١٩٤٥ بالنسبة للبعض منا يومًا أثقل من القدرة على التذكر. وسيسجله التاريخ كموعد مع العار... بل إن هذه الألعاب الوحشية ستبدو فجأة تافهة بعد أن تم استخدام القنبلة النووية واختبرت قاذفات القنابل الديمقراطية قدراتها ضد الشعب الياباني!".[١٦]

كانت هدى وجميع دعاة السلم فى العالم، الذين راح عددهم يتزايد باطراد، يوافقون حنين الرأى. فقد رأت فى القنابل النووية بداية لعهد جديد مشؤوم للبشرية.

ثم أصاب الحزن هدى حين علمت بوفاة رفيقتها اليهودية روزا مانوس فى ١٩٤٥ فى الحرب. كانت الهولندية مانوس عضوًا فى اللجنة التنفيذية للتحالف

الدولى للمرأة حيث التقتها هدى لأول مرة فى مؤتمرالتحالف الدولى للمرأة بباريس فى ١٩٢٦، وكانت تعمل حينها بالتعاون مع المندوبة السويسرية إميلى جورد فى تنظيم الاجتماع. كانت شقراء زاخرة بالعنفوان والشجاعة، عيونها لامعة وابتسامتها مفعمة بالحيوية وذات حس ساخر. وكانت قد أصبحت فى ١٩٣١ رئيسة للجنة السلام للمنظمات الدولية للمرأة ورأست اللجنة فى مؤتمر التحالف الدولى للمرأة فى مارسيليا فى ١٩٣٣ حيث تولت صياغة قرار قوى وصريح يساند نزع السلاح والسلام ويدين إنتاج الأسلحة من قبل المصانع الخاصة. وقد منحتها ملكة هولندا وسام أورانج ناسو من درجة ضابط من أجل خدماتها فى سبيل السلام والمرأة، واحتفلت هدى وسيزا بالمناسبة حينذاك. وقد تعرضت مانوس لمحنة تستعصى على التصديق. وكانت قد رفضت بتعنت الإنصات لحجج هدى بشأن فلسطين فى مؤتمر التحالف فى كوبنهاجن فى يوليو ١٩٣٩، ولكن أمكن تفهم موقفها على ضوء النهاية الوحشية لحياتها على يد النازيين. فقد أُلقى القبض عليها بوصفها يهودية واستجوبها الجستابو فى أغسطس ١٩٤١. وكان لديها عديد من الأصدقاء والأقارب فى المانيا وشاركت قبل وقت طويل من الحرب فى تأسيس اللجنة النسائية المحايدة للاجئين لمساعدة الذين فروا من المانيا. وتم نقلها من سجن إلى آخر حتى احتُجزت فى النهاية فى راڤنزبروك، حيث تُوفيت بعد عامين فى ١٩٤٣. وقد كان التفكير فى المعاناة التى تعرضت لها روزا إبان سنوات سجنها وفى معسكرات الاعتقال بمثابة كابوس بالنسبة لهدى.(١٧)



-١٣-

الجمعية العامة للأمم المتحدة تُقسِّم فلسطين

وبعد الحرب، وقعت مشاجرة أخيرة بين محمد وهدى أفضت إلى رفضه رؤيتها مجددًا إلى الأبد. وفى صيف ١٩٤٦، كان قد اصطحب منيرة والأولاد إلى جبل لبنان. ورافقهم الخادم النوبى صالح وحفيظة المربية السودانية وچورچيت، أى الدائرة العائلية لمنيرة فى المنيا بالكامل تقريبًا. وقد أملت ميمى أن يكون ذلك بداية لأوقات أكثر سعادة، ولكن محمد كان فى حالة مزاجية غريبة. كان باردًا وبدا كما لو أنه لا يرغب فى رؤيتها. ثم أعلن فجأة أنه قرر العودة إلى القاهرة بمفرده قبل الموعد المُحدَّد لنهاية الرحلة. وترجته أن تعود معه، وانتحبت. وقالت إنها سترافقه فى جميع الأحوال، ولكنه لم يستمع إليها وهدَّدها بالطلاق إن هى تجرأت على مخالفته. وعاد إلى القاهرة وحده، وحين تواصل معها بعدها كان لإخطارها بأنه يود الطلاق.

وذهب بعدها بقليل إلى هدى فى جناحها على انفراد، وأخطرها أنه ينتوى الانفصال عن زوجته، أم أبنائه السبعة، لأنه يحب امرأة أخرى وصفها بأنها أصغر سنًا ومن اختياره هو وأنه لن يتخلى عنها أبدًا. وفقدت هدى السيطرة على نفسها تمامًا. كانت عاجزة عن تصور أن يترك محمد زوجته وعائلته من أجل

امرأة أخرى. وصرخت فيه وسبّته وصفعته على وجهه. وتركها ولم تره بعدها قط. وحين هدأت هدى، انصبت كل خواطرها على زوجة ابنها، وأدركت أن منيرة قد لقيت معاملة ظالمة للغاية ولم تنلْ حبًا وأُثقل كاهلها بأعباء الأطفال. لقد تم استغلالها والإساءة إليها معًا. ويبدو أن محمدًا كان حانقًا عليها بسبب صبرها ذاته وتحملها الذى لا حدود له. وعرفت هدى أنه لم يعد من الممكن إنقاذ الزواج وفعلت الشيء الوحيد المتاح لها فى مثل هذه الظروف. إذ رحّبت بميمى فى دائرة ناشطاتها النسويات وطلبت منها إدارة النادى الاجتماعى للاتحاد النسائى المصري.

وقد أنقذ هدى المؤتمر الرابع عشر للتحالف الدولى للمرأة المنعقد فى انترلايكن بسويسرا من السقوط فى اليأس، وانتشلها من التفكير فى مشكلتها العائلية. وكانت هذه هى رحلتها الأخيرة، وإن لم تكن تعلم ذلك حينها. واجتمع المؤتمر فى ١١ أغسطس ١٩٤٦، ورافقتها فيه أفضل معاوناتها وممثلاتها. وكانت من بينهن بالطبع سيزا، التى كانت قد انفصلت عن مصطفى نجيب، والتى اصطحبت معها ابنتها الصغيرة هدى، كما كانت تفعل كثيرًا. وكانت من بين المعاونات واحدة من أقربهن إلى هدى، وهى عصمت عاصم التى كانت شديدة الالتزام بالقضايا النسوية. كما كانت هناك أيضًا وافدات جدد من الشابات على عالم المؤتمرات الدولية؛ مثل منيرة صالح حرب وقوت القلوب ماهر. ولم تشارك فى المؤتمر سوى ١٨ دولة فقط، وكان وفد هدى هو الوفد الوحيد من الشرق الأوسط، وقد كان يمثل رسميًا فلسطين وسوريا ولبنان، إضافة إلى مصر. وقد حضر من أوروبا كل من انجلترا والولايات المتحدة والنمسا وفرنسا وإيطاليا واليونان وهولندا، وسويسرا، علاوة على استراليا ونيوزيلاندا، الواقعة على الجانب المقابل من الكرة الأرضية، والسويد والنرويج والدانمرك

من اسكندناڤيا. كما شارك وفد يهودى من فلسطين. وكانت هدى قد عرضت استضافة المؤتمر فى القاهرة ولكن المسؤولين عن التحالف الدولى للمرأة فضلوا عقده فى سويسرا، لأنها البلد الأوروبى الوحيد من غرب أوروبا الذى لم تدمره الحرب، ولأنه كان أيضًا بلدًا لم تحصل فيه النساء بعد على حقوقهن السياسية، وبالتالى كان الأمر يتطلب القيام بجهود محلية.

ورغم آلامها وما تتجشمه من عناء، سافرت هدى إلى انترلايكن، لإيمانها بفعالية اللقاءات وجهًا لوجه ولمسؤوليتها عن البلاد الأخرى التى تمثلها إلى جانب مصر. كما أنها كانت أيضًا سترى مارچيرى كوربيت- وبعض الصديقات الأخريات من التحالف الدولى للمرأة هناك. وكان قد سبق لها أن زارت سويسرا مع على فى الماضى البعيد، ثم مرات أخرى على مدار السنين؛ ولذا فقد كانت على معرفة جيدة بالبلد. وقد كانت انترلايكن موقعًا رائعًا لانعقاد المؤتمر، ليس فحسب لجمال المكان. وخلال وقائع المؤتمر، تركزت مداولات الاجتماعات على الموضوعات النسوية المألوفة التى تم تحديدها وتطويرها فى الغرب على مدار السنين. وقد تسبَّبت الحرب ومآسيها فى انتكاسات داخل المجالات التى كان قد تم إحراز التقدم فيها من قبل، وعادت قضية الدعارة لتصبح من جديد همًا محوريًا. كما كان مصير المُرحَّلين، وبصفة خاصة اليهود، مصدر قلق للأوروبيين، إلى جانب الهجرة الدولية التى كانت سببًا للجزع. وبالتأكيد، فقد كانت الهجرة تمثل إشكالية فى وجدان المصريين فى الشرق الأوسط، حيث كانت تنتزع من الشعب الفلسطينى بلاده.

وكان لقاء هدى وكوربيت-آشبى مصدر سعادة دائمة كالعادة. إذ كانتا تتحدثان سويًا لساعات طويلة. فقد كان هناك الكثير جدًا مما تتشاركان فيه، والكثير جدًا من الشر والعنف اللذين كانتا تحاولان تخفيف وقعهما من خلال

تعبيرهما المتبادل عن الصداقة والكرم. إلا أن هدى قد اكتشفت أن كوربيت-آشبى قد قرَّرت ترك التحالف الدولى للمرأة لكى تكرِّس وقتها لدعم النسوية فى بلدها. وقالت لهدى إنه لا يزال هناك الكثير ليفعل فى بريطانيا. وفى هذا الوقت، كانت الجهود النسوية تصطدم باطراد مع السياسات الوطنية فى مختلف البلدان وبدا أنه من المُقدَّر عليها أن تواجه تعقيدات عقيمة. وقد خلفت كوربيت آشبى فى رئاسة التحالف الدولى للمرأة السويدية هنًّا ريدا[1]، وقدَّمتها إلى الحضور وهى تعلن تركها للمنصب. ودعتها هدى إلى زيارة مصر خلال رحلتها القادمة فى الشرق الأوسط وبدأت من فورها العمل معها. وقد حسدت هدى كوربيت-آشبى على قرارها الجريء بالانسحاب. وقد أدركت هدى أنها لن تراها قط مرة أخرى بعد هذا اللقاء.

وكانت هدى ذاتها قد بدأت تشعر أنها تعيش الآن فى الوقت الضائع نظرًا لتردى حالة قلبها. وكان الثقل الذى يحُط على صدرها قد راح يصيبها الآن بالاختناق والعجز عن التنفس. كما بدأت تشعر أيضًا بآلام فى ذراعيها وكتفيها. وكثيرًا ما كانت تتذكر قصيدة عربية عن موتها كانت قد كتبتها ورغبت أن تنقشها على ضريحها الذى أقامته فى المنيا. وكانت تعلم أنها سوف تعجز قريبًا عن السفر مُجددًا. إلا أنها، بمجرد عودتها إلى القاهرة، حاولت تعويض هذا بإلقاء المزيد من المسؤوليات على معاوناتها الشابات وراحت ترسلهن لتمثيل الاتحاد النسائى المصرى نيابة عنها فى الفعاليات الدولية التى كانت تُدعى إليها. وقد كان يريحها ما كانت تستشعره من طمأنينة لإرسالها مريداتها من الشابات الجريئات لينبن عنها فى الرحلات البعيدة. وأرسلت عصمت عاصم إلى چنيف، وأمينة السعيد، التى كان نشاطها فى الحركة يزداد باطراد، إلى حيدر آباد. لقد كانت توقن أن هؤلاء النسوة نسويات ذوات عزم وأنهن ستدافعن أيضًا عن القضية العربية.

وفى ١١ فبراير ١٩٤٧، انفصل الملك فاروق عن الملكة فريدة بالطلاق وغضبت هدى لما رأته تصرفًا غير مقبول من طرف الملك وأعادت إلى القصر الوشاح الذى كان قد منحها إياه. وفى ٣١ مارس، سُرّت رغم ذلك كثيرًا وهى تشاهده يرفع علم بلاده فوق الثكنات البريطانية فى قصر النيل حيث ظل يرفرف العلم البريطانى ٦٥ عامًا. لقد أسعدها أن ترى هذا المشهد بعينيها بعد كل هذه السنوات من النضال. وحضر الملك فاروق الاحتفال بنفسه الذى تابعته هدى من شرفتها المطلة على الميدان من الجانب الآخر، وهى تضحك فى سرور، وأحفادها يتدافعون متصارعين فيما بينهم لكى يكون كل واحد منهم أول من يرفع العلم فوق منزل "المصرية".

وفى هذا الأثناء، كانت الخارجية المصرية قد ألحقت زوج حورية، الدبلوماسى الشاب حسن شفيق، من اسطنبول، بإدارة القصر الملكى بعد الحرب، حيث كُلِّف بمهمة إعداد التقارير عن الموقف فى فلسطين. وكانت تقاريره التى قرأت هدى بعضها تتسم بالفطنة والدقة. وفى مارس ١٩٤٧، جاءت حورية لرؤيتها وفرحت هدى كثيرًا بالزيارة. فقد كانت المودة بينهما كبيرة. واستضافت هدى زائرتها فى غرفة ملاصقة لغرفتها الخاصة، وكانت مُزيَّنة بمُطرزات من بوخارا وفيها سلمها الخشبى الداخلى المُفضى لمساحة خشبية صغيرة تحوى منطقة للنوم تتكون من مرتبة تقليدية على فراش خشبى بخلفية من الخشب المنحوت الذى ينضح برائحة الصندل. وتناولتا الإفطار فى غرفة هدى وأسرّت هدى لحورية بالتحول المحزن لحياتها والصعوبات التى تواجهها مع أبنائها ذاتهما. وحين صعدت إليهما سيزا وحواء فى الغرفة شعرت السيدات الأربع بالراحة والسكينة وهن معًا، وتلت هدى فى صمت دعاءً قصيرًا ووضعت يدها على رأس حورية لكى تباركها وترقيها قبل الرحيل. وسرعان ما

مضت الأيام القليلة التى قضتها حورية ونظرت هدى إلى ابنة خالها الصغيرة وهى ترحل بقلب يعتصره الألم.

وخلال حضورها لمؤتمر اتحاد البرلمانات الذى عقد بالقاهرة فى أبريل ١٩٤٧،أدركت هدى كم هى مجهدة. فقد كانت مغادرة المنزل كل يوم لحضور الجلسات مرهقة للغاية، على الرغم من وجود من كانوا يساعدونها فى الدار. فقد عادت ميمى من المنيا بدون محمد واستمرت بالطبع فى العيش بالمنزل الكبير مع أولادها. وكانت هدى قد تركت الطابق الأول لزوجة ابنها المنفصلة وأطفالها وظلت تقيم فى جناحها بالطابق العلوي. ولم تكن فى حاجة إلى صعود أى دَرَج بفضل المصعد الذى أهداه إليها تشارلز كرين كما لو أنه كان يستشف الغيب حين فعل.

وتولى هيكل باشا مسؤولية تنظيم مؤتمر اتحاد البرلمانات، بوصفه رئيسًا لمجلس الشيوخ. وقد ساعدته زوجته عزيزة فى استقبال السيدات والترويح عنهن. وقد طلبت عزيزة من ميمى أن تساعد وأن تكون فى استقبال الضيوف فى المطار وأن ترافقهن إلى أماكن الاستضافة وتشرف على احتياجاتهن. وقد قابلت ميمى هدى أثناء سيرها بالمنزل، وفوجئت حين سألتها بخجل "لماذا لم يطلبوا مساعدتى فى رأيك؟". واندهشت ميمى وانبرت فورًا فى تهدئتها بالقول "إن مكانتك يا طنط (وهو اللقب الذى تناديها به كل الفتيات) أكبر من مثل هذه الأمور البسيطة وفى إمكانك إن أردت أن تدعى كافة الضيوف على العشاء فى هذا المنزل الرائع. وسوف يقدر هيكل باشا ذلك كثيرًا". وتكرمت هدى بإقامة حفل للبرلمانيين الزائرين ثم اصطحبتهم فى رحلة إلى الريف. وقد أمضوا وقتًا رائعًا وزاروا المتاحف والمواقع الفرعونية والإسلامية والقبطية. إلا أن هدى كانت قد بدأت تشعر أنها تفقد أرضيتها وأنها لم تعد بشكل ما فى قلب الأحداث.

وتساءلت إن كانت لم تعد سوى مُضيفة للأنشطة الاجتماعية وأيقنت أن الوقت المتاح لها لم يعد به متسع قبل أن يعُمّ العنف مجددًا عالم ما بعد الحرب.

وكان النقراشى باشا قد ترك منصبه فى فبراير ١٩٤٦، وحاول خليفته اسماعيل صدقى فى أكتوبر، عقب الإضرابات والمظاهرات التى خلّفت بعض القتلى، أن يصل إلى اتفاقية نهائية مع بريطانيا من أجل إجلاء القوات البريطانية عن مصر بعد الحرب. وقد عقد لهذا الغرض مباحثات مع إرنست بيڤين، وزير الخارجية البريطاني. وقد تنازل صدقى عن السودان لبريطانيا من الناحية الفعلية، وهو ما لم يقبله "الوفد" والشعب وسقطت وزارته فى ديسمبر. وعاد النقراشى واعتقدت هدى أن مصر قد أصبحت فى أيد أمينة. وقد تجلت شجاعته بعد ذلك حين قرّر، بوصفه رئيس الوفد المصرى فى الأمم المتحدة، أن يوبخ بريطانيا أمام مجلس الأمن فى أغسطس ١٩٤٧. كما أمّن النقراشى على صحة التزام الأمم المتحدة بالعدل، فألح على أن ميثاق الأمم المتحدة يُخوِّله الحق فى المطالبة بانسحاب القوات البريطانية من مصر وإلغاء معاهدة ١٩٣٦. وتكلم باستفاضة، كالفارس الأعزل، فى مواجهة ممثلى الدول الكبرى وركّز على أن ميثاق الأمم المتحدة ينص على المساواة والمعاملة المتكافئة لكافة الدول، بغض النظر عن قوتها. لقد تكلم النقراشى بكلمات صريحة ولم يحاول التخفيف من وقعها.[٢]

لم تسافر هدى إلى الخارج ثانية. فقد مثلت حواء وكريمة السعيد نساء مصر فى مؤتمر[٣] كل الهند الذى عقد بدلهى فى نهاية مايو ١٩٤٧. وكانت هدى قد بدأت منذ زمن فى منح حواء مسؤوليات خاصة. إذ قبل ١٩٤٥، حين أغارت فرنسا على دمشق بعد مطالبة سوريا بإنهاء الاحتلال الفرنسى وجلاء القوات الفرنسية، أرسلت هدى حواء فى مهمة خطيرة لمرافقة بعثة الهلال الأحمر

المصرى التى توجَّهت إلى سوريا لمساعدة الضحايا وتقديم تقرير لها.[٤] وقد عادت حواء من الهند وهى فى حالة من النشوى حيث أمضت الكثير من الوقت مع نهرو وابنته أنديرا. وقد قدَّمها الزعيم الهندى إلى المهاتما غاندي، وذكر أنها واحدة من أجمل النساء المشاركات فى المؤتمر. وقد وافقه غاندى على ملاحظته مبتسمًا. واعتذر لحواء لعدم وقوفه وهو يبادلها التحية بسبب كبر سنه وصحته المتداعية. وقد أجابته بأنها تشعر بالفخر لمقابلته سواء كان جالسًا أو واقفًا لأنه رمز للبطولة النادرة والكفاح العادل. ثم فعلت مثل نهرو وخلعت حذاءها لتجلس على الحصير الذى يغطى أرضية الغرفة الصغيرة التى جلس المهاتما عليها القرفصاء وقد عقد ساقيه. جلست والمهابة تغمرها أمام الرجل الضعيف الضئيل الحجم، الذى أصبح واحدًا من أعظم أساطير زمنه. كما زارت حواء أجرا وبومباى وعادت منهما برؤية سوف تكون مرشدًا لها فى حياتها. لم تكن تحلم بالزواج وتشعر أنها خُلقت بالأحرى للنضال النسوى ويملؤها الاهتمام بحماية وتعليم الأطفال.[٥]

وفى بداية ١٩٤٧، أصدرت هدى مجلة جديدة أسمتها المرأة العربية. وكان نقص الورق أثناء الحرب قد أجبرها على إيقاف ليجيبسيان فى ١٩٤٠، ثم المصرية بعدها بوقت قصير. وقد بشَّر مولد المرأة العربية بأوضاع عالمية أكثر سلمًا، إلا أنها تناولت أيضًا مشكلة السلام الحقيقية فى الشرق الأوسط. وقد أطلقت هدى المجلة الجديدة لإعلام النساء العرب باستئناف الأنشطة النسوية فى العالم أجمع وقرَّرت أن أمينة السعيد هى أصلح من يتولى تحريرها. وفى مايو ١٩٤٧، بعثت ساروچينى نايدو بدعوة لهدى لحضور مؤتمر نسوى آخر بمدينة حيدر آباد فى الهند، مثلتها فيه أمينة السعيد، رغبة من هدى فى اختبار مدى جلد رئيسة تحرير مجلتها الجديدة.[٦]

وكانت هدى قد أقامت علاقات طيبة مع الهنديات اللائى شاركن فى الاجتماعات النسوية الدولية وحرصت حين أمكنها ذلك على استضافة من يزرن مصر منهن. وفى صيف ١٩٤٧، استقبلت مجموعة من شباب الوفد فى بورسعيد كامالاديفى شاتوبادياي، زوجة شقيق ساروچينى نايدو، أثناء مرورها عبر قناة السويس لتمثيل مؤتمر كل نساء الهند فى اجتماع بأوروبا، وجئن بها إلى منزل هدى بالقاهرة. وقد تحدثت شاتوبادياى عن ذلك فى مذكراتها:

"كنت فى قمة الإرهاق بعد عبورنا العاصف لبحر العرب فى بداية الرياح الجنوب-غربية الموسمية. وحين هبطنا إلى الأرض، سُمح لى فورًا بالخلود إلى الفراش. وعندما استيقظت ونظرت حولى كنت على يقين بأننى أحلم، فأغلقت عينيي وغلبنى النعاس مجددًا. وعندما غادرت السرير كانت الشمس الساطعة تغرق المكان. لا، لم أكن أحلم. كنت مستيقظة تمامًا فى قصر من ليالى ألف ليلة كما بدا لي. كان أمامى إفطار شهى من الشمام وعناقيد العنب الأحمر وشرائح الخبز الفرنسى المُحمَّص والمُقرمَش، وحبات التمر الطازج وكلها ذكرتنى بعصير سكر النخيل فى بلدي. وكانت مضيفتى الجالسة قبالتى هى الشيء الوحيد الحقيقى خارج حلمى الغائم. كانت قوية البنيان وراسخة على الأرض، رغم وجهها الجميل المنحوت وجسدها الذى يشبه التمثال، إنها السيدة شعراوى باشا. لقد صاغت منزلها بطبيعتها المتوقدة الحساسة على الطراز العربى التقليدي. فالأثاث كان سوريًا، بثناياه الرقيقة المنحوتة. وقد انتقت بدقة أصغر التفاصيل وأبسطها. غير أنه كان أمامى الكثير لأتعلمه أكثر من مجرد رؤية منزل رائع".(٧)

وتبادلت السيدتان المعلومات المُطوَّلة عن الموقف السياسى فى بلديهما وتحدثت شاتوبادياى عن غاندى وأسلوب حياته وأفكاره وتقشفه وقوته.

ولمست الضيفة الهندية وترًا حساسًا لدى هدى حين قالت لها: "إن غاندى قد أثّر فى العالم بأسره حين أعلن أن حرية الهند سيكون معناها تحرر جميع المستعمرات البريطانية، وسوف تُحْدث سلسلة من ردود الفعل المتمثلة فى التحرر المتتالى لشعوب أخرى خاضعة. وإن النضال الهندى ذو أهمية حيوية على النطاق الأشمل..."[٨]

وقد تصادف أن استقبلت هدى أثناء استضافتها لزميلتها الهندية زيارة من بطل المقاومة المغربى الكبير الأمير عبد الكريم، الذى كافح ضد فرنسا وإسبانيا. وكانت فرنسا قد اعتقلته لسنوات طويلة فى جزيرة لاريونيون التابعة لها فى المحيط الهندي. وفى مايو ١٩٤٧، كان قد نجح بمساعدة الوطنيين المصريين فى القفز من السفينة التى كانت تحمله عائدة به إلى فرنسا، لدى عبورها قناة السويس، واستقل مركبًا أخرى. وقد مُنح حينها حق اللجوء إلى مصر. وقد وصفته تشاتوبادياى فى مذكراتها بالقول:

"كان الرجل الذى مدّ يده وقال مرحبًا بابتسامة ملؤها الود قصير القامة، وقوى البنية، وتحمل عيناه المستديرة مثل الخرز طيبة ليس لها مثيل، راحت، وقد بدأ حديثنا، تشع بريقًا حادًا. ومع ذلك، كانت تحيط به أيضًا هالة من الصلاح الذى تزيده قوة هذه العباءة الطويلة بلون القشدة التى يرتديها المقاتلون المتمرسون فى جبال الريف الوعرة، الذين صنعت معاركهم الباسلة ومصائرهم المتقلبة تاريخ العالم. وكانت بشرته البيضاء الصافية التى تلمع برقتها مثل الوردة المتوهجة، تبدو وكأنها تناقض دوره كمحارب".[٩]

وكان الموضوع الذى ناقشته السيدتان باستفاضة هو دور الحرف اليدوية. إذ يمكن لهذه الحرف أن تصبح أساسًا لاقتصاد الشعوب المُحرَّرة. وقد مثلت بالفعل قاعدة للصناعات المنزلية الصغيرة الجديدة فى الهند. وكانت

هدى قد أصبحت خبيرة فى مجال الحرف، وقادرة على المقارنة بين التجارب. وقد حضرت شاتوبادياى اليوم المفتوح الذى تقيمه هدى أيام الثلاثاء وتحدثت للحاضرين عن جوانب من فلسفة غاندى مقارنة بطاغور. إذ كان طاغور يهاجم عداء غاندى للآلات ويؤمن بفائدتها للإنسان، بينما كان غاندى يؤمن بأنها لن تفضى إلّا إلى تدمير المشاعر والسلوك الإنساني. وقد شنّ متسلحًا بمغزله فقط حربًا بلا هوادة ضد صناعة النسيج البريطانية التى كانت تدمر اقتصاد بلاده. لقد كانت هدى مأخوذة بهذه الزيارة ومفتونة بالمناقشات التى دارت. وكان أهم مُتع الحياة التى اختارتها لنفسها، تكمن فى التنمية التدريجية للمعرفة والتعلم، إضافة إلى فعل الخير..

وفى النهاية جاء اليوم الحزين الذى صوّتت فيه الجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح تقسيم فلسطين. وكان عبد الرحمن عزام باشا يمثل يومئذٍ الجامعة العربية فى حين حضر النقراشى باشا مندوبًا عن الحكومة المصرية. وقد مورست ضغوط محمومة لهذا الهدف، خاصة من قبل أعضاء الوكالة اليهودية الذين بذلوا كل ما فى وسعهم من طاقة لكسب أصوات كل الدول الأعضاء فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، على خلفية أحداث إرهاب وإرهاب مضاد يومية كانت تقطع أوصال النسيج الفلسطيني[١٠] وقد تم إقرار تقسيم فلسطين فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧. ونُقل لهدى أن الدموع كانت تنهمرعلى وجه النقراشى باشا؛ إذ لم يستطع أن يخفى إحباطه وقنوطه الصامتين والمُقرِّر يتلو نتيجة التصويت.

وقد صُدمت هدى حين سمعت الأخبار فى القاهرة، رغم توقعها الداخلى للهزيمة. وشعرت بشكل غريزى بأنها فى حاجة إلى الانطلاق فى العمل. إذ يتعين إلغاء القرار وإلّا سوف يعانى العالم بأسره منه إلى الأبد. إلا أنه لم

يكن لديها بالطبع ما يمكنها فعله. ولكنها تلقت زيارات من كافة أصدقائها الفلسطينيين الذين كان الأمل لا يزال يحدوهم فى أن تتمكن من مساعدتهم. وكانت تلك النقطة تؤلمها بشدة ولكنها كانت لا تزال على أهبة الاستعداد للنضال، ممسكة بالقلم والورق فى يدها لتدوين كافة الأفكار التى تخطر لها. لم تكن تعرف ماذا ستفعل. كل ما كانت تعرفه هو أنه لا يمكنها أن تقف فى موقف المتفرج من الظلم الذى يقع.

وفى ٧ ديسمبر ١٩٤٧ أفاقت هدى فى الرابعة صباحًا كما كانت تفعل كثيرًا. ولكن الفارق أن هذه المرة لم يكن بسبب أرق ألم بها، وإنما لألم الذبحة الصدرية الحاد الذى لا تخطئه. كانت هذه جلطة بالتأكيد، وإن كانت قصيرة لحسن الحظ. وعادت للنوم ثم استيقظت فى السابعة صباحًا وهى تشعر ببعض التحسن. وحين قالت لحواء ما حدث، أرادت استدعاء الأطباء فورًا ولكن هدى رفضت. سوف يطلبون منها أن تخلد إلى الراحة كالعادة ولم يكن هناك وقت لذلك. كانت فى حاجة إلى كل دقيقة تبقت لها. سوف تُنظِّم حركة مقاطعة، وسوف تقف النساء كتفًا بكتف مع الجيوش العربية، وسوف تجمع الأموال وتمارس الضغوط. لا ينبغى تقسيم فلسطين.

وعاد الألم فى الظهيرة، وأخذ يتزايد بصورة غادرة، وكانت بمفردها، بينما كانت العائلة تتناول الغداء فى غرفة الطعام بالطابق السفلي. لقد كانت هدى تشغل غرفة ميمى بالطابق الأول نظرًا لخطورة حالتها. وراحت تتفصد عرقًا وصدرها يضيق. وحينما عادت حواء قالت لها ما كانت تعلمه: "خلاص يا حوا... خلاص". واستدعت حواء الطبيب فورًا. وفى طرفة عين كان الجميع قد صعدوا للطابق الأول. كانت بنات ميمي، تختبئن خلف ساتر فى مدخل الغرفة وتصعدن الواحدة على ظهر الأخرى، تشاهدن بُثنة وقد ركعت على الأرض منفجرة فى

النحيب. ووقفت سيزا مشلولة بجوار ميمي. وهمست هدى مجددًا، وكأنها تتساءل: "خلاص؟". وصرخت حواء "أبدًا .. أبدًا .. أبدًا إنتى كويسة يا عمتي! دا شيء بسيط". ودلف الطبيب إلى الغرفة وأعطى هدى حقنة. وابتسمت له. وهمست "خلاص."

وبدا أنها قد أدركت الحقنة الأخيرة بوصفها ضربة النهاية. وكانت قد كتبت من قبل قصيدة عن الراحة التى يجلبها الموت. لقد كانت العاصفة التى تهدر داخلها تدمر العالم وكذلك ما تبقّى من جسدها، إلا أنها كانت تؤمن ببقاء الروح. كانت تختنق وخُيّل اليها أنها تسمع وقع حوافر جواد سباق ترج الأرض بجانبها، كما لو كان يركض فى براح جبال القوقاز، قادمًا نحوها. ورأتها البنات الصغيرات المختبئات خلف الساتر تنظر نحو النافذة. ورفعت نفسها على كوعها ولاحت على وجهها ابتسامة لم يشهدها أحد تبتسم مثلها طول حياتها. ومضت.



الهوامش

الفصل الأول

1 - Wilfrid Scawen Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, T. Fisher Unwin, London, 1887, p. 314.

٢ – هدى شعراوي، مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨١، ص.

٣ – حواء إدريس، أنا والشرق: مذكرات حو اء إدريس". طُبع في القاهرة، ١٩٧٣، ولم يُنشر حينها. ثم صدر عن مؤسسة المرأة والذاكرة في ٢٠١٦. وفي هذا الكتاب، تزعم حواء إدريس أن "الحاج مراد" هو الاسم الذى لقب به شرالوكا جواتيش إبان مقاومة الغزو الروسي للقوقاز.

4 - Robert Hunter, "The making of a notable politician :Muhammad Sultan Pasha (1825-84)", International Journal of Middle Eastern Studies, 15, (1983).

5 - Abdel Azziz Ezzel Arab, European Control and Egypt"s Traditional Elites: A Case study in elite economic nationalism, Edwin Mellen Press, Lewiston, NY, 2002 : Abd al-Azim Ramadan, "القاهرة .)١٩٨٨ يوليو ١٠(١١١ أكتوبر ."من توظيف الدين إلى توظيف الأموال).

٦ – شعراوي، مذكرات، ص ١٧.

٧ – المرجع نفسه،، ص ٢٠.

8- .Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 314

9 - Ibid, p. 305.

10 - Ibid p. 314.

١١ – شارع صبرى أبو علم حاليًا.

١٢ – شعراوي، مذكرات، ص ٤٠–٤١.

١٣ – المرجع نفسه، ص ٤١–٤٢.

١٤ – المرجع نفسه، ص ٤٤.

١٥ –المرجع نفسه، ص ٤٣–٤٤.

١٦ – المرجع نفسه، ص ٧٠.

١٧ – المرجع نفسه، ص ٤٥.

١٨ – المرجع نفسه، ص ٤٧.

١٩ – المرجع نفسه، ص ٦٨.

٢٠ – المرجع نفسه، ص ٦٩.

٢١ – المرجع نفسه، ص ٧١.

٢٢ – المرجع نفسه، ص.٧١

٢٣ – المرجع نفسه، ص ٧٢–٧٣.

٢٤ – المرجع نفسه، ص ٧٤.

٢٥ – المرجع نفسه، ص ٧٦.

26 - Eugénie Lebrun (written sa Niya Salima), Harems et musulmanes d"Égypte, Félix Juven Éditeur, Paris, n.d, p. 91.; شعراوي، مذكرات، ص ٧٥-٧٧.

٢٧ – شعراوي، مذكرات، ص ٧٧.

٢٨– المرجع نفسه، ص ٧٩–٨٠.

٢٩– المرجع نفسه، ص ٨٢–٨٣.

30- Mercédès Volait, "Un architecte face à l"Orient : Antoine Lasciac (1856-1946), in Jean-Claude Vatin (ed) La Fuite en Égypte : supplément aux voyages européens en Orient, Institut français d"archéologie orientale, CEDEJ, Cairo, 1986..

31- letters 3 December 1895 and 7 April 1897; انظر أيضًا شعراوي، مذكرات، ص ٨٤.

32 - Letter July 1897

٣٣ – شعراوي، مذكرات، ص ٨٤.

٣٤– المرجع نفسه، ص ٩٢.

الفصل الثانى

١ – هدى شعراوي، مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨١، ص ٨٦.

٢– المرجع نفسه، ص ٨٧.

٣– المرجع نفسه، ص ٨٠.

٤– المرجع نفسه، ص ١٠٥.

٥- الموقع الذى أقيم فيه لاحقًا فندق النيل هيلتون ومبنى جامعة الدول العربية.

٦– شعراوي، مذكرات، ص ١٠٧.

٧– حديث مع سوزا خلوصي، ٢٠٠٣.

٨– شعراوي، مذكرات، ص ١١٣.

9- Moustafa Kamel, Égyptiens et Anglais, Perrin et Co, Éditeur, Paris, 1906, p. 318.

١٠ – شعراوي، مذكرات، ص ١١٨.

11- Eric Davis, Challenging colonialism: Banque Misr and Egyptian industrialization, 1920-41, Princeton University Press, NJ, 1983, pp. 48-49..

١٢ محمد حسين هيكل، فى السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ج١،

ص ٢٩.

13 - Jacques Berque, l"Égypte , impérialisme et révolution, Éditions Gallimard, Paris, 1967, p. 258.

١٤– شعراوي، مذكرات، ص ١٠٤.

١٥– محمد حسين هيكل، تراجم مصرية وغربية، دار نشر السياسة، القاهرة، ١٩٢٩، ص ١٦٤.

١٦– حوا إدريس، أنا والشرق : مذكرات حواء إدريس، طُبع فى القاهرة فى ١٩٧٣ ولم يُنشر حينها. ثم صدر عن مؤسسة المرأة والذاكرة فى ٢٠١٦. و ، ص ٥٤١.

17- Eric Davis, Challenging Colonialism : Banque Misr and Egyptian Industrialization, 1920-41, Princeton University Press, Princeton, NJ, 1983, p. 75.

١٨– شعراوي، مذكرات، ص ١١٧.

١٩-المرجع نفسه، ص ١٢١.

20- Letter from Francine Daurat, dated 20 July 1912

٢١- شعراوي، مذكرات، ص ١٢٤-٣١.

٢٢- ملك حفني ناصف، أزهار باحثة البادية، مجموعة من الأبحاث والأشعار والخطابات صنفها مجد الدين حفني ناصف، مع مقدمة سهير القلماوي، المؤسسة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢.

٢٣ - هدى شعراوي، الكلمة الافتتاحية فى تأبين مى زيادة، ذكرى فقيدة الأدب النابغة مي، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٤١، فى ذكرى مي، ص ١٦.

24- Letter, 23 May 1913

٢٥- شعراوي، مذكرات، ص ١٣٢.

٢٦- روايات عائلية.

٢٧- شعراوي، مذكرات، ص ١٣٩.

٢٨- المرجع نفسه، ص ١٣٥.

٢٩- المرجع نفسه، ص ١٣٨.

٣٠- المرجع نفسه، ص ١٤٥.

٣١- المرجع نفسه، ص ١٤٧.

٣٢- المرجع نفسه، ص١٥١.

٣٣ - المرجع نفسه، ص١٥٢.

٣٤ - محمد على علوبة، ذكريات اجتماعية وسياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٦٩.

٣٥ - ذكي مبارك، أحمد شوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهر، ١٩٧٩، ص ٢٠٥-٦.

٣٦ - شعراوي، مذكرات، ص ١٥٤.

٣٧ - لمعى المطيعي، صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير مصر، مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر، القاهرة، ١٩٢٦.

38- Letter, 19 June 1904

٣٩ - حفنى ناصف، "أزهار باحثة البادية"، ص ٣٥.

٤٠- شعراوي، مذكرات، ص ١٥٩.

٤١- المرجع نفسه، ص ١٦٠.

42- Davis, Challenging Colonialism, p. 165

٤٣- إدريس، أنا والشرق، ص ٣٨٣.

٤٤-المقطم، ٢١ أغسطس ١٩٢٤؛ Davis, Challenging Colonialism, p.170

الفصل الثالث

1 -Royal Institute of International Affairs, Great Britain and Egypt, 1914-1951, Information Papers n°19, RIIA, Ghatham House, London, 1952, p.3.

٢ - عبد الرحمن فهمي، مذكرات عبد الرحمن فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ج ١، ص٥٠، انظر أيضًا هدى شعراوي، مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة، هدى شعراوي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨١، ص١٦٢-٦٣.

3 - Peter Mansfield, The British in Egypt, Weidenfeld & Nicholson, London, 1971, p.219; Jacuqs Berque, L"Égypte, impérialisme et révolution, Éditions Gallimard, Paris, 1967, p.315; Firmin Van Den Bosch, Vingt années d"Égypte, Librairie Acadéique Perrin, Paris, 1932, p. 33.

٤ - شعراوي، مذكرات، ص ١٩٤.

٥ - المرجع نفسه، ص ١٦٥.

٦- المرجع نفسه، ص ١٧٩.

٧ - المرجع نفسه، ص ١٨٣.

٨ - المرجع نفسه، ص ١٨١.

٩ -المرجع نفسه، ص١٧٤؛ انظر أيضًا

Jaques Berque, L"Égypte, imperialism et révolution, p. 327.

١٠-الأهرام، ٢١ مارس، ٦ إبريل، ١٩٦٤، شعراوي، مذكرات، ص ١٨٦.

11 - Russel, Sir Thomas (Pasha), Egyptian Service, 1902-1946, John Murray, London 1949, p. 208.

١٢ – المرجع نفسه

١٣ – يونان لبيب رزق، الأهرام، ١١–١٧ مارس ١٩٩٩.

١٤ – شعراوي، مذكرات، ص. ١٩٠.

١٥ – المرجع نفسه، ص.١٩٦.

١٦ – محمد على علّوبة، ذكريات اجتماعية وسياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٢٢.

١٧ – المرجع نفسه ص ١٢٢.

18 - Family letter

19 - Berque, L"Égypte, impérialisme et révolution, p. 322.

٢٠ – فهمي، مذكرات عبد الرحمن فهمي،ج ٢، ص ٣٤٨.

٢١ – شعراوي، مذكرات، ص ٢٠٣.

٢٢ – علّوبة، ذكريات اجتماعية وسياسية، ص ١٢٢.

٢٣ – المرجع نفسه، ص ١٣١.

24 - Lord Lloyd, Egypt Since Cromer, Macmillan and Co, London 1834, vol II, p.71.

٢٥ – علّوبة، ذكريات اجتماعية وسياسية، ص ١٣٢.

26 - Interview with Gabrielle Rousseau, 1970

الفصل الرابع

1 - Jacques Berque, L"Égypte, impérialisme et révolution, Éditions Gallimard, Paris, 1967, p.333.

2 - Badr al-Din Abu Ghazi and Gabriel Boktor, Mukhtar ou le réveil de l"Egypte, H Urwand et Flis, Cairo, 1949, p.26.

3 - Traduction de Mrgot Badran, quoted in Margot Badran Feminists, Islam and Nation : Gender and the making of modern Egypt, Princton University Press, Princeton, NJ, 1995, p. 84.

4 - Family letter, 5 January 1922, Juliette Adam to Huda.

5 - Family letter, 22 Jnuary 1922, Huda to Juliette Adam.

6 - Family letter, 26 January 1922, Juliette Adam to Huda.

٧ – هدى شعراوي، مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٤٠–٤٢.

٨ – المرجع نفسه، ص ٢٤٣.

٩ – بلسم عبد الملك، المرأة المصرية، فبراير ١٩٢١، ص. ٧٠ ومايو ١٩٢٢، ص٢٧٢.

١٠ – المرجع نفسه، ص ٢٥٠.

١١ – بلسم عبد الملك، المرأة المصرية، مايو ١٩٢٣، ص٣٠٠–١.

١٢ – المرجع نفسه، ص ٢٩٧.

13 - Esther Lombardo, "Sorelle di terra lontana", Giornale di Roma.

١٤ – بلسم عبد الملك، المرأة المصرية، مايو ١٩٢٣، ص٣٦١.

١٥ – بلسم عبد الملك، المرأة المصرية، أكتوبر ١٩٢٢، ص٣٦١، ٣٨٤، ٤٢٥.

١٦ – شعراوي، مذكرات، ص ٢٩١.

١٧ – المرجع نفسه، ٢٩٢.

١٨ – مقتطفات حديث سيزا.

الفصل الخامس

1 - .L"Égyptienne, March,1925, p. 46

2 - L"Égyptienne, August 1925, p. 202.

٣ – محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ج١، ص ١٥٤.

4 - Royal Institute of International Affairs, Great Britain and Egypt, 1914-1951, Information Papers, n* 19 RIIA, Ghatham House London, 1952, p.8..

٥ – هدى شعراوي، مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣١٠.

٦ – المرجع نفسه، ص ٣١٥.

٧ – المرجع نفسه، ص ٣١٥.

٨ – هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، ج ١، ١٧٤–٧٥.

٩ – شعراوي، مذكرات، ص.٣٠٠–١.

10 - l"Égyptienne, February, 1925, p .23

١١ – الأخبار، ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤، حوا إدريس : مذكرات حواء إدريس. أنا والشرق، طُبع فى القاهرة فى ١٩٧٣ ولم ينشر،حينها. ثم صدر عن مؤسسة المرأة والذاكرة فى ٢٠١٦. وص ٣٦٦.

12 - L"Égyptienne, April 1925, p. 81

13 - Fawzia Zouari, "Étonnantes Voyageuses", Méditerranée, March, 1998, hors-série, p.47.

14 - Family letter, 24 November 1924.

15 - Lord Lloyd, Egypt since Cromer, Macmillan and Co, London, 1923, vol.1, p.153.

١٦ – شعراوي، مذكرات، ص ٢٣٥.

الفصل السادس

1 - Don Peretz, The Middles East Today, Praeger, New York, 1994, p.219, Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, Egypt in the Reign of Muhammad Ali, Cambridge University Press, Cambridge, 1984, p. 258; Jawaharlal Nehru, The Discovery of India, Meridian Books LtD, London, 1951, p. 276.

2 - Moustafa Kamel, Égyptiens et Anglais, Perrin et Co, Éditeur, Paris, 1906, p. 58-59..

٣– محمد حسين هيكل، حيثيات الحكم فى قضية الجزية، السياسة الأسبوعية، ١٦ /٦ (١٩٢٥)، القاهرة، والسياسة، ٩ يونيو ص١.

4 - Family letter, 36 June 1925.

5 - Kamel, Égyptiens et Anglais, pp. 58-59.

6 - L"Égyptienne, February 1925, p.14.

7 - Ibid, p.23.

8 - .L"Égyptienne, July 1925, p. 171.

9 - L"Égyptienne, August 1925, p.204 and Juliette Adam, L"Égypte, une leçon diplomatique, Éditions de lÉgypte, Paris, 1924.

10 - L"Égyptienne, July 1925, p. 138.

11 - L"Égyptienne, February 1925, pp.24-25

12 - L"Égyptienne, May 1925, p. 96.

13 - Ibid, p. 169.

14 - L"Égyptienne, September 1925, p.235.

15 - L"Égyptienne, December 1925, p.342.

16 - George Antonius, The Arab Awakening, J.B. lippincott Company, New York, 1919, Appendix 6 : "Recommendations of the King-crane Commission with regard to Syria, Palestine and Irak (28 August 1919)".

17 - L"Égyptienne, December. 1925, p.347.

18 - .Ibid, p.338

19 - Ibid, p.348

20 - Ibid, p.31

21 - Lord Lloyd, Egypt since Cromer, Macmillan and co, London 1934" vol.Ii, p. 148; Marcel Colombe, L"Évolution et L"Égypte, 1924-1950, Éditions G.P Masonneuve, Paris, 1951, p. 33..

22 - Cinquantenaire de la Réforme Illustrée, a special 1945 issue that covers 50 years of Egyptian history, specially published for te fiftieth anniversary of La Réforme magazine, created by Raoul Canivet, p.83.

23 - L"Égyptienne, February 1926, p. 29.

24 - .L"Égyptienne, December 1925, p. 328

25 - Ibid, p.329.

26 - L"Égyptienne, February 1926, p. 27.

27 - L"Égyptienne, January 1926, p. 32.

28 - L"Egyptienne, April 1926, p.6.

29 - Jeffrey Abt, "Towards a historian laboratory", Journal of the American Research Center in Egypt, 33 (1996).

30 - L"Egyptienne, August 1926, p. 203.

31 - L"Égyptienne, July 1926, p. 162.

32 - Lloyd, Egypt since Cromer, vol.1, pp. 168-69.

33 - Ibid, vol.II, p. 167.

34 - Ibid, p.168.

35 - L"Egyptienne, p. 163.

36 - Ibid, p. 171.

37 - Ibid, p. 168.

38 - Quoted by Leila J. Rupp in "Challenging imperialism in International women"s organizations, 1888-1945", Global Perspectives, 8 (Spring 1996).

39 - Viscount Alfred Milner, England in Egypt, Edward Arnold, London, 1904 p. 60..

٤٠ – هدى شعراوي، مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٥٤.

الفصل السابع

1 - L"Égyptienne, October-November 1926, p. 40.

2 - L"Égyptienne, January 1927, p. 3

3 - L"Égyptienne, February 1927, p. 59.

4 - L"Égyptienne, July 1926, p. 163.

٥ – محمد حسين هيكل، فى السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ج ١، ص٢٧٧ ؛ L"Égyptienne, August 1977, p.2.

٦ – عبد الرحمن الرافعي، فى أعقاب الثورة المصرية (الطبعة الثانية)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ج ١، ص ٢٧٧.

7 - L"Égyptienne, June 1927, p. 10.

8 - Jacques Berque, L"Égypte, impérialisme et révolution, Éditions Gallimard, Paris, 1967, p. 227.

9 - Afaf Lutfi al-Sayyed Marsot, Egypt"s Liberal Experiment, 1922-1936, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1977, pp. 204-5.

١٠ – هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، ج ١، ص ٢٣١.

11 - L"Égyptienne, December 1927, p. 2.

12 - Ibid, p. 2.

13 - L"Égyptienne, July 1927, p. 28.

14 - Personal letter, 11 November 1927.

15 - L"Égyptienne, March 1928, p. 25.

16 - L"Égyptienne, September 1928, p. 4.

17 - L"Égyptienne, October 1928, p. 2

الفصل الثامن

١ – الأهرام، ٢٨ ديسمبر ١٩٢٨.

2 - L"Égyptienne, January 1928, p.2.

3 - L"Égyptienne , January 1929, p. 5.

4 - .Ibid, p. 7

5 - L"Égyptienne, February 1929, p. 33.

6 - L"Égyptienne, March 1929, p. 8.

7 - Ibid, p. 45.

8 - L"Égyptienne, May 1929, p. 1.

9 - L"Égyptienne, October 1929, p. 5.

10 - Ibid, p. 30.

11 - L"Égyptienne, February 1932, p . 19.

12 - Le Progrès Égyptien, 25 December, 1984.

13 - See "Minutes of the 19th meeting of the Board of Trustees of AUC", New York City.

14 - L"Égyptienne, November 1929, p. 2.

15 - Ibid, p. 40

16 - L"Égyptienne, May 1930, p. 12.

17 - L"Égyptienne, December 1929, p. 19.

18 - Ibid, p. 22.

19 - L"Égyptienne, January 1930, p. 5.

20 - L"Égyptienne, July 1930, p. 14.

21 - L"Égyptienne, February 1930, p. 36.

٢٢– عبد الرحمن الرافعي، فى أعقاب الثورة المصرية (الطبعة الثانية)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ج ٢، ص. ١٢٠–١٥٠؛

Jacques Berque, L"Égypte, impérialisme et révolution, Éditions Gallimard, Paris, 1967, p. 456.

23 - L"Égyptienne, June 1931, p. 6.

24 - L"Égyptienne, May 1931, pp. 2-8, 13, 28.

25 - L"Égyptienne, December 1931, p.2.

26 - L"Égyptienne, June 1931, p. 6.

27 - L"Égyptienne, May 1931, p. 28.

28 - L"Égyptienne, December 1931, p. 43.

29 - Interview with Huda Shafik, 16 April 1997.

الفصل التاسع

1 -Margot Badran, Feminists, Islam , and the Nation : Gender and the making of the modern Egypt, Princeton University Press, Princeton, NJ, 1995, p. 100.

2 - Family letter, 25 July 1932.

3 - L"Égyptienne, October 1933, p. 21.

4 - Ibid, p. 30.

5 - Tom Segev, One Palestine, Complete, translated by Haim Weitzman, Metropolitan Books, Henry Holt and Company, New York, 2000, p. 376.

6 - L"Égyptienne, April 1933, p. 3

7 - Quoted by Leila J.Ruppa in "Challenging imperialism in International women"s organizations, 1988-1945", Global Perspectives, 8 (spring 1996).

8 - L"Égyptienne, November 1934, p. 43.

9 - Letter, Huda to Germaine Malaterre-Sellier, 1939.

10 - L"Égyptienne, April 1933, pp. 40-41.

11 - L"Égyptienne, May 1933, p. 7.

12 - L"Égyptienne, April 1933, p. 415.

13 - L"Égyptienne, March 1933, p. 21.

14 - L"Égyptienne, May 1933, pp. 11-13.

15 - L"Égyptienne, June 1933, p. 42.

16 - L"Égyptienne, February 1935, p. 8.

17 - Jacques Berque, L"Égypte, impérialisme et révolution, Éditions Gallimard, Paris, 1967, p.458.

18 - L"Égyptienne, December 1933, p. 13.

19 - Ibid, p. 7.

20 - Ibid. P . 9.

21 - L"Égyptienne, December 1933, p. 4.

22 - Sania Shaarawy Lanfranchi, "Un sculpteur égyptien : Abdel Badi Abdel Hay", Le Progrès Égyptien, Cairo, 25 November 1984.

Badr al-Din Abu Ghazi and Gabriel Boktor, Mouktar ou le réveil de

23 - l"Égypte, H.Urwand et Fils, Cairo, 1949, p. 86..

24 - L"Égyptienne, November 1934, p. 2.

25 - L"Égyptienne, October 1935, p. 5.

26 - L"Égyptienne, March 1935, p. 24.

27 - L"Égyptienne, February 1935, p. 3.

28 - Charles Crane documents, American University in Cairo Library.

29 - Ibid, p. 29.

30 - Ibid, p. 26.

الفصل العاشر

1 - L"Égyptienne, August-September 1935, pp. 2-3.

2 - Royal Institute of International Affairs, Great Britain and Egypt 1914-1951, Information Papers n°19, RIIA, Chatham House, London, 1952, pp.32-36.

3 - Jaques Berque, L"Égypte, impérialisme et révolution, Éditions Gallimard, Paris, 1967, p.472 : "Nous avons donné des conseils hostiles à la remise en vigueur de la Constitution de 1923".

4 - L"Égyptienne, November 1935, p. 2.

5 - Royal Institute of International Affairs, Great Britain and Egypt 1914-1951, pp .36-37.

6 - Berque, L"Égypte, impérialisme et révolution, p. 478.

7 - L"Égyptienne, June 1936, p. 8.

8 - Ibid, p. 12.

9 - Ibid, p. 10.

10 - L"Égyptienne, July-August 1936, p. 28.

11 - Ibid, pp. 28-32.

12 - L"Égyptienne, February 1936, p. 28.

13 - L"Égyptienne, October 1936, p. 3.

14 - L"Égyptienne, December 1936, p. 2.

15 - L"Égyptienne, April 1937, pp . 2-10.

16 - William Stadiem, Too Rich : The high life and tragic death of King Farouk, Robson Books, London, 1991, p. 172.

17 - L"Égyptienne, July-August 1937, pp. 8-16.

18 - Ibid, p. 21.

19 - L"Égyptienne, October 1937, p. 2.

20 - L"Égyptienne, September 1937, p. 5.

الفصل الحادى عشر

1 - For more information about Muhammad Mahmoud and the treaty, see Afaf Lutfi al-Sayyed Marsot, Egypt"s Liberal Experiment, 1922-1936, University of California Press, Berkely and Los Angeles, 1977, p. 82.

2 - L"Égyptienne, April 1934, p. 24.

3 - L"Égyptienne, May 1938" p. 4.

4 - Ibid, p. 6.

5 - Ibid, p. 36.

6 - Ibid, p. 6.

7 - Margot Badran, Feminists, Islam and Nation : Gender and the making of the modern Egypt, Princeton University Press, Princeton, NJ, 1995, p. 228.

8 - L"Égyptienne, July-August 1938, p. 3.

٩ – المرأة العربية وقضية فلسطين، المؤتمر النسائى الشرقي، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٢٨، ص ٢٦.

١٠ – المرجع نفسه، ص ٢٨.

١١ – المرجع نفسه، ص ٤٦.

١٢ – المرجع نفسه، ص٤٧–٩٠.

١٣ – المرجع نفسه، ص ١٤٨.

١٤ – المرجع نفسه، ص ١٦١–٦٢.

١٥ – المصرية، ١٥ ديسمبر ١٩٢٨، ص ١٨.

١٦ – المصرية، ١٥ يناير ١٩٣٩، ص ١٢.

١٧ – المصرية، ١٥ ديسمبر ١٩٢٨، ص ١٤.

18 - L"Égyptienne, May 1938, p. 6.

19 - L"Égyptienne, March 1939, p. 18.

20 - L"Égyptienne, Août 1928, p. 7.

21 - Tom Segev, One Palestine, Complete, translated by Haim Weitzman, Metropolitan Books, Henry Holt and Company, New York, 2000, p. 420.

22 - Ibid, p. 440.

23 - Ibid, p. 426.

24 - Ibid, p. 419.

25 - L"Égyptienne, June 1939, p. 2.

٢٦–المصرية، ١ يونيو ١٩٣٩، ص١٠.

٢٧ – ذكرى فقيدة العروبة صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي، شركة فن الطباعة، القاهرة، 1948 (Huda"s commemorative publication), p.167.

28 - L"Égyptienne, July-August 1939, p. 29.

29 - Ibid, p. 5.

30 - Ibid, p. 5.

31 - Ibid, p. 9.

الفصل الثانى عشر

1 - L"Égyptienne, November 1933, p.32.

٢ – محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ج ٢، ص ١٦٣.

٣ – ذكرى فقيدة الأدب النابغة مي، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٤١.(فى ذكرى وفاة مي)، ص ٢.

4 - Royal Institute of International Affairs, Great Britain and Egypt, 1914-1951, Information Papers n°19 RIIA, Ghathan House, London, 1952, p. 68..

٥ – عبد الرحمن الرافعي، فى أعقاب الثورة المصرية، (الطبعة الثانية)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ج ٢،ص.٢-٢٤؛

Royal Institute of International Affairs, Great Britain and Egypt, 1914-1951, p.70.

٦ – هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، ج ١، ص٢٠٥.

٧ – ذكرى فقيدة العروبة صاحبة العصمة والسيدة الجليلة هدى هانم شعراوي، شركة فن الطباعة، القاهرة، ١٩٤٨" (فى ذكرى وفاة هدى شعراوي)، ص ٢١٧-١٩.

8 - Royal Institute of International Affairs, Great Britain and Egypt, 1914-1951, p. 79-80..

٩ – ذكرى فقيدة العروبة صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي، ص ٤٩.

10 - The account of the 1944 conference in this chapter is drawn from المؤتمر النسائى العربى بالقاهرة من ١٢ إلى ١٦ ديسمبر ١٩٤٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٤.

١١–حوا إدريس، أنا والشرق : مذكرات حواء إدريس، طُبع بالقاهرة فى ١٩٧٣ ولم يُنشر حينها، ثم صدر عن مؤسسة المرأة والذاكرة فى ٢٠١٦، ص ٨٤.

12 - Jacques Berque, L"Égypte, impérialisme et révolution, Éditions Gallimard, Paris, 1967, p. 604..

١٣ – الرافعى ، فى أعقاب الثورة المصرية، (الطبعة الثانية)، ص ١٥٣.

14 - L"Égyptienne, November 1235, p.32.

15 - Interview with Boula Hénein, 1970s.

16 - George Hénein, Le Prestige de la terreur, Éditions de la Rue Champollion, copied from the original edition published by Éditions Masses du Caire, Cairo, 1945, pp. 2-3..

17 - Francisca De Haan, Getting to the Source, Journal of Women"s History, 2004, 16/4, p. 148..

الفصل الثالث عشر

1 - Dame Margery Corbett-Ashley, Memoirs of Dame Corbett-Ashley, with additional material by Dr.Michael Ashby, M.G.Ashby, Horsted Keynes, 1996, p.204.

أمينة السعيد، مؤتمر الهند النسائي، المرأة العربية، القاهرة، مارس ١٩٤٧، ص ١٠.

2 - Royal Institute of International Affairs, Great Britain and Egypt, 1914-1951.Information Papers, n°19 RIIA, Ghatham House, London, 1952, p. 80..

٣ – كريمة السعيد، رحلاتى إلى الهند، الراديو المصري، ٤ مايو، ١٩٤٧، ص ٨.

٤ – حوا إدريس، أنا والشرق : مذكرت حواء إدريس، طُبع فى القاهرة، ١٩٧٣ ولم يُنشر حينها. ثم صدر عن مؤسسة المرأة والذاكرة فى ٢٠١٦. ص٨٤.

٥ – المرجع نفسه، وص ١١٨.

٦ – أمينة السعيد، مؤتمر الهند النسائي، ص ١٠.

7 - Kamaladevi Chattopadyay, Outer Space and Inner Recesses, Navrang, New Delhi, 1986, p. 219..

8 - Ibid, p. 218.

9 - Ibid, p. 2210.

10 - Tom Segev, One Palestine, Complete, translated by Haim Weitzman, Metropolitan Books, Henry Holt and Company, New York, 2000. P. 412.

بيبلوجرافيا

Sources in English and French

Abu Ghazi, Badr al-Din and Gabriel Boctor, *Mouktar ou le réveil de l'Égypte*, H. Urwand et Fils, Cairo, 1949

Adam, Juliette (Juliette Lambert), *L'Angleterre en Égypte*, Imprimerie du Centre, Paris, 1922

— *L'Égypte, une leçon diplomatique*, Éditions de l'Égypte, Paris, 1924

— *Et c'est moi, Juliette: Madame Adam 1836–1936*, Éditions de la Saga, Gif-sur-Yvette, 1988

Ahmed, Leila, *Women and Gender in Islam*, Yale University Press, New Haven, CT, 1992

Amin, Qasim, *The New Woman*, translated by Samiha Sidhom Peterson, American University in Cairo Press, Cairo, 1995

Antonius, George, *The Arab Awakening*, J.B. Lippincott Company, New York, 1919

Badran, Margot, *Feminists, Islam, and Nation: Gender and the making of modern Egypt*, Princeton University Press, Princeton, NJ, 1995

Badran, Margot and Miriam Cooke, *Opening the Gates*, Virago Press, London, 1992

Badrawi, Malak, *Isma'il Sidki, 1875–1950: Pragmatism and vision in twentieth century Egypt*, Curzon Press, Richmond, Surrey, 1996

— *Political Violence in Egypt 1910–1921*, Curzon Press, Richmond, Surrey, 2000

Baron, Beth, *Egypt as a Woman: Nationalism, gender and politics*, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 2005

— *The Women's Awakening in Egypt*, Yale University Press, New Haven, CT, 1994

Berque, Jacques, *L'Égypte, impérialisme et révolution*, Éditions Gallimard, Paris, 1967

Blunt, Wilfrid Scawen, *Secret History of the English Occupation of Egypt*, T. Fisher Unwin, London, 1882

Booth, Marylin, *May her Likes be Multiplied: Biography and gender politics in Egypt*, University of California Press, Berkeley, 2005

Chattopadyay, Kamaladevi, *Outer Space and Inner Recesses*, Navrang, New Delhi, 1986

Clément, Mademoiselle, *Conférences données au Caire chez Madame Ali Pacha Charaoui et à l'Université Égyptienne*, Imprimerie Paul Barbey, Cairo, 1914
Colombe, Marcel, *L'évolution de l'Égypte, 1924–1950*, Éditions de G.P. Maisonneuve, Paris, 1951
Cooper, Artemis, *Cairo in the War (1939–1945)*, Penguin Books, London, 1989
Comte Cressaty, *L'Égypte d'aujourd'hui*, Marcel Rivière et Co., Paris, 1912
Corbett-Ashby, Dame Margery, *Memoirs of Dame Margery Corbett-Ashby*, with additional material by Dr Michael Ashby, M.G. Ashby, Horsted Keynes, 1996
Cromer, Earl of, *Modern Egypt*, Macmillan and Company, London, 1907
Danielson, Virginia, *The Voice of Egypt: Umm Kulthum, Arabic song and Egyptian society in the twentieth century*, University of Chicago Press, Chicago, 1997
Davis, Eric, *Challenging Colonialism: Bank Misr and Egyptian industrialization, 1920–1941*, Princeton University Press, Princeton, NJ, 1983
Devonshire, Henriette, *L'Égypte musulmane*, Livres de France, Cairo, 1982
El-Feki, Mustafa, *Copts in Egyptian Politics*, 1919–1952, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1991
El-Masri Sidhom, Eva, *Memories of a Co-ed at the American University in Cairo, Memoirs of an Egyptian American or the Life Story of the First Co-ed at the American University in Cairo*, Engeltal Press, Jasper, AR, n.d.
Ezzel Arab, Abdel Aziz, *European Control and Egypt's Traditional Elites: A case study in elite economic nationalism*, Edwin Mellen Press, Lewiston, NY, 2002
Fahmi-Wissa, Hanna, *Assiout, the Saga of an Egyptian Family*, Book Guild, Brighton, 1994
Fromkin, David, *A Peace to End All Peace*, Henry Holt and Company, New York, 1991
Gallagher, Nancy Elizabeth, *Egypt's Other Wars: Epidemics and the politics of public health*, American University in Cairo Press, Cairo, 1993
Goldschmidt, Arthur Jr, *Biographical Dictionary of Modern Egypt*, American University in Cairo Press, Cairo, 2000
— *Modern Egypt: The formation of a nation state*, Westview Press, Boulder, CO, 2004
Hénein, George, *Le Prestige de la terreur*, Éditions de la Rue Champollion, copied from the original edition published by Éditions Masses du Caire, Cairo, 1945
Hobsbawm, Eric, *The Age of Extremes: The short twentieth century 1914–1991*, Penguin, London, 1995
Hunter, Robert, *Egypt under the Khedives (1805–1879): From household government to modern bureaucracy*, American University in Cairo Press, Cairo, 1999
Hussein, Taha, *The Future of Culture in Egypt*, Palm Press, Cairo 1998 (first published in English by the American Council of Learned Societies, Washington, DC, 1954)
Kamel, Moustafa Pasha, *Égyptiens et Anglais*, Perrin et Co. Éditeurs, Paris, 1906
Kent, Marian (ed.), *The Great Powers and the End of the Ottoman Empire*, George Allen and Unwin, London, 1984
Lebrun, Eugénie (written as Niya Salima), *Harems et musulmanes d'Égypte*, Felix Juven Éditeur, Paris, n.d.

Lloyd, Lord, *Egypt Since Cromer*, Macmillan and Co., London, 2 vols, 1933 and 1934
Lutfi al-Sayyid Marsot, Afaf, *Egypt's Liberal Experiment, 1922–1936*, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1977
— *Egypt in the Reign of Muhammad Ali*, Cambridge University Press, Cambridge, 1984
— *A Short History of Modern Egypt*, Cambridge University Press, Cambridge, 1994
Madanian, Annie Zarouhie, 'The Emerging of the New Egyptian Woman as Seen in *L'Égyptienne*: The redefinition of Egyptian womanhood', MA thesis, American University in Cairo, May 1975
Mansfield, Peter, *The British in Egypt*, Weidenfeld & Nicholson, London, 1971
Milner, Viscount Alfred, *England in Egypt*, Edward Arnold, London, 1904
Mitchell, Timothy, *Colonizing Egypt*, Cambridge University Press, Cambridge, 1988
Nehru, Jawaharlal, *The Discovery of India*, Meridian Books Ltd, London, 1951
Nelson, Cynthia, *Doria Shafik, an Egyptian Feminist (A Woman Apart)*, University Press of Florida, Gainesville, FL, 1996
Owen, Roger, *The Middle-East in the World Economy* 1888–1914, I.B. Tauris and Co., London, 1981
Peretz, Don, *The Middle East Today*, Praeger, New York, 1994
Raafat, Samir W., *Maadi (1904–1962)*, Palm Press, Cairo, 1994
Ronfard, Bruno, *Taha Hussein: Les cultures en dialogue*, Desclée de Brouwer, Paris, 1995
Roussillon, Alain (ed.), *Entre réforne sociale et mouvement national, identité et modernisation en Égypte (1882–1962)*, CEDEJ, Cairo, 1995
Royal Institute of International Affairs, *Great Britain and Egypt 1914–1951*, Information Papers no19, RIIA, Chatham House, London, 1952
Russell, Sir Thomas, *Egyptian Service, 1902–1946*, John Murray, London, 1949
Sabry, Mohamed, *L'Empire égyptien sous Ismail et l'ingérence anglo-française*, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1933
Scotidis, N., *L'Égypte contemporaine et Arabi pacha*, C. Marpon et E. Flammarion, Paris, 1888
Segev, Tom, *The Seventh Million, the Israelis and the Holocaust*, translated by Haim Weizman, Hill and Wang, New York, 1994
— *One Palestine, Complete*, translated by Haim Weitzman, Metropolitan Books, Henry Holt and Company, New York, 2000
Shafik, Doria, *La femme nouvelle en Égypte, 1919*, Paris, 1920
Shaarawi, Huda, *Harem Years: The memoirs of an Egyptian feminist*, translated, edited and introduced by Margot Badran, Virago Press, London, 1986
Shaarawy Lanfranchi, Sania, 'The Role of Tradition and the Individual Talent in the Love Poetry of Ahmed Shawqi', MA thesis, 1985
Shafik, Doria, *L'Ésclave sultane*, Les Nouvelles Éditions Latines, Paris, 1951
Stadiem, William, *Too Rich: The high life and tragic death of King Farouk*, Robson Books, London, 1991
Tignor, Robert L., *Modernization and British Colonial Rule in Egypt 1882–1914*, Princeton University Press, Princeton, NJ, 1966

— *Egyptian Textiles and British Capital, 1930–1956*, American University in Cairo Press, Cairo, 1989
Van Den Bosch, Firmin, *Vingt années d'Égypte*, Librairie Académique Perrin, Paris, 1932
Vatikiotis, P.J., *The History of Egypt from Muhammad Ali to Sadat* (2nd edition), Weidenfeld & Nicolson, London, 1980
Vatin, Jean Claude (ed.), *La fuite en Égypte*, CEDEJ, Cairo, 1989
Wissa, Esther Fahmi, *He Maketh Wars to Cease: World unrest causes and cures*, printed by Whitehead Morris Limited, Alexandria, 1940
Yeghen, Foulad, *Saad Zaghlul, le père du peuple égyptien*, Les Cahiers de France, Paris, 1927
— *Chants d'un oriental, à l'ombre du sphinx*, Les Cahiers de France, Paris, 1928
— *Une vie de Musulmane*, Imprimerie Paul Barbey, Cairo, 1929

Magazines, articles and speeches in English, French and Italian

Abt, Jeffrey, 'Towards a historian's laboratory', *Journal of the American Research Center in Egypt*, 33 (1996)
De Haan, Francisca, 'Getting to the Source', *Journal of Women's History*, 16/4 (2000)
Hunter, Robert, 'The making of a notable politician: Muhammad Sultan Pasha (1825–1884)', *International Journal of Middle Eastern Studies*, 15 (1983)
L'Égypte: Les évènements d'Égypte, bi-monthly publication by the Egyptian Association of Paris, 9 and 10 (10 December 1919)
L'Égypte et l'Union Inter-parlementaire, conférence du Caire, Ed. al-Hilal, 1947
L'Égypte nouvelle, Cairo, 1 January 1924
L'Égyptienne, monthly, founded by Huda Shaarawi, editor Céza Nabarawi, Imprimerie Paul Barbey, Cairo, 1925–39
La Réforme, special issue, *Cinquantenaire de La Réforme Illustrée*, 1945
Le Progrès Égyptien, 'Cent ans de passion, 1893–1993', Cairo, 1993
Lombardo, Esther, 'Sorelle di terra lontana', *Giornale di Roma*
Nukrashi, Mahmud Pasha, *Statement made by His Excellency the Prime Minister of Egypt before the Security Council, August 1947*, Government Press, Cairo, 1947
Rupp, Leila J., 'Challenging imperialism in international women's organisations, 1888–1945', *Global Perspectives*, 8 (Spring 1996)
Shaarawy Lanfranchi, Saneya, 'Un sculpteur égyptien: Abdel Badi Abdel Hay', *Le Progrès Égyptien*, Cairo, 25 November 1984
The Times Book of Egypt, Times Publishing Company Ltd, London 1937, extracts reprinted in *The Times*, 'Egypt' feature, published on 26 January 1993
Volait, Mercédès, 'Un architecte face à l'Orient: Antoine Lasciac (1856–1946)', in Jean-Claude Vatin (ed.) *La Fuite en Égypte: supplément aux voyages européens en Orient*, Institut français d'archéologie orientale, CEDEJ, Cairo, 1986
Zouari, Fawzia 'Étonnantes Voyageuses', in *Méditerranée*, March 1998, hors-serie

Sources in Arabic

Abd al-Nur, Fakhri, *Mudhakkirat thawrat 1919*, edited by Yunan Labib Rizq, Dar al-Shuruq, Cairo, 1992

Abu al-Majd, Sabri, *Sanawat ma qabla al-thawra, 1930–1952*, 3 vols, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1987, 1988, 1989

Alluba, Muhammad Ali, *Dhikrayat Ijtima'ia wa Siyasia*, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1988

Amin, Qasim, *Tahrir al-Mar'a*, edited by Muhammad 'Imara, Dar al-Hilal, Cairo, 1980

al-'Aqqad, Abbas Mahmud, *Rijal 'Araftuhum*, Nahdat Misr li al-Tiba'a wa al-nashr, Cairo

al-Hilbawi, Ibrahim, *Mudhakkirat*, edited by Isam Dia' al-Din, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1995

al-Miliji, Muhammad Ahmad, *Abd al-Khaliq Tharwat wa dawruhu fi al-siyasa al-Misria 1873–1928*, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1989

al-Moti'i, Lami'i, *Safwit al-'asr fi tarikh wa rusum mashahir rijal masr*, Matba'at al-I'timad bi Sharia Hasan al-Akbar, Cairo, 1926

al-Raf'i, Abd al-Rahman, *Mustapha Kamil*, Maktabit al-Nahda al-Misria, Cairo, 1950

— *Fi a'qab al-thawra al-Misria* (2nd edition), Maktabat al-Nahda al-Misria, Cairo, 1959

— *Al-Thawra al-'urabia wa al-ihtilal al-injilizi* (2nd edition), dar al-qawmia li al-tiba'a wa al-nashr, Cairo, 1966

al-Subki, Amal Kamil Bayumi, *Al-haraka al-nisa'ia fi misr ma bayna al-thauratain, 1949–1952*, General Egyptian Book Organisation, 1986

al-Tunsi, Bairam, *Maqamat Bairam*, Madbuli, Cairo, 1985

Fahmi, Abd al-Rahman, *Mudhakkirat Abd al-Rahman Fahmi*, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1988

Farid, Amani, *Al-mar'a al-Misria wa al-barlaman*, Al-Tawakkul Press, Cairo, 1947

Haikal, Muhammad Husain, *Tarajim Misria wa gharbia*, Al-Siyasa Press, Cairo, 1929

— *Mudhakkirat fi al-Siyasa al-Misria*, Dar al-Maarif, Cairo, 1977

— *Zainab* (fifth edition), Dar al-Maarif, Cairo, 1992

Hifni Nasif, Malak, *Athar Bahithat al-Badia*, a collection of essays, poems and letters edited by Magd al-Din Hifni Nasif, with an introduction by Suhair al-Qalamawi, Al-Mu'assassa al-Misria al-'amma li al-ta'lif wa al-tarjama, wa al-Tiba'a wa al-nashr, Cairo, 1962

Idris, Hawa, *Ana wa al-Sharq*, unpublished, printed in Cairo, 1973

Lashin, Abd al-Khaliq, *Sa'd Zaghlul wa dawruhu fi al-siyasa al-Misria*, Madbuli, Cairo, 1975

Lutfi al-Sayid, Ahmad, *Safahat matwia min tarikh al-haraka al-istiqlalia fi-misr*, Maktabit al-Nahda al-Misria, 1946

— *Ta'ammulat fi al-falsafa wa al-adab wa al-siyasa wa al-ijtima'*, Dar al-Maarif, Cairo, 1946

Makhluf, Najib, *Nubar Pasha*, Maktabit Zidan al-'Umumia, Cairo, 1925

Mubarak, Zaki *Ahmad Shawqi*, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1997

Nasralla, Emily, *Nisa' ra'idat min al-sharq*, Al-Dar al-Misria al-Lubnania, Cairo, 2001
Raghib, Nabil, *Huda Shaarawi wa'asr al-tanwir*, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1988
Ramadan, Abd al-Azim, *Al-sira'baina al-wafd wa al-'arsh 1936–1939*, Al-Mu'asasa al-'arabia li al-dirasat wa al-nashr, Beirut, 1979
— *Mustapha Kamil fi mahkamat al-tarikh*, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1994
— *Tatawur al-haraka al-watania fi Misr, 1937–1948*, Markaz al-Tiba'a al-haditha, Alexandria, n.d.
Rashad, Ahmad, *Mustapha Kamil*, Dar al-Sa'ada, Cairo, 1958
Shaarawi, Huda, *Mudhakkirat ra'idat al-Mar'a al-'Arabia al-haditha Huda Shaarawi*, edited with an introduction by Amina al-Said, Dar al-Hilal, Cairo, 1981
Shafik, Ahmad Pasha, *Hawliat Misr al-Siyasiya*, Maktabit Hawliat Misr, Cairo, 1927
— *Mudhakkirati fi nisf qarn*, Maktabit Misr, Cairo, n.d.
Shakir, Safa', *Isma'il Sidqi, al-waqai' al-siyasia fi muwajahat al-haraka al-watania*, Dar al-Shuruq, Cairo, 2005
Sidqi, Ismail Pasha, *Mudhakkarati*, edited by Sami Abu al-Nur, Madbuli, Cairo, 1991
Sidqi-Rasheed, Bahija, Tahia Muhammad Asfahani and Samia Sidqi Murad, *Al-yubil al-dhahabi 1923–1973 (Tarikh mujaz'an al-ittihad al-nisa'i al-misri, jam 'iat Huda Shaarawi li al-nahda al-nisa'ia)*, Dar Ma'mun li al-Tiaba'a, 1973
Silim, Muhammad Kamil, *Azmit al-Wafd al-kubra, Saad wa Adli*, Mu'asasat Akhbar al-Youm, no 157, Cairo, 1976
Subaih, Muhammad, *Kifah shaab Misr fi al-qarnain al-tasi' 'ashir wa al-'ishrin* (second edition), Cairo, 1966
Thabit, Adil, *Faruq al-awwal, al-malik alladhi ghadara bihi al-jami'*, translated into Arabic by Muhammad Mustapha Ghunaim, Akhbar al-yum, Cairo, 1989
Zaghlul, Saad, *Mudhakkirat Saad Zaghlul*, edited by Abd al-Azim Ramadan, 4 vols, General Egyptian Book Organisation, Cairo, 1920, 1988, 1990, 1991
Ziadé, Mayy, *Bahithat al-Badia*, Matba'at al-Muqtataf, Cairo, 1920

Magazines, essays and articles in Arabic

Abd al-Malik, Balsam, *Al-Mar'a al-Misria*, 4 vols, publisher unknown, 1920, 1921, 1922, 1923
Al-Mar'a al-'Arabia, chief editor Amina al-Said, Cairo, 1947
Al-Mar'a al-'Arabia wa qadiat filistin, al-Mu'tamar al-Nisa'i al-Sharqi, Al-Matba'a al-Misria, Cairo, 1938
Al-Mu'tamar al-Arabi li tawhid juhud al-mar'a al-sharqia wa taqrir huquqiha al-madania wa al-siasia wa al-difa' 'an qadiat filistin, Dar al-Maarif, 1944
Al-Misria, founded in January 1937 by Huda Shaarawi and edited from 1937 to 1938 by Fatma Nimet Rashid and from 1938 to 1942 by Eva Habib al-Masri

al-Said, Karima, 'Rihlati ila al-hind', Al-radio al-Masri, 4 May 1947

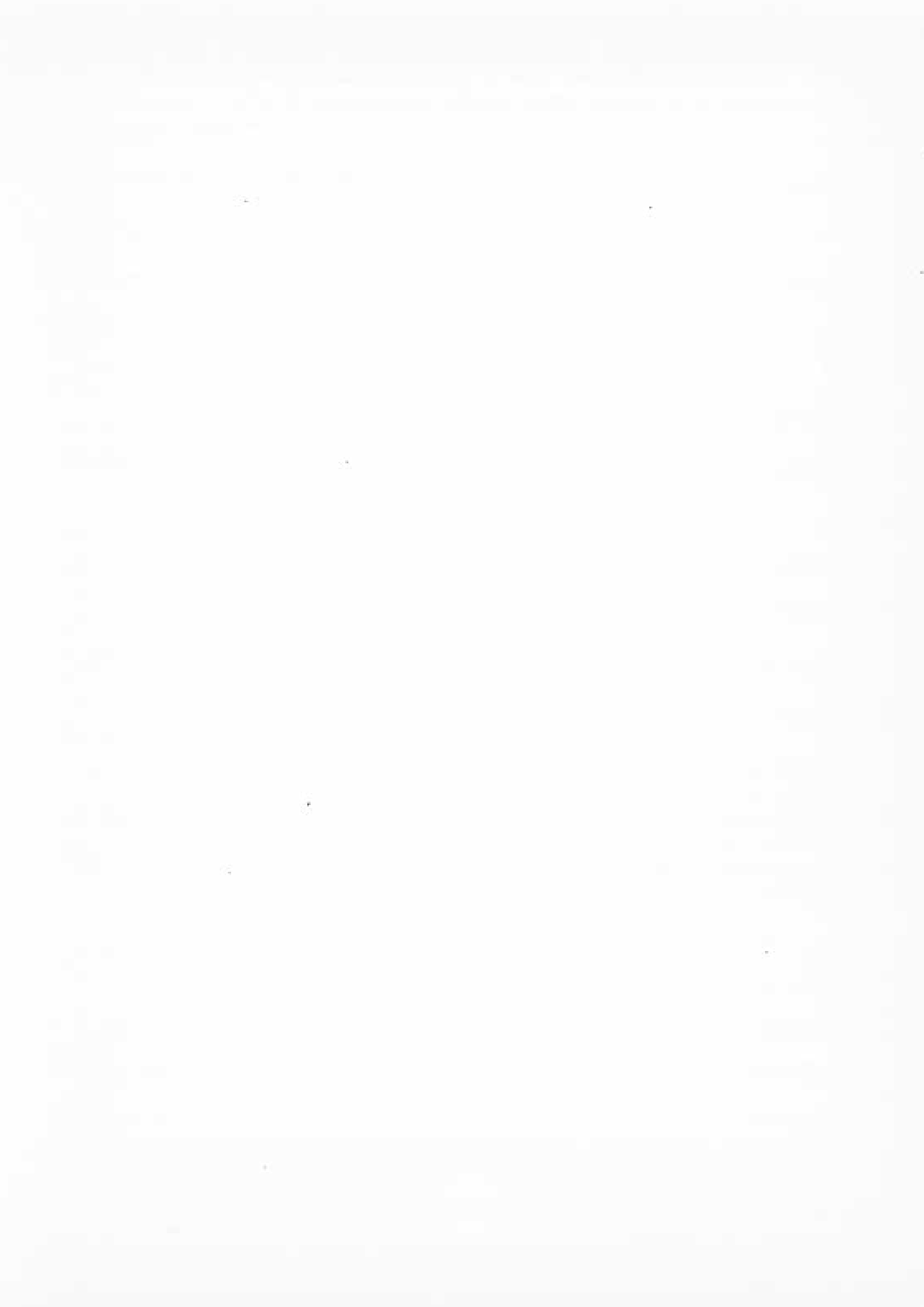
Dhikra Faqidat al-Adab al-Nabigha Mayy, Al-Matba'a al-Misria, Cairo, 1941 (Mayy's commemorative publication)

Dhikra Faqidat al-'uruba sahibat al-'isma al-sayida al-jalila Huda Hanim Shaarawi, Sharikat Fann al-Tiba'a, Cairo, 1948 (Huda's commemorative publication)

Haikal, Muhammad Husain Pasha, 'Haithiat al-hukm fi qadiat al-jizia, *Al-Siyasa al-Usbu'ia*', 16/6 (1925), Cairo, and in *Assiassa*, 9 June 1925

Majallit Biladi (commemorative issue dedicated to Ahmed Mahir), 21 (6 April 1991), Dar al-mustaqbal, Cairo

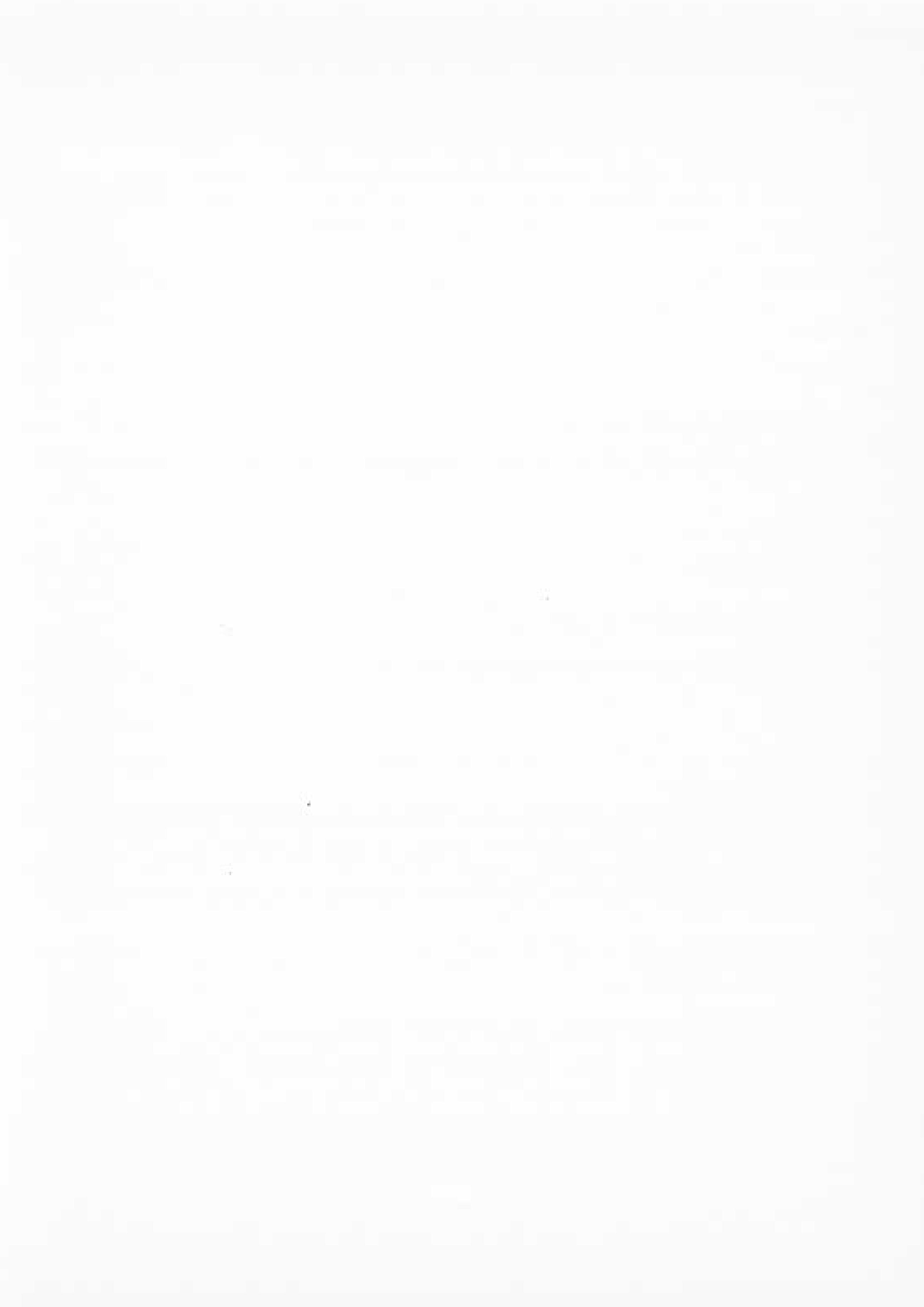
Ramadan, Abd al-Azim, 'Min tawdhif al-din ila tawdhif al-amwal', *October*, 611 (10 July 1988), Cairo



المؤلفة فى سطور:

سنية شعراوى

مترجمة فورية حرة سابقة، عملت مع العديد من المنظمات الدولية والإقليمية والوطنية، من بينها مكتبة الإسكندرية واليونسكو ومنظمة الصحة العالمية. وهى حاصلة على دراسات عليا فى الأدب الإنجليزى والعربى من الجامعة الأمريكية بالقاهرة.



المترجمة فى سطور:

نشوة إيهاب الأزهرى

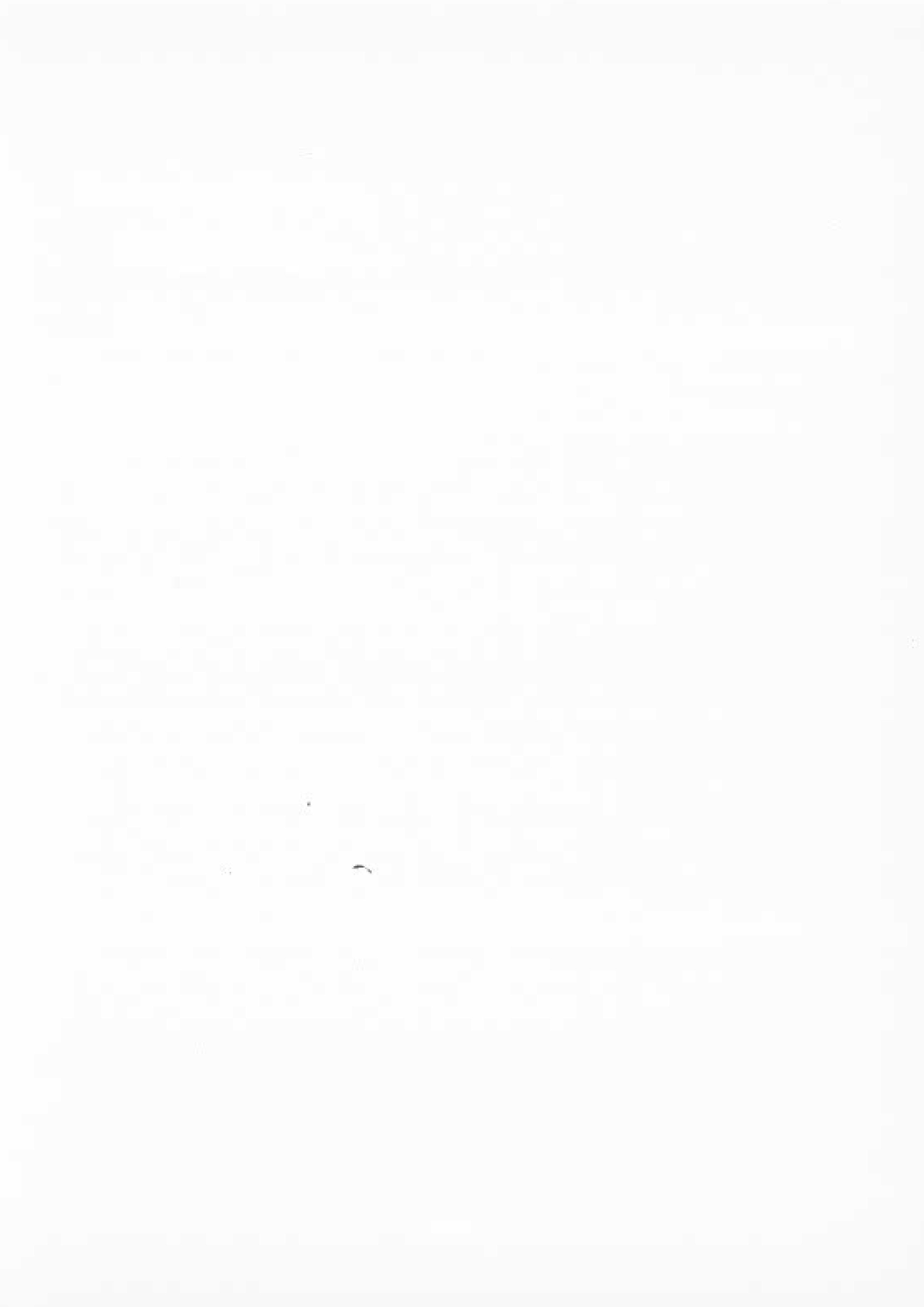
ليسانس آداب قسم اللغة الفرنسية جامعة القاهرة. حاصلة على دبلوم الترجمة التحريرية من جامعة القاهرة. تشغل رئيس قسم الترجمة بجامعة الدول العربية. لها خبرة كبيرة فى ترجمة النصوص السياسية والقانونية من اللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية.



المراجع فى سطور:

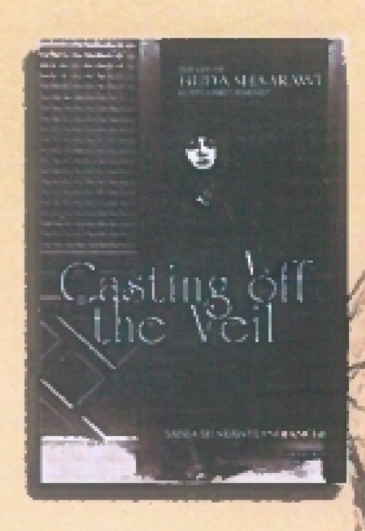
طارق النعمان

أستاذ جامعي- متخصص فى النقد الأدبى والبلاغة وتحليل الخطاب. له العديد من الدراسات المنشورة، والترجمات.



المشرف على الإنتـــاج : حســــن كـامـــل







في إحدى رسائلها إلى هدى شعراوي، تكتب جولييت آدم صديقة مصطفى كامل الفرنسية والمناصرة لمصر وتحررها من الاحتلال البريطاني، قائلة:

"لا زلتُ أراكِ أمامي وأنتِ في شرفتي تتحدثينَ عن مصرِنا الغالية. وأتذكرُ أيامَ صيفٍ بعيدةٍ كنتُ أتحدّثُ فيها عن مصرَ هذه ذاتها مع مصطفى وعمر. كانا زعيمينِ من زعماء المستقبل، مثلَكِ وأنتِ تناضلينَ في سبيل هذا المستقبل. تذكّرْنَ أيتُها النسوةُ المصرياتُ ملِكاتِكم العظمياتِ اللاتي لم تكنْ عهودُهُنَّ أقلَّ قيمةً من عهودِ ملوكِكم. ولكنَّ هذه المساواةَ لا تعني أن تكُنَّ ذكورياتٍ. لتكُنَّ زوجاتٍ، ولتكُنَّ أمهاتٍ، ولتسعَيْنَ إلى ذلك الدَّورِ العظيمِ المُتمثِّلِ في تقديمِ المشورة. ولتُصبِحْنَ _ في هذه اللحظةِ التي ربما يتعرضُ فيها المستقبلُ العظيمُ لمصرَ القديمةِ للخطرِ _ مصدرَ إلهامٍ لمطالبَ وطنيةٍ مشروعةٍ. اذهبْنَ إلى الشعبِ، وأنِرْنَ عقولَ أبنائِهِ لو كانوا لا يعرفونَ من هُم، واجْعَلنَهم يعرفونَ حقَّهُم في الحريةِ ويعرفونَ مسؤوليتَهم الوطنية. أنتِ الجسورةُ، وأنتِ الواعيةُ بقوةِ الجسارةِ، وبقيمةِ العمل. إن أمنياتي تطيرُ بها إليكُنَّ السُّنُونَواتُ المصريةُ المهاجرةُ التي تغادرُنا لتوِّها لتعودَ العامَ القادمَ إلى الديرِ بأعدادٍ غفيرةٍ أكثرَ كثيرًا مما هي في أيِّ مكانٍ آخرَ لتُنبِئَنا بأخبارِ مصرَ وقد تحرَّرَتْ من نيرِ المُحتلِّ الأجنبي".

جولييت آدم

17 أكتوبر 1923



تصميم الغلاف: نسرين كحلك